



الندوة العلمية الدولية السادسة
بعنوان:

صُنَاعَةُ التَّمْيِيزِ وَتَمْيِيزُ الْمَهَلِكِ
فِي السُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ

عقدت في رحاب
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

١٣-١٥ جماد الآخر ١٤٣٤ هـ

٢٣-٢٥ أبريل ٢٠١٣ م

(الجزء الأول)

قواعد النشر

حرصاً على تحقيق أهداف الندوة، والسعي نحو إنجاحها ببحوث متميزة تتسم بالأصالة والموضوعية والإضافة المعرفية، التزمت الأمانة العامة في تقييم الأبحاث على القواعد الآتية:

- ١ - أن يتسم البحث بالجددة والأصالة والعمق، والسلامة اللغوية، والالتزام بالشروط الأكاديمية المتبعة في البحوث العلمية، وتجنب الاستطراد والخروج عن الموضوع.
- ٢ - أن تتضمن مقدمة البحث الجديد الذي أضافه الباحث على الدراسات السابقة، والإشارة إلى بعض النماذج من ذلك.
- ٣ - أن يكون البحث واضح الصلة بالأهداف المعلنة للندوة، ضمن محور من محاورها.
- ٤ - ألا يكون البحث قد نُشر من قبل أو قُدِّم للنشر إلى جهة تحكيمية، أو نال به صاحبه درجة علمية، وعلى الباحث أن يقدم تعهداً خطياً بذلك.
- ٥ - أن تكون الأدلة المذكورة موثقةً بالتخريج من المصادر الأصلية، ومبيّنةً درجة قبولها إذا كانت من غير الصحيحين.
- ٦ - عدم استعمال مصطلحات غير عربية إلا في حدود الضرورة، مع توضيحها في الحاشية عند أول ذكْر لها.
- ٧ - عدم التكلف في الاستدلال بالنص على ما هو بعيد الصلة به، وتوضيح وجه الدلالة منه.
- ٨ - أن تُثبَّت قائمة المصادر والمراجع مستوفاةً في آخر البحث، مرتبةً على حروف المعجم.
- ٩ - ألا يشار في الحواشي إلى المعلومات المتعلقة بطبعة الكتاب المحال إليه إلا في حال اعتماد الباحث أكثر من طبعةٍ للكتاب الواحد.
- ١٠ - ذكر نتائج البحث وتوصياته.
- ١١ - أن يكون حجم الخط في كتابة البحث (١٦)، وأما الحواشي فتكون بحجم (١٤). على نظام ويندوز بخط (Traditional Arabic)، مع ترك مسافة ٢٥ سم في جوانب الصفحة الأربعة، وأن يتراوح البحث ما بين (٢٥) إلى (٣٥) صفحة.
- ١٢ - يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي تطلبها لجنة التحكيم على بحثه، وإرسالها في الموعد المحدد.



بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فبفضل الله تعالى ومنه تقدم الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف كتاب الندوة السادسة، وهو يحتوي على ثمانية عشر بحثاً علمياً مُحَكَّمًا، وقد قُدِّمَتْ ملخَّصاتها في فعاليات الندوة العلمية الدولية بعنوان: «صناعة التميز وتنمية المهارات في السنة النبوية»، والتي عُقدت في رحاب كلية الدراسات الإسلامية والعربية بديبي خلال المدة: ٢٣ إلى ٢٥ / ٥ / ٢٠١٣ م.

ومما تقتضيه المناسبة أن نُذَكِّرَ القارئَ أن الأمانة العامة قد بدلت كلَّ ما في وسعها من جهدٍ استغرق حوالي سنة ونصف، لترقى الندوة إلى مستوى من التميز في التنظيم والأبحاث، بل لتصنع التميز بين الباحثين أنفسهم، وذلك من خلال بعض الخطوات في التحكيم التي من شأنها أن تُسهم في تنمية المهارات البحثية لديهم، فجاءت أبحاثهم بعيدة عن الطريقة التقليدية، التي تتمثل في إعادة الترتيب للمعلومات الجاهزة عن طريق «القص واللصق»، إلى فضاء علميٍّ نقيٍّ مبدع، تلمع فيه ومَصَّاتٌ من التفكير والاستنتاج والتحليل، عسى أن تسترشد بها الأمة لترتقي إلى مستوى الهدي النبوي في بناء حضارتها وثقافتها، والحفاظ على هُويَّتها الإسلاميَّة عند معالجة قضاياها المعاصرة ومواكبة مستجدَّاتها دون ذَوْبانٍ في ثقافة الآخرين.

ولعل القارئ سيجد ذلك عندما يتصفح هذا الكتاب ويتأمل بحوِّه التي تُسلِّط الأضواء، من خلال عناوين متنوعة، على عناية السنة النبوية باكتشاف المواهب وصناعة المبدعين والتميزين، وتنمية الذكاء والمهارة لدى مجتمع الصحابة، وتشجيعهم على الجودة في جميع مجالات الحياة؛ العلم والمعرفة، والدعوة والإعلام، والمال والاقتصاد والأعمال، والأسرة والمجتمع، والمرأة والطفل، والحرب والقيادة والقرارات، كما تضمَّنت صفحات الكتاب ما يدلُّ على عناية السنة النبوية بتهيئة البيئة الصالحة لنموِّ تلك المهارات والمواهب، ليس في جيل الصحابة فحسب، بل في الأجيال اللاحقة إلى يوم القيامة، وذلك من خلال التعليم والتطبيق والتحفيز وتوزيع المهام والوظائف على أساس الكفاءات والمواهب والمهارات بعيداً عن القرابة والمجاملة وإرضاء النفوس. ولا يفوتنا التذكير بأن هذه العناية الحضارية إنما هي نور على نور، بعد إعطاء الأولوية المطلقة لجانب العبادة والعقيدة والسلوك.

ولا تدعي الأمانة العامة أن هذه المواضيع المعاصرة قد عولجت في ضوء السنة النبوية من جميع زواياها، لكنها تأمل أن تشكل حافزاً لإيقاظ همم الباحثين من أصحاب المواهب والمهارات، وتفجر طاقاتهم الإبداعية في استخراج ما تضمنته السيرة النبوية العطرة من كنوز معرفية تخدم الناس إلى يوم القيامة.

هذا، وقد لوحظ أن هذه الندوة السادسة رغم كونها دولية، وحدَّثنا لَافِتًا في تاريخ المؤتمرات

حول السنة النبوية من حيث استمرار عقدها دون انقطاع أو تأجيل لمدة اثنتي عشرة سنة، ومن حيث إثارتهاموضوع مُهمّ، كان -ولا يزال- يستحوذ على اهتمام المسؤولين والكتّاب والمفكرين، ومع ذلك كله، فإن الندوة لم تنل ما تستحق من عناية وسائل الإعلام المحلية والدولية، وربما عدّ ذلك مقياساً للحكم على الندوة سلباً وإيجاباً. ولكن الحقيقة أن التغطية الإعلامية على أهميتها سينتهي صداها بعد فترة وجيزة. ومن هنا فإن الأمانة العامة ترى بأن معيار نجاح الندوة يكمن في صدور الأبحاث العلمية المتميزة بجودتها وأصالتها وجدّتها في كتاب علمي تستفيد منه الأجيال القادمة، وهذه هي التغطية الإعلامية الحقيقية التي تتجاوز رسالتها حدود الزمان والمكان.

وقد كان إصدار هذا الكتاب بمستوى علمي رفيع من أهمّ أهداف الأمانة العامة منذ بدأت تحضيرها لهذه الندوة العلمية، لا سيما عند اختيار موضوع الندوة ومحاورها وتحكيم الأبحاث وترشحها، ونحن إذ نسجل هذا الواقع، فإننا نرجو أن يكون عملنا هذا قدوة تحتذى في إقامة ندوات علمية، حتى لا تضيع طاقات الأمة في مهرجانات لا تُقدّم للمجتمع شيئاً يلبي حاجاته، ويعالج ما يعاني من مشكلات.

ومن الجدير بالملاحظة بيان فحوى صيغة عنوان الندوة إذ رأى بعض الباحثين أن تقديم تنمية المهارات على صناعة التميز أحسن وأدل، ولعل ذلك تأتي من عدم النظر إلى أن الواو لم توضع لإفادة الترتيب الزمني، وإنما لمطلق الجمع، على رأي جمهور النحاة وهو الراجح في ضوء ما ورد في القرآن الكريم من الآيات، فجاءت صياغة العنوان لفائدة بلاغية تتصل بالنغم الموسيقي الذي يحلو على الألسنة. ولا يفوتنا في هذه المناسبة أن نسجل خالص شكرنا وتقديرنا للسيد جمعة الماجد رئيس مجلس أمناء الكلية، ومؤسسها وفاء لعنايته الخاصة بالأمانة العامة لندوة الحديث الشريف، كما نشكر ونقدر سعادة مدير الكلية الدكتور محمد عبد الرحمن على دعمه المتواصل، وشكرنا موصول لجميع من تعاون معنا داخل الكلية وخارجها، لا سيما الباحثين الذين تحملوا المصاعب وصبروا وثابروا في سبيل إبداعهم وعملهم في ترقية مستوى الندوة.

نسأل الله أن يجعل هذا الكتاب شجرة طيبة تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها، وهذا هو أملنا الكبير أولاً وأخيراً.

واليوم، إذ نقدّم للقراء الكرام كتاب الندوة السادسة، فإننا بحمد الله نكون قد أسدلنا الستار على عمل دؤوب استمر أكثر من سنة ونصف، لفتح صفحة جديدة مع أعمال الندوة السابعة بإذن الله تعالى.

والله تعالى ولي التوفيق.

أ. د. حمزة عبد الله المليباري

الأمين العام لندوة الحديث الشريف

فهرس الجزء الأول

يوم الثلاثاء ١٣ / جماد الآخر / ١٤٣٤هـ الموافق ٢٣ / أبريل / ٢٠١٣م

الجلسة الافتتاحية:

- كلمة السيد جمعة الماجد رئيس مجلس أمناء كلية الدراسات العربية والإسلامية
ومؤسسها ١١
- كلمة الأستاذ الدكتور حمزة بن عبدالله المليباري - الأمين العام للندوة ١٤
- قصيدة شعرية بعنوان «ترجمان التحدي» أ.د. عبدالرحمن محمد بناني ١٩

الجلسات العلمية

الجلسة الأولى

- «اكتشاف المواهب وتنمية المهارات في السنة النبوية» - أ.د محمد زرمان
جامعة باتنة - الجزائر ٢١
- «من هدي النبي صلى الله عليه وسلم في صناعة المبدعين واكتشاف المميزين»
د. محمد ورداني عبدالراضي عبدالله - جامعة الأزهر - مصر ٨٩
- «تهيئة البيئة الداعية إلى التميز في ضوء السنة»
- د. لمياء أحمد عبد الدايم نصرالله - الجامعة الإسلامية العالمية - باكستان ١٣١

الجلسة الثانية:

- «مبدأ «التميز» وأهميته في فهم الخطاب النبوي وتطبيقه» - أ.د. محمد ناصيري
دار الحديث الحسنية - المغرب ١٨٥
- «تنمية مهارة الاستنباط الفقهي في المنهج التعليمي النبوي»
د. أنور محمد الشلتوني - جامعة الشارقة - الإمارات ٢٢١
- «مهارة الحفظ والتذكر مكانتها، وتعزيزها، وطرق علاج ضعفها - دراسة
تطبيقية تحليلية في المنهج النبوي - « - د. علي محمد فتحي أبو شكر
جامعة حائل - السعودية ٢٧٥
- يوم الأربعاء ١٤ / جماد الآخر / ١٤٣٤هـ الموافق ٢٤ / أبريل / ٢٠١٣م

الجلسات العلمية

الجلسة الأولى

- «مبادئ الجودة في السنة النبوية تأصيلاً وتطبيقاً» - د. يحيى بلال
جامعة الطائف - السعودية ٣١١
- «معيار الجودة أساس تولي الوظيفة في ضوء السنة النبوية»
د. محمد عودة أحمد الحوري - جامعة طيبة - السعودية ٣٧٧
- «التحفيز المادي في السنة النبوية» - د. محمد زهير عبد الله المحمد
جامعة طيبة - السعودية ٤٢١

الجلسة الافتتاحية

كلمة السيد جمعة الماجد

رئيس مجلس أمناء كلية الدراسات الإسلامية والعربية ومؤسسها

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله
وصحبه أجمعين. أما بعد:

أصحاب السعادة والفضيلة، ضيوفنا الأعزاء، الأساتذة والباحثين،
أيها الحفل الكريم،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته،

أحمد الله تعالى على فضله وممه علينا، ونحن نلتقي في رحاب كلية الدراسات
الإسلامية والعربية لنتفتح أعمال الندوة العلمية السادسة حول موضوع (صناعة
التميز وتنمية المهارات في السنة النبوية).

فمرحباً بكم في هذه المناسبة الطيبة التي أرجو أن تسهم في إثراء الرسالة التي
تحملونها نحو المجتمع.

الأساتذة الباحثون الكرام، أحب أن أذكركم في هذه المناسبة بضرورة إثراء
هذا اللقاء العلمي الدولي، بالمداخلات العلمية الجادة، والحوار البناء عسى أن
يسهم ذلك في توعية المجتمع الإسلامي في جميع أصقاع العالم بوجوب الحفاظ
على تاريخه المجيد، الذي قدم للعالم مفاتيح العلوم والمعارف والأزدهار، ونشر
فيه ثقافة التسامح والانفتاح.

ولم يتحقق ذلك في الماضي إلا باستخدام المسلمين مواهبهم ومهاراتهم،
وعملهم المتواصل في جد واجتهاد، دون كلل ولا ملل.

وَبِذَلِكَ نَالَ الْمُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ إِحْتِرَامَ الْآخَرِينَ، وَعَاشَ بَيْنَهُمْ بَعِزَّةً وَكَرَامَةً. وَيَجِبُ أَنْ نَتَذَكَّرَ دَوْمًا مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: "النَّاسُ مَعَادُنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَهُّوا".

الْبَاحِثُونَ الْأَفْضَلُ، إِنَّ الْمُجْتَمَعَ يَنْتَظِرُ مِنْكُمْ الْعَمَلَ فِي تَقْدِيمِ الْحُلُولِ الْفَاعِلَةِ لِمَا يُعَانِي مِنْهُ مِنْ ظَاهِرَةِ التَّخَلُّفِ فِي الْمَجَالَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ وَالتَّرْبُويَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالاِقْتِصَادِيَّةِ وَالْأُسْرِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَذَلِكَ هُوَ أَهَمُّ أَهْدَافِ الْمَوْسَّسَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ فِي كُلِّ بَلَدٍ.

وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ لِهَذِهِ النَّدْوَةِ الْعِلْمِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ الَّتِي تُنَاقِشُونَ فِيهَا مَوْضُوعَ صِنَاعَةِ التَّمْيِيزِ وَتَنْمِيَةِ الْمَهَارَاتِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ) أَثْرٌ فَاعِلٌ فِي تَحْقِيقِ تِلْكَ الْأَهْدَافِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ ظَاهِرَةَ التَّخَلُّفِ إِنَّمَا تَظْهَرُ فِي الْمُجْتَمَعِ بِسَبَبِ قِلَّةِ الْوَعْيِ وَعَدَمِ الْإِتْقَانِ وَقِلَّةِ الْمَهَارَةِ فِي آدَاءِ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْأَفْرَادُ.

وَلِذَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ تَنْمِيَةُ الْمَهَارَاتِ وَالْمَوَاهِبِ فِي الْأَجْيَالِ مَحَلَّ عِنَايَتِكُمْ مِنْ خِلَالِ تَدْرِيسِكُمْ وَأَبْحَاثِكُمْ وَدِرَاسَاتِكُمْ وَلِقَاءِ اتِّكُمِ الْعِلْمِيَّةِ.

وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلْمَرْأَةِ وَهِيَ نِصْفُ الْمُجْتَمَعِ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا تَعَزِيزًا لِدَوْرِهَا وَمَكَانَتِهَا.

وَعَلَيْنَا أَنْ نَقْتَدِيَ بِنَبِيِّنَا الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلِهِ الْكِرَامِ فِي تَعْلِيمِ الْإِنْسَانِ أُسُسَ الْحَضَارَةِ وَالْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهَا، وَتَنْمِيَةِ مَهَارَاتِنَا وَمَوَاهِبِنَا لِمَوَاكِبَةِ تَعْيِيرَاتِ الْعَصْرِ، وَنَشْرَ ثِقَافَةِ التَّسَامُحِ فِي التَّعَايُشِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَمُعَالَجَةِ ظَاهِرَةِ التَّخَلُّفِ، بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، لِنَكُونَ دَوْمًا سَبَاقِينَ لِلتَّمْيِيزِ وَأَسْبَابِهِ.

وَأَرْجُو أَنْ تَتِمَّ فَعَالِيَّاتُ هَذِهِ النَّدْوَةِ بِبُسْرٍ وَنَجَاحٍ ، وَأَنْ تَبْقَى الْأَبْحَاثُ الْمَقْدَمَةُ فِيهَا نَافِعَةً لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ .

وَلَا يَسْعُنِي فِي هَذَا الْمَقَامِ إِلَّا أَنْ أَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى لِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ عَلَيْنَا بِتَيْسِيرِ هَذَا اللَّقَاءِ الدَّوْلِيِّ مَرَّةً سَادِسَةً مِنْ أَجْلِ خِدْمَةِ كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ثُمَّ أَشْكُرُ صَاحِبَ السُّمُوِّ الشَّيْخَ خَلِيفَةَ بَنِ زَايِدٍ آلِ نَهْيَانَ رَئِيسَ الدَّوْلَةِ حَفِظَهُ اللَّهُ . وَصَاحِبَ السُّمُوِّ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ بْنَ رَاشِدٍ آلِ مَكْتُومٍ نَائِبَ رَئِيسِ الدَّوْلَةِ رَئِيسَ مَجْلِسِ الْوَزَرَاءِ حَاكِمَ دُبَيِّ ، الَّذِينَ لَهُمْ فَضْلٌ بَعْدَ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ ، فِي تَطَوُّرِ هَذِهِ الْمُؤَسَّسَةِ وَتَجَدُّدِ عَطَائِهَا فِي مَجَالِ الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ .

وَشُكْرِي مَوْصُولٌ إِلَى جَمِيعِ الْحُضُورِ لَا سِيَّمَا الضُّيُوفِ وَالْبَاحِثِينَ الَّذِينَ تَجَشَّمُوا عَنَاءَ سَفَرِهِمْ إِثْرَاءً لِفَعَالِيَّاتِ هَذِهِ النَّدْوَةِ ، وَأَتَمَنَّى لَهُمْ إِقَامَةً طَيِّبَةً ، ، ،

كَمَا يُسْعِدَنِي أَنْ أَشْكُرَ الْأَمَانَةَ الْعَامَّةَ لِنَدْوَةِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ ، ، ، بِمَا بَدَّلُوهُ مِنْ جُهْدٍ خِلَالَ اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا وَهُمْ جُنُودٌ لَخِدْمَةِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ،

وَعَلَى بَرَكَاتِهِ ، ، ،

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

كلمة الأستاذ الدكتور حمزة بن عبدالله الملباري/الأمين العام للندوة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين .

معالي جمعة الماجد مؤسس كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي ورئيس مجلس أمنائها،

أصحاب الفضيلة والسعادة ،

الضيوف الأكارم ،

أيها الحفل الكريم،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد :

فيسرنا كثيرا أن نحضر اليوم افتتاح الندوة العلمية الدولية للحديث الشريف التي تحتضنها الكلية -بفضل الله تعالى ثم برعاية مؤسسها معالي جمعة الماجد- وهي السادسة خلال ثلاث عشرة سنة، في موضوع حيويّ كان يستحوذ على اهتمام مؤسسات العالم كلها من أجل التقدم ومحاربة التخلف، ألا وهو: قضية التميز والجودة وتنمية المهارات .

وأستسمحكم أيها الحضور الكريم أن أقول بهذه المناسبة :

كفى للكلية فخرا احتضانها هذا اللقاء العلمي الدولي، الذي يجمع بين الباحثين المبدعين من دول مختلفة ليبرهنوا للعالم من خلال دراساتهم العلمية الجادة على أن السنة النبوية لها سبق حضاري في مجال صناعة التميز وتنمية المهارات ورعاية الموهوبين .

وكفى للكلية شرفاً أنها تهدف من خلال عقد هذه الندوات إلى أبحاث علمية تتسم بالجدة والأصالة، بعيداً عن الطريقة التقليدية للندوات والملتقيات، التي لا تتجاوز فيها في كثير من الأحيان مجرد حفل مهرجاني يستقطب عدداً كبيراً من المشاركين، بغض النظر عن مدى جودة أبحاثهم التي يقدمونها فيها.

ويعدّ ذلك وجهاً آخر لتمييز الكلية، بعد أن سجلت التميز الوطني في سجلها الأكاديمي؛ إذ كانت الكلية أوّل مؤسسة تعليمية تمنح درجة الدكتوراه في الشريعة واللغة العربية على مستوى دولة الإمارات.

ومن هذا المنطلق بدأت الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف تبذل كل ما في وسعها لتكون الندوات العلمية الدولية التي تعقد في الكلية متميزة بأبحاث جادة؛ فمنذ سنة ونصف بدأت الأمانة أعمالها لتحضير هذه الندوة السادسة، وقد تجاوز عدد كبير من الباحثين مع الأمانة حتى بلغ عدد ما وصل إليها من الأبحاث ١٨٠ بحثاً، والأمانة العامة تشكر وتقدر جهود هؤلاء الباحثين جميعاً في خدمة السنة النبوية ورغبتهم في المشاركة.

وبعد قراءة دقيقة لهذه الأبحاث من قبل المحكمين على ثلاث مراحل، وبعد عقد الأمانة العامة اجتماعات خاصة، لمناقشة التقارير حول مدى صلاحية الأبحاث للقبول، دون أن تكشف أسماء الباحثين، تم ترشيح ثمانية عشر بحثاً فقط وفق الشروط العلمية الأكاديمية، ومن أبرزها الجدة والأصالة. وذلك إيماناً منا بأن قيمة الندوة إنما تقدر بأصالة الأبحاث وجدة الأفكار التي تقدم فيها.

إن كل هذه الخطوات الصعبة، إنما هي من أجل تحقيق أهداف الندوة، ومن أبرزها أن تتمخض فعاليات هذه الندوة عن كتاب علمي أصيل يكون مرجعاً مهماً لشريحة واسعة من المجتمع على تنوع اختصاصات القراء، لا سيما طلبة الدراسات العليا والباحثين في العلوم الشرعية.

أيها الحضور الكريم،

إن الله تعالى قد وزع المواهب على الناس، لذا فإن الإنسان يحب فطريا أن يكون متميزا عن غيره بهذه الموهبة، وقد يُفعلها صاحبها في مجال يخدم نفسه أو وطنه أو مؤسسته أو أسرته، وقد لا يكون كذلك. ولذلك فإن الإنسان بحاجة إلى من يوجهه ويرشده لتفعيل ما يكمن في داخله من طاقات ومواهب لصالحه ولصالح البشرية. ومن هنا جاء الإسلام في جانبه العملي متجليا في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم لينمي هذه الخصائص الفطرية من جهة بعدين أساسيين، ألا وهما:

١- أن توظف المهارة والتميز إرضاءً لله وإخلاصاً له.

٢- أن يكون ذلك في خدمة دينه ووطنه ومجتمعه.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ولا شك أن السنة النبوية كانت تترجم ذلك أحسن ترجمة، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرنا ما يعدّ سبقا حضاريا في مجال تنمية الموارد البشرية، ورعاية الموهوبين، وتنمية المهارات، وتهيئة بيئة صالحة لنمو ذلك على مدى بعيد؛ إذ قال صلى الله عليه وسلم: (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا)، ولا بد أن نفهم ما تحمله كلمة (إذا فقهوا) من أبعاد.

ولم يكتف صلى الله عليه وسلم بذلك، بل شجع الأمة على التميز وجودة العمل والإتقان، وذكرها بخطورة التساهل في رعاية هذه الخصائص، والتقاعس عنها؛ سواء في مجال الإدارة أو التعليم أو الاقتصاد أو الوظيفة أو البحث العلمي أو غير ذلك؛ إذ قال رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً

حَسَنَةً فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرٍ مِنْ عَمَلِ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ،
وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلَا
يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

وقال صلى الله عليه وسلم: إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم
فأحسنوا القتل.

فما أعظم الإسلام!

وما أعظم نبيه المصطفى!!

إنه حقاً رحمة مهداة ونعمة مسداة، بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق؛ إذ علمنا
الإحسان في كل شيء نمارسه حتى في إزهاق الروح!

وأين نحن من التميز بالإحسان والإتقان في مجال عملنا؛ مجال التعليم
والتربية ومجال البحث العلمي والدعوة والانتاج والاقتصاد والمال؟

ونحن نعلم جميعاً أن الإحسان والإتقان من صفات الله سبحانه؛ قال تعالى:
﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة: ٧). وقال تعالى:
﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَدَى أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨)

ومن أبرز ما يذكرنا بأهمية رعاية المهويين وضرورة احترامهم في توزيع
الوظائف والمناصب، وخطورة التهاون والتساهل في ذلك، ما ورد عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال للأعرابي لما سأله متى الساعة؟ أجاب صلى الله عليه
وسلم بقوله: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قال الأعرابي: كيف إضاعتها؟
قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة.

ومن المعلوم أن الإنسان إذا لم يكن مؤهلاً لمنصب ما أو وظيفة ما فإنه لا يفكر

في تنمية مهاراته فيها ولا في ترقية إدارته لها، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، بل قد يؤدي ذلك إلى ضياع .

فعلينا الامتثال لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١). ولذا فإن سيرته صلى الله عليه وسلم لا بد أن نقرأها ونحلل أحداثها من أجل الاقتداء به صلى الله عليه وسلم في جميع مجالات الحياة، وليس فقط في العبادات أو المظاهر، ولا ينبغي أن نكتفي بقراءتها قراءة عاطفية مستروحين فيها بأن ذلك كله من المعجزات الخاصة به صلى الله عليه وسلم. وعلى كل فإن الأبحاث التي تقدم في الجلسات العلمية تتطرق إلى كل ذلك بنوع من التفصيل والإبداع والإضافة المعرفية.

وأخيرا لا يسعني إلا أن أسجل نيابة عن الأمانة العامة الشكر والتقدير والعرفان لمعالي جمعة الماجد مؤسس الكلية ورئيس أمنائها، الذي كان - ولا يزال - يشجعنا برعاية خاصة على مواصلة السعي لتطوير الأداء حتى تتوسع دائرة الاستفادة. ثم أتوجه بالشكر والتقدير إلى سعادة الدكتور محمد عبد الرحمن مدير الكلية لدعمه المتواصل لتبقى الأمانة العامة على مستوى أفضل وتطور مستمر.

كما أسجل شكري وتقديري لجميع من تعاون مع الأمانة العامة في إنجاح هذه الندوة من الرعاية والباحثين والأساتذة الذين لهم أياد بيضاء في تدقيق الأبحاث تدقيقا لغويا، لا سيما الذين لهم إسهام واضح في رقي الندوة. وشكري موصول إلى جميع اللجان الفرعية التي بذلت كل ما في وسعها لرفع مستوى تنظيم الندوة.

إلى جميع هؤلاء المتعاونين أقول بكل إخلاص اعترافا بالجميل:

طوبى لكم هذا الجهد، وجزاكم الله خيرا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ترجمان التحدي

الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بناني

عضو هيئة التدريس في الكلية - قسم اللغة والآدابها

أيها السائلُ عن سرِّ الوَلَاءِ لرسولٍ فضلهُ فيضُ رَحَاءِ
قدوةً تَبْنِي القِيَادَاتِ، وَحِصْنُ لِحُقُوقِ، تُرْجِمَانُ لِلإِبَاءِ
عَلَّمَ الأَجْيَالَ مَعْنَى لِلتِبَارِي بِامْتِيَازِ، وَالتَّحَدِي، وَالوَفَاءِ
شَقَّ لِلعدْلِ سَبِيلًا لَيْسَ يَبْلَى حَاكَ بِالإِنْصَافِ أَسْبَابَ النَّمَاءِ
قَادَ قَوْمًا لِلْعُلَمَاءِ مُسْتَبْصِرِينَا وَسَطًّا، ذَلِكَ نَهْجُ الأَثْقِيَاءِ
فَاسْتَنَارَتْ مَوْهَبَاتُ، وَاسْتَجَابَتْ قُدْرَاتُ مَا بَهَا مِنْ خِيَلَاءِ
سَابَقُوا الأفَاقَ عَزْمًا لَا يُضَاهَى وَجَنَوْا بِالصَّبْرِ فَوَزَ الزَّعْمَاءِ
قَدَحُوا الفِكْرَ فَأَزْبَى بِالمَهَارَا تِ، وَأَوْفُوا بِالتَّزَامِ العُقَلَاءِ
نَاجَزُوا الوَاقِعَ بِالعِلْمِ الصَّحِيحِ لَيْسَ بِالحُلْمِ، وَلَا وَهْمِ الرِّجَاءِ
آمَنُوا بِالقَدْرِ العَادِلِ طَوْعًا فَتَسَامَى بِهِمْ لُطْفُ القَضَاءِ
إِنَّمَا الأَعْمَالُ إِخْلَاصُ النُّوَايَا وَاقْتِدَارٌ قَبْلَ تَخْطِيطِ بِنَاءِ
رَسَمُوا الجُودَةَ أَهْدَافًا عِظَامَا وَصَلُّوا الفِضْلَ بِتَعْجِيلِ الأَدَاءِ
قَدْ بَنَوْا لِلنَّفْسِ أَوْفَى مِنْهَجٍ فِي ثِقَةٍ تَسْمُو عَلَى هَوْلِ البَلَاءِ
أَمْرُهُمْ شُورَى، وَعَدْلٌ، وَانضِبَاطٌ لَا انْقِسَامٌ، أَوْ مُرُوقُ الجِبْنَاءِ

خَبَرُوا الْحَقَّ قِصَاصًا لَا امْتِيَازًا فَنَهَاهُمْ عَنْ خِصَالِ التَّعَسَاءِ
 عَرَفُوا الْمَالَ اِكْتِسَابًا، لَا اِغْتِصَابًا أَنْفَقُوا مِنْ غَيْرِ إِسْرَافِ الرِّيَاءِ
 كَرَّمُوا الْأَبْنَاءَ فِي غَيْرِ دَلَالٍ غَرَسُوا الْوَعْيَ؛ ففَاؤُوا بِجَزَاءِ
 فَاسْأَلِ الْمَرْأَةَ مَنْ أَنْزَلَهَا مَنْدُ نَزَلَ عِزٌّ، حُرَّةٌ، فِي النُّبَلَاءِ
 تَتَحَدَى خِصَمَهَا فِي الْمَكْرُمَاتِ تَرْتَقِي بِالْعِلْمِ آفَاقَ السَّمَاءِ
 دَابَّهَا الْإِبْدَاعُ إِنْجَازًا وَفِكْرًا سَمَّتْهَا الْعَدْلُ، وَقَلْبُ الرَّحْمَاءِ
 أُمَّةٌ تَشْهَدُ بِالْحَقِّ، وَتَدْعُو لِبَشِيرِ الْخَيْرِ نَجْمِ الْأَنْبِيَاءِ
 فَاحَتِ الدُّنْيَا بِذِكْرِ الْمُصْطَفَى وَاسِدُ تَلَّهُمَ الْهَدْيَ فَرِيقُ الْعِلْمَاءِ
 نَهَلُوا مِنْ حَوْضِهِ أَحْلَى حَدِيثٍ وَاسْتَشْفُوا الْخَيْرَ مِنْ أَصْفَى وَعَاءِ
 مَرْحَبًا بِالْعَارِفِينَ الْحَافِظِينَ النَّدُ نَاصِحِينَ الْمُخْلِصِينَ النَّجَبَاءِ
 عَطِرَتْ أَرْجَاءُ بَيْتِ الْعِلْمِ فِي أَكْ نِنَافِكُمْ وَازْدَانَ فَوَاحِ الثَّنَاءِ
 سَطَعَ الْمَجْدُ بِأَعْلَى (مَاجِدٍ) وَاسِدُ تَتَوَثَّقُ الْجَمْعُ بِأَوْفَى الْكُرْمَاءِ
 مَنْ سِوَاهُ اسْتَرْخَصَ الْغَالِي فِي حُبِّ سِبِّ الْعُلَا، مَا كَلَّ عَنْ بَذْلِ عَطَاءِ
 حَفِظَ اللَّهُ رِجَالًا تَتَحَدَى كُلَّ صَعْبٍ بِامْتِيَازٍ وَذَكَاءِ
 أَيُّهَا الْجَمْعُ هَنِيئًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِهُدَى الصَّادِقِ خَيْرِ الشُّفَعَاءِ
 عَطَّرُوا الْأَجْوَاءَ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ وَعَلَى أَحْمَدَ صَلُّوا بِسَخَاءِ

اكتشاف المواهب وتنمية المهارات

في السنة النبوية

أ. د. محمد زرمان

جامعة باتنة - الجزائر

من أبرز فقرات البحث

«الرسول ﷺ رائد التنمية البشرية: إذا كان من أهم صفات القائد الناجح؛ اكتشاف الطاقات الفاعلة والمبدعة في المجتمع وحسن استثمارها وتوظيفها في مواقعها المناسبة، فإن رسول الله عليه ﷺ قد بلغ الغاية في ذلك، ولم يكتف به بل إنه بث روح العمل والنشاط في جميع أصحابه، فتألق أصحاب المواهب وأبدعوا في مجالات تفوقهم، وتحول عامة المسلمين إلى شعلة من الحركة الدؤوبة التي لا تهدأ بما بث فيهم النبي الكريم من ثقة عالية بالنفس وحوافز قوية للمسارعة في الخيرات فاکتسبوا المهارات المختلفة واجتهدوا في تحصيلها، وكأنه يعلم البشرية جمعاء أن الإنسان مهما كانت قدراته العقلية والنفسية والجسمية متواضعة فإن لديه من الطاقات الكامنة ما يحوله إلى كائن يتدفق حركة وحيوية».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الموهبة كما يدل عليها اسمها هبة من هبات الرحمن لعباده، يضعها الله حيث أراد لحكمة يعلمها، وهي تظهر في الأفراد على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم ومعدلات ذكائهم، مما يعني أن الله تعالى قد وزعها على البشر جميعا توزيعا يتناسب مع عدله وعلمه. ويتميز الشخص الموهوب عن غيره من الأشخاص العاديين بجملة من الصفات التي تجعله مميّزا في وسطه الذي يعيش فيه.

والموهوبون في كل أمة كنز من كنوزها، وخميرة النمو والتطور فيها، والركيزة التي تستند إليها لتكسب رهان إثبات الوجود، فهم الذين يمدونها بدماء الحياة الجديدة، ويدفعون بها نحو الأمام بما يتمتعون به من نظرة عميقة لعلاقات الأشياء، وتقدير موفق لمتطلبات المجتمع، وبما تتفق عنه أذهانهم من الإبداعات والابتكارات في مجالات النمو والتطور، وما تتوفر عليه نفوسهم من طاقات فياضة كفيلة بتغيير الواقع وصنع التاريخ؛ لذلك كان الموهوبون مصدر عطاء وإسهام متميز تحتاج إليه جميع المجتمعات الإنسانية.

إنَّ المهمة الأسمى للرسول ﷺ هي بناء الإنسان وصياغته صياغة جديدة تتماشى مع معطيات الوحي الإلهي، وتبرز كل خصال الخير والفضيلة السليمة فيه، وتعمق وعيه بأهميته في الكون والحياة وأهمية الرسالة الخاتمة التي يحمل أمانة تبليغها ليخرج منه إنسانا متميزا يصنع الحدث ويغير مسار التاريخ؛ ومن ثمَّ كان لديه إدراك عميق لهذا الجانب من الحياة الإنسانية، واستطاع بذكائه الخارق، ونظراته الثاقبة، وملاحظاته الدقيقة لسلوك أصحابه وأقوالهم، وتتبعه لردود أفعالهم أن يعرف ما تنطوي عليه نفوسهم من مواهب فطرية وقدرات

عقلية واستعدادات نفسية، تناولها جميعاً بمهارات قيادية فائقة، ونجح نجاحاً باهراً في توجيهها نحو الميادين التي تتناسب مع مؤهلاتها، الأمر الذي أتاح للمجتمع الإسلامي الوليد أن يستفيد من جميع طاقاته عندما تفاعل أصحابها بعمق معه فسدوا كل ثغراته، وأحدثوا بعد ذلك في العالم أعمق وأغرب انقلاب شهدته البشرية في تاريخها. فإلى أي حد بلغ اهتمام النبي ﷺ بالموهب؟ وما الطرق والأساليب التي استخدمها لاكتشافها؟ وكيف عمل على رعاية هذه المواهب وتطويرها، وتنمية مختلف المهارات لدى المسلمين؟

تكمن أهمية هذا البحث في محاولة الكشف عن منهج النبي ﷺ في تعامله مع المواهب. حيث ترشدنا السنة النبوية إلى أن النبي الكريم لم يكن يتعامل مع هذا الجانب الحساس تعاملًا عشوائيًا ارتجالياً، بل كان يسير فيه وفق منهج واضح يراعي فيه سنن الأنفس والآفاق، متوسلاً إلى هدفه بجملته من الآليات والوسائل، ولم يكتف باكتشافها بل تابعها بالرعاية والاهتمام، والتنمية والتطوير بما كان يزود به أصحابها من تعليمات وإرشادات ونصائح، وبما يسند إليهم من مهام، وما يكلفهم به من مسؤوليات تقع في صميم اختصاصاتهم.

والنصوص النبوية التي بين أيدينا تعطينا أمثلة صادقة على ذلك، وتدلنا على الأسلوب النبوي في اكتشاف المواهب ورعايتها ومنها قوله ﷺ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْرَبُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أَبِي بَنِي كَعْبٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»^(١)، وقوله لأبي موسى الأشعري: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»، وقوله لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله، الحلم والأناة»، وقوله لعبد الله ابن مسعود: «إنك غلام معلّم»، فقد حدد بدقة المجال الذي يتميز فيه كل واحد من

١ - سيأتي تخريجه في المطلب الرابع من المبحث الثالث.

هؤلاء الصحابة الأعلام على الرغم من اشتراكهم في كثير من الصفات، غير أن لكل واحد منهم مجالاً حيويًا يتفوق فيه على غيره. ومنها انتداب بلال بن رباح ليكون مؤذنًا لعدوِّه صوتَه وقوته، وانتداب زيد بن ثابت لتعلم اللغات الأجنبية لما لمس فيه من سرعة الحفظ وقوة الذاكرة، واختياره لدحية الكلبي ليكون رسوله إلى قيصر الذي تعجب من فصاحته وقوة شخصيته وثقته الكبيرة بنفسه، حتى أدرك قيصر أن هذا الرسول وراءه قائد عبقرى، وومن ذلك تقليد خالد بن الوليد وسام سيف الله المسلول وتكليف عمرو بن العاص بقيادة المعارك وإمارة السرايا؛ تقديرًا لمواهبهما العسكرية الفذة التي كان لها الفضل فيما بعد في فتح مشارق الأرض ومغاربها أمام الإسلام، إلى آخر هذه النماذج، وهي كثيرة.

يكتسب موضوع اكتشاف المواهب وتنمية المهارات في ضوء السنة النبوية الشريفة أهمية قصوى، ومع هذا فإن الكتابات التي تناولته ما زالت قليلة ومحدودة، وربما يرجع ذلك إلى جدّة الموضوع وتأخر طرحه في الساحة الفكرية الإسلامية، لذلك فإننا أثناء إنجاز بحثنا لم نعرث إلا على عدد قليل من الدراسات وأهمها:

- «أسرار التميّز الإدارى والمهارى فى حياة الرسول ﷺ» لمحمد أحمد عبد الجواد. ركز فيه صاحبه على الجانب الإدارى فى حياة رسول الله ﷺ من خلال مواقف مع الصحابة الكرام، ولم يفرد لموضوع المواهب والمهارات حيزاً واضحاً فيه، وغلبت عليه الأبحاث التربوية والإدارية على حساب نصوص السنة.

- «التفوق والنجابة على نهج الصحابة وفق أحدث نظريات علم التفوق والموهبة» لحمد بن بليه بن مرهان العجمى. تناول فيه صور النبوغ والتفوق فى سيرة ثلاثة من كبار الصحابة هم عبد الله بن عباس، وزيد بن حارثة،

وخالد بن الوليد، وأثبت من خلال سيرهم الذاتية تطابق صفاتهم مع ما جاء في أحدث نظريات علم النفس التربوي. ولم يتطرق الكاتب إلى اهتمام رسول الله ﷺ بالموهب والمهارات بصفة عامة، وركز في بحثه على الجوانب التاريخية والتربوية وغابت النصوص الحديثية في كثير من مباحثه.

- «التميز في ضوء السنة النبوية دراسة موضوعية»، رسالة ماجستير للطالبة مها سليمان أحمد أبو نمر، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١١م. يتقاطع بحثنا مع بحث الطالبة في منهج الرسول ﷺ في اكتشاف المواهب، بينما تتخذ الدراسات منحين مختلفين في بقية الجوانب، بحيث لم تتعرض الطالبة لرعاية المواهب ولا لتنمية المهارات. وهذه الدراسات في مجملها لم تفرد لموضوع المواهب والمهارات اهتماماً خاصاً كما في هذه الدراسة التي سعت إلى إبراز دور النبي ﷺ في اكتشاف المواهب، ورعايتها، وتنمية المهارات، وتطويرها، وسبل استفادة المسلمين من هذه الثروة النبوية في ضوء الدرس التربوي المعاصر، وما توصلت إليه دراسات التنمية البشرية.

يطمح هذا البحث إلى إلقاء الضوء على الجهود النبوية الرائدة في مجال التنمية البشرية من خلال الكشف عن المواهب وتنمية المهارات، بعد أن تبوأَت التنمية البشرية في عصرنا ذروة العلوم، وأصبح المعول عليها في دفع عجلة التقدم وتفعيل الإنجازات العلمية والتقنية وتحقيق التنمية الشاملة، وبعد أن أثبتت التجارب الطويلة أن الإنسان هو الثروة الحقيقية التي تصنع التاريخ وتقود مسيرة الحضارة، وهو الوحيد القادر على الاستغلال الأمثل للثروات المادية والطبيعية وتوجيهها نحو خدمة مصالحه وتحقيق منفعه، إذا وجد الاهتمام الكافي الذي يرفع قدراته العقلية ويربي ملكاته النفسية ويعطيه مفاتيح الإبداع والابتكار، ولم يعد البحث مقتصرًا في هذا العلم على المهويين فقط، بل تعداه إلى إعداد

الإنسان أياً كانت قدراته، وتنمية ملكات الابتكار لديه، بتزويده بمختلف المهارات التي يكتسبها بالعلم والفكر والبحث، والمثابرة والعمل المتواصل.

وحاولنا من خلال النصوص الكثيرة التي تتضمنها السنة النبوية الشريفة أن نزيح الستار عن هذا الجانب المشرق فيها، وأن نكشف عن مدى الاهتمام الكبير الذي أولاه النبي الكريم للإنسان مطلقاً، والرعاية الخاصة التي أفردتها للموهوبين من المسلمين، وكيف تعامل مع مختلف الطاقات الحية التي كانت تحت يده وأخرج من أعماقها أفضل ما فيها، ونجح إلى أقصى حد في وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وهي الخطوة الحاسمة التي تبدأ منها مسيرة الحضارة الظاهرة، حينما يأخذ كل واحد مكانه الطبيعي في المجتمع بما يتناسب مع مؤهلاته، ويجد كل فرد المجال الحيوي الذي يثبت فيه ذاته ويوظف قدراته المختلفة، ويشبع حاجته إلى الانتماء والشعور بأهميته في الوجود.

المبحث الأول: الموهبة الدلالة والأبعاد

مصطلح الموهبة مشتق من الفعل وهب الذي يعني العطاء بدون مقابل فالهبة: «العطية الخالية عن الأعواض والأغراض»^(١)، أي إن هذه القدرات المميزة التي يُشار إليها على أنها موهبة والتي يختص بها بعض الأفراد إنما هي في جانب كبير منها عطاء رباني بحت يولد به الإنسان، وهو ما يعبر عنه العلم الحديث بالعامل الوراثي أو الاستعداد الفطري. وقد تنبّه الناس منذ أحقاب طويلة إلى هذه الميزة التي تطبع بعض أفراد المجتمع وتجعلهم متفردين في سلوكهم وتصرفاتهم ونظرتهم إلى الأشياء، وتدفعهم إلى الابتكار والتجديد وتغيير أنماط الحياة في مختلف المجالات نحو الأحسن والأفضل، واختلقت تفسيراتهم لهذه الظاهرة المثيرة للتساؤل والدهشة تبعاً لنوع الثقافة السائدة، وطبيعة التصورات التي

١ - لسان العرب، ابن منظور، مادة وهب.

يحملها كل مجتمع عن الكون والإنسان، حيث أُحيطت في بعض المجتمعات بهالة من الأوهام والخرافات ونُسبت إلى الأرواح والجن والقوى الخفية، واسترعت انتباه الفلاسفة والحكماء على مر العصور، فوقفوا أمامها حائرين مستشعرين ضخامتها وتضائل قدرتهم أمامها^(١).

وقد ظلت هذه الظاهرة بعيدةً عن مجال الدراسة العلمية باستثناء بعض الإشارات العامة إليها هنا وهناك، مع الاعتراف الدائم بوجودها كحقيقة واقعة تؤكدتها الإنجازات والإضافات النوعية التي يقدمها هؤلاء لمجتمعاتهم، إلى أن أخضعها علماء النفس والتربية مع بداية القرن العشرين للملاحظة والتحليل حيث تبين أنها عبارة عن قدرات غير عادية، واستعدادات وإمكانات في تكوين الإنسان الذهني، وفي بنية جهازه العصبي وفي خصائص شخصيته وسماتها، فحاولوا احتواءها وإخضاعها للقوانين العلمية؛ ليتسنى لهم التحكم فيها وتوجيهها توجيهها صحيحاً يفيد الفرد الموهوب ويفيد المجتمع. وقد تمخض هذا الاهتمام عن جملة من الدراسات التي ما فتئت تتوالى مستفيدة من بعضها بعضاً، ومستندة إلى مجموعة من الاختبارات الدقيقة التي تدرجت من حصر الموهبة في نسبة الذكاء المرتفعة التي يتمتع بها الشخص الموهوب، إلى التوسع في النظر إلى هذه الظاهرة المعقدة والإلمام بمختلف السمات الشخصية التي تصاحبها.

فبعد أن كان أكثر العلماء يميلون إلى تصنيف الأشخاص الموهوبين بالاعتماد على نسبة الذكاء المرتفعة لديهم بوصفها المعيار الرئيس والوحيد الذي يميزهم، كشفت الدراسات اللاحقة أن الموهبة أوسع من أن يشملها مفهوم الذكاء؛ «لأنها ترتبط بصورة وثيقة بمجموعة كاملة متكاملة من الوظائف التي يقوم بها الدماغ والتي تشمل المعرفة والعاطفة والحدس والإحساس المادي»^(٢)، وتتجلى في

١- راجع، الشخصية العبقريّة، عاطف عمارة، ص ٥.

٢- الموهبة والإبداع، طرائق التشخيص وأدواته المحوسبة، تيسير صبحي، ص ١٨ ١٩.

نسبة ذكاء مرتفعة، ومستوى عال من القدرة على التفكير الإبداعي، ومستوى تحصيل أكاديمي رفيع، وسمات قيادية، وقدرات فنية متميزة، ومهارات وقدرات حركية^(١). وانتهت كثير من البحوث العلمية الجادة إلى أن الموهوبين في كل مجتمع يمثلون ما نسبته تتراوح بين ٢ إلى ٥ ٪ وهم الذين يمثلون: «صفوة العلماء والمفكرين والقادة والمبتكرين والمبدعين والمخترعين، وهؤلاء هم الذين تعتمد عليهم الإنسانية في تقدمها الحضاري نتيجة ما يصلون إليه من أفكار واختراعات وإبداعات وإصلاحات»^(٢)، وتشعبت الدراسات المتخصصة في هذا المجال، فمنها ما اهتم بتحديد أساليب التعرف على الموهوبين، ومنها ما اهتم بدراسة سماتهم وخصائصهم، وركز بعضهم الآخر على دراسة برامج تربيتهم وتكوينهم.

وقد صحبت هذه الدراسات محاولات جادة لتعريف الموهبة والإحاطة بجوانبها المتعددة واستقصاء مظاهرها ورصد تجلياتها، فجاءت هذه التعاريف متباينة بين الطويل والمختصر والمجمل والمفصل. ومن بينها نذكر التعريف الذي يرى أن الموهبة هي: «الاستعداد الفطري لدى المرء للبراعة في فن أو نحوه» أو هي: «قدرة استثنائية أو استعداد فطري غير عادي لدى الفرد للبراعة في فن أو نحوه»^(٣)، بينما عرفها آخرون بأنها: «مفهوم بيولوجي متأصل، يعني ذكاءً مرتفعاً، ويشير إلى تطور متقدم ومتسارع لوظائف الدماغ وأنشطته بما في ذلك الحس البدني والعواطف والمعرفة والحدس»^(٤).

ويتقاطع مصطلح الموهبة مع جملة من المصطلحات التي تتداخل معانيها مع معانيه، وتتماهى بعض صفاتها العامة مع بعضها، وأشهرها: الإبداع والتفوق وكثيراً ما يكونان رديفين للموهبة حين وصفها. وقد اجتهد كثير من الدارسين

١- المرجع نفسه، ص ٢٢.

٢- أطفال عند القمة، الموهبة والتفوق العقلي والإبداع، زكريا الشربيني ويسرية صادق، ص ١٦.

٣- المعجم الوسيط، ص ١٠٥٩.

٤- الموهبة والتفوق والإبداع، فتحي جروان، ص ٨٩.

في بيان الفروق بين هذه المصطلحات الثلاث وانتهوا في أغلب النتائج إلى أن الإبداع وجه من وجوه الموهبة، والتفوق مظهر من مظاهرها، لكنهما لا يدلان عليها دلالة صادقة وشاملة لتعدد أشكال تظاهرها.

ومن مجموعة التعاريف التي حظي بها مصطلح الإبداع، ندرك بسهولة علاقته الوثيقة بالموهبة وتجلياتها، فالإبداع عند عبد الرحمن العيسوي ليس في جوهره: «سوى ضرب من التحرر من قيود الزمان والمكان، والتجديد لما هو في سلوك الناس وفكرهم. والمبدع يستعير من الماضي لكنه ليس أسيراً له»^(١)، وعرفه آخرون بأنه: «النظر للمألوف بطريقة غير مألوفة بمزيج من الخيال والتفكير العلمي المرن لحل مشكلة، أو لتطوير فكرة قديمة أو لإيجاد فكرة جديدة ينتج عنها إنتاج مميز غير شائع، يمكن تطبيقه واستعماله»^(٢). ويذهب تيسير صبحي إلى أن الإبداع هو: «تجسيد لقدرة الفرد على استخدام طرائق غير تقليدية في تحقيق إنجاز تتوافر فيه سمات الأصالة والابتكار»^(٣)، وهو عند عبد السلام عبد الغفار: «وصول الفرد إلى حلول جديدة وأصيلة لمشكلات لم يسبقه غيره إليها أو إنتاج الجديد والأصيل»^(٤). وبذلك يكون الإبداع صفة من الصفات التي يتميز بها الشخص الموهوب، أو أنه شكل راقٍ من أشكال الموهبة^(٥).

أما التفوق فهو أيضاً صفة لازمة من صفات الموهبة مع ملاحظة أنها لا تقتصر على الموهوبين فقط، إذ أكدت كثير من الدراسات أن الإنسان المتفوق لا يستلزم أن يكون بالضرورة شخصاً موهوباً وإنما هو إنسان جدي ومثابر، يتوفر على إرادة قوية للنجاح وإثبات الذات، وي بذل جهوداً كبيرة للوصول

- ١- سيكولوجية الإبداع، عبد الرحمن عيسوي، ص ٣٩.
- ٢- فن تربية الأولاد في الإسلام، محمد سعيد مرسي، ج ٢، ص ٣٥١.
- ٣- الموهبة والإبداع، طرائق التشخيص وأدواته المحوسبة، تيسير صبحي، ص ٣٤.
- ٤- التفوق العقلي والابتكار، عبد السلام عبد الغفار، ص ٤٦.
- ٥- مقدمة في الموهبة والإبداع، تيسير صبحي ويوسف قطامي، ص ٦٦.

إلى أهدافه، وهو دائم البحث عن الطرق والأساليب التي ينمي بها مهاراته ويرفع بها أداءه، لذلك كان التفوق عند بعض الباحثين مجموعة من القدرات التي تنمو بشكل مقصود ومنظم دون أن يتطلب ذلك عوامل وراثية خاصة، ومنه استنتجوا أن: «الموهوب قد لا يكون متفوقاً لكنه أقرب إلى كونه مبدعاً، وأن المبدع قد لا يكون متفوقاً لكنه أقرب إلى كونه موهوباً، وأن المتفوق ليس بالضرورة أن يكون موهوباً أو مبدعاً»^(١).

وإذا كانت أغلب التعاريف تشير إلى أن العامل الوراثي في الموهبة يحتل نصيب الأسد فإن كثيراً من الدراسات تشير إلى ما تكتسيه العوامل البيئية من أهمية موازية، وترى أنها على الدرجة نفسها من الأهمية والتأثير، وأن «الموهبة أقرب إلى أن تكون نتاج التفاعل الديناميكي بين العوامل الوراثية والعوامل البيئية»^(٢)؛ لأنها ليست عاملاً ثابتاً ومخزناً قاراً من القدرات والمهارات، بل هي خاصية ديناميكية فعالة تتأثر بكل مكونات الواقع المحيط بها كما تتأثر في الوقت نفسه بعامل الزمن والسن^(٣). وتؤيد هذا التوجه الدراسات الفسيولوجية التي تؤكد أن الإنسان الموهوب يرث من آبائه جسمه وغدده ومقداراً من الذكاء الذي هو جزء من الموهبة وليس الموهبة كلها؛ لأن الموهبة تتجلى في السلوك الإنجازي المبدع وهو لا يدخل ضمن الموروثات، «صحيح أن أجسامنا وغددنا قد تهيئ لنا المناخ النفسي الذي يترجم بعد ذلك إلى سلوكيات، لكن يظل هذا السلوك قبل تحوله من القوة إلى الفعل مجرد قوة نفسية تتحدد طبيعتها بالسلب أو الإيجاب، وفقاص لعوامل غير بيولوجية أو سيكولوجية، إنها على وجه الدقة عوامل اجتماعية»^(٤)، وهو الأمر الذي يؤكد عبد الله النافع حين يقرر أن: «المحك الرئيسي والمسار الأكيد

١- الموهبة والتفوق والإبداع، فتحي جروان، ص ١٠٣.

٢- الموهبة والإبداع، طرائق التشخيص وأدواته المحوسبة، تيسير صبحي، ص ٢٤.

٣- أطفال عند القمة، الموهبة والتفوق العقلي والإبداع، زكريا الشربيني ويسرية صادق، ص ٨.

٤- الشخصية العبقريّة، عاطف عمارة، ص ٣٤.

لتحقيق الموهبة هو الإنتاج والأداء، أما المؤشر أو المنبئ فهو يوجه إلى احتمالية وجود الموهبة وإمكانية التحقق تظل نسبية وغير مؤكدة»^(١)؛ ومن ثمَّ فإنَّ الموهبة إذا وجدت البيئة الصالحة فإنها تنمو وتتطور وتنضج إلى أن تصل مرحلة تحقق الإنتاج والعمل، «وإن لم تجد الرعاية الكافية والبيئة المناسبة فإنها تضمحل وتضمحل وتضيع فائدها على الفرد والمجتمع»^(٢).

وقد رصد الدارسون في أبحاثهم جملة من الصفات المشتركة التي تطبع شخصيات الموهوبين وتميزهم عن غيرهم من أقرانهم ومن أهمها: التفوق اللغوي، والتفوق في القراءة ومهارات الكتابة، والتفوق في الذاكرة ومرونة الفكر حيث يستظهرون ما يقرؤون بسرعة كبيرة ويجدون حلول المسائل الرياضية في زمن قياسي، والتفوق في المحاكمات المجردة، التفوق في التفكير الرمزي، والاهتمام بالقضايا الغامضة والأمور المعقدة، والأداء المتميز والإنجاز المدرسي المتفوق، والحماسة وحب الاطلاع على الخبرات الجديدة، وحب الاستطلاع والمجازفة^(٣)، والقدرة على توليد أعداد كبيرة من الأفكار الجديدة في مجال وزمن محدد، والمرونة في التفكير أي الانتقال من فكرة إلى أخرى ومن مجال إلى آخر بلياقة عالية، والقدرة على التعميم أي الرؤية الشمولية للموقف أو المشكلة والإدراك الجيد لجميع أبعاده دون الوقوف عند الجزئيات البسيطة^(٤)، والميل إلى العد والوزن والقياس وتصنيف الأشياء، والاهتمام بتفكيك الآلات والأجهزة وإعادة تركيبها... إلخ.

ومن صفاتهم النفسية أيضا أنهم غالبا ما يوجهون النقد لأنفسهم ولزملائهم،

- ١- برنامج الكشف عن الموهوبين ورعايتهم، عبد الله النافع الشارع وآخرون، ص ٩٢٨.
- ٢- المرجع نفسه، ص ٩٢٨.
- ٣- سيكولوجية الطفل غير العادي والتربية الخاصة، يوسف محمد الشيخ وعبد السلام عبد الغفار، ص ٩٨ إلى ١١٠.
- ٤- مهارات التفكير الابتكاري، محمد عبد الغني حسن هلال، ص ٥٤ وما بعدها.

وأنتهم ينقدون بموضوعية وصدق، ويتميزون بسرعة الحركة والنشاط المستمر، ولديهم حساسية عالية وحساً مرهفاً، وحين يناقشون تتسم أسئلتهم بالدقة والأهمية، ويميلون إلى التهام المعرفة، ويبدون درجة عالية من اليقظة والانتباه، ويميلون إلى الدقة والكمال^(١)، ويتمتعون بقدر عالٍ من روح الدعابة والفكاهة. ويعطون أهداراً ذكية ومقبولة لتصرفاتهم. وينصهرون بسرعة مع العالم المحيط، ويكرهون الروتين، ولديهم حاجة ملحة إلى اعتراف الآخرين بقدراتهم الإبداعية.

المبحث الثاني: أهمية الموهبة ودورها في صناعة التميز

إن سنة التطور والتجدد التي تقتضيها حياة البشر، والتي ما فتئت تتغير من عصر إلى عصر ومن زمن إلى زمن وتتجه نحو فتوحات كبيرة في العلوم والتقنية واكتشاف أسرار الكون واستجلاء غوامضه تقتضي أن يكون هناك عامل دائم يحرك الراكد ويصنع التغيير ويخرج عن المألوف. ومما لا شك فيه أن للموهوبين النصيب الأوفر في هذا المجال، فهم بما حباهم الله به من صفات مميزة قادرين على استيعاب مكونات واقعهم والإحاطة بجوانبه المختلفة، والنظر إليه نظرة فاحصة وناقدة تكشف عن مواطن الخلل فيه، وتنبيء عما يعتره من نقص. كما أنهم قادرين أيضاً على استيعاب الكسب البشري السابق وتقييمه والانطلاق منه نحو اختراعات جديدة وإضافات نوعية، وهذه المميزات هي التي تحدد قيمتهم الجوهرية بالنسبة للأمم والشعوب.

لقد كان تاريخ البشرية كله موسوماً بطابع هؤلاء الموهوبين ومختوماً بآثار بصماتهم العميقة التي تركوها في كل مجالات الحياة، والإنسانية قاطبة تدين لهم بما أحرزته من إنجازات وما وصلت إليه من رقي وتطور. وإذا كانت هذه الحقيقة غائبة نوعاً ما عن الإنسان قديماً، فإنها أضحت اليوم مسلّمة من المسلمات التي

١ - الموهبة والإبداع، تيسير صبحي، ص ١٧.

لا يرقى إليها الشك، بعد أن اتضح بجلاء الدور المميز والريادي الذي يقوم به الموهوبون في تجديد عناصر الحياة ودفعها إلى الأمام، وفتح مغاليق الكون وتسخيرها لصالح البشر، ولعل ذلك ما حدا بالفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل إلى القول: «إن تاريخ العالم ليس إلا سيرة الرجال العظماء... ولطالما قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء، وسائر الناس في انتظاره كالحطب، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا»^(١)، وهي المقولة التي عبر عنها وليم جيمس بشيء من التفصيل في قوله: «الإنسانية لا تفعل شيئاً إلا بمبادرات المبدعين الكبار والصغار الذين تقلدهم البقية منا. إنه العامل الوحيد الفاعل في التقدم الإنساني. فالأفراد الموهوبون يدلون على الطريق الصحيحة ويضعون المخططات التي يتبناها العامة ويقتفون أثرها»^(٢)؛ لأن من أبرز صفاتهم خروجهم عن ذواتهم وانغماسهم في عالم أسمى وأوسع، فهم يهملون مصالحهم ورغباتهم وأهدافهم ويتفرغون للنظر في أرجاء الكون، كما أنهم يخترقون حدود الجماعة التي يعيشون فيها ويرفضون قيودها ويثورون على أعرافها؛ لأنها تحد من تفكيرهم وتكبّل انطلاقتهم، فالفرد العادي عند توينبي: «محافظ جامد، يميل إلى التمسك بالعادات الموروثة، أما الموهوب فهو على النقيض من ذلك، يحب الابتداع والثورة على التقاليد؛ لأنه يشعر أنه كلف برسالة يتعين عليه الفناء فيها»^(٣).

إن وجود الموهوبين في كل مجتمع هو إضافة حقيقية للحياة، ومكسب هام للإنسانية كلها، فهم يصنعون المعرفة ويختصرون الأزمنة والمسافات، ويوفرون الجهود والطاقات، ويسهمون بفعالية في حل الأزمات، وعلى أيديهم تشهد البشرية الفتوحات الغراء في العلوم والمعارف، لذلك يرى الباحثون والمختصون أن الموهوبين ثروة لا تقدر بثمن، فهي هبة السماء وهدية الخالق، وهي بالنسبة

١- محمد صلى الله عليه وسلم، المثل الأعلى، توماس كارليل، تعريب، محمد السباعي، ص ٥٦.

٢- خوارق اللاشعور، علي الوردي، ص ٦٨.

٣- المرجع نفسه، ص ٧١.

للأمم والشعوب وديعة الوطن وخميرة النهوض فيه، والقوة السحرية التي تبني أمجاده وتصنع تاريخه، وأن خروجهم عما ألفه المجتمع من أغماط معيشية روتينية هو الدليل الحي على تميّزهم: «فلولا ميل الموهوبين إلى النقد والتحرر والتمرد والتطور والمرونة والتجدد والإبداع والطموح اللامحدود، لما تطورت الإنسانية ولما تقدمت، وبهذا المعنى يصبح الموهوبون هم الصنّاع الحقيقيون للحضارة؛ لأنهم هم الوحيدون الثائرون على النمط الثابت للحياة»^(١).

وقد شهد العالم منذ منتصف القرن العشرين حركة واسعة تدعو إلى الاهتمام بالموهوبين، بعد أن قطع علم النفس والتربية شوطا واسعا في إعداد البرامج التي تكشف عنهم منذ الصغر، ودعا أنصار هذه الحركة إلى تسخير جميع الوسائل والأساليب لاكتشافهم في سنوات الطفولة الأولى، وتوفير المناهج والمقررات والبرامج التربوية التي تتناسب مع احتياجاتهم وقدراتهم العقلية المميّزة، وإيجاد الهياكل والمؤسسات القادرة على إدارة هذه الأنشطة، والحفاظ على استمراريتها، والعمل الجاد على تطويرها^(٢) واستخراج أفضل ما عندها، حيث أظهرت الأبحاث والدراسات أن الموهوبين يحتاجون إلى رعاية خاصة؛ لأن لديهم حاجات تختلف عن حاجات العاديين، ومن أهم أنواع الرعاية التي يتعيّن توفيرها لهم برنامج مدرّس من التجارب التعليمية والخبرات العلمية التي تتسم بالتحدي، لتكون مرضية ومشبعة ومستفزة لقدراتهم العقلية والنفسية، ودافعة لهم للوصول إلى أفضل مستوى من حيث التوافق الشخصي والاجتماعي والمهني. أما إذا تم إهمال هذا الأمر وترك للصدفة المحضة والمبادرات الفردية الارتجالية والمحاولات العشوائية، وحُرّم الموهوبون من التشجيع والتقدير والتحفيز فإنهم سينزلقون إلى السلبية واللامبالاة، أو يتحولون إلى نماذج منحرفة من السلوك كرد فعل للضجر

١- الشخصية العبقريّة، عاطف عمارة، ص ١٦.

٢- الموهبة والإبداع، تيسير صبحي، ص ٧.

والافتقار إلى الحافز^(١)، وقد أثبتت بعض الدراسات أن من نزلوا السجن من هم أذكاء ويتمتعون بقدرة عقلية عالية لكنهم استخدموا قدراتهم في السلوك المنحرف، بسبب الإهمال ونقص الرعاية التي يعانون منها^(٢).

إن هذه العناية الخاصة التي تلزم أصحاب القرار في كل مكان بوجوب القيام بها تجاه المهويين ضرورة ملحة للحفاظ على هذه الثروة من الضياع والتبديد؛ لأن يفقدتها تفقد المجتمعات ثروات باهظة وتفقد معها إمكانات هائلة، كانت ستقدم لها خدمات جلييلة في مسار نموها وسبيل تطورها، على اعتبار أن أفضل أنواع الاستثمار الذي يساعد الأمم على النهوض والنمو هو العناية بالطاقات البشرية التي هي السبيل الأمثل لاستغلال الطاقات الطبيعية.

المبحث الثالث: اهتمام السنة النبوية بالمواهب

إن المهمة العظيمة التي أوكلها الله عز وجل لنبيه الكريم بتبليغ رسالة الإسلام للعالمين، قد وضعتها في موضع القائد الأعلى الذي يتعين عليه أن يتحكم بقوة وحزم وحكمة في مجرى الأحداث ويحسن سياسة الطاقات البشرية التي ستلتحق بصفوف المؤمنين به، وتحمل معه عبء التبليغ. وقد استنفرت هذه الأمانة السماوية الثقيلة أقصى ما في نفس النبي الكريم من جهد، وأخرجت كل ما تنطوي عليه من مزايا قيادية فذة تتناسب مع الهدف الكبير الذي اصطفاه الله له، وهو تعبيد الناس لله رب العالمين.

وإذا كان من أهم صفات القائد الناجح اكتشاف الطاقات الفاعلة والمبدعة في المجتمع وحسن استغلالها وتوظيفها في مواقعها المناسبة، فإن رسول الله ﷺ قد بلغ الغاية في ذلك، ولم يكتف به بل إنه بث روح العمل والنشاط في جميع

١- أطفال عند القمة، زكريا الشرييني ويسرية صادق، ص ٣٥.

٢- تربية المهويين والتطوير التربوي، كمال أبو سماحة وآخرون، ص ٩٨.

أصحابه، فتألق أصحاب المواهب وأبدعوا في مجالات تفوقهم، وتحول عامة المسلمين إلى شعلة من الحركة الدؤوبة التي لا تهدأ، بما بث فيهم النبي الكريم من ثقة عالية بالنفس وحوافز قوية للمسارعة في الخيرات، وتشجيع دائم على تلمس مواطن المنفعة العامة، مع الوعد الصادق بالثواب الجزيل والعاقبة المحمودة، فاكتملوا المهارات المختلفة واجتهدوا في تحصيلها، وكأنه يعلم البشرية جمعاء أن الإنسان مهما كانت قدراته العقلية والنفسية والجسمية متواضعة، فإن لديه من الطاقات الكامنة ما يحولّه إلى كائن يتدفق حركة وحيوية، يبحث في أنحاء نفسه عن كل ما يمكنه القيام به؛ ليضع بصمته الخاصة فيه، فكان بذلك مرجعاً رائعاً في التنمية البشرية التي شغلت الناس في أيامنا هذه، ونهت الدارسين والمختصين إلى ما يكتسبه الوجود الإنساني من قيمة خاصة لا تقاس بالثروات الضخمة ولا الكنوز الدفينة.

لقد كانت الرسالة الخاتمة التي حملها رسول الله ﷺ للبشرية بمثابة ثورة عارمة على الواقع الصامت الجامد، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ، نظراً لما أحدثته من تغيير جذري وعميق في بنية المجتمع الجاهلي الذي كان يعيش حالة من الركود الحضاري على جميع المستويات، ويتبع نمطاً قاراً في التعامل مع الإنسان والبيئة، ويحارب بشراسة كل ميل إلى التغيير أو محاولة للتطوير، الأمر الذي أفضى إلى تجميد المواهب وشلّ الملكات العقلية والنفسية للأفراد، وتكبير انطلاق القدرات الذاتية للإنسان، فباشر في هذا المحيط القاسي عملية تربية طويلة ووفيدة محفوفة بالصعاب والعقبات؛ لأن بناء النفوس من أشق وأعسر عمليات البناء، إذ إنها تتوجّه إلى كائن حرّ مريد يتأبى على الخضوع، إلا إذا تمت معالجته بمفاتيحه الفطرية التي تتماشى مع سنن الأنفس التي أوجدها الله فيه.

وقد تجلّى لنا إدراك الرسول ﷺ لأهمية الموهبة في نجاح الدعوات وتحقيق

الأهداف منذ اللحظات الأولى للبعثة، حينما ركز بصيرته النافذة على واقعه، يتفقد أفراد المجتمع القرشي، ويبحث عن الرجال المناسبين الذين يستطيعون أن يتحملوا مسؤولية الدعوة الجديدة، ويحافظون على سريتها، ويدعمون وجودها بقوة شخصياتهم وعلو هممهم وثباتهم على المبدأ، فكان اختياره لتلك العصابة من المسلمين الأوائل دليلاً على قدرته الفائقة على تمييز الشخصيات، وانتقاء المتميزين حينما وضع يده على أكثر النقاط حساسية في تكوينهم، وهي إحساسهم بالخيبة، ورفضهم للواقع الجاهلي بكل ما يحمله من أفكار ومعارف ونظم وسلوكيات وأنماط في الفكر والمعرفة، وهذه سمة خاصة من سمات الموهوبين؛ «لأن الموهوب لديه إحساس دائم بالرغبة في النقد والإبداع، في الهدم والبناء»^(١).

خاطب فيهم رسول الله ﷺ نزعة الإنسان الدفينة إلى معرفة ذاته وإشباع احتياجاتها الروحية والنفسية، وزودهم بالمعرفة التي تشبع هذه الحاجات، فتفتحت شخصياتهم وتفجرت مواهبهم، وبرزت إلى السطح جميع الفضائل التي كانت مكبوتة تحت ركام التقاليد الجاهلية، وتفاعلوا تفاعلاً عميقاً مع معطيات الوحي، فكانت تلك الملحمة الإنسانية التي غيرت وجه التاريخ، وكتبت للإنسانية صفحات رائعة في قدرة الإنسان على تجاوز جميع عوائق بيئته، والتعالي على كل نقائصه وسلبياته، وتحرير طاقة النور الفياضة التي أودعها الله فيه بنفخة الروح الإلهية التي خصّه بها. يقول أبو الحسن الندوي واصفاً الإنجاز الإنساني العظيم الذي قام به رسول الله ﷺ في المجتمع الجاهلي: «استطاع النبي ﷺ برؤيته الدقيقة، وشخصيته الفذة، وبفضل هذا الكتاب السماوي المعجز أن يبعث في الإنسانية المتحضرة حياة جديدة، فقد عمد إلى الذخائر البشرية وهي أكاداس من المواد الخام لا يعرف أحد غنائها، ولا يعرف محلها، وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاق إلى الأرض، فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح

١ - الشخصية العبقريّة، عاطف عمارة، ص ١٤.

الجديدة، وأثار من دفائنهما، وأشعل مواهبها، ثم وضع كل واحد في محله فكأنما خلق له، وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جماداً فتحول جسماً نامياً، وإنساناً متصرفاً، وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حياً يُملي على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود العالم، عمد إلى الأمة الضائعة، وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ»^(١).

إن الظروف العصيبة التي عاشتها الدعوة في سنواتها الأولى بكل أهوالها وتحدياتها وآلامها ومآسيها، قد أثبتت أن رسول الله ﷺ قد أصاب عين التوفيق حينما ألقى بعضاً من أعباء الدعوة والتبليغ على تلك النخبة المختارة من الرجال والنساء، الذين ثبتوا أمام المحن ثبوت الجبال، وأعطوا المصادقية الكاملة للدين الجديد، ونفخوا روح الشجاعة والإقدام في نفوس المترددين والخائفين، وأوهنوا قوى الشرك وخلطوا عليهم أوراقهم فصاروا يخبطون خبط عشواء، لا يدرون في أي سبيل يوجهون ضرباتهم ويعدون مخططاتهم. وهذا لا يتأتى إلا لذوي النفوس الكبيرة، وقد دلت الدراسات النفسية الحديثة أن الموهوبين يتميزون بقدرتهم الكبيرة على التحمل الفكري والجسدي، فهم أقوياء نفسياً ولذلك يصمدون أمام الضغوط ويتحملون المصاعب دون تدمر، مؤمنين في قرارة نفوسهم أن إرادة الإنسان مهياة للتعامل مع أقسى الظروف وأشدّها صرامة، فيستنفذون الكثير من قواهم وأوقاتهم مصممين على مواصلة المجهود حتى بلوغ الهدف^(٢). وسنحاول فيما يلي عرض بعض النماذج من الموهوبين الذين كان لرسول الله فضل اكتشافهم:

١- ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ص ١٥٦ ١٥٥.
٢- المتفوقون عقلياً: خصائصهم، اكتشافهم، تربيتهم، مشكلاتهم، عبد الرحمن سيد سليمان وصفاء غازي أحمد، ص ٧٧، ٧٨.

المطلب الأول: أبو بكر الصديق «رضي الله عنه»

تتجلى العناية الواضحة للنبي ﷺ بانتقاء المواهب وتكليفها بالمهام الصعبة وذلك في عرضه أمر الدعوة على أبي بكر الصديق واثمناه على السر الكبير. فقد رأى فيه النبي عليه الصلاة والسلام ملامح الرجل القوي الصلب، ولس فيه ترفعه عن دنيا الجاهلية واشمئزازه من عقائدها وعاداتها، واتضح له معالم شخصيته المتميزة التي تحمل بين جوانحها العزة والإباء والشجاعة ويقظة الضمير والذكاء الحاد، ونفسه المتعطشة إلى حقيقة غائبة لا يجد إليها سبيلاً، فكان أبو بكر عند حسن ظن النبي الكريم، فما كاد يفتحه في أمر الدعوة حتى وجد الاستجابة السريعة وكأنما كان على موعد معها، فما لبث أن أودعها أعماق نفسه وتشرّب نورها وراح يبحث عن عاف نفوسهم، أوحال الشرك ليهديهم قبساً من ذلك النور، فأسلم على يديه عدد من كبار الصحابة وعظمائهم أمثال: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيدالله. ثم كانت مسيرته الحافلة التي طبعت كل خطوة من خطوات الدعوة الإسلامية منذ ظهورها حتى وفاته، والتي تميزت بحضوره القوي في كل مشاهدتها، وتأثيره الخاص النابع من طبيعة شخصيته الفريدة، والذي بدا واضحاً في قراره الخطير بشن حروب الردة. لقد كان هذا القرار التاريخي الصعب بحاجة إلى رجل فذ بصير بالمآلات، مدرك لأبعاد الظرف الطارئ الذي تعيشه الدولة الفتية غداة وفاة قائدها الكبير. وعلى الرغم من المعارضة التي لقيها هذا القرار فإن الصديق أصر على إنفاذه، وأثبت التاريخ بعد ذلك أن هذه الخطوة الشجاعة قد جنبت الجزيرة العربية الارتكاس إلى الجاهلية مرة أخرى، فكان موقف الصديق هو الحق الأبلج الذي حسم الموقف لصالح الإسلام وكأنما الأقدار هيأت له منذ زمن.

المطلب الثاني: عمر بن الخطاب «رضي الله عنه»

ومن أبرز المواهب التي انتشلها رسول الله ﷺ من الضياع، وأتاح لها فرصة الظهور والنمو والإسهام الجاد في صياغة التاريخ الإسلامي، موهبة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فقد كانت عين رسول الله ﷺ ترمقه وهو يروح ويغدو وقد امتلأت نفسه حقداً على الدعوة وصاحبها، فيستشف من وراء سلوكه طاقات فياضة توشك أن تخرج ولا تجد لها مخرجاً يناسبها، ومواهب مدفونة لم تستطع الجاهلية أن تنفض عنها غبار الإهمال، ومهارات شتى تضطرم داخلها، فيدعو الله أن يكون للإسلام نصيب فيه أو في أبي جهل بن هشام، فكلاهما مكسب كبير وغنيمة هامة تحتاج إليها الدعوة وهي تواجه قوى البغي والطغيان، عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. قَالَ وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ»^(١).

فاستجاب الله دعاء رسوله ﷺ في عمر بن الخطاب فكان من أمره ما كان، حيث تعهده رسول الله بالتربية والتوجيه، وآثره بصحبته في أغلب أوقاته واستخرج من بين جنبيه أحسن ما انطوت عليه نفسه الكبيرة من مواهب وملكات، وأصبح الرجل الذي كان نكرة في الجاهلية لا يكاد يعرفه أحد شامة في جبين الإسلام وغرة لامعة في تاريخه، تشرب الإسلام بحب وشوق فألهمه ذلك فهوماً عالية حازت رضى النبي الكريم، وأثارت إعجاب الصحابة، وتفاعلت نفسه مع مبادئه السامية فأنتجت فقه عمر، وما أدراك ما فقه عمر! لقد وضع رسول الله ﷺ يده على كنز دفين ما فتىء يمد الإسلام بقوة من عنده تعادل أضعاف ما يعطيها له كوكبة من خيار الرجال، وفتح بيديه عقل عمر واستثار كوائنه فأصاب منه الإسلام

١- سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله، باب في مناقب عمر بن الخطاب، رقم ٣٦١٤، قال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ"، ومسند أحمد، رقم ٥٤٣٧، رواه الحاكم من حديث عائشة وقال: "صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ"، وصححه الألباني في صحيح الترمذي رقم ٣٦٨١.

خيراً كثيراً، وكانت عبقريته في تنظيم الدولة الإسلامية بعد الفتوحات الكثيرة شاهدة على هذه الموهبة الخصبه الرائعة.

المطلب الثالث: مصعب بن عمير «رضي الله عنه»

لفتت شخصية الصحابي الجليل مصعب بن عمير انتباه رسول الله ﷺ فوضعه في المكان الذي يليق بقدراته واستعداداته. فعندما طلب الأنصار من رسول الله ﷺ بعد بيعة العقبة الثانية أن يبعث إليهم من يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، وقع اختياره على مصعب بن عمير، ذلك الفتى القرشي الأنيق المتعطر الذي كان يرفل في النعمة ويتقلب في بحبوحة من العيش، تنبأه به أندية مكة وتحدث في مجالسها عن عطره الغالية وثيابه الثمينة. كان من أوائل المقبلين على الإسلام، وكأنه وجد فيه الملاذ الآمن لنفسه المتعطشة إلى الحقيقة، فانسلخ من جميع متاع الدنيا ورضي بالحبس والعذاب والهجرة إلى الحبشة مرتين في سبيل أن يبقى ذلك النور الإلهي يضيء جوانب نفسه ويملؤها طمأنينة وأمناً. وكان رسول الله ﷺ يدرك صعوبة المهمة وما تتطلبه من مهارات خاصة وصفات مميزة، وقد وجدها في مصعب بن عمير لما لمس فيه من رجاحة العقل وحسن الخلق وهدوء النفس والسماحة في المعاملة، فأوكل إليه المهمة ونفسه مطمئنة إلى أنه سيتحمل بقوة وكفاءة مسؤولياته الجديدة.

وقد كان اختيار رسول الله ﷺ موفقاً إلى أبعد الحدود. فقد لبث مصعب بن عمير في المدينة عاماً كاملاً يث دعوة الحق بين أهلها بثاً، ويتلمس أقرب الطرق إلى قلوبهم فيسلكها في هدوء وروية، وأدب عال وحكمة بالغة تألفها النفس وترتاح إليها. وعندما بلغ خبر أسيد بن حضير، وكان سيداً في قومه جاءه غاضباً حاملاً حربته؛ «فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، فوقف عليهما متشتماً وقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان

ضعفاناً؟ اعترلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة»^(١)، وقابل مصعب هذه الشتائم والتهديدات بالسكينة التامة والاطمئنان الواثق، فلم يفارقه هدوءه ولم تغادره ابتسامته الحانية، ورد على الرجل الثائر قائلاً: «أوتجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره. قال: أنصفت. ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يُذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهّله ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟»^(٢).

إن هذا السلوك الدعوي الراقى الذي لا شك أن مصعباً سلكه مع جميع من دعاهم إلى دين الحق، والذي يتناسب مع طبيعة المرحلة الحساسة التي كان يعيشها الإسلام والمفعمة بالضغوط والأخطار، يعطينا صورة واضحة عن شخصية مصعب بن عمير وطبيعة مواهبه التي تتعلق بمهارات الاتصال الجماهيري وتتبع مواطن التأثير في المستمعين والسائلين، وحسن إدارة الحديث وتمكنه من مهارات الحوار الناجح، وكان ذلك كله مطلوباً خلال هذه الفترة الانتقالية الخاصة التي تنتظر هجرة رسول الله إلى المدينة، وتستدعي التمهيد لقدمه بالحفاظ على الأمن والاستقرار، وتنقية الأجواء من دواعي الفتنة وأسباب العنف، وبث روح الأخوة والتآلف بين مختلف طوائف مجتمع المدينة.

المطلب الرابع: زيد بن ثابت «رضي الله عنه»

ومن المواهب التي تألقت تحت رعاية رسول الله ﷺ وإشرافه المباشر موهبة زيد بن ثابت الذي جاء به أهله إلى رسول الله وهو فتى يافع لم يبلغ الحلم بعد، حيث لاحظوا عليه سرعة الحفظ والإتقان في التلاوة، فدفعوه إلى النبي الكريم ليضعه في المكان الذي يراه مفيداً له وللإسلام، فاستلمه رسول الله واستمع إلى

١- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام، ج ٢، ص ٧٨.

٢- المرجع نفسه، ص ٧٨.

قراءته. يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه: «لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ ذُهِبَ بِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْجَبَ بِي، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا غُلَامٌ مِنْ بَنِي النَّجَارِ مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ بَضْعَ عَشْرَةِ سُورَةٍ، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ يَا زَيْدُ تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي، قَالَ زَيْدٌ فَتَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ، وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ وَأَجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ»^(١).

ولما لمس فيه حسن القراءة والحفظ، خبر باقي قدراته فوجده قادرا على الكتابة، جميل الخط فكلفه بمهمة جليلة تتناسب مع مواهبه، وأمره أن يتعلم لغة اليهود حتى يأمن جانبهم، ويتمكن من قراءة رسائلهم التي ترد عليه والرد عليها، ومراجعة نصوص العهود والمواثيق التي تكتب بين الطرفين. وبذلك تحوّل الشاب زيد إلى أمين سر رسول الله فيما يخص علاقاته الخارجية، والمؤتمن على أسرار الدولة وخباياها، وترجمان رسول الله وموضع ثقته. وبالإضافة إلى هذا التكليف المهم، أسند رسول الله ﷺ لزيد عملاً آخر يتمثل في كتابة الوحي، فكلما نزلت آية أثبتها زيد واحتفظ بها، وكان واحداً من الكتاب الذين اصطفاهم رسول الله لكتابة وحيه: «عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ أَبِي وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأَبُو زَيْدٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ»^(٢).

وقد أحس زيد في أعماقه بسمو المهمة التي كلفه بها النبي الكريم فبذل جهده في إتقان عمله، وأبلى بلاء حسناً في أدائه. وكان هذا التقدير النبوي حافزاً للصحابة ليضعوا ثقتهم في زيد ويكلفوه بأخطر مهمة في تاريخ الإسلام، وهي جمع القرآن الكريم بعد أن استشهدت جموع غفيرة من القراء في حروب الردة.

١ - مسند أحمد، رقم ٣٠٦٣٢، سنن الترمذي، كتاب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في تعليم السريانية، رقم ٢٦٣٩، سنن أبي داود، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، رقم ٣١٦٠، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج ١، ص ٣٦٤.

٢ - صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب زيد بن ثابت، رقم ٣٥٢٦.

قال زيد بن ثابت: «قال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فأجمعه. فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن»^(١)، فكان هذا العمل الرائد الذي حفظ على الأمة دستورها الرباني علامة فارقة في حياة زيد بن ثابت، ومدخلاً من المداخل الكبرى التي خلدت ذكره العطر في التاريخ، ولم يكن ذلك ليحصل لولا الرعاية الخاصة التي حظيت بها موهبته على يد النبي الكريم.

وعندما نزلت آيات المواثيق وبدأ رسول الله ﷺ يقضي بين المسلمين بمقتضاها لاحظ سرعة بديهة زيد وقدرته العجيبة على حل مسائلها، واكتشف فيه موهبة جديدة هي نبوغه في الرياضيات وتمكّنه من العمليات الحسابية الذهنية التي يقضي غيره في حلها وقتاً طويلاً، فسجل له هذه القدرة الفريدة واعترف له بتميّزه فيها وجعله على رأس أصحابه جميعاً فيها، مستعملاً صيغة التفضيل فقال عليه الصلاة والسلام: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقرأهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد ابن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أميناً وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»^(٢).

ويعد علم الفرائض من أصعب العلوم وأدقها، لاعتماده على فهم المسائل الرياضية المعقدة، وقد أشار الزهري إلى إسهام زيد بن ثابت في تثبيت هذا العلم وحفظ أصوله فقال: «لولا أن زيد بن ثابت كتب الفرائض لرأيت أنها ستذهب من الناس»^(٣)، وهذه صورة حية لتجاوبه مع الشناء العظيم الذي خصه به رسول الله

١- صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، رقم ٤٣١١.

٢- سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله، باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي بن كعب، رقم ٣٧٢٣، صححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٨٩٥، وفي صحيح ابن ماجه، رقم ١٢٥.

٣- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، ج ٢، ص ٤٣٦.

ﷺ حينما عده رأس الأمة في هذا العلم.

المطلب الخامس: عبد الله بن عباس «رضي الله عنهما»

ومن المواهب العلمية الفذة التي رأت النور على يد رسول الله ﷺ موهبة عبد الله بن عباس، فقد توسم فيه رسول الله مخايل النجابة والذكاء، وحسن الإدراك، والقدرة على تحليل الأحداث، وقراءة المعاني من وراء الكلمات، واستخلاص العبر والحكم من الأحكام، فشمله برعايته وهو لا يزال غضا طريا لم يتجاوز سنوات الطفولة إلا بقليل، وعمد إلى استصحابه معه كلما سنحت له الفرصة، وتزويده بالنصائح والتوجيهات التي تصقل موهبته العلمية وتنمي ملكته العقلية، وتفتح له آفاق المعرفة. وعبر عن اهتمامه بهذه الموهبة الناشئة بالدعاء له بأن يعلمه الله الحكمة وأن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «ضَمَّنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى صَدْرِهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْحِكْمَةَ»^(١)، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وَضَعَ يَدَهُ عَلَيَّ كَتَفِي أَوْ عَلَيَّ مِنْكِبِي شِكِّ سَعِيدٍ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»^(٢).

ويذكر ابن عباس حادثة طريفة حصلت له مع رسول الله ﷺ وأكدت له صدق فراسته في الغلام، وأثبتت له حدة ذكائه وفطنته لأمر لا تخطر لغيره. فعن ابن عباس قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَصَلَّيْتُ خَلْفَهُ فَأَخَذَ بِيَدِي فَجَرَّنِي فَجَعَلَنِي حِذَاءَهُ، فَلَمَّا أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ صَلَاتَهُ خَنَسْتُ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ لِي مَا شَأْنِي أَجْعَلُكَ حِذَائِي فَتَخُنْسُ؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْيَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُصَلِّيَ حِذَاءَكَ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ؟ قَالَ: فَأَعْجَبْتُهُ فَدَعَا اللَّهُ لِي أَنْ

١ - صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ذكر ابن عباس، رقم ٣٤٧٣.

٢ - مسند أحمد، رقم ٢٢٧٤، صححه الحاكم في مستدركه، ج ٣، ص ٥٣٤، ووافقه الذهبي، و صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج ٦، ص ١٧٣.

يَزِيدَنِي عِلْمًا وَفَهْمًا»^(١).

ولعل هذا الذكاء الوقاد وسرعة البديهة والاستيعاب الجيد لمقتضيات الحدث هو الذي حدا برسول الله ﷺ أن يعلم ابن عباس وهو لا يزال غلاما صغيرا لم يبلغ الحلم بعد كلمات جليلة لخصت جوهر العقيدة الإسلامية وأوضحت معالمها الكبرى. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمْتُكَ كَلِمَاتٍ أَحْفَظُ اللَّهُ يَحْفَظُكَ، أَحْفَظُ اللَّهُ تَجِدُهُ تَجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(٢).

لقد تضمن هذا الحديث وصايا عظيمة وقواعد هامة في أصول الدين، وكأن النبي الكريم يريد أن يحيط موهبة ابن عباس العلمية الناشئة بسياج متين من المبادئ والثوابت العقدية، التي تنير له طريقه وتحدد له مساره الصحيح وهو مقبل على مستقبل حافل سيكون فيه موضع ثقة الأمة ومرجعها في دينها، فلنقه أصول التوحيد الخالص الذي يتحرر فيه الإنسان من كل القيود الطبيعية والبشرية ويتمحض فيه لله وحده لا يسأل غيره، ولا يستعين بسواه، ولا يجزع من مصيبة تلحقه، ولا يعتر بنعمة تصيبه، وهو يعلم أن كل ذلك بقدر، وأن مناط كرامته عند الله وميزان قربه منه يتحدد بمدى استجابته لأوامره وابتعاده عن نواهيه، واستغنائه عن الخلق، والاعتراف له بالربوبية الكاملة في الأفعال والأقوال. وهذه التربية

- ١- مسند أحمد، رقم ٢٩٠٢، أخرجه الحاكم في مستدركه، ج ٣، ص ٥٣٤، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٥٩٠.
- ٢- سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرفاق والورع عن رسول الله، رقم ٢٤٤٠، وقال: "حديث حسن صحيح"، مسند أحمد، رقم ٢٥٣٧، قال أحمد شاكر في مسند أحمد، ج ٤، ص ٢٣٣: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٢٥١٦، وفي صحيح الجامع، رقم ٧٩٥٧.

العقائدية المبكرة هي التي ستحمي الغلام من كل ما يشوب موهبته بشائبة تمنع عنه نور العلم، وتعيقه عن التبحر فيه على هدى وبصيرة.

وسار عمر بن الخطاب على هدي رسول الله ﷺ في تقدير موهبة ابن عباس، وإفساح المجال لها لتنمو في بيئة خصبة من مجالس العلم ومصاحبة العلماء، والاحتكاك بالنخبة من أهل الرأي والخبرة في الدين والسياسة وواقع الناس، فكان يسمح له بحضور الاجتماعات التي تناقش فيها قضايا الأمة، ويفصل فيها في المنازعات وتعقد فيها مجالس القضاء وغيرها. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاحِ بَدْرٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تَدْخُلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مَنَّ قَدْ عَلِمْتُمْ. قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ قَالَ وَمَا رُئِيَتْ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مَنِّي. فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحِ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَمَرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نَصَرْنَا وَفَتَحَ عَلَيْنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ أَكْذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَتَحَ مَكَّةَ فَذَلِكَ عِلْمُهُ أَجَلُكَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا. قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ»^(١). وقد آتت موهبة ابن عباس أكلها نتيجة الرعاية النبوية الشريفة، وتألقت ذلك الغلام الصغير حتى صار حبر الأمة وترجمان القرآن، يضرب إليه الناس من كل حدب وصوب أكباد الإبل؛ ليأخذوا منه العلم الذي أخذ بجميع أطرافه.

المطلب السادس: خالد بن الوليد «رضي الله عنه»

ووضع رسول الله ﷺ يده على العبقرية العسكرية التي كانت كامنة في

١ - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب منزل النبي يوم الفتح، رقم ٣٩٥٦.

أعماق خالد بن الوليد حينما أكبر حسن بلائه في معركة مؤتة، وقدرته الفذة على إدارة الحرب ومناورة الأعداء، وخطته المحكمة في الانسحاب بجيش المسلمين بأقل الخسائر بعد أن تسلم الراية إثر استشهاد الأمراء الثلاثة الذين عينهم النبي ﷺ، وثن هذا المجهود الحربي الرائع بأن شهد له وهو في ساحة الوغى بأنه سيف من سيوف الله: «عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبْرُهُمْ فَقَالَ: أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأَصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأَصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأَصِيبَ وَعَيْنَاهُ تَدْرِفَانِ، حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سِيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»^(١).

ومنذ ذلك اليوم احتل خالد بن الوليد مكانة متميزة في الجيش الإسلامي، واستفاد المسلمون من مواهبه القتالية في باقي الغزوات التي شهدها مع رسول الله، غير أن عبقريته القيادية ودهائه العسكري لم يظهر إلا عند المحن الكبرى والمواقف التاريخية الحاسمة، وكان أولها حروب الردة التي خاضها بكفاءة عالية بعد أن عقد له أبوبكر الراية ووجهه إلى قتال المرتدين، ولم ينس أن يملأ نفسه ثقة وعزما اقتداءً بنبيه الكريم، حيث ذكره بذلك الوسام الشريف الذي حلّى به رسول الله صدره يوم مؤتة؛ ليدرك مبلغ الآمال التي يعلقها عليه المسلمون في الحفاظ على بيضة الإسلام وحماية دعوة التوحيد من أن تطبق عليها أمواج الجاهلية مرة أخرى. فعن وحشي بن حرب: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَقَدَ لِحَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الرَّدَّةِ وَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ نَعَمْ عَبْدُ اللَّهِ وَأَخُو الْعَشِيرَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَسَيْفٌ مِنْ سِيُوفِ اللَّهِ سَلَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ»^(٢).

١- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام، رقم ٣٩٢٩.

٢- مسند أحمد، رقم ٤٢، رواه الحاكم في مستدرکه، ج ٣، ص ٢٩٨ وقال: صحيح الإسناد، وقال الإمام الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١٢٣٧، ج ٣، ص ٢٤١.

ومما لا شك فيه أن هذه الكلمات قد وقعت من خالد بن الوليد موقعاً خاصاً جعلته يدرك ثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه، ومن ثمة يستجمع كل قدراته ومهاراته ليواجه جيوش المرتدين المتحالفة. ثم جاءت فتوح العراق والشام، ووضع أبو بكر الصديق مرة أخرى كل ثقته في قيادة خالد إيماناً منه أن فراسة رسول الله ﷺ لا يمكن أن تخطئ في تقدير الرجال، ووضعهم في المكان المناسب الذي يملؤونه. فكان ما كان من تلك الفتوحات الغراء، والمعارك الرائعة في القادسية واليرموك، وتحقق وعد النبي ﷺ بزوال ملك كسرى وقيصر وانسياح الإسلام في تلك المناطق الشاسعة.

لقد عاش خالد بن الوليد زهرة شبابه في مكة فارساً قوياً ولكنه محصوراً في مكان بعيد من الصحراء العربية لا يكاد يسمع عنه أحد شيئاً، وعاش تلك الفترة يدين للنزعة القبلية الضيقة، فانتشله النبي ﷺ من هذه الوهدة العميقة، وملاً قلبه إيماناً ونوراً ثم أطلق العنان لمواهبه الفياضة التي رفعته إلى أعلى المقامات، فطار صيته في العالم وطبقت شهرته الآفاق، واقرن اسمه بزوال أكبر إمبراطوريتين عرفهما العالم القديم، ولولا هذه اللفتة النبوية الكريمة لما تألقت هذه الشخصية في سماء المجد، ولما صنعت كل تلك المآثر الخالدة.

المطلب السابع: حسان بن ثابت «رضي الله عنه»

وثن موهبة حسان بن ثابت الشعرية ودعاه إلى استخدامها في المنافحة عن دين الله والرد على المشركين، وبين له دوره المهم في المعركة المصيرية الدائرة بين الحق والباطل، وكيف أن الكلمة حين توضع في مكانها المناسب يكون تأثيرها مثل تأثير السيف تماماً في شحذ الهمم، ورفع المعنويات، وتعبئة النفوس، وتنشيط الخاملين، وتشجيع المتخاذلين، ورد كيد الأعداء، وتنفيذ دعاويهم، وإبطال شبهاتهم. عن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

أَهْجُوا قُرَيْشًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقِ النَّبْلِ»^(١).

وعبر عن سمو هذه المهمة وعظيم جزائها عند الله، بأن أبلغ حسان بن ثابت أن التزامه بالدفاع عن الدعوة وعن نبيها سينال من ورائها شرفاً عظيماً يتمثل في تأييد روح القدس له، وما أدراك ما روح القدس! إنه أمين السماء ورسول رب العالمين إلى البشر، من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ. قال رسول الله ﷺ مشجعاً حسان بن ثابت على الرد على المشركين بعد أن بالغوا في هجو النبي وأتباعه، وأفحشوا له القول ونالوا من الأعراض والأنساب: «أَهْجُهُمْ أَوْ هَاجَهُمْ وَجَبْرَيْلُ مَعَكَ»^(٢). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضَعُ لِحْسَانَ مِنْبَرًا فِي الْمَسْجِدِ، فَيَقُومُ عَلَيْهِ يَهْجُو مَنْ قَالَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَ حَسَّانَ مَا نَافَحَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٣). وليس هناك صيغة أبلغ في الترغيب في القيام بهذا الواجب الإعلامي النبيل من هذه الصيغة التي تجعل الشاعر يقول وهو مستشعر بحضور روح القدس معه.

وأفسح المجال لموهبة بلال بن رباح أن تظهر في الأذان، حيث لمس فيه قوة الصوت وعدوبته فانتدبه لينادي للصلاة، فكان مؤذن النبي ﷺ، وخص أبا موسى الأشعري بملاحظة مهمة لفت فيها نظره إلى صوته الشجي الذي يرتل به القرآن فيزداد عدو به وحلاوة في فمه، فقال عليه الصلاة والسلام: «يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيَتْ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»^(٤)، منبها إياه إلى الاعتناء بهذه الموهبة

١- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت، رقم ٤٥٤٥.

٢- صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٢٩٧٤.

٣- سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب ما جاء في الشعر، رقم ٤٣٦١، قال الألباني: حسن، وفي صحيح ابن حبان عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان بن ثابت، إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله وعن رسوله»، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

٤- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، رقم ٤٦٦٠.

وصقلها ورعايتها؛ نظراً لما يبعثه الصوت الحسن من تأثير جميل في السامعين، وما يتركه من انطباع طيب في النفوس التي تستلذه وتميل إليه وتطلب المزيد منه، وهو سبيل من سبل الدعوة إلى الله.

المبحث الرابع: اهتمام السنة النبوية بتنمية المهارات

هذا عن المواهب التي غطت معظم مناحي الحياة الاجتماعية والعلمية والعسكرية والأدبية وغيرها، أما المهارات التي يرى العلماء والباحثون أن بإمكان كل فرد، مهما كانت درجة ذكائه أن يتعلمها ويتقنها، فقد نالت اهتمام رسول الله ﷺ، وكانت كثيراً من إرشاداته وتوجيهاته، تصب في سبيل توجيه عامة المسلمين إلى الإقبال على جميع الأعمال التي من شأنها أن تنفع الفرد والمجتمع والتفاني في إتقانها، حتى أحس الصحابة أن لا عذر لهم في شيء، وأن أبواب الصالحات مفتوحة على مصراعيها، وهي ليست حكراً على أحد، وأن المسلم مطالب أن يكون كالطر، أينما وقع نفع في كل مجال يحس فيه أنه قادر على نفع الناس، ولا يتعلل بالقضاء والقدر، لأنه سيحاسب على كل ما عمله بملء إرادته وكامل حريته: «عَنْ عُمَرَ أَنْ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ قَالَ كُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(١).

وقد أشارت الدراسات الحديثة إلى أن الإنسان ينطوي على إمكانات هائلة للتعلم، وزيادة المعرفة والمخزون الثقافي لديه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١). وأن أكثر الناس لا يستغلون سوى ١٠٪ من إمكاناتهم الذهنية، وأن أي إنسان إذا استنفر نصف طاقاته العقلية يمكن أن يتعلم عشرين لغة، ويجمع بين عشر جامعات؛ لأن داخل كل واحد منا منطقة وافرة الخصوبة، تنتظر من يزرع فيها فساتل الخير والفكر، وإن الحياة تشتمل على أنواع من الإبداع، بقدر ما تشتمل عليه الطبيعة الإنسانية من خصائص جسمية ونفسية

١ - صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر، رقم ٦٩٩٦.

وعقلية وانفعالية^(١).

وهذه مسؤولية جليلة منوطة بالمسلمين، ولا يجوز لهم أن يتصلوا منها. قال رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(٢). والإحساس بالمسؤولية يجعل الإنسان مدفوعاً إلى إتقان عمله والإخلاص فيه، وكلما تعمق هذا الشعور داخله كلما اكتسب مهارات أكثر، وأبدع في التعامل مع مقتضيات الحياة اليومية على مختلف الأصعدة الشخصية الاجتماعية والوظيفية، ونجح في السيطرة على مجال عمله، وبرع في تخصصه وتميز فيه.

وقد علم الرسول ﷺ المسلمين قاعدة عظيمة من قواعد اكتساب المهارات، وهي إتقان العمل وإتباع أحسن الطرق لإنجازه، فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدِّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»^(٣)، وهذا الأمر ينسحب على كل عمل يعمل المسلم. يقول ابن رجب الحنبلي: «وهذا الحديث يدل على وجوب الإحسان في كل شيء من الأعمال، لكن إحسان كل شيء بحسبه، فالإحسان في الإتيان بالواجبات على وجه الكمال وهو إحسان واجب، والإحسان في ترك المحرمات بالانتهاء عنها، وترك ظاهرها وباطنها، والإحسان في الصبر على المقدورات، والإحسان في معاملة الخلق ومعاشرتهم، حتى الإحسان في قتل ما

١- الإبداع العام والخاص، ألكسندر روشكا، ص ١٠٨.

٢- صحيح البخاري، كتاب الاستقراض، باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه، رقم ٢٢٣٢.

٣- صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، رقم ٣٦١٥.

يجوز قتله من الدواب، والإحسان في الأعمال كلها^(١)، وقد بينت دراسات التنمية البشرية أن اكتساب المهارات ليس حكراً على أحد، بل هو متاح للناس جميعاً، وكل ما يحتاجه هو الإرادة والوقت والجهد والتدريب والتكرار والإتقان، وأثبتت أن إتقان العمل والحرص على القيام به على أحسن وجه، أحسن سبيل لاكتساب المهارات، والبراعة في التخصص، والتقليل من الأخطاء، ورفع كفاءة العاملين، وتدريبهم على حل مشكلاتهم بأنفسهم، وتطوير إنتاجهم بطرق مبتكرة، يكتشفونها حينما يبرعون في أداء عملهم، ويسيطرون على حرفتهم سيطرة كاملة، وهذا باب من أبواب الإبداع الكثيرة.

والمهارات التي دعا رسول الله ﷺ إلى اكتسابها كثيرة ومتعددة وتغطي مجالات مهمة في الحياة ومنها:

المطلب الأول: المهارات العلمية:

حيث أكد عليه الصلاة والسلام أن العلم بالتعلم، أي إنه مهارة تُكتسب بالإقبال عليه وبذل الجهد في طلبه، وإنفاق الوقت في تحصيله، وحمل الذاكرة على استيعابه والاستفادة منه؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ»^(٢)، ورغب المسلمين في طلب العلم، لأن فيه رضا الله، ولأنه طريق مبارك يقود صاحبه إلى الجنة؛ لما للعلم من أثر في تنوير العقول وفتح الأذهان، والتخلص من قيود الجهل الذي يشل طاقات الفرد، ويقعد به عن طلب الكمالات، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(٣)، وفي رواية الترمذي:

١- جامع العلوم والحكم، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ج ١، ص ٣٨١.

٢- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، رقم ٧١.

٣- صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم ٤٨٧٦.

«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا رِضَاءً لَطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ الْخَيْتَانَ فِي الْمَاءِ»^(١)، وحثَّ على اكتساب العلم وتعليمه للغير مهما كان قليلاً: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(٢)، ودعا إلى نشره بين الناس فرجماً صادف المعلم تلميذاً هو أذكى منه فيأخذ منه العلم وينفع به أكثر منه، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَضَّرَ اللَّهُ أُمَّرَأَ سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ»^(٣).

المطلب الثاني: المهارات العملية:

هذا وقد ثمن رسول الله ﷺ الإقبال على العمل وإتقانه، وبارك الكسب بعرق الجبين والسعي لاكتساب الرزق، وعده نوعاً من الجهاد الذي يستحق جزيل الثواب. وغطت التوجيهات النبوية جميع مجالات الحياة العملية الصناعية والزراعية والتجارية وغيرها. ففي الحث على التوسع في الزراعة يقول رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرُسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»^(٤). وفي التشجيع على الإبداع في الحرف أخبر رسول الله أن أجر صانع السهم يساوي أجر من يجاهد به، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ، صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صُنْعِهِ الْخَيْرَ، وَالرَّامِيَ بِهِ وَمَنْبَلُهُ، وَأَرْمُوا وَأَرْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا»^(٥).

- ١- سنن الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم ٢٦٠٦، صححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٢٦٨٥.
- ٢- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم ٢٢٠٢.
- ٣- سنن الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم ٢٥٨١، وقال: حديث حسن صحيح، رواه ابن حبان في صحيحه رقم ٦٩، و صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٨٩.
- ٤- صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، رقم ٢٩٠٤.
- ٥- سنن النسائي، كتاب الخيل، باب تأديب الرجل فرسه، رقم ٣٥٢٢، مسند أحمد، رقم ١٦٦٦٢، ضعفه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح، رقم ٣٧٩٥ وقال: إسناده مضطرب، وفي ضعيف أبي داود، رقم ٢٥١٣ وقال ضعيف.

المطلب الثالث: المهارات القتالية:

ودعا النبي عليه الصلاة والسلام إلى اكتساب المهارات القتالية المختلفة لما فيها من تقوية للأمة، وتعزيز لجانبها، وإرهاب لأعدائها، ودعماً للحق الذي تحمله. فعن أبي عليٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُفِيٍّ أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ يَقُولُ: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، أَلَّا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَّا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَّا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ»^(١). وحذر من التواني في التدريب والتمرين والركون إلى الكسل، وحث على مداومة اكتساب المهارات القتالية بشكل متواصل: «مَنْ عَلِمَ الرَّمِيَّ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا أَوْ قَدْ عَصَى»^(٢).

المطلب الرابع: المهارات الحياتية:

وأرشد رسول الله ﷺ المسلمين إلى كثير من المهارات الحياتية التي تمكن الإنسان من التكيف الإيجابي مع نفسه ومع محيطه والتأثير فيه. ومنها مهارات الحفاظ على البيئة والصحة، التي يكتسبها الإنسان من خلال التزامه بإمادة الأذى عن الطريق فيكون جزاؤه المباشر مغفرة ذنوبه: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخْرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»^(٣). ودلنا على جملة من المهارات الحياتية التي تقوي نسيج العلاقات الاجتماعية، وتشيع روح التعاون والتآلف بين المسلمين، ومنها إصلاح ذات البين، ومساعدة الناس في حمل متاعهم، والتودد إليهم ومعاملتهم بالحسنى، وتزكية النفس وغيرها، فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ سَلَامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ

١- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، رقم ٣٥٤١.

٢- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه.

٣- صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب فضل التهجير إلى الظهر، رقم ٦١٥.

عَلَيْهَا مَتَاعُهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيَمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»^(١). وأرشدنا إلى اكتساب مهارات التعامل مع الخسارة والإساءة والصدمات المؤلمة فقال عليه الصلاة والسلام: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، أَحْرَصٌ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعْنُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفْتَحَ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(٢)، ودلنا إلى أمثل طريقة لاكتساب مهارات ضبط النفس والتحكم في الانفعالات السلبية: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْصِنِي قَالَ: لَا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مَرَارًا، قَالَ: لَا تَغْضَبْ»^(٣)، وفي حديث رائع دعا المسلمين إلى اكتساب الوعي بقيمة الوقت الثمينة وحسن إدارته، والاستفادة منه في العمل الصالح النافع إلى أقصى حد، وهو ما يعرف في دراسات التنمية البشرية الحديثة بمهارات إدارة الوقت فقال عليه الصلاة والسلام: «لَا تَزُولُ قَدَمًا عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»^(٤). كما حث على الاهتمام بأفراد المجتمع من ذوي الخبرة القليلة، وتعليمهم أصول الحرف، وإعانتهم على إتقان أعمالهم، وإرشادهم إلى اكتساب مختلف المهارات الحياتية، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِغُلَامٍ يَسْلُخُ شَاةً فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَنْحَ حَتَّى أُرِيكَ. فَأَدْخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ، فَدَحَسَ بِهَا حَتَّى تَوَارَتْ إِلَى الْإِطِطِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ هَكَذَا

١- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم ٢٧٦٧.

٢- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، رقم ٤٨١٦.

٣- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم ٥٦٥١.

٤- سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع عن رسول الله، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، رقم ٢٣٤١ وقال: "حديث حسن صحيح".

فَاسْلُخْ، ثُمَّ مَضَى وَصَلَّى لِلنَّاسِ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ»^(١).

المبحث الخامس: منهج السنة النبوية في اكتشاف المواهب

إن هذه النماذج وغيرها كثير مما تزخر به السنة النبوية الشريفة، تؤكد لنا الأهمية الكبرى التي كانت تحتلها الطاقات البشرية في مسيرة الدعوة الإسلامية، وتثبت أن الإنسان كان هو المحور الرئيس لها بدءاً وختاماً، وأن مدارها كله على تزكيته وتكوينه، وتأهيله وتوظيف طاقاته النفسية والعقلية توظيفاً جيداً يتناسب مع سمو الأمانة التي أناطها الله به حينما أوكل إليه مهمة الاستخلاف في الأرض، وجعله مسؤولاً عن عمارتها بالخير والحق. وقد انتهج النبي الكريم ﷺ في اكتشاف المواهب طرقاً شتى وأساليب متنوعة سنحاول فيما يلي الإشارة إلى بعضها:

المطلب الأول: الفراسة:

وهي حاسة دقيقة تتميز بها طائفة من الناس من ذوي الذكاء الحاد والنفوس الصافية، ومن أصحاب الخبرات والعلم الواسع الذين يحسنون توظيف معارفهم في تحليل الشخصيات وإدراك خباياها، والتنبؤ بسلوك الأشخاص وتقدير المآلات بناء على معطيات يدركونها بهذه الحاسة، ولا يستطيع كثير من الناس الإمام بها. وهي موهبة فطرية تدعمها الخبرة وسعة الاطلاع وتعرف على أنها: «الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة، والاستدلال بهيئات الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله على أخلاقه وفضائله وذرائله»^(٢). والفراسة نوعان، الأول: موهبة تظهر في حدة الذكاء والفتنة وجودة الذهن، تدعمها خبرات ومهارات وتجارب حياتية خصبة. والثاني: نور يقذفه الله في قلب عبده المؤمن فتصفو نفسه وتسمو ويقترّب من معرفة الحق وإدراكه بالنظر الصائب، والتفرس الجيد في

١- سنن ابن ماجه، كتاب الذبائح، باب السليخ، رقم ٣١٧٠، صحيح ابن حبان، ج ٣، ص ٤٣٨، رقم ١١٦٣، صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، رقم ١٧٨، وفي صحيح سنن ابن ماجه، رقم ٢٥٧٥.

٢- منهج التربية الإسلامية في رعاية الموهوبين، رأفت محمد علي الجديبي، ص ١٦١.

مظاهر الناس. وقد اجتمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم النوعان معاً، فهو صفوة البشر وخير الخلق، تخلصت نفسه الشريفة من أكدار الشهوات حتى غدت صقيلة كالمرأة، واتصلت أسبابه بالخالق فكانت نظرتة إلى الإنسان لا تخطيء أبداً، كما ورث عن قومه العرب فراستهم التي اشتهروا بها لبعدهم عن مواطن الحضارة وسلامة فطرتهم وقربهم من الطبيعة الصافية، ورفد ذلك كله بذكاء حاد، ونظر ثاقب، وخبرة طويلة، فكان عليه الصلاة والسلام يقرأ ملامح الوجوه ويستجلي من تعبيراتها أحوال الشخصية النفسية والعقلية والشعورية، وبين أن المؤمن الصادق له نصيب من هذه الحاسة على قدر قوة إيمانه وطهارته باطنه. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ»^(١)، وعن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ»^(٢).

ونلمح ذلك جلياً في موقفه من عبد الله بن مسعود الذي لقيه أثناء الهجرة واستسقاها من لبن الغنم التي كان يربها. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «كُنْتُ غُلامًا يافِعًا أَرَعَى غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَقَدْ فَرَّأَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ يَا غُلامُ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ لَبَنِ تَسْقِينَا قُلْتُ إِنَّي مُؤْتَمِنٌ وَلَسْتُ سَاقِيكُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَذَعَةٍ لَمْ يَنْزُ عَلَيْهَا الْفَحْلُ قُلْتُ نَعَمْ فَاتَيْتُهُمَا بِهَا فَاعْتَقَلَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسَحَ الضَّرْعَ وَدَعَا فَحْفَلَ الضَّرْعِ، ثُمَّ أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ بِصَخْرَةٍ مُنْقَعِرَةٍ فَاحْتَلَبَ فِيهَا فَشَرِبَ وَشَرِبَ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ شَرِبْتُ ثُمَّ قَالَ لِلضَّرْعِ أَقْلِصْ فَقَلَصَ، فَاتَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَقُلْتُ عَلَّمَنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ قَالَ إِنَّكَ غُلامٌ مُعَلَّمٌ قَالَ فَأَخَذْتُ مِنْ

١- سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب ومن سورة الحجر، رقم ٣٠٥٢، وقال: "حديث غريب"، ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ١٨٢١.

٢- رواه الطبراني في الأوسط، ج ٣، ص ٢٠٧، وابن جرير الطبري في التفسير، ج ١٤، ص ٤٦، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار والطبراني في الأوسط وإسناده حسن، ج ١٠، ص ٢٦٨، حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٦٩٣.

فِيهِ سَبْعِينَ سُورَةً لَا يُنَازِعُنِي فِيهَا أَحَدٌ»^(١). فقد توسم فيه رسول الله ﷺ مخايل النجابة والذكاء، ولمح في حديثه وسلوكه نفاسة المعدن وحسن الخلق على الرغم من صغر سنه وبساطة حالته الاجتماعية والمادية بدليل أنه بعد أن جاءه طالباً الدخول في الإسلام ومعرفة أحكامه قال له «إِنَّكَ غُلَامٌ مُعَلَّمٌ» أي أن استعدادك لتلقي العلم والبراعة فيه واضح من تصرفاتك. فعلى الرغم من أنه كان راعياً لأحد عتاة الكفر وصناديد قريش لم يتأثر بما كان يدور في بيئته من أن محمداً ﷺ كان ساحراً أو كاهناً أو مجنوناً، بل أدرك بسرعة أن ما قاله رسول الله وهو يحلب الشاة كلام طيب يهدي إلى الرشد والحق، وهذا دليل على ذكائه وحسن إدراكه، كما أن امتناعه عن سقيهما لبن الشياه التي تحت يديه لأنه مؤتمن عليها دليل على أخلاقه الحميدة وخصاله الطيبة.

وقد صدقت فراسة رسول الله ﷺ، فقد صار هذا الغلام الذي كان يمتهن الرعي عند عقبة بن أبي معيط أعتى خصوم الإسلام، وأشدهم بطشاً بالمؤمنين وإيذاء لرسول الله ﷺ علماً بارزاً من أعلام الصحابة، يقف رسول الله ﷺ في جموع المسلمين ليبلغهم أنه واحد من أربعة يؤخذ منهم القرآن، لسلامة حفظهم وقوة ذاكرتهم وحسن قراءتهم. فقد ذُكِرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَقَالَ: «ذَلِكَ رَجُلٌ لَا أَزَالُ أُحِبُّهُ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ، مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَبَدَأَ بِهِ وَسَلَّمُ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ وَمُعَاذِ ابْنِ جَبَلٍ وَأَبِي بَنِي كَعْبٍ»^(٢)، ورغب في الاستماع إلى قراءته لما فيها من الرقة والنداوة والصدق: «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ بَشَّرَاهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غُضًّا كَمَا أَنْزَلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَيَّ

١ - مسند أحمد، رقم ٤١٨٠، انفرد به أحمد بن حنبل، قال شعيب الأرنؤوط في حاشية مسند أحمد، إسناده صحيح، ج ١، ص ٣٧٩، رقم ٣٥٩٨.

٢ - صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب أبي بن كعب، رقم ٣٥٢٤.

قِرَاءَةُ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ^١».

كما تتجلى لنا فِرَاسَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي تَنْصِيبِ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ أَمِيرًا عَلَى الْجَيْشِ وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي مَقْتَبِلِ الشَّبَابِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَجُودِ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ أَكْثَرُ مِنْهُ سِنًا وَسَبَقًا لِلْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَوَسَّمَ فِيهِ الصِّفَاتَ الَّتِي تَوْهَلَهُ لِهَذَا الْمَنْصِبِ، وَأَكَّدَ هَذَا الْأَمْرَ حِينَمَا طَعَنَ بَعْضُهُمْ فِي إِمَارَتِهِ: «فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْثًا، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ فَطَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِمَارَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْ تَطْعُنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعُنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ. وَإِيمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ وَإِنْ كَانَ لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ وَإِنْ هَذَا لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ»^(٢).

بينما نصح أبا ذر الغفاري بالابتعاد عن الإمارة وبين له أن قدراته النفسية لا تقوى على تحمل تبعاتها: «عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمَلُنِي؟ قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»^(٣)، هذا على الرغم من أنه قد شهد له في موضع آخر شهادة حق أنه أصدق أهل الأرض لهجة: «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا أَظَلَّتْ الْخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتْ الْغُبْرَاءُ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍّ»^(٤)، فليس المانع في تقليد الإمارة حسن إسلامه أو متانة إيمانه، وإنما تبين لرسول الله ﷺ بفراسته الصائبة أن استعدادات أبا ذر لا تتناسب مع هذا النوع من المسؤوليات، فأبعده عنها شفقة عليه: «إِنْ مَعْرِفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَحْوَالِ الطَّالِبِينَ لِلْإِمَارَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ، هِيَ الَّتِي

١- سنن ابن ماجه كتاب المقدمة باب فضل عبد الله بن مسعود، رقم ١٣٥، مسند أحمد، رقم ٣٥.

٢- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب زيد بن حارثة مولى النبي، رقم ٣٤٥١.

٣- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم ٣٤٠٤.

٤- سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله، باب مناقب أبي ذر، رقم ٣٧٣٧ وقال حديث حسن،

مسند أحمد، رقم ٦٣٤١، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٣٨٠١، وفي سلسلة الأحاديث

الصحيحة، رقم ٢٣٤٣.

كانت تملي عليه مواقفه في إسناد المهمات، الأمر الذي مكّنه من وضع كل رجل في محله الصحيح الذي يعطي فيه من ملكاته وقدراته أقصى ما يمكن، فالخبرة بالنفسيات والقابليات والأحوال العامة للأشخاص، هي الميزان الصحيح والمقياس الدقيق للاستفادة منهم كل في ميدانه، وعلى قدر طاقته واستعداده»^(٥).

المطلب الثاني: الانخراط الاجتماعي:

إن طبيعة الرسالة الخاتمة التي كُلف رسول الله ﷺ بتبليغها تقتضي أن يصل نورها إلى جميع البشر: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ، ٢٨)، وأن تشمل بخيرها ورحمتها كل إنسان على وجه البسيطة، وقد كانت هذه القضية واضحة بشكل تام في ذهن رسول الله ﷺ حينما صدع بدعوته وخاطب بها الناس جميعاً، وأعلن من خلالها أن بني آدم جميعاً يتساوون في القيمة الإنسانية والكرامة الآدمية وأنهم أهل جميعاً لأن يعرفوا خالقهم حق المعرفة، ويتحملوا كامل مسؤولياتهم أمامه، وكانت سيرته العطرة ترجمة حقيقية لهذا التوجه الرسالي، فقد نزل رسول الله ﷺ إلى الناس وخالطهم مخالطة عميقة، وانخرط في ثنايا المجتمع بكل طبقاته وأطيافه انخراطاً حقيقياً، تستوي في ذلك الحقة المكية والمدنية. ففي مجتمع مكة الطبقي الذي كان يقوم على الأسياد والعبيد جمعت دعوة رسول الله ﷺ كل من استنار قلبه بنور الإسلام، وأقبل على الله طائعا مختاراً، فكان فيهم الشريف الحسيب النسب الذي ينتمي إلى أرقى بيوتات العز والشرف، وكان فيهم الفقير والضعيف والعبد المملوك وكانوا كلهم سواسية أمام النبي الكريم ﷺ، يعلمهم جميعاً ويدعو لهم جميعاً، ويشفق عليهم إذا نالهم الأذى، ويعتمد عليهم في المهمات.

وكان ذلك دأبه أيضاً في المدينة، فكان يمشي مع العبد، والأرملة، والمسكين،

٥ - الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية، الطيب برغوث، ص ٩٥.

يواسيهم ويساعدهم في قضاء حوائجهم، ويأتي ضعفاء المسلمين يزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنازتهم، ويزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم، ويبدأ من يقابله بالسلام ويصافحه، ولا يفرق في ذلك بين صغير وكبير أو حر وعبد، وكان يأكل مع خادمه، ويشترى الشيء من السوق بنفسه، ويحمله بيديه ويشارك أصحابه العمل ما قل منه وما كثر ولا يتميز عنهم، وإذا مر على الصبيان والصغار سلم عليهم، وداعبهم بكلمة طيبة، أو لاطفهم بلمسة حانية، وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ فتنتلق به حيث شاءت، وإذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ناوله إياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه، وإذا لقي أحداً من أصحابه فتناول أذنه ناوله إياها ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه. وكان يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم. وكان «يَجْلِسُ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَصْحَابِهِ، فَيَجِيءُ الْغَرِيبُ فَلَا يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ»^(١)، وكان يقول ﷺ: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كِرَاعٍ لَأَجَبْتُ وَلَوْ أُهُدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كِرَاعٌ لَقَبَلْتُ»^(٢).

وكان حسن خلقه وتواضعه الجم، عاملان أساسيان من عوامل نجاحه الكبير في ربط علاقات الود والأخوة والاحترام والتعاطف بينه وبين الناس، واستطاع من خلال ذلك أن يكتشف مواهب ومميزات مختلف الشخصيات الإنسانية التي قابلها، وأن يعرف من خلالها أصحاب المواهب فيوجههم التوجيه الصحيح، ويرعى عامة الناس بأن يحثهم على اكتساب مختلف المهارات التي تمتص الطاقات المدخورة في دواخلهم، وتحولهم إلى عناصر فعالة تحرك دواليب المجتمع وتغذيته.

١ - سنن النسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، باب صفة الإيمان والإسلام، رقم ٤٩٠٥، سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في القدر، رقم ٤٠٧٦، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٣٨٠١، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ٢٣٤٣.

٢ - صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب القليل من الهبة، رقم ٢٣٨٠.

المطلب الثالث: قوة الملاحظة ودقتها:

وهذه من صفات القادة الكبار الذين يملكون قوة تركيز عالية تتيح لهم التقاط كل الحركات والسكنات التي يأتي بها المحيطون بهم، ومن ثم يترجمونها إلى دلائل ومؤشرات على معرفة نوعية الشخصية التي يتعاملون معها وطبيعة تركيبها النفسي والعقلي. وقد بلغ رسول الله ﷺ القمة في ذلك، إذ لم تكن تفوته شاردة ولا واردة في سلوك أصحابه، أو سلوك الناس الذين يتعامل معهم، فقد كان ذلك جزءاً صميماً من رسالته التي تستدعي تصحيح الأخطاء، وتقويم الاعوجاج وترشيد الضال وتشجيع المحسن، وقد استطاع النبي الكريم من خلال هذه الميزة أن يكتشف كثيراً من المواهب.

ومن أمثلة ذلك، أن وفد عبد القيس جاؤوا إلى المدينة ليبايعوا رسول الله ﷺ ويسألوه عن دينهم، فلما وصلوا نزلوا عن رحالهم وأسرعوا إلى رسول الله في شوق لرؤيته والسماع منه، أما الأشج وكان سيدهم وزعيمهم فقد تأخر عنهم، فعقل رحالهم ورتب متاعهم ولبس أحسن ثيابه ثم دخل على رسول الله ﷺ في وقار وأناة: «فَتَخَلَّفَ بَعْدَ الْقَوْمِ فَعَقَلَ رَوَاحِلَهُمْ وَضَمَّ مَتَاعَهُمْ، ثُمَّ أَخْرَجَ عَيْتَهُ فَأَلْقَى عَنْهُ ثِيَابَ السَّفَرِ وَلَبَسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ بَسَطَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رِجْلَهُ وَأَتَكَأَ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ الْأَشْجُ أَوْسَعَ الْقَوْمُ لَهُ وَقَالُوا هَاهُنَا يَا أَشْجُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَوَى قَاعِدًا وَقَبَضَ رِجْلَهُ هَاهُنَا يَا أَشْجُ فَقَعَدَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَحَّبَ بِهِ وَالْطَّفَهُ»^(١)، ولما انتهى من مبايعة الوفد والرد على أسئلتهم التفت إلى الأشج فقال له: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالْأَنَاءُ»^(٢). وهذا دليل قوي على أن

١- مسند أحمد، رقم ١٥٠٠٨، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ١١٩٨، وأورده الهيتمي في مجمع الزوائد، ج ٨، ص ١٧٧ ١٧٨ وقال، رواه أحمد، ورجاله ثقات.

٢- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين، رقم ٢٤.

رسول الله ﷺ قد لاحظ على الرغم من انشغاله باستقبال الوفد والحديث معهم سلوك الأشج وأسلوبه في معاملة أفراد عشيرته، وصبره على استعجالهم وقيامه بخدمتهم مع أنه سيدهم، وتقديره لمقام النبوة بأن دخل عليه في أحسن هيئة، واستشف من ذلك ما يتمتع به هذا الرجل من مزايا خاصة تؤهله لأن يكون سيداً في قومه.

كما اكتشف أيضاً موهبة أبي محذورة بقوة ملاحظته. فقد كان أبو محذورة مشركاً، وعندما سمع المسلمين يؤذنون أثناء عودتهم من غزوة حنين، انبرى هو ومن معه من شباب المشركين يقلدون صوت بلال ويستهزئون به، فالتقط رسول الله من بين تلك الأصوات العابثة صوت أبي محذورة الذي وجده عذباً ندياً وقوياً فاستدعاه ومسح على ناصيته وصدرة ودعاه إلى الإسلام فأسلم، ثم علمه كلمات الأذان، ولقنها له كلمة كلمة حتى وعاه ودعاه إلى الأذان، ثم سيره إلى مكة وعيَّنه مؤذناً على أهلها: «فَعَنْ أَبِي مَحْذُورَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْعَدَهُ وَأَلْقَى عَلَيْهِ الْأَذَانَ حَرْفًا حَرْفًا»^(١).

المطلب الرابع: اختبارات الذكاء:

انتهج رسول الله ﷺ في اكتشاف المواهب طريقة طرح الأسئلة لاختبار ذكاء الحاضرين واستخراج مكنونات صدورهم، والاطلاع على أساليب تفكيرهم، وتقييم أجوبتهم، وتصويبها، وتوجيههم، وتصحيح اتجاهاتهم الفكرية، وهو أسلوب حديث تستعمله المناهج النفسية والتربوية الحديثة لاختبار الذكاء وقياس الاستعدادات العقلية، حيث يطرح المعلم على طلبته أسئلة مثيرة للجدل، ويشجعهم على التعبير التلقائي، ويدربهم على آليات توليد الأفكار الجديدة،

١- سنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الترجيع في الأذان، رقم ١٧٦ وقال: حديث صحيح، صححه الألباني في سنن أبي داود، ج ١، ص ١٣٧، رقم ٥٠٤، وقال في أحكام الأذان والإقامة سننه صحيح.

وإصدار الأحكام، وإدراك العلاقات القائمة بين الأشياء^(١)، حتى تطفو مواهبهم وتبرز قدراتهم وتتضح مختلف استعداداتهم.

ومن أمثلة هذه الاختبارات لغز النخلة الذي طرحه رسول الله ﷺ على أصحابه ليحثهم على أعمال فكرهم في إيجاد اسم الشجرة التي تشبه المؤمن من خلال الصفات التي أعطاهم إياها: «عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ شَجْرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مِثْلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدَّثُونِي مَا هِيَ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبُؤَادِي، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدَّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ»^(٢).

وانتهج الأسلوب نفسه مع أبي بن كعب حينما لمس فيه قدرة مميّزة على حسن فهم القرآن وإدراك أبعاده وسبر أسراره ومقاصده، فأراد أن يعطيه دفعة قوية لموهبته التي لمح النبي علاماتها عليه، فطرح عليه هذا السؤال المباشر والصريح وكرّره عليه ليؤكد له أنه قادر على الإجابة عليه، وليستخرج الدليل الحي على ما أوتي من الفهم الصائب، ثم عقب على جوابه الموفق بأن هنأه بهذه المنحة الربانية واعترف له بتميّزه فيها. عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «يَا أَبَا الْمُنْذَرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذَرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ قُلْتُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، قَالَ: فَضْرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذَرِ»^(٣). قال النووي: «قوله صلى الله عليه وسلم (ليهنك العلم يا أبا المنذر) فيه منقبة عظيمة لأبي ودليل على كثرة علمه»^(٤).

- ١- الموهبة والإبداع، طرائق التشخيص وأدواته المحوسبة، تيسير صبحي، ص ٣٣.
- ٢- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول المحدث حدثنا وأخبرنا وأنبأنا، رقم ٥٩.
- ٣- صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم ١٣٤٣.
- ٤- صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، مج ٣، ج ٦، ص ٩٣.

وكذلك الحال مع معاذ بن جبل، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «بيننا أنا رديف النبي صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا أخرة الرجل، فقال: يا معاذ ابن جبل. قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ. قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم! قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ ابن جبل قلت: لبيك رسول الله وسعديك، فقال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟ قلت: الله ورسوله أعلم! قال: حق العباد على الله أن لا يعذبهم»^(١).

المطلب الخامس: الاعتماد على ترشيح الوالدين والأقارب:

إذ لا يخفى ما للأسرة من دور رائد في اكتشاف مواهب أبنائها؛ نظراً للعلاقة الحميمة التي تربطها بهم، حيث يكونون تحت سمعها وبصرها منذ ولادتهم، ويتقبلون في أحضانها في جميع أطوارهم، ومن السهل عليها أن تلمس مواطن التميز ومظاهر التفوق في سلوكهم؛ لذلك أجاز رسول الله ﷺ الموهوبين الذين زكاهم أفراد من أسرهم، وشملهم برعايته ومتابعته فكان لهم شأن في حياة الأمة، وإسهام واضح في نهضتها العامة. ومن هؤلاء زيد بن ثابت الذي رشحه أهله للنبي الكريم وزكوه عنده. يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه: «لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة: ذهب بي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأعجب بي، فقالوا: يا رسول الله هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فأعجب ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا زيد تعلم لي كتاب يهود فإني والله ما آمن يهود على كتابي، قال زيد: فتعلمت كتابهم ما مرت بي خمس عشرة ليلة حتى حدقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه

١ - صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف، رقم ٥٥١٠.

إِذَا كَتَبَ»^(١).

ومنهم أيضا أنس بن مالك الذي دفعه أهله إلى رسول الله ﷺ بعد أن امتدحوا فطنته وكياسته، فصحب رسول الله سنين عديدة، واقتبس من أنواره ما شاء له الله أن يقتبس، وأصبح مرجعا للمسلمين في دينهم وفي سنة نبيهم، بما وعى من الأحاديث والوقائع والأحداث، ونال بركة دعاء رسول الله له بكثرة المال والولد لما رأى فيه من حسن الخلق والتأدب والقيام بواجباته دون كسل أو تماطل. عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَأَخَذَ أَبُو طَلْحَةَ بِيَدِي فَأَنْطَلَقَ بِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَنَسًا غُلَامٌ كَيْسٌ فَلِيخْدَمَكَ، قَالَ: فَخَدَمْتُهُ فِي السَّفَرِ وَالْحَضْرَ مَا قَالَ لِي لَشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لَمْ صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا، وَلَا لَشَيْءٍ لَمْ أَصْنَعُهُ لَمْ تَصْنَعْ هَذَا هَكَذَا»^(٢).

المبحث السادس: تطوير المواهب وتنمية المهارات في السنة النبوية

إن الموهبة كالنبته التي تخرج من الأرض، غضة طرية ضعيفة تحتاج لمن يرعاها ويهتم بها، ويوفر لها البيئة المناسبة التي تساعد على النمو والتطور، حتى تستوي على سوقها وتطرح ثمارها اليانعة وإنتاجها الوفير. لذلك كان الموهوبون بحاجة ماسة إلى من يقدر هذه الملكات الفطرية التي يحملونها بين جوانبهم، فيشملونها باهتمامهم ويحيطونها بالظروف الملائمة التي تحفظها من الضياع والذبول. وقد انتهج النبي ﷺ عدة أساليب لتطوير المواهب وتنميتها، والاهتمام بالمهارات والدعوة إلى صقلها وتزويدها بالخبرات.

- ١- مسند أحمد، رقم ٣٠٦٣٢، سنن الترمذي، كتاب الاستئذان والآداب، باب ماجاء في تعليم السريانية، رقم ٢٦٣٩، سنن أبي داود، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، رقم ٣١٦٠، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج ١، ص ٣٦٤.
- ٢- صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب استخدام اليتيم في السفر والحضر إذا كان صلاحه له، رقم ٢٥٦١.

وكما اكتشف رسول الله ﷺ مواهب أصحابه، ووظفها في المكان الذي يناسبها ويخدم الدعوة والمجتمع، اهتم في الوقت ذاته بالمحافظة عليها وتطويرها وتنميتها، وتوفير الدوافع النفسية التي تحفز أصحابها إلى بذل مزيد من الجهد، لصقلها والارتقاء بها نحو مزيد من الإبداع والتألق. وسلك في سبيل تحقيق هذه الغاية جملة من الوسائل من أهمها:

المطلب الأول: الشناء والتشجيع المعنوي:

لا يختلف اثنان في أن التشجيع له دوره المهم والإستراتيجي في ظهور الموهبة، ثم في نموها ورفقيها وبلوغ صاحبها بها شأوا بعيدا؛ لأنه يشبع حاجة أساسية من حاجات الإنسان النفسية، وهي الحاجة الفطرية إلى التقدير والاهتمام، والاعتراف بملكاته التي يحس أنها تميزه عن باقي الناس. وللتشجيع آثاره الإيجابية العميقة، فهو يوفر للموهوب الدافع الذاتي الذي يحفزه إلى المزيد من التعلق بموهبته، ويبعث فيه الرغبة الكبيرة في صقلها وتطويرها، وتنمية مهاراته، وزيادة قدراته وكفاءاته وطاقته الإنتاجية، ويميل أقطار نفسه بالشعور بالرضى الذي يدفعه بقوة إلى استنفار كل طاقاته؛ للوصول إلى أعلى مستوى وأفضل مكانة؛ لأن التشجيع يحفز على تكرار العمل والمبالغة في إتقانه وتطويره، ثم الاعتياد عليه ليصبح مدخلا إلى الإبداع.

وقد أثبتت الدراسات النفسية الحديثة أن التشجيع يفعل في النفس البشرية ما لا تفعله عشرات النصائح والمواعظ؛ لأن من أعمق الصفات النفسية لدى الإنسان حرصه الدائم على أن يكون مقدراً من قبل الآخرين، وتجاوبه السريع مع من يظن به خيراً، ويقدر شأنه ويُسعره بأهليته لأداء الأعمال على الوجه المطلوب منه، ويعترف له بمكانته في المجتمع، مما يشبع حاجته إلى الانتماء وحاجته إلى تحقيق الذات.

وفي السنة النبوية الشريفة أمثلة رائعة للتشجيع الذي حظي به الموهوبون من الصحابة الكرام. حيث تطالعنا الأحاديث بالكلمات الرقاقة الجميلة المليئة بالحب والتقدير، والاعتراف بالإنجاز، والتي كان يوزعها رسول الله ﷺ على أصحاب المواهب والمهارات، وكأنها أوسمة ونياشين يعلقها على صدورهم فتملؤهم غبطة وسروراً، وثقةً وعزماً وحزماً، وقوة إيجابية، وثباتاً على الحق والمبدأ، وترفع من معنوياتهم فيقبلون على الحياة وهم في قمة الاستعداد للعطاء بلا حدود.

فأبو عبيدة بن الجراح أمين الأمة، قال رسول الله ﷺ لنصارى نجران: «لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، فَلَمَّا قَامَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ»^(١)، وعبد الله بن مسعود طوى بين أضلعه القرآن الكريم وأصبح يرتله صحيحاً غصاً طرياً كما نزل به جبريل على النبي ﷺ، والزبير بن العوام حوارى الرسول لشجاعته وإقدامه، واستجابته السريعة لأوامر النبي في ساعة العسرة والحاجة، فقد ندب النبي ﷺ الناس يوم الخندق: «فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَ النَّاسَ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ، ثُمَّ نَدَبَ النَّاسَ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرِ بِنِ الْعَوَامِ»^(٢)، وفي فتح الباري: «وفيه منقبة للزبير وقوة قلبه وصحة يقينه»^(٣)، والحواري «أي مختص من أصحابي ومفضل عليهم»^(٤)، وخالد بن الوليد سيف الله المسلول، ومعاذ بن جبل أعلم الناس بالحلل والحرام، لاستيعابه الجيد للأحكام الشرعية، وقدرته الفذة على استنباطها وتنزيلها على الوقائع المستجدة، وأبو ذر أصدق أهل الأرض لهجة وأكثرهم زهداً، حتى شُبهه في زهده بعيسى بن مريم عليه السلام،

١- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم ٤٠٢٩.

٢- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب هل يبعث الطليعة وحده، رقم ٢٦٣٥.

٣- فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مج ٦، ص ٥٣.

٤- غريب الحديث، ابن الجوزي، ج ١، ص ٢٥١.

وبلال أندى المؤذنين صوتا لما يحمله من فيض نفسه الرقيقة وطباعه الهادئة، وأبو موسى الأشعري أوتي مزارا من مزامير داود عليه السلام، إلى آخر عبارات التشجيع والثناء التي كان يغدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المهوبين والمتميزين.

وقد رصع رسول الله صدر ابن عباس بعدد كبير من الأوسمة الرفيعة، حين دعا الله أن يعلمه الحكمة وأن يفقهه في الدين، وأن يعلمه التأويل، وأن يعلمه الكتاب، وخصه بأحاديث عظيمة أكبر من عمره الزمني حينما رأى أنها تناسب قدراته وعمره العقلي. إن عبارات التشجيع الثمينة التي سمعها عبد الله بن عباس من رسول الله ﷺ وفيض الحنان والرعاية أغدقهما عليه، قد آتت أكلها في الغلام الذي امتلأ ثقة وعزماً، وتبين له طريقه في الحياة وحدد هدفه بدقة، وعزم أن يكون في مستوى آمال النبي الكريم وعند حسن ظنه، فلبث يغرف من علم النبي في مجالسه المختلفة، حتى إذا توفاه الله التفت إلى أصحابه من ذوي السبق والجهاد والخبرة والعلم، فلزمهم واحداً واحداً يأخذ عنهم ما فاتته وهو يشعر أن أمانة حفظ هذا العلم الغزير الذي يصح به دين الأمة أمانة في عنقه، يتعين عليه الوفاء بها مهما كلفه ذلك من مشاق. فعن ابن عباس قال: «لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لرجل من الأنصار: هلمّ نسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجباً لك يا ابن عباس، أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترى؟ فترك ذلك وأقبلت على المسألة، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فأتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، فتسفي الرياح عليّ التراب، فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عم رسول الله ألا أرسلت إليّ فأتيك؟ فأقول: أنا أحق أن أتيك فأسألك»^(١).

واعترف لأبي طلحة بتفوقه في الرمي وحسن إصابته لأهدافه حينما احتمي

١- سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٣٤٣، راجع أيضاً، فضائل الصحابة، ص ٩٧٧.

بترسه يوم أحد، وصار يتتبع موضع سهامه التي لا تخطئ مرماها. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ يَتَرَسُّ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرُوسٍ وَاحِدٍ وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ حَسَنَ الرَّمِيِّ فَكَانَ إِذَا رَمَى تَشَرَّفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَنْظُرُ إِلَى مَوْضِعِ نَبْلِهِ»^(١).

وأبدى إعجابه وتشجيعه لفريقين كانا يتباريان في الرماية، وذكرهما بأمجاد أيهما الذي اشتهر بالرماية وحاز قصب السبق فيها، ليعث فيهم الحماس ويشعل نار المنافسة بينهم، ليخرج كل واحد أفضل ما عنده من مهارات: «مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمٍ يَتَتَلُونَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فَلَانَ. قَالَ فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ؟ قَالُوا كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلَّكُمْ»^(٢).

وكان يشجع المبادرة ويثني على صاحبها، ويثمن مجهوده كأسلوب فعال في استشارة كمائتي العقول وحثها على إخراج ما تزخر به من نفيس الأفكار والآراء: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلُ مِنْكَ، لَمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ»^(٣).

وحيثما بادر حذيفة بن اليمان بالسؤال عن الشر الذي يأتي بعد الخير الذي جاء به رسول الله، وجد استجابة طيبة من النبي الكريم الذي بذل له علمه وسأيره مع أسئلته المتتالية، تشجيعاً له على حسن المبادرة والفتنة، التي دفعته للتفكير

١- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب المجن ومن يترس بترس صاحبه، رقم ٢٦٨٧.

٢- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، رقم ٢٦٨٤.

٣- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم ٦٠٨٥.

في هذا الأمر الذي غاب عن كثيرين من أصحابه: «عن أبي إدريس الخولاني أنه سَمِعَ حذيفةَ بنَ اليمانِ يقولُ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٌّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ نَعَمْ وَفِيهِ دَخْنٌ قُلْتُ وَمَا دَخْنُهُ قَالَ قَوْمٌ يَهْدُونَ بغيرِ هُدًى تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنَكَّرُ قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ قَالَ نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَفُّهُمْ لَنَا فَقَالَ هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِالسُّبْتِ قُلْتُ فَمَا تَأْمُرُنِي أَنْ أُدْرِكَنِي ذَلِكَ قَالَ تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ قَالَ فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعْصَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(١). وقد أهلتها فطنته هذه لأن يصبح راوياً لأحاديث الفتن، كما اصطفاه رسول الله ﷺ ليكون أمين سره ويحتفظ بأسماء المنافقين.

ويرى علماء النفس والتربية أن الثواب المعنوي أفضل بكثير من الثواب المادي؛ لأنه يكون وجدان الإنسان، وبنين ضميره، ويهذب مشاعره، ويقوي ثقته بنفسه، ويشعره أنه تحسن في عمله وأنه لديه الطاقة الكافية القادرة على الإتيان والنجاح.

المطلب الثاني: المكافأة المادية:

وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يجمع بين التشجيع والمكافأة كما في قصة الصحابي سلمة بن الأكوع، الذي كان له دور مميز جداً في غزوة ذي قرد. حيث استغل موهبته في العدو والتي لم يكن يغلبه فيها أحد في تتبع المشركين الذين استولوا على إبل المسلمين، وظل يطاردهم بالسهم تارة وبالْحِجَارَةَ تارة أخرى،

١ - صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٣٣٨.

ويراوغهم، ويعطل مسيرهم، حتى لحق بهم رسول الله ﷺ مع كوكبة من الفرسان واستنفذوا منهم ما سرقوا، وأخذوا منهم الغنائم التي خلفوها قبل هروبهم، يقول سلمة: «فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ وَخَيْرَ رَجَالِنَا سَلْمَةُ قَالَ ثُمَّ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهْمَيْنِ: سَهْمَ الْفَارِسِ وَسَهْمَ الرَّاجِلِ، فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعًا، ثُمَّ أَرَدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَأَاهُ عَلَى الْعَضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ»^(١)، وأبو قتادة هو أول فارس وصل قبل المجموعة وتصدى وحده للمشركين فكافأه رسول الله بهذه الكلمة الطيبة، وكافأ سلمة على حسن صنيعه بأن امتدحه أمام الجميع، ثم أعطاه سهمين من الغنائم، ثم أردفه خلفه على راحلته طوال المسافة التي تفصلهم عن المدينة، وفي هذا درس بليغ من القائد الذي يعرف للناس أقدارهم ويشبهم على قدر ما بذلوا من الجهد، وما أبدوا من النشاط والمبادرات حتى تظل شعلة العمل الصالح النافع متوقدة في نفوسهم، بل إنها تزداد مضاءً مع كل اعتراف تناله.

وأجاز رصد الجوائز المالية في مسابقات الرمي والفروسية لتكون حافزا للمتسابقين لإظهار أفضل ما عندهم والتنافس في التدريب والتمرين لبلوغ أقصى المهارات، ولتكون فرصة ثمينة لبروز المواهب وتألُق المتفوقين. فعن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا سَبَقَ إِلَّا فِي نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ»^(٢). ويرى بعض الدارسين أن الحديث الشريف يحتمل أن تشمل المكافآت مجالات أخرى تشترك مع الرمي والفروسية في النفع والمصلحة: «ولا تقتصر المكافآت على هذه الأنواع ولكن يحتمل أن يراد به أن أحق ما بذل فيه السبق هذه الثلاثة لكمال نفعها وعموم مصلحتها»^(٣).

- ١- صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها، رقم ٣٣٧٢.
- ٢- سنن الترمذي، كتاب الجهاد عن رسول الله، باب ما جاء في الرهان والسبق، رقم ١٦٢٢ وقال: حديث حسن، قال شعيب الأرنؤوط في حاشية مسند أحمد: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير نافع بن أبي نافع، ج ٢، ص ٤٧٤، رقم الحديث، ١٠١٤٢.
- ٣- الفروسية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ص ١٠٠.

المطلب الثالث: قبول المشورة:

دأب رسول الله ﷺ في كثير من مواقفه على استشارة أصحابه وإشراكهم في صنع القرار، وحثهم على إبداء آرائهم والكشف عن وجهات نظرهم، وتحفيزهم لطرح أكبر عدد من الحلول المقترحة، فإذا وجد فيها ما يحقق المصلحة المرجوة تبناه وأثنى على صاحبه خيراً، وفي هذا الأسلوب تشجيع للمواهب وتحفيز لأصحاب المبادرات، ودفع قوي للمتميزين كي يبرهنوا عن قدراتهم في اقتراح الحلول ومعالجة الأزمات. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ مَشُورَةً لِأَصْحَابِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١)، وفيه توجيه للقادة والمربين بعدم الانفراد بالرأي، والاستبداد في اتخاذ القرارات، وإتاحة الفرصة لكل المعنيين بطرح وجهات نظرهم التي قد تكون لمحت زاوية من زوايا الموضوع لم ينتبه إليها الآخرون.

ويحضرنا في هذا المقام ما حصل في غزوة بدر حينما بادر الحباب بن المنذر باقتراح تغيير موقع الجيش إلى موقع أقوى وأكثر إستراتيجية، فتبني النبي الكريم الاقتراح ونفذه، ليعلم المسلمون ثقافة الأخذ بالأسباب والجمع بين الإيمان الصادق وحسن التوكل، وبين دراسة الميدان دراسة جيدة للحصول على أفضل النتائج وأضمنها، وليرشدهم إلى احترام الآراء السديدة والاستفادة من كل المواهب والخبرات التي يزخر بها المجتمع مهما كانت منزلة أصحابها. يقول ابن حبان: «ثُمَّ رَحَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُسْلِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ: سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ، ثُمَّ مَضَى يُبَادِرُ قُرَيْشًا إِلَى الْمَاءِ إِذَا جَاءَ أَدْنَى مِنْ مَاءِ بَدْرِ نَزَلَ بِهِ، فَقَالَ حَبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَمُوحِ أَحَدِ بَنِي سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ أَمَنْزِلَ أَنْزَلَكَ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَ وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ قَالَ: بَلْ هُوَ الْحَرْبُ وَالرَّأْيُ وَالْمَكِيدَةُ،

١ - سنن الترمذي، كتاب الجهاد عن رسول الله، باب ما جاء في المشورة، رقم ١٦٣٦.

قَالَ: فَإِنْ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضْ حَتَّى نَأْتِيَ أَدْنَى قَلِيبِ الْقَوْمِ فَنزِلُهُ، ثُمَّ نَغُورُ مَا سِوَاهُ مِنَ الْقَلْبِ، ثُمَّ نَبْنِي حَوْضًا فَنَمْلَأُهُ، ثُمَّ نُقَاتِلُ فَنَشْرِبُ وَلَا يَشْرِبُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ أَشْرَتْ بِالرَّأْيِ»^(١).

كما قبل مشورة سلمان الفارسي في غزوة الخندق، قال ابن حجر: «وكان الذي أشار بذلك سلمان فيما ذكر أصحاب المغازي منهم أبو معشر قال: قال سلمان للنبي ﷺ: إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين»^(٢).

وفي يوم الحديبية وبعد أن كتب النبي معاهدة الصلح بينه وبين المشركين، وقبل بشروطهم، أمر أصحابه بحلق رؤوسهم ونحر هديهم، فلم يستجب له أحد لكثرة ما امتلأت قلوبهم غيظاً وحزناً على شروط المعاهدة، فدخل النبي الكريم على أم المؤمنين أم سلمة، يشكو لها سلوك أصحابه وهو مشفق أن ينالهم عقاب الله لعصيانهم نبيه، فأشارت عليه بالرأي الصائب الذي حل المشكلة، فعمل به إقراراً لرأيها وتقديراً لمشورتها الحكيمة: «فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ أَحْلِقُوا، قَالَ فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَيَّ أُمُّ سَلْمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِي مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلْمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ أَخْرَجْتُ ثُمَّ لَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرُ بَدَنَكَ، وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بَدَنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ

١- الثقات، ابن حبان، ج ١، ص ١٦١، المستدرک علی الصحیحین، الحاکم النیسابوری، فضائل الحباب ابن المنذر، ج ٣، ص ٢٧٢٦، رواه ابن هشام عن ابن إسحاق في السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٦٦، وقال الألباني في تخريج فقه السيرة للغزالي، وهذا سند ضعيف لجهالة الواسطة بين ابن إسحاق والرجال من بني سلمة وقد وصله الحاکم في مستدرکه.

٢- فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مج ٧، ص ٣٩٣.

قَامُوا فَانْحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا»^(١).

وفي هذا دليل على أن استشارة الصحابة وقبول المشورة المتميزة التي تصدر عن المهوبين وأصحاب الخبرة منهم، كان ديدن رسول الله وإحدى أهم أساليبه في تنمية المواهب والمهارات وتطويرها.

المطلب الرابع: الدعاء:

وهو نوع من التشجيع المعنوي العالي. إذ كان الصحابة الكرام يدركون بعمق قيمة الدعاء النبوي وأثره الكبير في حياة الإنسان؛ لذلك كان دعاؤه لأحدهم بمثابة الجائزة الكبرى التي لا تغلوها جائزة، والمحفز القوي الذي يثير فيهم الرغبة في السعي نحو الأفضل، وتحري أنجع السبل وأكثرها نفعا للارتقاء إلى مستوى ذلك الدعاء، والسمو إلى المرتبة التي استشرفها لهم رسول الله. وقد خص النبي الكريم بدعائه كثيرا من الصحابة من أصحاب المواهب والمهارات، فكان ذلك من أسباب فخرهم، ومن دوافع ازدياد اجتهادهم في طلب الصالحات والمسارة إليها، كل في المجال الذي برع فيه.

ومن أمثلة ذلك دعوته لابن عباس أن يفقهه الله في الدين ويعلمه الحكمة والكتاب والتأويل، فكان ابن عباس يبذل من الجهد ما يفوق طاقته، ليصل إلى هذا المستوى الرفيع من الدعاء. ودعا لأبي هريرة بقوة الذاكرة لما رأى فيه من رغبته الكبيرة في الحفظ، حيث ترك السعي للرزق وقنع بلقمة يأكلها مع مساكين المدينة في سبيل أن يظل قريبا من رسول الله الذي كافأه على ذلك بأن دعا له بأن يحفظ عليه كل ما يسمعه، فصار من كبار رواة الحديث ومكثريهم. قال أبو هريرة: «إِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهُ الْمَوْعِدُ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مَسْكِينًا أَلْزَمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ مِلءَ

١ - صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، رقم ٢٥٢٩.

بَطْنِي وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ يَشْغَلُهُمُ الْقِيَامُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، فَشَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَالَ مَنْ يَبْسُطُ رِدَاءَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي ثُمَّ يَقْبِضُهُ فَلَنْ يَنْسَى شَيْئًا سَمِعَهُ مِنِّي فَبَسَطْتُ بُرْدَةً كَانَتْ عَلَيَّ فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا نَسِيتُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْهُ»^(١).

ومنها أيضا دعوته لعامر بن الأكوع بأن يشمل الله برحمته فكان ذلك وعدا صادقا له بالجنة بسبب إبداعه في الحداء بالإبل، وإنشاده لأبيات شعرية رائعة تناسب المقام وتبعث في نفوس الجنود الذاهبين لغزوة خيبر فيضاص من مشاعر الحماسة والاندفاع. عَنْ سَلْمَةَ بِنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى خَيْبَرَ فَسَرْنَا لَيْلًا فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ لِعَامِرُ يَا عَامِرُ أَلَا تَسْمَعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلًا شَاعِرًا فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا أَهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا أَبْقَيْنَا وَثَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَأَقَيْنَا وَالْقَيْنُ سَكِينَةٌ عَلَيْنَا إِنْذَا صَبَحَ بَنَّا أَبِينَا وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا السَّائِقُ قَالُوا عَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ قَالَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ وَجِبَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهُ لَوْلَا أَمْتَعْتَنَا بِهِ»^(٢).

ومنها دعوته لأبي قتادة بحفظ الله حينما خالف سائر الناس الذين جدوا في السير للحاق بالمكان الذي حدده لهم رسول الله للالتقاء عنده، وأثر هو أن يسير جنب النبي الكريم لعله يقضي له حاجة، فكان ذلك مدعاة لمنعه من السقوط عن راحلته بعد أن غلبه النعاس عليها: «قَالَ أَبُو قَتَادَةَ فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسِيرُ حَتَّى ابْتَهَارَ اللَّيْلُ وَأَنَا إِلَى جَنْبِهِ، قَالَ فَنَعَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَالَ عَنِ رَاحِلَتِهِ فَاتَيْتُهُ فَدَعَمْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَوْقِظَهُ حَتَّى اعْتَدَلَ عَلَيَّ رَاحِلَتِهِ،

١ - صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الحججة على من قال إن أحكام النبي كانت ظاهرة، رقم ٦٨٠٧

٢ - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم ٣٨٧٥

قَالَ ثُمَّ سَارَ حَتَّى تَهَوَّرَ اللَّيْلُ مَا لَ عَن رَاحِلَتِهِ قَالَ فَدَعَمْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُوقِظَهُ حَتَّى
اعْتَدَلَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، قَالَ ثُمَّ سَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ السَّحَرِ مَا لَ مَيْلَةٌ هِيَ أَشَدُّ
مِنَ الْمَيْلَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ حَتَّى كَادَ يَنْجَفِلُ فَأَتَيْتُهُ فَدَعَمْتُهُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ مَنْ هَذَا قُلْتُ
أَبُو قَتَادَةَ قَالَ مَتَى كَانَ هَذَا مَسِيرِكَ مِنِّي قُلْتُ مَا زَالَ هَذَا مَسِيرِي مُنْذُ اللَّيْلَةِ قَالَ
حَفِظَكَ اللَّهُ بِمَا حَفِظْتَ بِهِ نَبِيَّهُ^(١).

إن هذه الدعوات التي كان يخص بها رسول الله ﷺ كل من أبدع في مجال
من مجالات الحياة أو قام بمبادرة بدافع من نفسه لتحقيق هدف نبيل، أو أنجز
عملا متميزا تدل على إدراكه عليه الصلاة والسلام لقيمة التحفيز ودوره الكبير
في تنمية المواهب والمهارات، نظرا لارتباطه بحاجة الإنسان الحيوية إلى أن يشعر
الآخرون من أفراد مجتمعه بقيمته بينهم، ويحسوا بمكانته المتميزة في المجموع،
وهذا من أكثر الدوافع للإبداع والابتكار.

١- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها،
رقم ١٠٩٩.

الخاتمة ونتائج البحث

إن هذه الثروة النبوية التي تعطينا دروساً بالغة الأهمية في إعادة الاعتبار للإنسان، تنبهنا في الوقت ذاته إلى أمراضنا الداخلية، ومواطن الخلل والقصور التي نعاني من تبعاتها بسبب أخطائنا الكثيرة في التعامل مع النفس البشرية، وتحيلنا إلى ما يشيع في مجتمعاتنا من سلوكيات مدمرة تكسر أصحاب المواهب وتحطم أحلامهم، وتند كفاءاتهم، وتبخسها حقها، وتقضي على الرغبة الدفينة التي تسكن بين جوانحهم في خدمة الأمة بما يحتكمون عليه من قدرات ومؤهلات، بسبب طغيان النزعة التسلطية، والرغبة في ضمان ولاء الفرد للحفاظ على المصالح الشخصية، فتذبح المواهب وتُغتال الكفاءات، وتضيع الطاقات الشعبية المهولة التي تصنع المعجزات إذا وجدت من يؤهلها ويدربها ويوجهها، ويتيح لها المجال لاكتساب مختلف المهارات.

بينما تعلمنا السنة المطهرة أن النبي ﷺ لم يلجأ أبداً للمحاباة والمجاملات والوساطة وهو يوزع المهام ويسند المهمات، ولم يجعل سبق الإيمان والنصرة وكبر السن مقاييس للتعامل مع متطلبات الواقع والتزامات الدعوة والدولة، بل كانت الكفاءة وحدها هي المعيار في ذلك، فقلد أسامة بن زيد وهو فتى في مقتبل العمر إمارة جيش كان فيه أبو بكر وعمر؛ لأنه خليف بالإمارة، وكلف عمرو بن العاص وخالد بن الوليد بقيادة السرايا وهما لا يزالان حديثي عهد بالكفر؛ لأن مؤهلاتهما العسكرية عالية جداً، ولم يغفل عن تشجيع الحادي والثناء على الرامي والدعاء للمجتهد والمبادر، فنال كل إنسان في المجتمع الإسلامي الأول نصيبه الذي يستحقه من التقدير، ووجد مجاله الحيوي الذي أفرغ فيه طاقته بكل حب وإخلاص، وتألقت الموهوبون في سمائه فأبدعوا وتميزوا تحت ظلال الحكمة النبوية الرائعة التي تقرر أنه ليس من الأمانة أن يُوسد الأمر لغير أهله، وسارع كل فرد إلى

القيام بما وسعه الجهد لخدمة مجتمعه ونفعه بمبادرة خاصة منه .

وقد توصلنا في ختام هذا البحث إلى جملة من النتائج التي يمكننا إجمالها فيما يلي:

١- أن الإنسان باعتباره كائناً مكرماً وخليفة الله في أرضه بغض النظر عن جنسه أو لونه أو طبقته الاجتماعية قد نال حظه من التقدير والاحترام والعناية النبوية التي شملت الناس جميعاً بالرعاية والاهتمام، ورسّخت مبدأ مركزية الإنسان في الوجود ودوره المتميز في الكون.

٢- أن اهتمام النبي ﷺ بالمواهب والمهارات كان واضحاً جداً في سنته المطهرة، التي أشار في كثير من مواضعها إلى أقدار الرجال ومكانتهم ومميزاتهم ومواهبهم التي انفردوا بها، كما شجّع أصحاب المهارات ودفع سائر المسلمين إلى الاجتهاد في اكتسابها بهدف تأهيل جميع أفراد المجتمع والرفع من كفاءتهم.

٣- أن اهتمامه ﷺ بالمواهب والمهارات كان شاملاً بحيث غطى جميع القطاعات الحساسة في المجتمع والدولة: الدينية والسياسية والاجتماعية، والاقتصادية والعسكرية والعلمية، والأدبية وغيرها، واستوعب كل فعاليات المجتمع: الرجال والنساء والأطفال.

٤- أن من أكبر الدلائل على وعيه ﷺ بهذا الجانب المهم من جوانب الحياة الإنسانية أن مواهب الصحابة الكرام التي فجّرها رسول الله بسياسته التربوية الحكيمة فصنعت المعجزات على مختلف الأصعدة كانت في الجاهلية راکدة جامدة مهملة ومعرّضة للضياع، لا يكاد يحسّ أحد بأثرها، ولولا الإسلام الذي صنع من أصحابها نجومًا تتألق في سماء التاريخ البشري لما عرفت لنفسها سبيلاً.

٥- أن منهج النبي ﷺ في اكتشاف المواهب وتنمية المهارات وتطويرها، يتماشى

في كثير من جوانبه مع أحدث النظريات العصرية التي تعالج قضايا التميز والإبداع، والابتكار وتنمية القدرات البشرية في مختلف نواحي الحياة. ولا غرو فقد كان مُسَدِّد الخطى بالوحي الرباني الذي يعلم صاحبه خائنة الأعين وماتخفي الصدور: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك، ١٤).

٦- أن رعاية النبي ﷺ للموهوبين وحثه سائر المسلمين على اكتساب مختلف المهارات، قد عاد بالفوائد الجمّة على المجتمع المسلم، الذي أصبح نموذجاً حياً للنشاط والحيوية، وإتقان العمل وتحدي الصعاب، ونكران الذات وتلاحم الأفراد، وتماسك علاقاتهم الاجتماعية، وشيوع روح التضامن والتكافل بينهم، بحيث إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وهذا هو السبيل الوحيد لانطلاقة حضارية ناجحة.

٧- أن هذه الآثار النبوية المباركة معالمٌ في طريق الأمة يتوجب عليها أن تستهدي بها وتستضيء بنورها في خضمّ بحر الظلمات الغارقة فيه من رأسها حتى أخمص قدميها، بعد أن ضاعت منها البوصلة وأهدرت النظم الوضعية المتعاقبة عليها قيمة الإنسان فأضحى هباءً وغيثاً. فهذا محلّ القدوة وموضع الأسوة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، ٢١).

٨- أن الأمة الإسلامية تعاني من قصور رهيب في مجال الاهتمام بالمواهب واكتساب المهارات، وهي في هذا المجال بعيدة جداً عن الخطوات العملاقة التي خطاها العرب، واستفاد منها في تثبيت أركان تقدمه وتسريع عمليات التطور والتنمية إلى أضعاف كثيرة، وهي مطالبة بإدراج هذه القضية المصيرية ضمن أولوياتها وتكييف برامجها التعليمية لتضمن رعاية كافية للمواهب حتى لا تضيع سدى.

قائمة المصادر والمراجع

- أطفال عند القمة: الموهبة والتفوق العقلي والإبداع، زكريا الشربيني ويسرية صادق، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٢ م.
- الإبداع العام والخاص، ألكسندر روشكا، ترجمة: غسان عبد الحي أبو فخر، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٩.
- برنامج الكشف عن الموهوبين ورعايتهم، عبد الله النافع الشارح وآخرون، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الرياض، ١٤١٩ هـ.
- تربية الموهوبين والتطوير التربوي، كمال أبو سماحة وآخرون، مكتبة دار الفرقان، الأردن، ١٩٩٢ م.
- التفوق العقلي والابتكار، عبد السلام عبد الغفار، دار النهضة العربية، القاهرة.
- الثقات، محمد بن حبان، تحقيق: شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م.
- الجامع الصحيح، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، دار، دار حياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٢ م.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٨، ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م.
- خوارق اللاشعور، علي الورد، دار الوراق للنشر، لندن، ط ٢، ١٩٩٦ م.
- الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية، الطيب برغوث، سلسلة مفاتيح

- الدعوة، رقم ٣، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط١، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٥ م.
- سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني الشهير بان ماجه، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الجليل، بيروت، ط١، ١٩٩٨ م.
- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعرف، الرياض، ط١، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م.
- سيكولوجية الإبداع، عبد الرحمن عيسوي، دار النهضة العربية، القاهرة.
- سيكولوجية الطفل غير العادي والتربية الخاصة، يوسف محمد الشيخ وعبد السلام عبد الغفار، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٨٥.
- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار القلم، بيروت.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.
- الشخصية العبقريّة، عاطف عمارة، سلسلة المكتبة السيكلوجية، رقم ٤، هلا بوك شوب، القاهرة.

- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د، مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، ١٩٨٧ م.
- صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، ترتيب: ابن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م.
- صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م.
- صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م.
- صحيح الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، ط ٣، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط ٥.
- صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢ هـ، ١٩٧٢ م.
- غريب الحديث، عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٥.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.
- الفروسية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، دار الأندلس، المملكة العربية

- السعودية، ط ١، ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م.
- فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣.
 - فن تربية الأولاد في الإسلام، محمد سعيد مرسي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط ١، ٢٠٠١ م.
 - لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت.
 - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن علي الحسيني الندوي، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م.
 - المتفوقون عقليا: خصائصهم، اكتشافهم، تربيتهم، مشكلاتهم، عبد الرحمن سيد سليمان و صفاء غازي أحمد، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠١.
 - محمد صلى الله عليه وسلم، المثل الأعلى، توماس كارليل، تعريب: محمد السباعي، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.
 - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.
 - مقدمة في الموهبة والإبداع، تيسير صبحي ويوسف قطامي، دار الفارس للنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٩٢ م.
 - مسند أحمد، أحمد بن حنبل، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩١ م.
 - المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق:

مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١ هـ
١٩٩٠ م.

- منهج التربية الإسلامية في رعاية الموهوبين، رأت محمد علي الجديبي،
مؤسسة الموقف الإسلامي، ط ١، ١٤٢٧ هـ.

- مهارات التفكير الابتكاري، محمد عبد الغني حسن هلال، مركز تطوير
الأداء والتنمية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٧.

- الموهبة والإبداع: طرائق التشخيص وأدواته المحوسبة، تيسير صبحي،
دار التنوير العلمي للنشر والتوزيع، دار إشراق للنشر والتوزيع، عمان،
الأردن، ط ١، ١٩٩٢.

- الموهبة والتفوق والإبداع، فتحي جروان، دار الفكر، عمان، ٢٠٠٤.

من هدي النبي ﷺ في صناعة المبدعين

واكتشاف المتميزين

د. محمد ورداني عبد الراضي

جامعة الأزهر - مصر

من أبرز فقرات البحث

«كان شخص النبي ﷺ، وكلماته، وأفعاله، منبعاً لكل تميز وارتقاء، ومما لاشك فيه أن المعصوم ﷺ طالما كان يحمل على عاتقه هم مستقبل هذه الأمة وأفرادها، فلا يكاد ﷺ يجد طاقةً كامنةً، أو قوةً ساكنةً، أو قدرةً هامةً، أو ثروةً راكدةً، إلا مضى ﷺ يصع بكلماته مفاتيح النبوة على القلوب، فيبعث الساكن، ويحرك الراكد، ويثير الكامن، ويرسل الهامد، فتضحى حياة الفرد كالربيع الناضر، وزمان الأمة كتباشير الصباح السافر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أفضل الخلق، لسان الصدق، حبيب الحق، الذي جاهد في الله حق جهاده، جاهد بالقلب والجنان، والدعوة والبيان، والسيف والسنان، أرفع العالمين ذكراً، وأعظمهم عند الله قدراً. وبعد...

فإن التميز ضرورة شخصية في حياة الفرد المسلم، فهو الذي يعطي المسلم الدافع للتأثير على غيره، ويحركه للدعوة لدينه بالقول والعمل.

وكان شخصُ النبي ﷺ، وكلماته، وأفعاله، منبعاً لكل تميز وارتقاء، ومما لا شك فيه... أن المعصوم ﷺ طالما كان يحمل على عاتقه هم مستقبل هذه الأمة وأفرادها، فلا يكاد ﷺ يجد طاقةً كامنة، أو قوةً ساكنة، أو قدرةً هامة، أو ثروةً راكدة، إلا مضى ﷺ يضع بكلماته مفاتيح النبوة على القلوب، فيبعث الساكن، ويحرك الراكد، ويشير الكامن، ويرسل الهامد، فتضحى حياة الفرد كالربيع الناضر، وزمان الأمة كتباشير الصباح السافر، وما فتى ﷺ يوجه أفراد الأمة المسلمة إلى مواطن قوتهم، ويبث فيهم روح المثابرة لاغتنامها، ويحذرهم من التفريط فيها.

ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث وهو بعنوان: «من هدي النبي ﷺ في صناعة المبدعين واكتشاف المتميزين»، وقد جاء ضمن المحور الثاني من محاور الندوة. وتتحدد مشكلة البحث في تساؤلين رئيسين:

الأول: إلى أي مدى يمكننا أن نتوصل إلى طرحٍ عصريٍّ، يُحسِّن الاستفادة

من نصوص السنة، وتناولها بنظرات جديدة، تستلهم الهدي النبوي، في صناعة التميز وتنمية المهارات لأفراد الأمة المسلمة، وحياسة هذه الأمة للريادة والصدارة بين الأمم.

الثاني: كيف نستطيع أن نظهر هذا السبق الحضاري للسنة النبوية الغراء، حين قدّمت منظومة متكاملة في صناعة التميز والابداع.

ويهدف البحث إلى:

- إظهار جانب من الجوانب المشرقة لسنة خير البشر ﷺ.
- معرفة كيف كان المنهج النبوي نموذجاً كاملاً وفريداً، جَمَعَ أسباب التميز، وعناصر العلو والارتقاء بحياة الفرد، وبهذا يكون منهجاً سابقاً لكل النظريات والدراسات في هذا الباب، فضلاً عن كونه منهجاً ربانياً.
- إبراز الخيار الحضاري الإسلامي، الذي جمع عناصر التميز، وأسباب النجاح.

لم تتناول الدراسات السابقة التي استطعت الاطلاع عليها، موضوع صناعة التميز وإظهار المبدعين من خلال السنة، بالقدر الذي يتناسب مع ما جاء في السنة النبوية من تعاليم ومآثر نبوية غراء، تناوَلت جميع أشكال التميز في حياة الإنسان، بشكل شمولي فريد، فحتى الآن لم يظهر بين أيدينا من يخدم هذه الفكرة بالشكل الذي تستحقه، وغاية ما هنالك دراسات جزئية، تتناول بين ثناياها قدراً ضئيلاً من هذا الموضوع الكبير.

ومن هذه الدراسات على سبيل المثال:

- «البناء النفسي للمسلم في ضوء السنة النبوية وأبعاده الحضارية - د: عبد

الله محمد الجيوسي»: وهو بحث تم تقديمه إلى «مؤتمر السنة النبوية في الدراسات المعاصرة - جامعة اليرموك - الأردن». وقد قسّمه الباحث إلى مباحث خمسة، لم يتناول فيها جانب التوجيه النبوي للنفس نحو التميز والارتقاء، إلا في بعض مطالب المبحث الرابع من بحثه.

- «توظيف السنة النبوية في بناء الشخصية - د: يحيى ضاحي شطناوي»: وهو بحث تم تقديمه إلى «مؤتمر السنة النبوية في الدراسات المعاصرة - جامعة اليرموك - الأردن»، ويُعدّ هذا البحث محاولة جيدة، لإظهار المنهج النبوي في تحريك شخصية المسلم نحو الابتكار والإبداع، غير أن النصوص التي تناولها هذا البحث قليلة جداً، ولا تكاد تفي بالعنوان الموضوع للبحث.

وأكتفي بهذين النموذجين للدراسات السابقة، التي تناولت جانب الدعوة النبوية لتمييز المسلم وارتقائه وتحضره، ويمكن بيان ما امتاز به بحثي هذا من إضافات معرفية عما سبقه من أبحاث في النقاط الآتية:

- أولاً: يركز هذا البحث على دراسةٍ حديثةٍ تأصيلية، جمعت أكبر عددٍ ممكن من نصوص السنة الصحيحة التي تدور حول فكرة «صناعة التميز وتنمية المهارات»، وذلك في حدود ما تسمح به صفحات البحث.

- ثانياً: عملتُ على تلمّس السبل التي سلكها المعصوم ﷺ سعياً لاكتشاف المواهب، وتفجير الطاقات، ثم التعرف على الخطوات التي اتخذها ﷺ لرعاية الموهوبين والمتميزين، والمحافظة على الطاقات والقدرات.

- ثالثاً: يظهر في نهاية البحث بعض ملامح هذا المنهج النبوي المتكامل في صناعة التميز والابداع في إطار ما شرّطتُ بيانه في البحث، وهو كل ما يتصل بالآليات والمحفزات، وتجيء أبحاث الزملاء المشاركين في الندوة،

لترسم بقية ملامح هذا المنهج .

هذا... وأسأل الله سبحانه نعم من مسئول، أن يرزقني الإخلاص في القول والعمل، وأعوذ به من أن أشرك به شيئاً أعلمه، وأستغفره لمالا أعلمه، ولا أدعي في عملي الكمال، فالخطأ للبشر من لوازم الخصال، وعلى رب البشر من المحال، فأستقبله سبحانه من عثرات الحال، واغفر اللهم زلاتي وهفواتي في الحال وفي المال، سبحانه جل من مجيب واسع متعال .

المبحث الأول:

اكتشاف النبي ﷺ في صحابته الكرام مواطنَ بناءِ النفس وتنميةِ الذات

إن الناظر في حياة النبي ﷺ، والدارس لأيامه وسيرته، والمتأمل في شؤونه مع صحابته رضي الله عنهم، يظهر له جلياً أن المعصوم ﷺ كان كثيراً ما يوظف كل موقف وحدث يعيشه مع صحابته رضي الله عنهم، ليجعل منه اختباراً للقدرات، ومقياساً للمهارات، فتتمحص عندئذ مواهبهم، وتنجلي إمكاناتهم وخبراتهم، وتظهر استعداداتهم، ويتعرف كل منهم على الطاقة الكامنة في نفسه، الساكنة بين جوانحه، التي ربما غابت عنه، ولم يكتشفها في ذاته، فكم من مواهب إنسانية أطفئت، وطاقات أهدرت، وقدرات اندثرت، حين لم تجد من يكتشفها، ويعمل على توظيفها واستثمارها.

والمطلع على عمل المعصوم ﷺ، ومنهجه في اكتشاف المهارات الشخصية المختلفة، والقدرات الذاتية المتعددة لصحابته الكرام رضي الله عنهم، يلحظ أن هذا المنهج النبوي الفريد يظهر في أساليب أربعة:

الأسلوب الأول: أن يكتشف المعصوم عليه السلام طبائع العقول، واتجاهات الأفكار، بشكل مباشر دون استشارة صاحبها بسؤال، أو وضعه تحت تأثير اختبار: من ذلك ما جاء بشأن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فيما رواه حذيفة رضي الله عنه قال: «جاء أهل نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ابعث لنا رجلاً أميناً، فقال: لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له الناس، فبعث أبا عبيدة بن الجراح»^(١)، فالنبي صلى الله عليه وسلم عرف في أبي عبيدة رضي الله عنه قدرته على تحمل الأمانة، وتميزه في ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: «لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين»، فلم يكتف صلى الله عليه وسلم بأن يصف أبا عبيدة بالأمانة، بل بالغ في وصفه بها، حتى سماه صلى الله عليه وسلم «أمين الأمة» - كما سيأتي في الحديث التالي -، واختيار النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عبيدة رضي الله عنه لتحمل هذه المهمة، لم يكن نتيجة اختبار أو سؤال، وهو أمر ظاهر، ولا يعني اختصاص أبي عبيدة رضي الله عنه بهذه الصفة من بين الصحابة رضي الله عنهم، انتفاءها في حق غيره، لكن الجميع يشتركون في مقدار بعينه من هذه الصفات، وكل منهم انفردت شخصيته بالتميز في واحدة منها، يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وهذه الصفة - صفة الأمانة - وإن كانت مشتركة بينه وبين غيره، لكن السياق يشعر بأن له مزيداً في ذلك، لكن خص النبي صلى الله عليه وسلم كل واحد من الكبار بفضيلة ووصفه بها، فأشعر بقدر زائد فيها على غيره، كالحياة لعثمان، والقضاء لعلي، ونحو ذلك^(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدّهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن

١ - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي - باب قصة أهل نجران - ١٥٩٢/٤ - حديث ٤١٢٠، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل أبي عبيدة رضي الله عنه - ١٢٩/٧ - حديث ٦٤٠٧.

٢ - فتح الباري (٧/٩٣).

الجراح»^(١)، فاستعماله ﷺ أفعل التفضيل في هذا الحديث يؤكد ما ذكرته قبل، من أن الصحابة جميعاً يشتركون في مقدار بعينه من هذه الصفات، وكل واحد منهم بعد هذا يتميز عن غيره بصفة، عرّفها فيه المصطفى ﷺ، دون أن يتوجه له ﷺ بسؤال، يمتحن به تميزه عن سواه، ويختبر به تفوقه على غيره، في صفة بعينها.

وعن مسروق رضي الله عنه قال: «ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَقَالَ ذَلِكَ رَجُلٌ لَا أزالُ أَحِبُّهُ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةِ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - فَبَدَأَ بِهِ -، وَسَالَمَ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ، وَمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، وَأَبِي ابْنِ كَعْبٍ»^(٢)، وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فِي جَيْشٍ قَطُّ إِلَّا أَمَرَهُ عَلَيْهِمْ وَلَوْ بَقِيَ بَعْدَهُ لَأَسْتَخْلَفَهُ»^(٣)، فعرف المعصوم ﷺ مهارات القيادة في زيد رضي الله عنه، وهذا ما استشعرته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت: «لَوْ بَقِيَ بَعْدَهُ لَأَسْتَخْلَفَهُ»، وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الآتي، يظهر لنا كيف أن النبي ﷺ يؤكد استحقاق زيد رضي الله عنه لمرتبة القيادة، وجدارته بها.

- ١- أخرجه الترمذي في سننه في كتاب المناقب - باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي وأبي عبيدة ابن الجراح رضي الله عنهم - ٦٦٤ / ٥ - حديث ٣٧٩٠، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في سننه في مقدمة كتابه - باب فضل خباب رضي الله عنه - ٥٥ / ١ - حديث ١٥٤، وأحمد في مسنده - ٢٥٢ / ٢٠ - حديث ١٢٩٠٤، والبخاري في مسنده ٣١١ / ٢ - حديث ٦٧٨٦.
- ٢- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب مناقب سلم مولى أبي حذيفة - ١٣٧٢ / ٣ - حديث ٣٥٤٨، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل عبد الله ابن مسعود وأمه رضي الله عنهما - ١٤٩ / ٧ - حديث ٦٤٩٢.
- ٣- أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الفضائل - ما جاء في أسامة وأبيه رضي الله عنهما - ١٢ / ١٤٠ - حديث ٣٢٩٧٣، وأحمد في مسنده - ٧٤ / ٤٣ - حديث ٢٥٨٩٨، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب المناقب - ٣٢٢ / ٧ - حديث ٨١٢٦، والحاكم في المستدرک في كتاب معرفة الصحابة - ٢٣٨ / ٣ - حديث ٤٩٥٣، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وإسناده حسن لأن فيه عبد الله البهي، قال عنه الحافظ ابن حجر في التقریب: "صدوق يخطئ"، ووثقه الذهبي في الكاشف، وأخرج له مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها حديثاً، وهو ما قال به العلائي في جامع التحصيل، والحديث حسنه محقق مسند أحمد شعيب الأرنؤوط. (جامع التحصيل ص ٢١٨، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ١ / ٦١٠، تقریب التهذيب ص: ٣٣٠).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثًا، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَطَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِمَارَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنْ تَطَعْنَا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطَعُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَأَيْمُ اللَّهِ، إِنْ كَانَ لَخَلِيفًا لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيَّ بَعْدَهُ»^(١).

ففي هذا الحديث، يظهر دفاع النبي ﷺ عن موهبة زيد رضي الله عنه في القيادة، ومن بعده وكده أسامة بن زيد رضي الله عنهما، ومعلوم أن زيداً رضي الله عنه كان من الموالي، وأسامة رضي الله عنه كان من أصغر القوم عند توليه قيادة الجيش، وهذا تعليم للأمة المسلمة، أن على أولي الأمر فيها، أن يجعلوا معيار اختيار الكفاءات هو الغالب في قيادتهم لشئون الأمة، فينقبوا عن أهل المهارة وأصحاب المواهب، فيؤلونهم أماكنهم التي يستحقونها وتناسبهم، وأن لا ينظروا لكونه غنياً أو فقيراً، وجيهاً أو مغموراً، كبيراً أو صغيراً.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وفيه جواز إمارة المولى، وتولية الصغار على الكبار، والمفضول على الفاضل، لأنه كان في الجيش الذي كان عليهم أسامة أبو بكر وعمر رضي الله عنهم»^(٢)، وما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَتَيْتُكُمْ وَفُودُ عَبْدِ الْقَيْسِ، وَمَا يَرَى أَحَدٌ مِنَّا نَحْنُ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءُوا فَتَنَزَّلُوا، فَاتُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَبَقِيَ الْأَشْجُ الْعَصْرِيُّ، فَجَاءَ بَعْدُ فَتَنَزَّلَ مَنْزِلًا، فَأَنَاحَ رَاحِلَتَهُ وَوَضَعَ ثِيَابَهُ جَانِبًا، ثُمَّ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا أَشْجُ، إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ، الْحِلْمَ وَالتُّودَةَ، قَالَ:

١ - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الصحابة - باب مناقب زيد رضي الله عنه - ١٣٦٥ / ٣ - حديث ٣٥٢٤، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي الله عنهما - ١٣١ / ٧ - حديث ٦٤١٧.

٢ - فتح الباري (٧ / ٨٧).

يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَشْيءٌ جُبِلْتُ عَلَيْهِ أَمْ شَيْءٌ حَدَّثَ لِي، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلْ شَيْءٌ جُبِلْتُ عَلَيْهِ^(١)، فيظهر من هذه الأحاديث وغيرها، كيف أن النبي ﷺ كان في مواقف كثيرة، يعرف ما تتميز به شخصية كل واحد من صحابته رضي الله عنهم، وما هي طبيعة أفكار من حوله، واستعداداتهم الذاتية، وقد عرف ﷺ ما امتازت به شخصية كل من أبي جهل ابن هشام وعمر بن الخطاب ﷺ، فكان من هنا رجاؤه ﷺ أن يؤيد الله تعالى الدين بإسلام أحد الرجلين^(٢)، فكان عمر بن الخطاب ﷺ، الذي كان إسلامه بمثابة نقلة نوعية في مسار الدعوة، يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: «مَا زِلْنَا أَعَزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ»^(٣).

أما الأسلوب الثاني فهو: أن يطرح النبي ﷺ السؤال على صحابته رضي الله عنهم، فيستثير أفكار عقولهم، ويحرك خيال قرائحهم، ويبعث كوامن أذهانهم، ويوقظ بواطن خواطرهم، ويرسل الهمم الرواكد بين جوانحهم، وما إن تُلَقَّح الأفهام بهذا الامتحان، حتى تظهر طبائع المبدعين، ومواهب المتميزين، وتمتاز الأفهام الثاقبة، والبصائر النافذة.

ومن هذا الباب قوله ﷺ لأبي بن كعب ﷺ: «يَا أَبَا الْمُنْذَرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ ﷺ: يَا أَبَا الْمُنْذَرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، قَالَ:

١- أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه - باب الأمر بالله ورسوله وشرائع الدين - ١ / ٣٦ - حديث ١٢٧، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، مطولاً، وذكر فيه قوله: ... إن فيك لخصلتين يحبهما الله الحلم والأناة؛ وأبو داد في سننه في كتاب الأدب - باب قبلة الرجل - ٤ / ٥٢٥ - حديث ٥٢٢٧، والترمذي في سننه في كتاب البر والصلة - باب في التآني والعجلة - ٧ / ٢٩٧ - حديث ١٩٣٤، وابن ماجه في سننه في كتاب الزهد - باب الحلم - ٢ / ١٤٠١ - حديث ٤١٨٧، واللفظ لابن ماجه.

٢- أخرجه ابن حبان في صحيحه في كتاب المناقب - ذكر البيان بأن عزة المسلمين بإسلام عمر ﷺ - ١٥ / ٣٠٥ - حديث ٦٨٨١، عن ابن عمر، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ اعْزِ الْبَيْنَ بِأَحَبِّ هَدَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ: بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ أَوْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ"، فَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ". والحديث حسنه شعيب الأرناؤوط في تعليقه على ابن حبان.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب مناقب عمر ﷺ - ٣ / ١٤٠٣ - حديث ٣٦٥٠.

فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ ﷺ: وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»^(١)، ففي هذا الحديث، يطرح النبي ﷺ السؤال وينتظر الإجابة، ثم يُظهِرُ الشَّاءَ عَلَى الْمَجِيبِ، وَهُوَ تَعْلِيمٌ لِكُلِّ مُرَبٍّ، أَنْ يَتَفَقَدَ تَلَامِيذَهُ فَيَطْرَحُ عَلَيْهِمُ الْأَسْئَلَةَ، حَتَّى يَسْتَطِيعَ إِظْهَارَ قُدْرَاتِهِمْ وَمَهَارَاتِهِمْ.

وقد يكون السؤال لجمع من الصحابة رضي الله عنهم، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجْرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مِثْلُ الْمُسْلِمِ، حَدَّثُونِي مَا هِيَ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هِيَ النَّخْلَةُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي، فَقَالَ: لِأَنَّ تَكُونَ قَلْتَهَا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا»^(٢)، وقد جعل البخاري هذا الحديث تحت ترجمة: «طَرَحَ الْإِمَامُ الْمَسْأَلَةَ عَلَى أَصْحَابِهِ لِيَخْتَبِرَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ».

ويظهر في هذا الحديث، كيف أن عمر رضي الله عنه كانت تتوق نفسه، لأن يبادر ابنه وينفرد من بين الصحابة بالإجابة وقد عرفها، وفي هذا بيان لوقوع ما كان ﷺ يختبر به أذهان الصحابة من أسئلة، وتحرُّك أذهانهم، وتقلب أفكارهم، بحثاً عن الجواب الصحيح، ولا يخفى أنه في مثل هذا الوسط التنافسي تشبُّ أذهان المبدعين، ويكشف الستار عن عقول النجباء، وتنبري الإرادات الفذة، والعزائم الوثَّابة، وفي الرواية الأخرى التي عند البخاري - باب الفهم في العلم - : «فَأَتَى بِجُمَارٍ»^(٣) فقال: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجْرَةً مِثْلُهَا كَمِثْلِ الْمُسْلِمِ»، نلاحظ في هذه الرواية أمرين:

- ١- أخرج مسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين - باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي - ١٩٩ / ٢ - حديث ١٩٢١.
- ٢- أخرج البخاري في كتاب العلم - باب قول المحدث: حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا - ٣٤ / ١ - حديث ٦١، ومسلم في صحيحه في كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب مثل المؤمن مثل النخلة - ١٣٧ / ٨ - حديث ٧٢٧٦.
- ٣- الجمار: هو قلب النخلة وشحمتها (النهاية في غريب الحديث ١ / ٨٠٧).

الأمر الأول: توجيه نبوي رائد، للقائمين على تربية النشء، وهو أن يجعلوا مع سؤالهم الذي يختبرون به أفهام طلابهم، قرينةً فيها مفتاح الإجابة، لا يلحظه إلا أهل الفطنة والذكاء، وألا يطرحوا أسئلةً تستغل على أذهان الطلاب، وتكون مدعاةً لياس أفهامهم، وملل تفكيرهم.

الأمر الثاني: ذكاء عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، في استنباط الإجابة، عند ملاحظته اقتران السؤال مع وجود الجُمَار بين يدي النبي ﷺ.

ويروي أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه أخذ سيفاً يوم أحد فقال: «مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذَا؟ فَسَبَطُوا أَيْدِيَهُمْ، كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ أَنَا أَنَا، قَالَ ﷺ: فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟ قَالَ: فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ، فَقَالَ سَمَّاكُ بْنُ خَرَّشَةَ أَبُو دُجَانَةَ: أَنَا أَخْذُهُ بِحَقِّهِ، قَالَ فَأَخْذَهُ فَفَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ»^(١)، ونلاحظ من هذا الحديث أن النبي ﷺ، لم يقم بإعطاء السيف لواحد من الصحابة، ويأمره أن يقاتل به، في أجواء هادئة ساكنة، بل أراد ﷺ أن يجعل من هذا الأمر مضماراً تتسابق فيه الهمم، وتتنافس فيه الإرادات، فيتمحص عندئذ أصحاب الشجاعة والإقدام بين أصحابه، لذلك لما قال ﷺ: «مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذَا؟»، تبادر الجميع لأخذه، طلباً لشرف حمل سيف رسول الله ﷺ، فلما قال ﷺ: «فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟»، كان الأمر مختلفاً، يقول القرطبي رحمه الله تعالى: يعني بهذا الحق، أن يقاتل بذلك السيف إلى أن يفتح الله على المسلمين أو يموت أ.هـ^(٢)، فظهر عندئذٍ أشد القوم بأساً، وأصلبهم عزيمةً.

وكان المعصوم ﷺ يبدأ كثيراً من أحاديثه لصحابته رضي الله عنهم بالسؤال، حتى تلتف حول كلامه أفئدتهم، ويكون حالها كحال الأرض العطشى التي تنتظر صيب السماء، فما إن يصيبها حتى تصير جنة غناء.

١ - أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل أبي دجانة رضي الله عنه - ٧ / ١٥١ - حديث ٦٥٠٧.

٢ - دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (١ / ٣٦٥).

فمن هذا ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال صلى الله عليه وسلم: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال صلى الله عليه وسلم: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه فقد بهتته»^(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال صلى الله عليه وسلم: إن المفلس من امتى يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحه عليه، ثم طرح في النار»^(٢).

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم، قعد صلى الله عليه وسلم على بعيره، وأخذ إنسان بخطامه، فقال صلى الله عليه وسلم: «أتدرون أي يوم هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال صلى الله عليه وسلم: أليس بيوم النحر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: فأى شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال صلى الله عليه وسلم: أليس بذي الحجة؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: فأى بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، قال صلى الله عليه وسلم: أليس بالبلدة؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، فليبلغ الشاهد الغائب، قال: ثم انكفأ إلى كبشين أملحين فذبحهما، وإلى جزيعتين من الغنم فقسمها بيننا»^(٣).

فهذه الأحاديث الثلاثة، تأكيد على الأسلوب النبوي في تعليم أمته صلى الله عليه وسلم، فلم

- ١ - أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة - باب تحريم الغيبة - ٢١ / ٨ - حديث ٦٧٥٨.
- ٢ - أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة - باب تحريم الظلم - ١٨ / ٨ - حديث ٦٧٤٤.
- ٣ - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "رب مبلغ أوعى من سامع" - ٣٧ / ١ - حديث ٦٧، ومسلم في صحيحه في كتاب القسامة - باب تغليظ تحريم الدماء والأموال والأعراض - ١٠٧ / ٥ - حديث ٤٤٧٧.

يقول ﷺ: الغيبة هي كذا وكذا، أو المفلس هو من فعل كذا، ولم يقل مباشرة إن دماءكم وأموالكم... الحديث، بل قَدَّم ﷺ لذلك كله بالسؤال، فكان ﷺ يرسل كلامه لأذهان سامعيه، في طريقة يأخذ بها بجماع قلوبهم، وأزمة أفكارهم، ويأسرها بين يديه، فلا تتطلع بعد هذا نفوسهم إلا إلى معالي الأمور، وأسمى الغايات في أجلهم وعاجلهم؛

والأسلوب الثالث هو الشورى: فكثيراً ما كان ﷺ في حوادث متعددة يستشير أصحابه، ويطلب رأيهم فيها، ويتخذ من هذه المواقف مجالاً لظهور المواهب، وصقل الأفكار، واستعمال القدرات، من ذلك استشارته ﷺ أصحابه، عند خروجه من المدينة لمكة يريد العمرة، فقد قال ﷺ: «أشيروا أيها الناس عليّ، أترُونَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِي هَؤُلَاءِ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوْنَا عَنِ الْبَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا، كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ^(١)، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ، لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ فَاتَلْنَاهُ، قَالَ: امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ»^(٢).

وكان ﷺ يجعل من مواقف كثيرة من مشورته لأصحابه، محفلاً للاختبار العزائم، وتمحيص الهمم، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَاوَرَ حِينَ بَلَغَهُ إِقْبَالَ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ: فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ^(٣)، وَالذِّي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ

١- مَحْرُوبِينَ: أي مسلوبين منتهيين، الحَرْبُ بالتحريك: نهب مال الإنسان وتركه لاشيء له (غريب الحديث لابن الأثير ١/ ٩٢٦؛ لسان العرب ١/ ٣٠٢).

٢- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي - باب غزوة الجديبية - ٤/ ١٥٣١ - حديث ٣٩٤٤.

٣- قول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ثُمَّ تَكَلَّمَ عُمَرُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: إِيَّانَا تُرِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ"، دليل على أن النبي ﷺ أراد أن يعرف رأي الأنصار في الخروج للقاء العدو، لأن بيعته ﷺ مع الأنصار، كانت على نصرته وحمايته داخل المدينة وليس خارجها، فكانه ﷺ طلب بسماع رأي الأنصار أن يجدد أمر البيعة معهم، فتكون على النصرة في الداخل والخارج معاً.

نُخِضَهَا الْبَحْرَ لِأَخْضَانِهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرِّكَ الْغَمَادِ^(١) لَفَعَلْنَا، قَالَ: فَدَبَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ، فَاَنْطَلَقُوا حَتَّى نَزَلُوا بَدْرًا^(٢).

واستشارته ﷺ أصحابه عند اجتماع الأحزاب، فَقَالَ سَلْمَانَ ﷺ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا إِذْ كُنَّا بِأَرْضِ فَارِسَ وَتَخَوَّفْنَا الْخَيْلَ خَنَدَقْنَا عَلَيْنَا، فَهَلْ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ نُخَنِّدَ؟ فَأَعْجَبَ رَأْيَ سَلْمَانَ الْمُسْلِمِينَ)^(٣).

وهكذا كانت شوره ﷺ لأصحابه، مضمراً تتسابق فيه الإرادات، وتتجلى في ساحاته المواهب، ويكتشف فيه المبدعون، «وتتميز المواهب والقدرات، وتُعرف المعادن والرجال، فالشورى محك يكاد يكشف أطراف النية ومنثور المهبة وحدود الطاقة... ولقد تدرّب صحابة رسول الله ﷺ تدريباً واسعاً من خلال الممارسة والصحبة على هذه الأمور في مجالس الشورى»^(٤)؛

أما الأسلوب الرابع: فهو أن المعصوم ﷺ في مواقف كثيرة، كان يترك مجالاً لعقول أصحابه ترسل فيه أفكارها، وتجتهد محاولة الوصول للصواب، ولم يجعل عليها من حرج إن تعثرت في هذه المحاولة:

فيقول ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدْ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدْ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^(٥)، ولهذا رأينا من تلاميذ مدرسة محمد صلوات ربي وتسليماته

١- بَرِّكَ الْغَمَادِ: تَفْتَحُ الْبَاءُ وَتُكْسَرُ، وَتُضَمُّ الْغَيْنُ وَتُكْسَرُ، وَهُوَ اسْمُ مَوْضِعٍ بِالْيَمَنِ، وَقِيلَ هُوَ مَوْضِعٌ وَّرَاءَ مَكَّةَ بِخَمْسِ لَيَالٍ. (النهاية في غريب الحديث (١/ ٣٠٦))

٢- أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد والسير - باب غزوة بدر - ١٧٠ / ٥ - حديث ٤٧٢١.

٣- أخرجه الواقدي في المعازي - ص: ٤٤١ - قال: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ، وَعَاصِمُ بْنُ عَمْرِو بْنِ قَتَادَةَ قَالَ: شَهِدْتُ بَنُو مَرَّةَ الْخَنْدَقِ وَهُمْ أَرْبَعُمِائَةٍ وَقَاتَلَهُمُ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ الْمُرِّي... الأثر مطوّلاً، وفيه خبر سلمان ﷺ؛ وإسناد الواقدي وإن كان ضعيفاً، إلا أن خبر حفر الخندق واشتهار سلمان ﷺ بأنه صاحب فكرة حفره، أمر مشهور، وكان هذا أول مشاهدته مع النبي ﷺ.

٤- هدي النبي محمد ﷺ في التربية الإبداعية والابتكار، د: موسى البسيط - ص: ٧٢.

٥- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ - ٢٦٧٦ / ٦ - حديث ٦٩١٩، ومسلم في صحيحه في كتاب الأفضية - باب بيان أحر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ - ١٣١ / ٥ - حديث ٤٥٨٤.

عليه، من سَمَى وجدانه، وارتقت أفكاره، حتى بلغ منتهى الإرادات، وغايات العزائم، ووافق ربه سبحانه في غير ما حكم، إنه فاروق الأمة عمر رضي الله عنه، الذي قال عنه معلمه رضي الله عنه: «قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَّةِ قَبْلَكُمْ مُحَدِّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ»^(١)، وقال رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ»^(٢)، وقال ابنُ عمر رضي الله عنهما: «مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ أَمْرٌ قَطُّ فَقَالُوا فِيهِ وَقَالَ فِيهِ عُمَرُ، إِلَّا نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ عُمَرُ»^(٣).

ويظهر بهذا، كيف أن النبي صلَّى الله عليه وآله كان يعمل على اكتشاف مواطن التميز في نفوس أصحابه، ويُنقَّب عن عيون الإبداع في أذهانهم، بطرق مختلفة وأساليب متباينة، فكيف كان منهجه صلَّى الله عليه وآله في تنمية هذه المهارات والمواهب التي يكتشفها في أصحابه، وكيف كان يعمل على إذكاء روح عزائمهم، وتأجيج طاقاتهم، واستنفار إراداتهم، هذا ما أبينه في المبحث الثاني بعون الله تعالى وتوفيقه.

المبحث الثاني:

اهتمامه صلَّى الله عليه وآله بتنمية المهارات الشخصية والقدرات الفردية، التي
امتاز بها كل واحد من الصحابة رضي الله عنهم

إن الناظر في المنهج النبوي في التعامل مع المهارات المكتشفة، والهمم

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب مناقب عمر - ٣ / ١٢٧٩ - حديث ٣٢٨٢، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب من مناقب عمر رضي الله عنه - ٧ / ١١٥ - حديث ٦٣٥٧.

٢- أخرجه أحمد في مسنده - ١٤٤ / ٩ - حديث ٥١٤٥، وأبو داود في سننه في كتاب الخراج - باب في تدوين العطاء - ٣ / ١٠٠ - حديث ٢٩٦٤، والترمذي في سننه في كتاب المناقب - باب في مناقب عمر رضي الله عنه - ٥ / ٦١٧ - حديث ٣٦٨٢، واللفظ للترمذي، وقال: وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. والحاكم في المستدرک في کتاب معرفة الصحابة - ٣ / ٩٣ - حديث ٤٥٠١، وقال أبو عبد الله الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط مسلم. والحديث صحيح، كل رجاله ثقات، وذكره الألباني في صحيح سنن الترمذي وابن ماجه، وحكم عليه بالحسن شعيب الأنرؤوط في تحقيقه لمسند أحمد.

٣- هو جزء من حديث ابن عمر رضي الله عنهما السابق.

الصاعدة، يمكنه أن يتناوله من خلال جوانب ثلاثة:

الجانب الأول: مراعاة الفروق الفردية، ومن ثم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب:

كان النبي صلوات الله وسلامه عليه، دائم البحث والتنقيب في نفوس أصحابه، عن عناصر التميز، وجوانب الارتقاء، ولا يكاد ﷺ يضع يده على موهبة، أو يكتشف إرادة، إلا ويشرع في تربيتها، ويعمل على تطويرها وترقيتها، ولا يدخر ﷺ جهداً في توظيف هذه الموهبة وتلك الإرادة فيما يتناسب معها، والمعصوم ﷺ في هذا كله يُعَلِّمُ المُربِّيْنَ، ويوجه المعلمين والقائمين على إعداد الكفاءات، أن هناك فروقاً فردية بين الناس، ويضع ﷺ في هذا أصلاً تربوياً رائداً، حيث يقول ﷺ: «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا، وَتَجِدُونَ مَنْ خَيْرِ النَّاسِ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَكْرَهُهُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، وَتَجِدُونَ مَنْ شَرَّارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهِينِ، الَّذِي يَأْتِي هُوَ لَاءَ بَوَجْهِ وَهُوَ لَاءَ بَوَجْهِ»^(١).

فالنبي ﷺ يبرهن بقوله: «الناس معادن»، على أن الناس تختلف طبائعهم، وتتعدد توجهاتهم، وفي كل نفعٍ ومزِيَّةٍ، تغاير تلك الموجودة فيمن سواه، حالهم في هذا كحال المعادن، تختلف في نفاستها وتراكيبها، ولا يُغْنِي النفع والاستفادة من أحدها عن الآخر، «ففي سبيل صناعة جيل مبدع توجهت العناية النبوية إلى مراعاة الفروق الفردية بين الناس، فكل مبدعٍ فيما يُقِيمُهُ اللهُ فيه، والإبداع لا يتصور أن ينحصر في شريحة النجباء فحسب، وإنما في كل، حسب طاقته وقدرته ومزايه، لذا كان لزاماً أن يوضع هذا المعيار فتراعى الفوارق»^(٢)، «ولهذا كان ﷺ يكلف كل شخص بالشيء الذي يبدع فيه، فخالد للمهام العسكرية، ومعاد

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب - باب قوله تعالى "يا أيه الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا" - ١٢٨٨ / ٣ - حديث ٣٣٠٤، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب من خيار الناس - ١٨١ / ٧ - حديث ٦٦١٥.

٢- هدي النبي محمد ﷺ في التربية الإبداعية والابتكار، د: موسى البسيط - ص: ٥٢، وانظر: الفروق الفردية في ضوء التربية النبوية، د: نعيم أسعد الصفدي و د: عبد اللطيف مصطفى الأسطل - ص: ٣.

للحلال والحرام، وزيد للفرائض، وأبى للقراءة، وهذا ينسجم مع فطرة الله التي خلق الناس عليها، بأن زودهم بميول متنوعة، وهذا التنوع هو أساس تكامل الحياة البشرية وتمازجها، إن استشعار الميول لدى الشخص يجعل النجاح حليفه، وهو ما نعتبر عنه اليوم: وضع الرجل المناسب في المكان المناسب»^(١).

الجانب الثاني: إذكاء روح التنافس:

كان المعلم الأول ﷺ دائماً وأبداً يمتحن ما بين يديه من همم وعزائم في ميادين المنافسة، فينفض عنها غبار الركون والدعة، ليظهر بريقها في سماء التميز والإبداع، فهاهو النبي ﷺ يعلن عن مركز لا يشغله إلا الأبطال، فَتَشْرَبُ إِلَيْهِ أَعْنَاقُ أَصْحَابِ الْإِرَادَاتِ، وتتسابق إليه الهمم الوثابة، وذلك في قوله ﷺ عشية خيبر: «لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، قَالَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: مَا أَحْبَبْتُ الْإِمَارَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ - قَالَ - فَتَسَاوَرْتُ لَهَا رَجَاءً أَنْ أُدْعَى لَهَا، - قَالَ - فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَقَالَ: امْشُ وَلَا تَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ، قَالَ: فَسَارَ عَلِيٌّ شَيْئًا ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ، فَصَرَخَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى مَاذَا أَقَاتِلُ النَّاسَ؟ قَالَ ﷺ: قَاتِلُهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابِهِمْ عَلَى اللَّهِ»^(٢)، ففي هذا الحديث نرى فاروق الأمة عمر ﷺ، يصور لنا في تعبير بليغ، مَبْلَغَ تَطَلُّعِ نَفْسِهِ، واشتياق شخصه، إلى هذا المركز، حتى حدثت به نفسه إلى أن يرتفع بجسده حين قال: «فَتَسَاوَرْتُ لَهَا»^(٣)، رجاء أن يكون هو السابق إلى مركز البطل، رغم ما يحيط بهذه المهمة من خطورة، ولكنها الهمم

١ - توظيف السنة النبوية في بناء الشخصية، يحيى ضاحي شطناوي - ص: ٢٣.

٢ - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد والسير - باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة - ٣ / ١٠٧٧ - حديث ٢٧٨٣، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل علي ﷺ - ١٢ / ١٣١ - حديث ٤٤٢٢.

٣ - فَتَسَاوَرْتُ لَهَا: أي رَفَعْتُ لَهَا شَخْصِي، يقال: تَسَوَّرْتُ إِذَا عَلَوْتُه، وَتَسَوَّرَ الْحَائِطُ تَسَلَّقَهُ (لسان العرب ٣٨٤ / ٤).

العالية، والعزائم الشامخة، التي تستسهل الصعب، وتستهيئ الأهوال، ولا غرور في ذلك فهي نفوس تربت في مدرسة محمد ﷺ.

وأجواء هذا التنافس، التي بسطها المصطفى ﷺ بهذه العبارة، لم تخيم على نفس عمر ﷺ لوحده، وإنما على جميع الحاضرين من الصحابة رضي الله عنهم، وهذا ما وضّحته الرواية الأخرى عند أحمد، والتي ساقها سهل بن سعد ﷺ، وفيها: «... فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ^(١) لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا» أي ظلوا حتى لحظة إعلان الفائز، يخوضون ويختلفون فيما بينهم من منهم سيكون صاحب السبق؟!!

ويمضي ﷺ في موقف آخر، يسأل فيه الصحابة رضي الله عنهم، عن كان له السبق في التنافس على القربى من الله عز وجل، وهذا في حديثه ﷺ الذي قال فيه: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ تَبَعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَسْكِينًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا اجْتَمَعَنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢)، فكان هذا بمثابة بيان نبوي، أعلن فيه عن مضمار للمنافسة، الفائز فيه جائزته هي أسمى الغايات ومنتهى الأمال، إنها الجنة، في دعوة تتسابق فيها القدرات لإصلاح الدنيا والفوز بالآخرة معاً، وهكذا كان سيد الخلق ﷺ يعمل دوماً على إيقاد روح المنافسة بين صحابته رضي الله عنهم كلما تحينُ فرصة، أو يناسب لذلك موقف.

١- يَدُوكُونَ: أي يخوضون فيمن يدفَعُها إليه، والدَّوْكُ الإختلاط، وَفَعَّ القوم في دَوْكَةٍ ودَوْكَةٍ أي وقعوا في اختلاط من أمرهم (الفاثق في غريب الحديث و الأثر ١ / ٤٤٢؛ لسان العرب ١٠ / ٤٣٠).

٢- أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أبي بكر الصديق - ٧ / ١١٠ - حديث ٦٣٣٣.

الجنب الثالث: التشجيع، والموازرة بالقول، والمدح والثناء:

وهي الأمور التي اتبعها المعصوم عليه السلام، ليعث كوامن نفوس أصحابه، فإن كلمة تشجيع واحدة، أو مدح وثناء، كافية لتفجير بركان الإرادة في نفس من ووجهت له، فيمضي في طريق الإبداع والتميز، بحماس مشتعل وهمة متقدة، وهكذا كان المعصوم عليه السلام يعالج نفوس صحابته رضي الله عنهم، فهو أخبر الناس بطباع النفوس، ويمسك بين يديه بأزمة طاقاتها وإبداعاتها الكامنة، ولا يكاد عليه السلام يشاهد أمامه من يبادر إلى أمر من أمور الخير، إلا ويؤازره بالتشجيع، من ذلك ما روي عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «مرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَسْلَمَ يَتَّضِلُونَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًّا، ارْمُوا وَأَنَا مَعَ بَنِي فَلَانَ، قَالَ: فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا لَكُمْ لَا تَرْمُونَ؟ قَالُوا: كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ؟! قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارْمُوا فَإِنَّا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ»^(١)، ثم نراه عليه السلام يفدي أحد الصحابة بوالديه، تأييداً وتشبيهاً له، ودفعا لإرادته إلى حيث منتهى الإرادات وغايات الهمم، ذلك ما رواه علي رضي الله عنه قال: «مَا جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُوِيَهُ لِأَحَدٍ غَيْرِ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ^(٢) فَإِنَّهُ جَعَلَ يَقُولُ لَهُ يَوْمَ أُحُدٍ: ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»^(٣).

وفي موقف آخر، ينقل سيد البشر صلى الله عليه وسلم، خبر تأييد السماء لرجل من أصحابه، فما كان من هذا الصحابي إلا أن استحالت نفسه إلى طاقة متوهجة، وبدت عزيمته نارا مستعرة، ذلكم هو حسان بن ثابت رضي الله عنه، والذي جاء خبره فيما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اهْجُوا قُرَيْشًا، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهَا مِنْ رَشْقِ النَّبْلِ، فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ رَوَاحَةَ فَقَالَ: اهْجُهُمْ، فَهَجَاهُمْ فَلَمْ يَرْضَ، فَأَرْسَلَ

-
- ١ - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد والسير - باب التحريض على الرمي - ١٠٦٢/٣ - حديث ٢٧٤٣.
- ٢ - هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
- ٣ - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي - باب إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا - ١٤٩٠/٤ - حديث ٣٨٣٣، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه - حديث ١٢٥/٧ - حديث ٦٣٨٦.

إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد أن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأفريبنهم بلساني فرى الأديم، فقال رسول الله ﷺ: لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسائها - وإن لي فيهم نسبا - حتى يلخص لك نسبي، فاتاه حسان، ثم رجع فقال: يا رسول الله قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق، لأسلنك منهم كما تسأل الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان، إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله^(١)، واستمع إلى ثناء المصطفى ﷺ على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، الذي صار بعد أول من يطلب منه قراءة القرآن، وتشد الرحال إليه لاستماعه منه، يقول رضي الله عنه: «كنت غلاما يافعا، أرعى غنما لعقبة بن أبي معيط، فجاء النبي ﷺ وأبو بكر وقد قرأ من المشركين، فقالا: يا غلام هل عندك من لبن تسقيننا؟ قلت: إني مؤتمن ولست ساقيكما، فقال النبي ﷺ: هل عندك من جذعة^(٢) لم ينز عليها الفحل؟ قلت: نعم، فأتيتهما بها، فاعتقلها النبي ﷺ ومسح الضرع ودعا، فحفل الضرع، ثم أتاه أبو بكر بصخرة منقعة، فاحتلب فيها، فشرب وشرب أبو بكر، ثم شربت، ثم قال للضرع: إقلص، فقلص، فأتيته بعد ذلك فقلت علمني من هذا القول، قال: إنك غلام معلم، قال: فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد^(٣)، ويثني رضي الله عنه على صوت أبي موسى رضي الله عنه في قراءة القرآن فيقول له: «يا أبا موسى لقد

- ١ - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب - باب هجاء المشركين - ٢٢٧٨ / ٥ - حديث ٥٧٩٨، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل حسان رضي الله عنه - ١٦٤ / ٧ - حديث ٦٥٥٠.
- ٢ - الجذعة: هي الشاة التي أتمت السنة (غريب الحديث لابن الجوزي ١ / ١٤٦).
- ٣ - أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه في كتاب الفضائل - ما أعطى الله محمدا رضي الله عنه - ١١ / ٥١٠ - حديث ٣٢٤٦١، وأحمد في مسنده - ٤١٦ / ٧ - حديث ٤٤١٢، والبخاري في مسنده - ٢٩٤ / ١ - حديث ١٨٢٤، وأبو يعلى في مسنده - ٤٠٢ / ٨ - حديث ٤٩٨٥، وابن حبان في صحيحه في كتاب التاريخ - باب المعجزات ١٤ / ٤٣٢، حديث ٦٥٠٤، والطبراني في الصغير - ٣١٠ / ١ - حديث ٥١٣. والحديث إسناده حسن، فيه عاصم بن أبي النجود صدوق وبقية رجاله ثقات، والحديث حسنه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسنود وصحيح ابن حبان.

أُوتِيَتْ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»^(١).

إن كلمة تشجيع واحدة كفيلة بتغيير مسار حياة إنسان نحو التميز والنجاح، وخلق روح الابتكار والإبداع في داخله؛ وهكذا كان تعامله ﷺ مع القدرات الفردية، التي اكتشفها في نفوس أصحابه من حوله، كما كان ﷺ يزرع في نفوسهم القدرة على كسر حاجز المبادرة، والثبات وترك التخاذل عند انصراف همم الناس من حولهم، وهو ما أَعْرِضُ لكيفيته بمشيئة الله تعالى في المبحث التالي.

المبحث الثالث:

عمله ﷺ على تربية روح الإرادة لدى الفرد المسلم

إن كل إنسان، يحمل بين طيَّات نفسه معاني الإرادة، ولكن كثيراً من الناس تُكَبِّلُهُ قيود العجز، وأغلال التثاقل إلى الأرض، فيجهل ما يسكن في جوانبته من معاني الهمة، ويصير كمن يحمل سلاحاً مَضَاءً، لكن عدوه يتغلب عليه ويهزمه، لأنه يجهل استخدام ما معه من سلاح.

والإرادة نوعان في الإنسان: إرادة البدء: وشواهد هذا النوع أنك قد تجد صعوبة في أن تجعل إنساناً يبدأ عملاً و لكنه بمجرد أن يبدأ يسهل استمراره، و إرادة الاستمرار: وشواهد هذا النوع أنك لا تجد أن إنساناً بعدما بدأ عملاً لا يلبث أن يتوقف عنه»^(٢).

والمصطفى ﷺ قدَّم الدواء الناجع، الذي إذا ما تعاطته النفس انبعثت إرادتها الهامدة، وتحررت من قيود العجز، وحقمت أغلال التثاقل والارتكاس، وإذا ما

١ - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن - باب حسن الصوت في القراءة بالقرآن - ٤ / ١٩٢٥، حديث ٤٧٦١، ومسلم في صحيحه في كتاب المسافرين - باب استحباب حسن الصوت في القراءة بالقرآن - ٢ / ١٩٢ - حديث ١٨٨٧.
٢ - في النفس والدعوة، رفاعي سرور (ص: ٢٦٥)

طال بها العهد واستكانت إلى الكسل والخمود، حملها جواد العزيمة من جديد .
وهذا كان ديدنه ﷺ في معالجة النفوس، ييث روح الإرادة للبدء والمبادرة،
أو الاستمرار في المثابرة والثبات على طريق الاجتهاد والعمل، فيها هو خير
البشر ﷺ يطلق نداءً في أصحابه، في لحظة فارقة في أعمار الأمم، وما إن وقع
هذا النداء في أسمع من حوله، حتى بادرت نفس واحد منهم، وانطلقت مطية
إرادتها، تستعجل أسمى الأمانى، وتفرضه إلى الموت في سبيل الله، يقول أنس
رضي الله عنه راوي الحديث: «... فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: قوموا إلى جنة
عرضها السموات والأرض، قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله
جنة عرضها السموات والأرض؟! قال: نعم، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ،
ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من
أهلها، قال: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال:
لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة، - قال - فرمى بما كان معه
من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل»^(٣).

ثم نرى المعصوم ﷺ يقدم لنا نموذجاً نبوياً، يرسم به للمسلم كيف يكون
انطلاق إرادته، ومبادرة همته، التي لا وقت عندها لانتظار مواقف الآخرين، ولا
مبادراتهم، فهي دائماً تفاجئ الجميع، يقول أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أحسن
الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فرغ أهل المدينة ذات
ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً، وقد سبقهم إلى
الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عري في عنقه السيف وهو يقول: لم ترأعوا
لم ترأعوا، قال: وجدناه بحرًا أو إنه لبحر، قال: وكان فرسًا يبطأ»^(٤).

٣- أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة - باب ثبوت الجنة للشهيد - ٤٤ / ٦ - حديث ٥٠٢٤ .
٤- أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل - باب في شجاعة النبي ﷺ وتقدمه للحرب - ٧٢ / ٧ -
- حديث ٦١٤٦ . قوله: "يبطأ" : معناه يعرف بالبطء والعجز وسوء السير (شرح النووي على صحيح
مسلم ٦٧ / ١٥).

وينطلق النداء من النبي ﷺ، في دعوة مشرقة لدوام إصلاح شئون الدنيا، وكيف أن المسلم لا بد أن يكون في جميع لحظات عمره، مالكا لزام المبادرة، وناصية الإرادة، مهما كانت ظروف الوقت وأحوال الناس، فيقول ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيدَ أَحَدِكُمْ فَسَيْلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»^(١).

ثم يدل النبي ﷺ المسلم كيف يستمر في طريق نجاحه، ومسيرة إبداعه، غير أبه لما يحتوشه من معوقات الحياة، ومكدرات العيش، فيقول ﷺ: «... إْحْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفْتَحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ»^(٢)، ويقول ﷺ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا كَانَ مُخَالَطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالَطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»^(٣).

ثم يوجه المصطفى ﷺ أحد صحابته - عبد الله بن عمر رضي الله عنهما - بكلام، يحضه فيه على الاستمرار في عمله، وأن يسعى لتحسين أداؤه، والارتقاء لما هو أفضل، فيقول ﷺ: (نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، فَكَانَ بَعْدُ

١ - أخرجه أحمد في مسنده - ٢٥١ / ٢٠ - حديث ١٢٩٠٢، وفي ٢٠ / ٢٩٦ - حديث ١٢٩٨١، وعبد بن حميد في مسنده - ٣٦٦ - حديث ١٢١٦، والبخاري في الأدب المفرد - ١٦٨ - حديث ٤٧٩، وأبو سعيد بن الأعرابي في معجمه - ١١٦ / ١ - حديث ١٨١. والحديث إسناده صحيح، كل رجاله ثقات، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١ / ١١)، وشعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسنَد.

٢ - أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب القدر - باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله تعالى - ٥٦ / ٨ - حديث ٦٩٤٥.

٣ - أخرجه الترمذي في سننه في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع - الباب ٥٥ - ٦٦٢ / ٤ - حديث ٢٥٠٧، وابن ماجه في سننه في كتاب الفتن - باب الصبر على البلاء - ١٣٣٨ / ٢ - حديث ٤٠٣٢، وابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الأدب - في مخالطة الناس - ٥٦٤ / ٨ - حديث ٢٦٧٤٤، وأحمد في مسنده - ٦٤ / ٩ - حديث ٥٠٢٢، قال: حدثنا محمد بن جعفر، وحجاج، قالوا: حدثنا شعبة، سمعت سليمان الأعمش وقال حجاج: عن الأعمش يحدث، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ، قال: وأراه ابن عمر، قال: حجاج قال شعبة: قال سليمان: وهو ابن عمر يحدث، عن النبي ﷺ، فذكره بلفظ متقارب؛ والبيهقي في السنن الكبرى - باب فضل المؤمن القوي الذي يقوم بأمر الناس ويصبر على أذاهم - ٨٩ / ١٠ - حديث ٢٠٦٦٩، والحديث إسناده صحيح، كل رجاله ثقات، وإبهايم المشيخة لا يضر، لأن الصحابة كلهم عدول، وقد جاء التصريح به في روايات أخرى أنه ابن عمر رضي الله عنهما.

لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا^(١)، وهكذا نجد أن النبي ﷺ لا يترك للعجز والكسل باباً إلا ويوصده، ولا لليأس والوهن طريقاً إلا ويقطعه، فأنتجت يداه إرادات مضاءةً سيوفُها، وهمماً لا تخطئ سهامُها؛ وبعد هذا أن لي أن أعرض لإضاءة أخرى من إضاءات مشكاة النبوة، أشرقت بها نفوس المسلمين، واستنارت قلوبهم، إنه عمله ﷺ على بث روح الاعتزاز بالنفس لدى الفرد المسلم، وهو الذي أبينه في المبحث الآتي بعون الله تعالى.

المبحث الرابع:

حرصه ﷺ على إتمام شعور المسلم بذاته ومكانته في الوجود، مما يجعل منه فرداً متّزناً النفس، مطمئن القلب، راسخ الكيان، رافضاً لكل شعور بالاستضعاف والهوان

إن شعور المسلم بالاعتداد بنفسه، والاعتزاز بذاته، لم يكن أبداً وليد مصادفة واتفاق، وإنما هو نتيجة حتمية للارتقاء الروحي، والكمال النفسي، المتمثلين في سمو علاقة المسلم بخالقه، وترقيته إلى الدرجات العلى في القرب من ربه، فالمعصوم ﷺ بلغ منهجاً ربانياً، ينتج كل طاقة مبدعة، وإرادة قوية، وعزيمة وثابة، وما سارت الأمة إلى ربها بهذا المنهج، إلا وسلكت طريق المجد والريادة والصدارة بين أم الأرض.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تقديمه لكتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للأستاذ أبي الحسن الندوي رحمه الله تعالى: «إن الإسلام عقيدة استعلاء، من أخص خصائصها أنها تبعث في روح المؤمن بها، إحساس العزة من غير كبر، وروح الثقة في غير اغترار، وشعور الاطمئنان في غير تواكل، وأنها

١ - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التهجد - باب فضل قيام الليل - ١ / ٣٧٨ - حديث ١٠٧٠، ومسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل عبد الله بن عمر ٧ / ١٥٨ - حديث ٦٥٢٥.

تشعر المسلمين بالتبعية الإنسانية الملقاة على كواهلهم، تبعة الوصاية على هذه البشرية، في مشارق الأرض ومغاربها، وتبعة القيادة في هذه الأرض للقطعان الضالة، وهدايتها إلى الدين القيم، والطريق السوي، وإخراجها من الظلمات إلى النور، بما آتاهم الله من نور الهدى والفرقان»^(١).

ولهذا ظلت الحضارة الإسلامية تفرض نفسها، على مر الزمان وتعاقب الأيام، وما كانت حُقباً تراجعها، إلا بسبب تقاصر همم أبنائها في السير إلى ربهم، واستكمال إيمانهم، أما الحضارات الأخرى، فهي وإن لمع بريقها، وذاع صيتها، إلا أن بريقها لا يلبث أن يخبو، وتنطفئ شعلتها، لأنها حضارات بنيت على النقائص النفسية، والارتكاسات الخلقية، والغايات التي تبرر الوسائل.

ويقدم لنا خير البشر ﷺ هدياً نبوياً، يظهر فيه حرصه ﷺ على إخراج المسلم من دائرة الذلة والمسكنة، إلى فضاء العزة والإباء، وأن يكون على الدوام معتداً بنفسه، واثقاً في ذاته، مؤمناً بقدراته ومواهبه وإمكاناته، رافضاً لكل ألوان الضعف والانكسار، فيقول ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خيرٍ، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(٢).

يقول النووي رحمه الله تعالى عند شرحه لهذا الحديث: فيكون صاحب هذا الوصف، أكثر إقداماً على العدو في الجهاد، وأسرع خروجاً إليه، وذهاباً في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في كل ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة والصوم

١- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ص ١.
٢- أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب القدر - باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله تعالى - ٥٦/٨ - حديث ٦٩٤٥.

والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلباً لها، ومحافظة عليها، ونحو ذلك^(١).

فالمؤمن الذي لا يتجاوز نفعه نفسه، ليست له الخيرية والأفضلية عند رب العزة سبحانه، فالأمة ليست بحاجة لفرد لا يرى أبعد من أنفه، ولا يشعر إلا بثوبه الذي فوق بدنه، يستكين الى قمقم نفسه، غير آبه بمستجدات الزمان، ومتغيرات الأحداث من حوله، فأتى لمن غلَّت يده أن يرفع لواء العزة والسؤدد؟!!

وكيف لمن اطمأن إلى كل شأن راكداً، وأنس بكل حال ساكن جامداً، أن يسعى الى الابتكار والتجديد، والتميز والابداع؟!!

يقول شاعر الاسلام د: محمد إقبال رحمه الله تعالى: «إن المسلم لم يُخلق ليندفع مع التيار، ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار، بل خُلِق ليوجه العالم، والمجتمع، والمدينة، ويفرض على البشرية اتجاهه، ويملي عليها إرادته، لأنه صاحب الرسالة، وصاحب العلم اليقين، ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهه، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة، ومقام الإرشاد والتوجيه، ومقام الأمر الناهي، وإذا تنكر له الزمام، وعصاه المجتمع، وانحرف عن الجادة، لم يكن له أن يستسلم ويخضع، ويضع أوزاره ويسالم الدهر، بل عليه أن يثور عليه وينازله، ويظل في صراع معه وعراك، حتى يقضي الله في أمره، إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة، والاعتذار بالقضاء والقدر، من شأن الضعفاء والأقزام، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد»^(٢).

وطالما كان يعمل ﷺ على تعزيز هذه المعاني في كثير من المواقف مع صحابته رضي الله عنهم، فيقول ﷺ: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى

١ - شرح النووي على صحيح مسلم ١٦ / ٢١٥.

٢ - شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال - للأستاذ أبي الحسن الندوي - ص ٦٦ : ٦٨.

ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، فَيُكْفِ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ» (١).

وعن حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ رضي الله عنه قَالَ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلوات الله عليه فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ: «يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلُوءَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أُرْزَأُ» (٢) أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أَفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا. فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أَشْهَدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرَضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَنَى فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأُ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلوات الله عليه حَتَّى تُوَفِّيَ» (٣).

ويدعو صلوات الله عليه كل مسلم أن يكون إيجابياً في مجتمعه، متجنباً كل أسباب السلبية والتخاذل، معتمداً في سياسة شئونه وتدبير حاجاته على ذاته، فيقول صلوات الله عليه: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ، قَالَ: قِيلَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ، قَالَ: قِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ» (٤).

- ١ - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة - ٥٣٥ / ٢ - حديث ١٤٠٢.
- ٢ - أرزأ: رزأه يرزؤه رزأً ومرزئته أصاب منه خيراً ما كان، والمعنى أنه لا يسأل أحداً شيئاً (لسان العرب ٨٥ / ١، تاج العروس من جواهر القاموس ١ / ٢٤٤).
- ٣ - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة - ٥٣٥ / ٢ - حديث ١٤٠٣.
- ٤ - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الزكاة - باب على كل مسلم صدقة - ٥٢٤ / ٢ - حديث ١٣٧٦، ومسلم في صحيحه في كتاب الزكاة - باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل اسم من المعروف - ٨٣ / ٣ - حديث ٢٣٨٠.

ويقدم المعصوم ﷺ أجر من ترك صيام النافلة من أجل خدمة إخوانه والعمل على قضاء حوائجهم، على أجر من التزم الصوم وتكاسل عن خدمة الناس، فعن أنس رضي الله عنه قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ أَكْثَرُنَا ظَلَا الَّذِي يَسْتَظِلُّ بِكِسَائِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ صَامُوا فَلَمْ يَعْمَلُوا شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِينَ أَفْطَرُوا فَبَعَثُوا الرِّكَّابَ، وَأَمْتَهَنُوا وَعَاجَلُوا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ»^(١).

ونرى المصطفى وهو خاتم الأنبياء وخير البشر، يسعى لتدبير شأن طعامه بأن جعلَ درعه رهناً حتى يدفع ثمن طعامه، فتنقل لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من خبره ﷺ «أنه اشترى من يهودي طعاماً إلى أجل معلوم، وارتهن منه درعاً من حديد»^(٢).

وكان ﷺ يعمل على أن يكتسب المسلم أسباب هذه الثقة، وعوامل هذا الاعتزاز، لهذا دعى المعصوم ﷺ المسلم للحرص على جمال مظهره، فإن جمال وتميز المظهر، لا يكاد ينفك عن تميز المخبر، يقول ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطْرٌ الْحَقُّ وَغَمَطُ النَّاسِ»^(٣).

ووجه ﷺ المسلم لأن يكون صاحب شخصية فريدة، لا تسعى لتقليد أحد، تؤثر في غيرها ولا تتأثر، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

- ١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد والسير - باب فضل الخدمة في الغزو - ١٠٥٨ / ٣ - حديث ٢٧٣٣، ومسلم في صحيحه في كتاب الصيام - باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل - ١٤٣ / ٣ - حديث ٢٦٧٨.
- ٢- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب السلم - باب الرهن في السلم - ٧٨٤ / ٢ - حديث ٢١٣٤، ومسلم في صحيحه في كتاب المساقاة - باب الرهن في السلم والحضر - ٥ / ٥٥ - حديث ٤١٩٨.
- ٣- أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، ١ / ٦٥، حديث ٢٧٥. بَطْرُ الْحَقِّ: أَنْ لَا يَرَاهُ حِقًّا وَيَتَكَبَّرُ عَنْ قَبُولِهِ مِنْ قَوْلِكَ "بَطْرَ فُلَانٍ هَدِيَّةَ أَمْرِهِ" إِذَا لَمْ يَهْتَدِ لَهُ وَجْهَهُ (لسان العرب ٤ / ٦٨). غَمَطُ النَّاسِ: إِحْتِقَارُهُمْ وَالْأَزْدِرَاءُ بِهِمْ (لسان العرب ٧ / ٣٦٤).

«مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١)، وورد النهي في كثير من نصوص السنة، عن التشبه بأهل الكتاب في أمور عديدة، حفاظاً على استقلال شخصية المسلم، وبناء الثقة في ذاته، فيمضي في دروب الحياة ومسالكها، لا يكاد يُدكرُ إبداعاً إلا ويكون هو صاحبه، ولا يظهر تميز إلا وهو رائده.

وبعد فليس للأمة أن تنهض، وتنفض عن أكتافها غبار الخذلان والتشرزم، إلا باستخدام هذه الثروة الكامنة في أصلها، الكتاب والسنة، والكنوز الساكنة في نصوصهما، وما هذا الذي بسطته، إلا قطرة من غيث، من هذا المنهج النبوي السامي، الذي يحرك عجلة الدفع الإيماني، لترسل أمامها كل طاقة مبدعة، وإرادة قوية، وعزيمة وثابة، تلك المعاني الربانية، التي استأثرت بها أفضل الأمم، وما إن تسير بهذا المركب الإيماني، وتُدِيرُ دفته، سائرةً إلى الله، حتى يسلك بها طريق المجد، والريادة، والصدارة، بين أم الأرض.

١ - أخرجه أبو داود في سننه - باب في لبس الشهرة - ٧٨ / ٤ - حديث ٤٠٣٣، وابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب السير - ٣٥١ / ١٢ - حديث ٣٣٦٨٧، وأحمد في مسنده - ١٢٣ / ٩ - حديث ٥١١٤، وفي المسند ١٢٦ / ٩ - حديث ٥١١٥، والطحاوي في مشكل الآثار ١ / ٢١٣ - حديث ٢٣١، وأبو سعيد بن الأعرابي في معجمه - ٥٧٦ / ٢ - حديث ١١٣٧، والبيهقي فس شعب الإسمان - ٤١٧ / ٢ - حديث ١١٥٤. والحديث إسناده حسن، لأن رجاله ثقات إلا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: "صدوق يخطيء ورمى بالقدر وتغير بأخرة"، لكن تابعه في الرواية عن حسان بن عطية الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو، وهو إمام ثقة، والحديث حسنه الألباني، وتكلم عنه مطوِّلاً في إرواء الغليل فأجاد وأفاد (إرواء الغليل ١٠٩ / ٥).

خاتمة البحث

أهم النتائج:

- أولاً: سَعِيَ النبي ﷺ لاكتشاف المواهب الشخصية والقدرات الفردية لأصحابه رضي الله عنهم، بأساليب مختلفة، فمنها ما كان يتعرف عليه ﷺ بنفسه، ومنها ما كان يتبينه بالسؤال والاختبار، وأحياناً أخرى يفتح أبواب المشورة، وكان ﷺ دوماً يبسط أجواء الحرية للمشاركة بالآراء، والحضور بالأفكار.
- ثانياً: عمله ﷺ على ملاحظة الفروق الفردية بين الأشخاص، وهو ما يفسر ما لمسناه في سيرته ﷺ من وضعه الرجل المناسب في المكان المناسب.
- ثالثاً: الإرادة النفسية عند الفرد، هيأ لها المعصوم ﷺ أسباب السبق والمبادرة، ولا تكاد تتعثر في طريقها حتى يتعاهدا ﷺ بما يضمن لها الاستمرار والنهوض من جديد.
- رابعاً: حرص النبي ﷺ على اعتزاز المسلم بنفسه، واعتداده بذاته، مما يكون دافعاً له دوماً على اتخاذ موقع الصدارة، وسُبُل التميز.
- خامساً: إعتزاز المسلم بنفسه، هو نتيجة حتمية للارتقاء الروحي والكمال النفسي، المتمثلين في سموّ علاقة المسلم بخالقه، فهو يطلب التميز وينشد الإبداع، ويسعى لمجد أمته وسؤدد حضارته، إرضاءً لخالقه تبارك وتعالى.

أهم التوصيات:

يوصي الباحث، بالعمل على إخراج جهد موسوعي، يشمل جميع أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، التي تنتج التميزين، وتبرز المبدعين،، يشترك فيه

باحثون من جميع التخصصات، كلٌّ ينظر إلى السنة من زاوية تخصصه، ويتناول النصوص بنظرات جديدة، تُحسِّن التَّأصيل لمستجدات العصر بما جاء في النصوص النبوية، ولا تحمل النصوص ما لا تحتمله، ويجمع خلاصة هذا الجهد سفرٌ واحد، يجد فيه كلُّ مجتهد في كل فن طلبته.

وفي الختام أضرع إلى الحق سبحانه ألا أكون من المغترين بالقول أو العمل، فلعمر الله ما بابت آدم من نعمه إلا من الله تعالى واهب النعم، فأسأله سبحانه شكر نعمته، إنه سميع قريب مجيب الدعاء، وصلِّ اللهم على سيِّدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

قائمة بأهم مراجع البحث

- الإحسان بترتيب ابن بلبان - محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣ - ت: شعيب الأرناؤوط.
- الأدب المفرد - محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي - دار البشائر الإسلامية - بيروت - الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩ - ت: محمد فؤاد عبد الباقي.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - الثانية - ١٤٠٥ - ١٩٨٥.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب - يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر - صححه وخرج أحاديثه عادل مرشد، دار الأعلام، الأولى - ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.
- الإصابة في تمييز الصحابة - أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي - دار الجيل - بيروت - الأولى، ١٤١٢ - علي محمد البجاوي.
- الأعلام - خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي - دار العلم للملايين - الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م.
- بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث - الحارث بن أبي أسامة / الحافظ نور الدين الهيثمي - مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة - الطبعة الأولى، ١٤١٣ - ١٩٩٢ - ت: د. حسين أحمد صالح الباكري.

- تاريخ ابن معين - رواية الدوري - يحيى بن معين أبو زكريا - مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - مكة المكرمة - الطبعة الأولى، ١٣٩٩ - ١٩٧٩ - ت: د. أحمد محمد نور سيف.
- تاريخ ابن معين - رواية عثمان الدارمي - يحيى بن معين أبو زكريا - دار المأمون للتراث - دمشق، ١٤٠٠هـ - ت: د. أحمد محمد نور سيف.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - دار الكتاب العربي - لبنان / بيروت - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م - الأولى - د. عمر عبد السلام تدمري.
- تاريخ بغداد - أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي - دار الكتب العلمية - بيروت.
- تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل - ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين أبي زرعة العراقي - ت: عبد الله نواره - مكتبة الرشد - ١٩٩٩م - الرياض.
- تعريف اهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس - أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر الكناني العسقلاني - ت: د. عاصم بن عبد الله القريوني - مكتبة المنار - الأردن - الأولى.
- التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه - مؤلف الأصل: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ ابن مَعْبُد، التميمي، أبو حاتم، البُسْتِي - مؤلف التعليقات الحسان: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني - دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية -

الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

- تقريب التهذيب - أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي -
ت: محمد عوامة - دار الرشيد - ١٤٠٦ - ١٩٨٦ - سوريا.
- تهذيب الكمال - يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزني - مؤسسة
الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٠٠ - ١٩٨٠ - ت: د. بشار عواد
معروف.
- الثقات - محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي - دار الفكر -
الطبعة الأولى، ١٣٩٥ - ١٩٧٥ - ت: السيد شرف الدين أحمد.
- الجامع الصحيح (سنن الترمذي) - محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي
السلمي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - أحمد محمد شاکر وآخرون.
- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم - أبو الحسين مسلم بن الحجاج
ابن مسلم القشيري النيسابوري - دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة
بيروت.
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور النبي صلى الله عليه وسلم وسننه
وأيامه - محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله -
دار ابن كثير، اليمامة - بيروت - الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ - تحقيق: د.
مصطفى ديب البغا.
- الجرح والتعديل - عبد الرحمن بن أبي حاتم - مجلس دائرة المعارف
العثمانية - حيدر آباد الدكن - الهند دار إحياء التراث العربي - بيروت
الطبعة - الأولى، ١٢٧١ هـ ١٩٥٢ م.

- السلسلة الصحيحة - محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة المعارف - الرياض.
- سنن ابن ماجه - محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني - دار الفكر - بيروت - ت: محمد فؤاد عبد الباقي.
- سنن أبي داود - أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني - دار الكتاب العربي بيروت.
- سنن الدارقطني - علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي - دار المعرفة - بيروت، ١٣٨٦ - ١٩٦٦ - ت: السيد عبد الله هاشم يماني المدني.
- سنن الدارمي - عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي - دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٧ - فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي.
- السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي - أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي - مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني - مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد - الأولى ١٣٤٤ هـ.
- سنن النسائي الكبرى - أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩١ - ت: د. عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن.
- السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراتها - أبو عمرو عثمان بن سعيد المقرئ الداني - دار العاصمة - الرياض - الأولى، ١٤١٦ - ت: د. ضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري.

- سنن سعيد بن منصور - أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني - دار العصيمي - الرياض ١٤١٤هـ الأولى - ت: د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد.
- سؤالات أبي داود للإمام أحمد بن حنبل في جرح الرواة وتعديلهم - أحمد ابن حنبل - ت: د. زياد محمد منصور - مكتبة العلوم والحكم - ١٤١٤ - المدينة المنورة.
- سؤالات الحاكم النيسابوري للدارقطني - علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي - مكتبة المعارف - الرياض - الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ - ت: د. موفق بن عبد الله بن عبد القادر.
- سير أعلام النبلاء - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْمَاز الذهبي - ت: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - الثالثة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال - للأستاذ أبي الحسن الندوي - مجلة الأزهر المصرية - صفر ١٤٢٩ هـ - فبراير ٢٠٠٨ م.
- شرح معاني الآثار - أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة أبو جعفر الطحاوي - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى، ١٣٩٩ - ت: محمد زهري النجار.
- شعب الإيمان - أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ ت: محمد السعيد بسيوني زغلول.
- صحيح ابن خزيمة - محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري - المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠ - ١٩٧٠ - ت: د. محمد مصطفى

الأعظمي .

- الضعفاء والمتروكين - عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج - ت: عبد الله القاضي - دار الكتب العلمية - ١٤٠٦ - بيروت .
- الطبقات الكبرى - محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري - دار صادر - بيروت .
- الطبقات الكبرى (القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم) - محمد ابن سعد بن منيع الهاشمي أبو عبد الله - تحقيق زياد محمد منصور - مكتبة العلوم والحكم - ١٤٠٨ - المدينة المنورة .
- العلل الواردة في الأحاديث النبوية - أبو الحسن علي بن عمّار ابن أحمد بن مهدي الدارقطني - دار طيبة الرياض - الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
- غريب الحديث - إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - الطبعة الأولى، ١٤٠٥ - ت: د. سليمان إبراهيم محمد العايد .
- غريب الحديث - القاسم بن سلام الهروي أبو عبيد - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى، ١٣٩٦ - ت: د. محمد عبد المعيد خان .
- غريب الحديث - حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان - جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ١٤٠٢ - عبد الكريم إبراهيم العزباوي .
- غريب الحديث - عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد - مطبعة العاني - بغداد - الطبعة الأولى، ١٣٩٧ - ت: د. عبد الله الجبوري .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي - الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ .

- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة - شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي .
- الكامل في ضعفاء الرجال - عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد أبو أحمد الجرجاني - ت: يحيى مختار غزاوي - دار الفكر - ١٤٠٩ - ١٩٨٨ - بيروت .
- كشف المشكل من حديث الصحيحين - أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - دار الوطن - الرياض - ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م - ت: علي حسين البواب .
- لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى .
- لسان الميزان - أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - الطبعة الثالثة، ١٤٠٦ - ١٩٨٦ - ت: دائرة المعارف النظامية - الهند .
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوي - دار القلم - القاهرة - الطبعة: الخامسة عشرة - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .
- المجتبي من السنن - أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي - مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب - الطبعة الثانية - ١٤٠٦ - ١٩٨٦ - ت: عبدالفتاح أبو غدة .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي - دار الفكر، بيروت - ١٤١٢ هـ .
- المختلطين - أبو سعيد العلائي - ت: د. رفعت فوزي عبد المطلب وعلي عبد الباسط مزيد - مكتبة الخانجي بالقاهرة - الأولى ١٩٩٦ م .

- المراسيل - عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي - ت: شكر الله نعمة الله قوجاني - مؤسسة الرسالة - ١٣٩٧ - بيروت.
- المستدرک علی الصحیحین - محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠ - ت: مصطفى عبد القادر عطا.
- مسند أبي داود الطيالسي - سليمان بن داود بن الجارود - ت: د. محمد ابن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر - هجر للطباعة والنشر - الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.
- مسند أبي عوانة - أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الاسفرائني - دار المعرفة - بيروت.
- مسند أبي يعلى - أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي - دار المأمون للتراث - دمشق - الطبعة الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ - ت: حسين سليم أسد.
- مسند إسحاق بن راهويه - إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه الحنظلي - مكتبة الإيمان - المدينة المنورة - الطبعة الأولى، ١٤١٢ - ١٩٩١ - ت: د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل - أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني - ت: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون - إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي - مؤسسة الرسالة - الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

- مسند الحميدي - عبد الله بن الزبير أبو بكر الحميدي - دار الكتب العلمية ،
مكتبة المتنبي - بيروت، القاهرة - ت: حبيب الرحمن الأعظمي.
- مسند الشاميين - سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني - مؤسسة
الرسالة - بيروت - الطبعة الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٤ - ت: حمدي بن عبد
المجيد السلفي.
- مسند الشهاب - محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي - مؤسسة
الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية، ١٤٠٧ - ١٩٨٦ - ت: حمدي بن عبد
المجيد السلفي.
- المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم - أبو نعيم الأصبهاني - دار
الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م - الطبعة: الأولى.
- مُصنّف ابن أبي شيبة - أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة - ت: محمد
عوامة - طبعة الدار السلفية الهندية القديمة، طبعة دار القبلة.
- مصنف عبد الرزاق - أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني - المكتب
الإسلامي - بيروت - الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ - ت: حبيب الرحمن الأعظمي.
- المعجم الأوسط - أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني - دار الحرمين
- القاهرة، ١٤١٥ هـ - ت: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن
إبراهيم الحسيني.
- المعجم الصغير - سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني - المكتب
الإسلامي، دار عمار - بيروت، عمان - الطبعة الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥ -
ت: محمد شكور محمود الحاج أمير.

- المعجم الكبير - سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني - مكتبة العلوم والحكم - الموصل - الطبعة الثانية، ١٤٠٤ - ١٩٨٣ - حمدي بن عبدالمجيد السلفي.
- موطأ الإمام مالك - مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي - دار إحياء التراث العربي - مصر - ت: محمد فؤاد عبد الباقي.
- النهاية في غريب الحديث والأثر - أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري - المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م - ت: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي.

تهيئة البيئة الداعية إلى التميز
في ضوء السنة النبوية

د. ثناء أحمد نصرالله
الجامعة الإسلامية العالمية - باكستان

من أبرز فقرات البحث

«قعدت السنة النبوية للتميز قواعد مهمة:

«أناكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية» منهج نبوي سديد في تأسيس قواعد التميز بناء على السمات المميزة للشعوب والأعراق، فهو ليس تمييزاً عنصرياً، بل تمييزاً إيجابياً، يبرز أوجه تميز الشعوب المختلفة، تشجيعاً على تنمية هذا التميز الفطري فيهم، وترغيباً لغيرهم فيه فيسعدوا إلى اكتسابه.

«من بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه» قاعدة نبوية عظيمة في تهيئة البيئة الداعية للتميز، تدفع بكافة الشعوب والأجناس ليكونوا عناصر فاعلة في المجتمع، لأنها تعلم أنه لا ينظر إليها إلا من خلال ما تبذل من جهد وما تقدم من عمل، فعلى رفيع الشأن أن يجتهد؛ لأنه يعي أن مكانته لن تغني عنه شيئاً، وعلى الضعيف الحال أن يكد؛ لأنه يعلم أن عمله هو الذي سيرفعه، فالتميز المقبول في التصور النبوي هو تميز الجد والجهد».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً - صلى الله عليه
وسلم - عبده ورسوله. وبعد؛

فإن خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، أرشده معنئاً، وأرقاه
غاية، وأنقاه وسيلة، وأرسخه قدماً، وأبعده قدماً، وأقربه نولاً، وما زالت عقول
الجبارة تتفتق، فتعجز أن تلد بناته، أو أن تبلغ عتاده.

ومن هنا، وتأصيلاً لهذه البنى الراسخة، أحببت أن أميط اللثام عن بعض
كنوز السنة الدفينة، وأساليبها المتينة، في صناعة التميز، وإخراج فئات مميزة من
مختلف الشرائح، وتقديم الكفاءات في شتى الميادين، وتشجيع المواهب الفردية،
وتطوير القدرات العامة، وتشجيع الملكات اللدنية، وتنمية المهارات المكتسبة،
الأمر الذي كان له شأن عظيم في صناعة أمة راقية بكل المعايير، جمعت بين بهاء
المدنية المادية ونور الحياة الروحية، وصاغت حضارة متوازنة لاءمت بين فسيح
العلم وضوابط الأخلاق.

وتكمن مشكلة هذا البحث في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما الأركان التي اعتمدها النبي صلى الله عليه وسلم لتهيئة البيئة الداعية إلى التميز؟
- وما الخطوات العملية لتحقيق هذا الغرض؟

- وما مقدار التلاحم والانسجام بين هذه الخطوات؟

- وما مقدار تأثير هذه الخطوات في صناعة التميز لدى الفرد والمجتمع؟

ولا ريب أن التميز من الموضوعات الملحة، التي تركزت عليها الأنظار في عصرنا الحاضر، لما لها من تأثير كبير في نهضة المجتمعات وتطورها، وذهبت الدراسات الحديثة تصول وتجول بحثاً عن نظرية متكاملة في صناعة التميز، فتقدم نظريات مبتورة، أو وجهات نظر يخالف بعضها بعضاً، ومع قناعاتي العميقة أن شريعتنا الغراء قدمت لنا برنامجاً عملياً في كل مناحي الحياة، توجهت للبحث عن الرؤية النبوية في صناعة التميز، فلم أعر على دراسات موسعة وعميقة في هذا الشأن، غير أنني وقفت على رسالة ماجستير قدمتها الباحثة مها أبو النمر، بعنوان «التميز في ضوء السنة النبوية» وقد قدمت فيها جهداً مشكوراً في جمع نماذج لتمييز الصحابة في مختلف المجالات، كما عرضت لأهم الأساليب النبوية في اكتشاف المميزين وتعزيزهم، غير أنها لم تشر إلى أهمية وجود بيئة داعية إلى ظهور هذا الجيل الفريد في التميز، ولا إلى المنهج العملي المتكامل لصناعة هذه البيئة من خلال الهدي النبوي، ولأهمية هذا الجانب في صناعة التميز، إذ هو حجر الأساس الذي تركز عليه الجوانب الأخرى لصناعة التميز في السنة النبوية، اخترت هذا العنوان «تهيئة البيئة الداعية إلى التميز في ضوء السنة النبوية» ليكون موضوع هذا البحث.

وقد حاولت إبراز ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم من حسن هديه، وجميل فعله، في خطوات عملية قابلة للتطبيق، تمثل الرؤية النبوية والمنهج الذي سار عليه لإيجاد بيئة صالحة لصناعة التميز، لأن التميز الذي ننشده هو ما أراده الله تعالى من البشرية حين أسكنها الأرض لإعمارها، وجعلها خليفة لإرساء الحق والعدل، التميز الذي لا يداخله خيلاء، ولا يعقبه ظلم، ولا يظللله فحش، بل عمل

دؤوب لصالح الفرد وخير المجتمعات.

كما قدمت نماذج من النظريات الحديثة في علم التنمية البشرية، من باب الإشارة لبيان تقدم الهدي النبوي في هذا المجال، وقد أشرت إليها على سبيل المثال ولم استطرد في ذلك، وإن كانت الأمثلة كثيرة، وذلك لضيق المساحة المعطاة لهذا البحث من جانب، ومن جانب آخر فإن هدف البحث إنما هو إبراز الهدي النبوي المعجز دون الغوص في نظريات علم التنمية البشرية الحديث وتطبيقاته.

إن الحديث عن صناعة البيئة الداعية للتميز في ضوء السنة، لا يمكن أن يُستوعب في وريقات، إلا أنني حاولت إضاءة بعض جوانبه، فاقصرت على أهم أركانها، وأبرز خطوات تحقيقها، مع بعض النماذج لكل منها، على سبيل التمثيل لا الاستيعاب.

والله ولي التوفيق

المبحث الأول:

تعزير الجانب الروحي وأثره في تهيئة البيئة الداعية للتميز

كان الهاجس الأكبر للنبي صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الأول للدعوة غرس معاني الإيمان، وتقوية الجانب الروحي في النفوس؛ لأنه أمام مسؤولية ضخمة، وهي عمارة الأرض، وإقامة الحياة فيها على أسس قويمية من الحق والعدل، وهي أمانة عظيمة تنوء بها الجبال، ومهمة صعبة تحتاج إلى مجتمع متين متميز في كل خصائصه، ذو أفراد يتمتعون بطاقات جبارة، ولا يقوى على منح هذه الطاقة الهائلة إلا الإيمان، فغرس الإيمان في النفوس كفيل بتزويد الإنسان بالطاقة اللازمة لتثبيت الأركان التي يركز عليها التميز لدى الأفراد والجماعات، ومن هنا تهياً بيئة خصبة لإنتاج المميزين.

والأركان الأساسية للتميز التي تغذيها الطاقة الروحية المستمدة من الإيمان، تتمثل في بصيرة ثابتة توصل إلى الحقيقة، وشخصية واثقة بنفسها، مع دوافع محفزة لها على العمل، يساند ذلك صبر وأمل للاستمرار ومواجهة التحديات والصعوبات، وهذه الأركان تكفلها قوة العقيدة.

أولاً: الإيمان يجلو البصيرة: إن قوة الإيمان ترفع الحس الداخلي لدى الفرد، فتنجلي بصيرته وتصفو، حتى لتبدو كوجه النبع الرقراق، تنعكس عليه الصور باهية حقيقتها، هكذا من يرى بنور الله، ولا شك أن هذا الأمر من أعظم دواعي التميز، إذ أن قوة البصيرة تتيح للمرء أن يدرك كوامن الأمور وأبعادها، وأن يفهم الحياة على حقيقتها، فتتضح له معالم الطريق، فيسير على نور وهدى وبينة، فيكون قادراً على تحقيق آمال عظيمة متميزة، وقد وصف الله تعالى في محكم تنزيله حال الكافر في تخطئه في الضلال، وحال المسلم الذي يسير على

نور من ربه فقال: ﴿أَفَنَ يَمْشِي مُكْبَأً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١).

والتمتع بنور البصيرة كنز ثمين يطمح إليه كل عاقل، والوصول إليه ليس بمستحيل، بل طريقه مُهدت للسالكين، ولكن لا يستعذبها إلا من ذاق حلاوة الإيمان، ويكشف لنا الله عز وجل أسرار هذا الطريق، فيما يرويه عنه المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام في الحديث القدسي، فيقول: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحْبَبْتُهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» (٢).

فمحنة الله تعالى لعبده إنما تكون بتمكينه من سعادته، وعصمته، وتوفيقه، وتهيئة أسباب القرب، وإفاضته لرحمته عليه، وأقصاها كشف الحجاب عن قلبه، حتى يراه بقلبه، وينظر إليه ببصيرته، فيكون كما قال في الحديث: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا» (٣)، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٤).

والبصر يختلف عن البصيرة، فالبصر يقال للجارحة الباصرة والقوة التي فيها، ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة، فالبصيرة هي تلك القدرة على الرؤية الصحيحة، المتشكلة من عقل الإنسان وثقافته وتربيته وتجربته ودينه، فقد يكون

١- سورة الملك / ٢٢.

٢- رواه البخاري في "صحيحه" كتاب الرقائق، باب التواضع، ص ١١٢٧، ح (٦٥٠٢).

٣- المصدر السابق.

٤- سورة البقرة / ٢٨٢.

الإنسان ذا بصر حاذق، ولكنه ذو بصيرة قليلة ضعيفة، لذا اعتبر القرآن أن رؤية البصيرة أهم بكثير من رؤية البصر، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(١) فالبصيرة هي نور القلب، كما أن البصر هو نور العين.^(٢)

وقد أكد خبراء التنمية البشرية من المسلمين، على أهمية الاستفادة من قدرات البصيرة، يقول الدكتور إبراهيم الفقي: «إن عمل البصيرة الإيمانية في قلب المؤمن كعمل كشاف ضوء منير، في وسط ظلمة حالكة، فهي التي تكشف الأشياء على حقيقتها، فيراها المؤمن كما هي، ولا يراها كما زينت في الدنيا، ولا كما زينها الشيطان للغاوين، ولا كما زينها هوى النفس في الأنفس الضعيفة»^(٣).

وهذا الهدى قد استمدوه من تعاليم ديننا الحنيف، بينما أغفله غير المسلمين، وهو هدى ظاهر بين في الحديث النبوي الشريف، فقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تأكيد هذه الحقيقة وتوطينها في نفوس المؤمنين لتشجيعهم؛ ليكونوا مع الله في الأمر كله، فيكون الله عز وجل هادياً ومرشداً ومثبتاً في الأمر كله.

هكذا يكون قمة التميز، بأن يكون الله عز وعلا معلمه، فينطلق المرء ساعياً في هذه الأرض بنور الله، ويستقيم عمله بتوفيقه عز وجل، وتسييره المحبة له في كل أمر، فتراه متألقاً في كل الميادين، متميزاً بعمله وسلوكه، ساعياً إلى الحق والخير ومعالي الأمور.

ثانياً: الإيمان يقوي الثقة بالنفس: إن العلاقة الروحية القائمة على قوة الصلة بالله تعالى تؤسس في بنية الإنسان قوة داخلية، تتغلغل إلى أعماق النفس،

١- سورة الحج / ٤٦.

٢- انظر: احتراف فن الفراسة: للدكتور إبراهيم الفقي: ص ٨.

٣- المرجع السابق: ص ١٠.

فتشد أزره، وتقوي عزيمته، وتبعد عنه الجبن والخور، فهو ليس وحده؛ بل معه في كل خطوة يخطوها القوي العزيز؛ حامياً وناصراً وموفقاً، مما يقوي الثقة بالنفس، والذي يعتبر حجر الزاوية، الذي تستند إليه الشخصية المتميزة، فإذن توليد الثقة بالنفوس هو عبارة عن تكوين بيئة خصبة قادرة على احتضان بذور التميز ومنحها الحياة.

وتقوية الصلة بالله تعالى هو الذي ما فتى النبي صلى الله عليه وسلم يغرسه في نفوس أصحابه، فيعلمهم أن يثقوا بأنفسهم ماداموا في جنب الله تعالى، فهو النافع والضار، والحامي والحافظ، فانظر قوله لابن عباس رضي الله عنهما، وهو حينذاك صبياً يافعاً: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ أَحْفَظُ اللَّهُ يَحْفَظُكَ اللَّهُ تَجِدُهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(١).

إن من شعر بحماية الله تعالى وحفظه، كان ثابت الخطى لا يخاف في الله لومة لائم، شجاعاً مقداماً، واثقاً بنفسه، وهذه الصفة من أقوى العوامل في بناء الشخصية المتميزة.

ثالثاً: الإيمان يولد الدوافع المحفزة للعمل: إن وجود البصيرة الثاقبة، وتوفر الشخصية الواثقة مع أهميتهما في توفير المناخ الملائم للتميز، لا يكفي لصناعة التميز ما لم تتوفر الدوافع للعمل، وهذا أيضاً من مهام الإيمان والقوة الروحية، فإن حب الله تعالى والرغبة فيما عنده من عطاء وثواب، تعتبر من أقوى الدوافع المحفزة للعمل، وهذه الدوافع كفيلاً بتفجير الطاقات الكامنة في أعماق

١- أخرجه الترمذي في "سننه" كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب، ص ٥٧٢، ح (٢٥١٦) بلفظه، ثم قال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ".

النفس، وإشعال روح الحماس للعمل، وتعزيز حب العطاء، وبمعنى آخر فإن القوة الروحية تولد الطاقة القادرة على تقديم كل ما هو مميز، من خلال الدوافع الروحية، والتي تعتبر أقوى الدوافع على الإطلاق.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على تثبيت دعائم الإيمان وأسسها، والحث على العمل حباً بالله، ورغبة في ثوابه، ورهبة من عقابه. والتذكير دوماً أن الدنيا دار ممر، وأما الحياة حياة الآخرة، مما يساعد على التفلت من قوة الانجذاب إلى الدوافع الدنيوية القصيرة المدى، أو الركون إلى الدعة والكسل، فبذلك تصبح البيئة مهيأة للتميز والعطاء؛ لقوة الدوافع التي تمد بالطاقة الدائمة.

لذا عمل النبي صلى الله عليه وسلم على ربط العمل بكافة وجوهه بالدوافع الروحية المبنية على العقيدة، فقال في الحديث المشهور: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١).

والنيات في حقيقتها هي دوافع العمل، وقد قسمها النبي صلى الله عليه وسلم إلى: أخروية ودنيوية، وأشار إلى محدودية الدوافع الدنيوية، وأن غاياتها محدودة لا تتعدى امرأة يتزوجها، أو دنيا يصيبها، أو نحو ذلك من المقاصد القاصرة، وأن الدوافع الحقيقية المقبولة ما يتعلق منها بالله سبحانه وتعالى والدار الآخرة، وكان دائم التأكيد على هذا الجانب في كل مناسبة، مما كان له أثر كبير في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، فقدموا نماذج رائعة في العطاء والتضحية بالنفس، استجابة لنداء الإيمان.

ولعل أشد ما يبتلئ به المرء في حياته أمران: التضحية بالنفس وبذل المال، فقد جبلت النفس البشرية على الجبن والشح، ولا تجد أعجب من حرص المرء

١ - أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب بدء الوحي، ص ١، ح (١).

على حياته إلا حرصه على ماله، ويبقى هذا التعلق ما دام قلبه ينبض بالحياة، بل قد يزداد تعلقه بهما كما جاء في جميل وصف النبي صلى الله عليه وسلم لحال ابن آدم تلك، حين قال: «يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر»^(١)

فإذا اعترى الإنسان من الدوافع ما هو أقوى من دوافع الحرص على هاتين الخصلتين، تمكن من التحرر من قيودهما، وكان قادراً على التحكم بنفسه وإخضاعها فيما دونهما، وليس هناك أقوى من دوافع الإيمان الخالص للحد من الانجذاب نحوهما، والانطلاق نحو العطاء اللا محدود، وهذا الوقود الذي استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم لتأجيج الطاقات ودفعها للعمل.

ففي غزوة بدر كان استنفاره صلى الله عليه وسلم لبدء المعركة بدعوة إيمانية خالصة، ليس فيها لأعراض الدنيا سبيل، فكان نداؤه للمعركة: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»^(٢).

فما كان من أصحابه رضوان الله عنهم إلا أن أقبلوا راغبين، استجابة لنداء الإيمان النابض في أعماق قلوبهم، فهذا عمير بن الحمام الأنصاري رضي الله عنه، تتسلل تلك العبارة الوجيزة المبنى العظيمة المعنى إلى أعماقه، فتنفذ إلى سويداء قلبه، وتُفجّر طاقاته الدفينة، فيقوم ملبياً دوافع الإيمان التي تتوق إلى تلك اللذة الأبدية والنعيم الأزلي، فيعمى عما دونها من تعلق بشهوات زائلة ودنيا فانية، فيقول رضي الله عنه: «يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قَالَ نَعَمْ قَالَ بَخٍ بَخٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ قَالَ لَا

١ - أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الزكاة، باب كراهية الحرص على الدنيا، ص: ٤٢١، ح (٢٤١٢).
وأخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، ١١١٥، ح (٦٤٢١).

٢ - أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الإمارة، باب ثبوت اللجنة للشهيد، ص ٨٥٠، ح (٤٩١٥).

وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا قَالَ فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا فَأَخْرَجَ تَمْرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ لَنْ أَنَا حَيِّتٌ حَتَّى أَكُلَ تَمْرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا حَيَاةٌ طَوِيلَةٌ قَالَ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ^(١).

نظرة نبوية ثابتة تتعري أمامها الدوافع البشرية، والتي تحتل فيها الحاجات الروحية قمة الهرم، فيرسل عليه الصلاة والسلام إشارته الرقيقة، فتستقبلها تلك النفس العامرة بحب الله، فينطلق عمير رضي الله عنه ساعياً جاداً، مقدماً كل ما يملك، بل أعلى ما يملك - حياته - رخيصة في سبيل غايته العظمى الله عز وجل.

وذلك ليس مجرد حالات فردية، بل هو الحس السائد في الجماعة المسلمة، فإن حياة الصحابة رضوان الله عليهم، تعج بنماذج من التميز الفردي، والتي كانت أساس تلك الطفرة الخارقة من التميز العام للجيل كافة، يراعه النبي صلى الله عليه وسلم ويغذيه، فإليك مثلاً في غزوة الخندق حين اشتد على المسلمين الأمر، فكانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾^(٢)

فقد أحاط بهم العدو من الخارج، وحاصرهم الجوع والبرد من الداخل، مع العمل المضني في حفر الخندق، حتى بلغت القلوب الحناجر، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن قام إليهم، يثبت قلوبهم الوجلة ويعضد عزائمهم الخائرة، فقال لهم: «اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَاعْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ»^(٣) دعوة إيمانية محضة، لا يشوب صفاءها كدر، فتلامس قلوباً أضاءها الإيمان وصقلتها الطاعة، فتشتعل حماساً، وتغذي روح العطاء عندهم من جديد، فيصيح

١- أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الإمامة، باب ثبوت الجنة للشهيد، ص ٨٥٠، ح (٤٩١٥). بخ: كلمة فخر، وتقال لتعظيم الأمر وتفخيمه. انظر لسان العرب: مادة بخ، ٦/٣. وقال العلامة ابن الأثير: كلمة تقال عند المدح والرضى. النهاية في غريب الحديث والأثر، ١/١٠١، مادة بخ.

٢- سورة الأحزاب / ١١

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي باب غزوة الخندق، ص ٦٩٥، ح (٤٠٩٩). وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق، ص ٨٠٦، ح (٤٦٧٦).

الصحابه رضوان الله عليهم «فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا... عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا»^(١) فتشتد عزائمهم مرة أخرى، ويستمر العطاء.

هي التربية المحمدية التي تداوم على غراسها، تسقيها نور الإيمان، وتجعله زادها الذي تنهل منه كلما اشتد الخطب، فتقوى العزائم بعد أن كادت تخور، ويبدأ العطاء يتدفق من جديد، فنعم المربي، ونعمت الغراس، وحبذا الرِّيُّ والزاد.

إن الغزوات التي خاضها الصحابة رضوان الله عليهم، وخرجوا منها منتصرين - مع قلة العدد وضآلة العتاد - تمثل أقوى النماذج وأوضحها في رسم التميز بالتضحية بالنفس بأبدع صورته.

هذا إذا تحدثنا عن وقت الشدائد، أما وقت الرخاء والتكالب على أعراض الدنيا، فإن العطاء غير المحدود وغير المشروط، أو غير المتوقف على المنافع والمكاسب، هو الذي يثير العجب، معجزات يصنعها الإيمان حين يغزو القلوب، ويتربع في سويدائها.

يروى لنا الصحابي الجليل جرير بن عبد الله رضي الله عنه كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضْرَبِ كُلُّهُمْ مِنْ مُضْرَبٍ فَتَمَعَّرَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِاللَّيْلِ فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» وَالْآيَةُ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: «اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍّ وَاتَّقُوا اللَّهَ». تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دَرَاهِمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ حَتَّى قَالَ وَلَوْ بَشِقَ تَمْرَةٌ قَالَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بَصْرَةَ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ قَالَ ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمِينَ مِنْ طَعَامٍ

١ - المرجعيين السابقين، الموضع نفسه.

وَتِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ^(١).

فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم بداعي الإيمان، فيقدم خطاباً قوياً وحثاً شديداً، إلا أنه يجعل فيه مرونة ورفقاً، ولا يضع حدوداً أو قيوداً، بل يفسح أفقاً واسعة، فيمهد بذلك تربة خصبة للتمييز على شقيه الفردي والجماعي، تمكن الصحابة رضوان الله عليهم من الإستجابة، فيعطي كل منهم بحسب قدرته، دون أن ينظر للآخرين، فمنهم من يتميز بكثرة العطاء لوفرة ماله، ومنهم من يتميز بعجيب الإيثار لقلّة ذات اليد.

ويروي أنس بن مالك رضي الله عنهما، يَقُولُ كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرِحَاءَ^(٢) وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٌ قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(٣)، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرِحَاءٌ وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بَرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَحْ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ^(٤).

يرى النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحالة الفريدة التي وصل إليها الصحابي

- ١- أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الزكاة، باب الحث على الزكاة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة، ص ٤١٠، ح (٢٣٥١).
- مذهبة: من الشيء المذهب أي المموه بالذهب. أو الشيء الذي علت حمرة صفرة. لسان العرب: ٤٦١ / ١، مادة (ذهب) ويبدو أن مراده أن وجهه أضواء من السرور.
- ٢- بيرحاء، أو بيريحى، وهو اسم مال وموضع بالمدينة، وقيل هي من البراح: الأرض الظاهرة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ١ / ١١٤، مادة برح.
- ٣- سورة آل عمران / ٩٢.
- ٤- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، ص ٢٣٦ - ٢٣٧، ح (١٤٦١) بلفظه. وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الزكاة، باب فضل الصدقة على الأقرين والزوج والأولاد، ص ٤٠٤، ح (٢٣١٥) بلفظ مقارب.

رضوان الله عليه في البذل والعطاء، استجابة لآيات الله ودوافع الإيمان، فيثني عليه ويشجعه مَثَلًا ما فعله بالتجارة الرباحة، فإن هذا ما يصلح أن يطلق عليه ليس تمييزاً فحسب، بل ما يشبه أسطورة من الأساطير، تحاك لتكون عبرة وعظة، فمن الطبيعي المشاهد في الحياة أن يقدم الإنسان بعض ماله، أو الفائض منه، ولكن أن يقدم أفضله وأحبه، فهذا الذي يثير العجب في النفوس، ويغير قواعد البذل والعطاء المتعارف عليها.

إن بيئة التميز التي أسس النبي صلى الله عليه وسلم دعائم بنيانها على الإيمان، وجعل ينابيعها تتفجر في رياض من الدوافع الروحانية، لم يقتصر ثمارها على التضحية بالنفس، أو البذل المال، بل شملت كل مناحي الحياة: كحسن الخلق واستقامة السلوك والعمل الجاد المثمر، فكل تميز في التربية النبوية ثمرة من ثمار الإيمان، ودفقة من خافقه.

رابعاً: قوة الإيمان تحمي الإنسان من براثن القعود واليأس: لا يقتصر تأثير القوة الروحية على إيجاد الدوافع الفاعلة لبدء العمل، بل كذلك تزود الفرد بالطاقة اللازمة للاستمرار فيه، فتحمي الإنسان من التوقف في منتصف الطريق، وتعطيه القدرة على تحمل الشدائد، وتجاوز العقبات التي تعترض الطريق، كما تحفظه تلك الطاقة من الاستسلام للتردد واليأس عند الفشل، وتهيء له القدرة على النهوض من جديد دون النظر إلى الماضي والتأسف عليه.

وقد تُقدِّم زخارف الدنيا ووهجها الزائل طاقة عالية للعمل، إلا أنها طاقة محدودة مؤقتة مرتبطة بقصور الدوافع ومحدوديتها، كما أن هذه الطاقة سرعان ما تذوي إذا لم تجد النفع القريب والأجر العاجل، وخاصة إذا صادفت العقبات وانتابتها الكبوات، فتفتر الهمم وتهن العزائم، وتدفن الطاقات، ويقتل العطاء في أرضه، أما قوة الإيمان فتبقى طاقتها متقدمة، ما دام فتيلها متصلاً بالنبع الذي لا

يخبو، ويظل العطاء موصولاً، وإن لم يحصل الثواب العاجل، ومن هنا كانت قوة الإيمان هي البيئة الصالحة التي ينطلق في رحابها التميز ويشتد عوده ويستمر عطاؤه؛ إذ أنها تمد بطاقة دائمة لا تنضب مهما كانت الظروف.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم واعياً لحالات الوهن التي قد تصيب الإنسان في بعض مراحل حياته، فدعى إلى الاستعانة بالله تعالى في كل حال، وعدم الاستسلام للفشل والعجز، انظر إلى هذه القطعة الفريدة التي غاصت في كوامن النفس البشرية، وكشفت أسرارها وبواطنها، ورفعت الحجب عن العلل والأسقام، واستقبلتها بالبلسم الشافي.

روى الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، أَحْرَصٌ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَأَسْتَعِنُ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١).

فالنبي صلى الله عليه وسلم يمدح القوة ويرغب فيها، والقوة هنا قوة الإيمان، لا القوة البدن، فقوة البدن ليست محمودة ولا مذمومة في ذاتها^(٢)، وإنما الترغيب في قوة الإيمان؛ لأنها تحمل الإنسان على أن يقوم بما يجب عليه القيام به، وترك ما يجب عليه أن يتركه،^(٣) وهو ما يسمى بخلق الدوافع للعمل.

ثم بعد ترغيبه صلى الله عليه وسلم بالقوة، يحث على الحرص وهو: بذل الجهد واستفراغ الوسع، بالأخذ بالأسباب المشروعة، في سبيل الوصول إلى كل

- ١- أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ص ١١٦١، ح (٦٧٧٤) بلفظه.
- ٢- "إن استعمل الإنسان هذه القوة فيما ينفع في الدنيا والآخرة صارت محمودة، وإن استعان بهذه القوة على معصية الله صارت مذمومة" انظر: شفاء العليل: ص ٣٧.
- ٣- انظر: شرح رياض الصالحين: للشيخ ابن عثيمين، ٧٦/٢.

ما هو نافع مفيد فيما يتعلق بمعاشه أو معاده، غير غافل في هذا كله عن مسبب الأسباب، بل يستعين به، ويسأله أن يحقق له ما يريد،^(١) فتبقى شعلة الحماس متوقدة، والعمل متواصل.

فإذا نزل بالإنسان ما يكره، أو صادف في طريقه المصاعب والشدائد، واعترضت العقبات سبيله، فعليه إن يثبت ولا ييأس ولا يجزع، فقد نهى النبي صلى عن العجز، فإن العجز ينافي حرصه على ما ينفعه، وينافي استعانته بالله، فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد العاجز، ونهى أن يلقي عجزه عن فعل شيء إلى لو، فهي مفتاح اللوم والجزع والسخط والأسف والحزن، ووجهه إلى النظر إلى القدر وملاحظته^(٢).

روح حانية وإرشادات حكيمة، رسم بها النبي صلى الله عليه وسلم معالم الطريق للعاملين، وأخذ بيد السائرين فمرحلة البناء بتقوية النفس، ثم الحث على العمل بما هو أصلح وأنفع، ثم ربط ذلك كله بتقوى الله واللجوء إليه، ثم ختمها بعدم اليأس والقنوط عند الفشل، وعدم العيش في ظل الماضي والتحسر عليه بقول: لو فعلت هذا، ولو حدث ذلك. بل النهوض من جديد في دورة مستمرة لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة.

خطة واضحة المعالم متكاملة التفاصيل، بعبارة وجيزة، وأسلوب بديع، من سار على هداها أفلح، ومن نكل فله الخسران والثبور.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم صحابته الكرام أن لا ييأسوا وأن يتسلحوا بالأمل بالله عند اشتداد الكرب، فهو خير ملجأ وهو أرحم الراحمين.

وتروي لنا أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها قصتها مع الأمل

١- انظر: شفاء العليل: ص ٣٧.

٢- انظر: المرجع السابق: ص ٣٨.

الذي كان يغرسه النبي صلى الله عليه وسلم في النفوس، فتقول: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلَفَ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجْرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا». قَالَتْ: «فَلَمَّا تَوَفَّى أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم عدم الاستسلام للهلع والجزع، وأنه لا يأس مع الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فهو الملجأ وهو طريق الفرج.

وأم سلمة رضي الله عنها بشر اعتراضها ما يعتر بهم من الأسى لفقدان زوجها، حتى قالت كما جاء في رواية أخرى: «فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٢).

فكان الظاهر لأم سلمة أنها لن تجد في المسلمين خيراً من أبي سلمة، وذلك بحدود العقل البشري القاصر، إلا أنها لم تُردُّ ترك إرشاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فافلحت، وتعلمت من التجربة أن يكون أملها موصولاً بالله، فلا نعلم من أين يجعل الله لنا المخرج، فهو الذي لا يعجزه شيء، ولو بدت كل الطرق مسدودة بحسب إدراكنا القاصر.

وفي غزوة الخندق والمسلمون محاطون من كل جانب، خائفين وجلين، ينتظرون من هذا السيل الجارف من الأحزاب أن يقتلعهم من جذورهم، ويستأصل شأفتهم، ويجتثهم عن آخرهم، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

١ - أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، ص ٣٧٠، ح (٢١٢٧) بلفظه.

٢ - المصدر السابق.

يضرب صخرة ضعف عنها المسلمون: «اللهُ أَكْبَرُ قُصُورُ الرُّومِ وَرَبُّ الكَعْبَةِ» ثُمَّ ضَرَبَ بِأُخْرَى فَوَقَعَتْ فَلَقَّةٌ فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ قُصُورُ فَارِسَ وَرَبُّ الكَعْبَةِ»^(١).

في هذا الوقت العصيب يرفض النبي صلى الله عليه وسلم أن يستسلم أصحابه لليأس، بل يعطيهم من الأمل في المستقبل ما تعجز عنه كل التخيلات، يبشرهم ليس فقط بالنجاة وهو جُل ما كانوا يأملون فيه، ولا بالنصر على قريش ومن معها من الأحزاب، وهو الحلم الذي لم تكن قلوبهم ترنو إليه، بل يعدهم بقصور الروم والفرس، أمل عظيم لا يستجيب له إلا المؤمنون، فيصبروا عندئذ، ويستمروا يحدوهم الأمل بالله ونصره، حتى تحقق لهم وعد الله بالنصر على الأحزاب، وامتلاك قصور فارس والروم.

وهكذا نرى أن الطاقة الروحية وقوة الإيمان كانت من دعائم التربية النبوية السديدة، التي منعت من الاستسلام للقنوط واليأس، وخلقت جواً من التميز على المستويين الشخصي والعام.

المبحث الثاني:

نشر روح العلم والتعلم وأثره في صناعة البيئة الداعية للتميز

إن العناية بالجانب الفكري وتنمية العقل والمعرفة من الأولويات التي حرص عليها النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن تقوية الجانب الروحي وإن كان محفزاً على العمل، لا يكفي لقيادة الفرد عبر ممر آمن؛ إذ لا بد من تغذية العقل بالعلم، والتسلح بالمعرفة، لتسيير عجلة الحياة، ومواكبة الواقع، وبناء التوازن بين العاطفة والعقل، وبذلك يضاف العنصر المعرفي إلى العنصر الإيماني، لتعزيد وتقوية البيئة الداعية للتميز، وقد اشتملت المسيرة النبوية في مجال تنوير العقول بالمعارف والعلوم

١- أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" ١١/٣٧٦، ح (١٢٠٥٢) وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد": ١٣٢/١: "ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل، ونعيم العنبري، وهما ثقتان."

على الخطوات التالية:

أولاً: الترغيب في طلب العلم والحث على التعليم والإنفاق فيه: كان النبي صلى الله عليه وسلم مدركاً لضرورة العلم في ارتقاء المجتمع وتميزه، فأولى عناية حثيثة لنشر العلم، ومصادر الحديث النبوي زاخرة بالنصوص التي تحث على العلم والتعليم، وتدعو إلى المنافسة في ذلك، ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم جعل السعي في طلب العلم من القربات التي توصل إلى الجنة، فقال: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(١).

كما أعلى النبي صلى الله عليه وسلم شأن التعليم، حتى جعل ما ينشره الإنسان من علم، من القربات التي يظل أجرها جارياً ما دام يُنتفع به، فيقول: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٢). طريقة إبداعية أخرى لتحفيز الناس على التعلم والتعليم، طريقة تجعل كل فرد يتطلع إلى هذا الشأن؛ بل ويطمح للتميز فيه، فأكثر العبادات تنتهي بموت صاحبها، أما هذه فتبقى تصب في ميزانه بقدر ما ترك من إرث نافع من العلم.

وفي أسلوب آخر لحث الناس على نشر العلم، يوجه إلى التنافس في التعليم، فيقول: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَيْهِ هَلَكَتَهُ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا»^(٣). والحسد ههنا: شدة الحرص والرغبة^(٤)،

١- أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، ص ١١٧٣، ح (٦٨٥٣).

٢- أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ص ٧١٦، ح (٤٢٢٣).

٣- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب العلم، باب الاعتبار في العلم والحكمة، ص ١٧، ح (٧٣). وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه وغيره فعمل بها وعلمها، ص ٣٢٨، ح (١٨٩٤).

٤- عمدة القاري: ٨٠ / ٢.

ولفظ الحكمة يدل على علم دقيق محكم، وفيه إشارة إلى الكمال العلمي^(١). فهي دعوة إلى بذل الجهد والتمكن من العلم، وحثُّ على القيام بتعليمه.

ومن باب التشجيع أيضاً على نشر العلم رغب الرسول صلى الله عليه وسلم في كفالة طلاب العلم والنفقة عليهم، فعن أنس بن مالك قال: «كَانَ أَخْوَانِ عَلِيٍّ عَهْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْآخَرَ يَحْتَرِفُ فَشَكَاَ الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ»^(٢) وقد كان أحدهما يأتي النبي صلى الله عليه وسلم لطلب العلم والمعرفة، فشجع النبي صلى الله عليه وسلم أخاه المتكسب بحرفته على الاستمرار في النفقة عليه ليتفرغ الآخر للعلم، وَوَجَّهَهُ إِلَى أَنْ النِّفْقَةَ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ قَدْ تَكُونُ سَبَباً فِي الرِّزْقِ.

وهكذا نرى أن النبي عليه الصلاة والسلام شجع على نشر العلم من وجوه: أحدها التشجيع على طلب العلم، وثانيها الحث على تبليغه، وثالثها الترغيب في الإنفاق عليه، فلا يكاد يخلو المجتمع من متعلم أو معلم أو منفق على أحدهما.

ثانياً: ترسيخ دعائم البيئة العلمية: قام النبي صلى الله عليه وسلم بتثبيت دعائم التميز العلمي، ويتمثل أهمها فيما يلي:

١- بناء العقلية العلمية وتحرير العقل من التبعية والخرافات:

عمل النبي صلى الله عليه وسلم على بناء العقلية العلمية، فشجع على إعمال العقل، وفتح باب الاجتهاد، بل وشجع عليه، إذ جعل للمجتهد أجراً على كل حال، فقال: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ

١- المرجع السابق: ٢ / ٨١.

٢- أخرجه الترمذي في "سننه" كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في التوكل على الله، ص ٥٣٦، ح (٢٣٤٥). ثم قال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ".

أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^(١).

ولكنه قيد الرأي والاجتهاد، بالوقوف على الأدلة والبراهين، فدعا إلى ضرورة الاستقلال الفكري، ونهى عن اتباع الظن والتخريص غير المبني على الدليل، فقال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ»^(٢) فبين أن الرأي المقبول هو العلم القائم على الاستدلال، فدعا إلى الاستقلال بالنظر في الأمور، ثم بين طريق هذا النظر، وهو تتبع البراهين والحجج؛ إذ لا قيمة لدعوى لا تستند إلى حجة، وهذا أهم أسس البحث العلمي الموضوعي، الذي لا تعد بدونه النتائج صالحة للاعتداد بها.

كما نهى عليه الصلاة والسلام عن التبعية والتقليد الأعمى، فقال: «لَا تَكُونُوا إِمْعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنًا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلَمُوا»^(٣). والإمعة هو: الذي لا رأي له فهو يتابع كل أحد على رأيه^(٤)، فجاء النهي عنه ثورة على التقليد الأعمى وإلغاء دور العقل، ودعوة للاجتهاد والاستقلالية المؤدية إلى التميز والإبداع.

والتمييز المطلوب هو الاستقلالية في النظر، فهو مأمور بالنظر للوصول إلى الصواب، فإن وافق الحق ما عليه الناس سار معهم، وإن خالفوا الحق لم يتبعهم، وبهذا يجمع بين تكاتف الجهود فيما هو متفق عليه من الصواب، والاستقلال عند

١- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا أصاب أو أخطأ، ١٢٦٤، ح (٧٣٥٢). وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، ٧٦١، ح (٤٤٨٧).

٢- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الفرائض، باب تعليم الفرائض، ص ١١٦١، ح (٦٧٢٤). وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش، ص ١١٢٣، ح (٦٥٣٦).

٣- أخرجه الترمذي في "سننه" كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، ص ٤٦٣، ح (٢٠٠٧). ثم قال: "هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه".

٤- النهاية في غريب الحديث: ٦٧ / ١، مادة (إمَّع)

انحراف الجمهور، فلا تجتمع الأمة على ضلالة، وهو قمة التميز في المجتمعات. وبينما النبي صلى الله وسلم يؤسس للطريقة العلمية في النظر والاستدلال، كان يعمل في الوقت ذاته على تخليص العقول من رواسب الجاهلية والتخلف، المبني على الخرافة والمعتقدات الساذجة والأساطير، فكان يستغل الفرص لتصحيح هذه المعتقدات الباطلة، ومن ذلك أنه الشمس كسفت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا»^(١).

فالنبي صلى الله عليه وسلم ينبذ المفاهيم الخاطئة، ويوجه الناس إلى أن هذه الآيات مرتبطة بنظام كوني خاضع لأمر الله، وليست مرتبطة بموت الناس وحياتهم، فيرشدتهم إلى النظر والتدبر، والاعتصام بحبل الله الذي بيده ملكوت كل شيء.

كذلك حرم الكهانة والعرافة والتنجيم والدجل وكل العلوم الزائفة، ففي الحديث: «مَنْ آتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»^(٢) وذلك لأنها تسخر من عقل الإنسان وتتلاعب به، وتعمل على تقييده، وتحد من إنتاجه، عن طريق ملئه بالدجل والأكاذيب، فهي حملة مركزة للقضاء على العقلية العامية الساذجة، وبناء العقلية العلمية المنتجة الداعية إلى التميز.

١- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، ص ١٦٧-١٦٨، ح (١٠٤٤). وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، ص ٣٦١-٣٦٢، ح (٢٠٨٩).

٢- أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ص ٩٩٠، ح (٥٨٢١) بلفظه.

٢- محو أمية القراءة والكتابة:

يعد تعليم القراءة والكتابة من العلوم الأساسية، التي تركز عليها المعارف البشرية، لأنها أهم الوسائل وأضمنها في حفظ العلم ونشره، ونقله من حضارة إلى أخرى ومن جيل إلى آخر.

فإن أي أمة تريد أن ترتقي وتتطور في مجال العلوم والمعارف، تبدأ بتعليم أبنائها القراءة والكتابة، وهذا تماماً ما قام به المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فكان حريصاً على تعلم المسلمين القراءة والكتابة، ومن هديه في ذلك أنه جعل فداء من ليس عنده مال من أسرى بدر، أن يقوم بتعليم القراءة والكتابة للمسلمين، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كَانَ نَاسٌ مِنَ الْأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِدَاءٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِدَاءَهُمْ؛ أَنْ يَعْلَمُوا أَوْلَادَ الْأَنْصَارِ الْكِتَابَةَ»^(١).

فملاحظته أمراً كهذا، مع الأمية المتفشية آنذاك، وتوجيه الجهود إليه في ذلك الوقت المبكر من عمر الدولة الإسلامية، مع أنه كان من الممكن أن يوجههم إلى عمل آخر، دليل على ضرورته، وإرادة منه صلى الله عليه وسلم للفت النظر إلى أهميته، ودفع المسلمين لإعطاء مزيد اهتمام به، فهو بذلك يمهّد السبيل الذي يُسرّع في نقل العلوم وتطورها.

٣- التشجيع على تعلم اللغات الأجنبية:

يعد تعلم اللغات الأجنبية من الأساسيات التي يجب أن يوجه إليها بعض الأفراد، وخاصة في المجتمعات الناشئة التي في دور النمو والتطور، لحاجتها للانفتاح على الثقافات المختلفة، وتبادل المعارف معها، واكتساب العلوم من الحضارات الأكثر تقدماً، فتنشأ بيئة خصبة لنهضة علمية مميزة.

١- أخرجه أحمد في "مسنده" ٩٢/٤. وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط وزملاؤه في التحقيق: حسن.

وهذا ما أدرك أهميته النبي صلى الله عليه وسلم، فشجع على تعلم اللغات الأجنبية، عن زيد بن ثابت قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَحْسِنُ السُّرْيَانِيَّةَ؟» قلتُ: لا، قال: «فَتَعَلَّمَهَا فَإِنَّهُ تَأْتِينَا كُتُبٌ». قال: «فَتَعَلَّمْتَهَا فِي سَبْعَةِ عَشْرِ يَوْمًا»^(١).

والظاهر أن النبي صلى الله عليه وسلم حرص على أن يتعلم المسلمون اللغات الأجنبية، للثقة بهم في صحة ما ينقلون، ما قد لا يتوافر في غيرهم، فقد جاء في رواية أخرى للحديث، قال: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ، قَالَ: «إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ». قَالَ: فَمَا مَرَّبِي نِصْفَ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتَهُ لَهُ»^(٢).

وهذا أيضاً من سمات تميز المجتمع، بأن يكون عنده من الاكتفاء الذاتي في كل علم، ما يجعله أكثر استقلالاً واعتماداً على النفس، كما يؤهل الأمة لحفظ أسرارها وتأمينها من التسرب لجهات أخرى، وكذلك يحقق القدرة على الاطلاع على الحضارات الأخرى، ونقل العلم الصالح للأمة دون غيره.

ثالثاً: فتح باب العلم لكل فئات المجتمع: طلب العلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن حكراً على الرجال، بل هي دعوة عامة لكل فرد من أفراد المجتمع، والفرصة متاحة للجميع، والنصوص الواردة في السنة النبوية المطهرة في الترغيب في العلم والحث عليه عامة، وهذا يعني أن المجال فسيح لكل من له ملكات مميزة، فهو قادر على تطويرها والارتقاء بها، مهما كان لونه أو جنسه أو عمره أو طبقته الاجتماعية، وهذا من العوامل التي تساعد على امتداد رقعة التميز وزيادة الوافدين إليها.

١- أخرجه ابن حبان في "صحيحه" كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن الصحابة، ذكر زيد بن ثابت الأنصاري، ١٦ / ٨٥، ح (٧١٣٦)، بلفظه.

٢- أخرجه الترمذي في "سننه" كتاب الاستئذان والآداب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في تعليم السريانية، ص ٦١٥، ح (٢٧١٥) بلفظه، ثم قال: "هذا حديث حسن صحيح".

وقد شجع النبي صلى الله عليه وسلم النساء على العلم كما كان يشجع الرجال، فكان حريصاً على تعليم نسائه ونساء المؤمنين، وقد كانت عائشة رضي الله عنها فطنة حريصة على العلم، فاستغل النبي صلى الله عليه وسلم هذا النبوغ فيها وهذه الرغبة، فكان يحاورها في العلم ويجيب عن تساؤلاتها.

روى ابن أبي مليكة أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ حُوسِبَ عَذَبَ قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ أَوْ لَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾^(١) قَالَتْ: فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكُ»^(٢).

وهذا الاهتمام الذي أولاه النبي صلى الله عليه وسلم لتعليمها وتنمية مواهبها، جعلها مرجعاً للصحابة في العلم، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «مَا أَشْكَلَ عَلَيْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثٌ قَطُّ فَسَأَلْنَا عَائِشَةَ إِلَّا وَجَدْنَا عِنْدَهَا مِنْهُ عِلْمًا»^(٣).

ولم يكن ذلك الحرص مختصاً بالخرائر، بل شمل الإماء أيضاً، فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا آدَى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أُمَّةٌ يَطُؤُهَا فَادَّبَهَا، فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ»^(٤).

- ١- سورة الانشقاق / ٨.
- ٢- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب العلم، باب من سمع شيئاً فلم يفهمه فراجع فيه حتى يعرفه، ص ٢٣، ح (١٠٣) بلفظه.
- ٣- أخرجه الترمذي في "سننه" كتاب المناقب عن رسول الله، باب فَضْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ص ٨٧٦، ح (٣٨٨٣) بلفظه. وقال: "حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ".
- ٤- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب العلم، باب تعليم الرجل أمته وأهله، ص ٢٢، ح (٩٧) بلفظه. وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الإيمان، وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ص ٧٧، ح (٣٨٧) بمعناه.

هكذا كان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تعليم كافة فئات المجتمع، رجال ونساء، أحرار وعبيد، دعوة عامة للعلم والتعلم كل من فيها مأجور.

رابعاً: الترغيب في العلوم النافعة والفنون الهادفة: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحث على العلوم النافعة ويشجعها، فمثلاً كان يوجه النظر نحو علم الطب: فكان يقول: «يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً»^(١) والحث على التداوي فيه دعوة للاهتمام بهذا العلم، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم له باع طويل في الطب، وقد أضاف إليه رصيذاً كبيراً، وأسس فيه قواعد مهمة، ووصف علاجات ناجعة ما زال العلم الحديث يؤكد صحتها، ولا يكاد يخلو مصنف في الحديث النبوي الشريف من كتاب في الطب النبوي، وهذا يدل على مدى العناية التي أولاهها النبي صلى الله عليه وسلم لعلم الطب.

وكذلك حث على تعلم الأنساب، فقد جاء في الحديث: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامِكُمْ»^(٢) وفيه تشجيع على العلوم الاجتماعية، التي تحافظ على تماسك المجتمع وترابطه.

كما لفت النظر إلى علم القافة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «دَخَلَ عَلَيَّ قَائِفٌ^(٣) وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاهِدٌ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ مُضْطَجِعَانِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، قَالَ فَسُرَّ بِذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَعْجَبَهُ، فَأَخْبَرَ بِهِ عَائِشَةَ»^(٤) وإعجاب النبي صلى الله عليه وسلم

١- أخرجه الترمذي في "سننه" كتاب الطب عن رسول الله، باب ما جاء في الدواء والحث عليه، ص ٤٦٩، ح (٢٠٣٨). وقال: "حديث حسن صحيح".

٢- أخرجه الحاكم في "المستدرک" كتاب البر والصلة، ح (٧٢٨٤) ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. القائف هو: الذي يتبع الأثار ويعرفها، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه. النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤ / ١٢١، مادة قوف.

٣- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب المناقب، باب مناقب زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه وسلم، ص ٦٢٨، ح (٣٧٣١)، وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الرضاع، باب العمل بإلحاق القائف الولد، ص ٦٢١، ح (٣٦١٩).

وسروره فيه ترغيب وتشجيع على هذا العلم، وعلم القافة من العلوم المهمة، وقد كان يُتعرّف من خلاله على القرابة، فهو يقوم بمقام تحليل الشيفرة الوراثية - في هذا العصر - لإثبات النسب.

وكذلك شجع النبي صلى الله عليه وسلم الآداب والفنون الهادفة، فحث على الشعر الراقي الذي له أهداف سامية، كالشعر الذي ينافح عن الإسلام، فقال لحسان بن ثابت رضي الله عنه: «يَا حَسَّانُ أَجِبْ عَن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ أَيَّدِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ»^(١)، وقال: «إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ حِكْمَةً»^(٢) فهو يشجع على الشعر الذي يشتمل على الفضائل والحكمة.

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم نفّر من العلوم التي لا فائدة منها، فكان يدعو: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»^(٣) لأن فيه إهدار للطاقة والجهد وإضاعة للعمر والوقت.

وحرّم كذلك العلوم الضارة، التي لا تجرّ إلا البلاء على المجتمع، فحرّم السحر، وشدّد في ذلك حتى قرنه بالشرك، فقال: «اجْتَنِبُوا الْمُوَبِّقَاتِ: الشَّرْكَ بِاللَّهِ وَالسَّحْرُ»^(٤).

فالنبي صلى الله عليه وسلم يدعو ويحث على الاهتمام بالعلوم المفيدة وتنميتها، كما يرفض تضييع الجهود في العلوم الضارة أو لا تجدي البشرية شيئاً،

- ١- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الصلاة، باب الشُّعْرُ فِي الْمَسْجِدِ، ص ٧٨، ح (٤٥٣) بلفظه، جزء من حديث. وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت، ص ١٠٩٤، ح (٦٣٨٤).
- ٢- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، ص ١٠٧١، ح (٦١٤٥).
- ٣- أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، ص ١١٨١، ح (٦٩٠٦).
- ٤- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الطب، باب الشرك والسحر من الموبقات، ص ١٠١٧ - ١٠١٨، ح (٥٧٦٤).

فهو يوجه كل الجهود والطاقات للعلوم النافعة، والفنون التي تصقل النفس، ويضع الخطى على طريق التميز.

من هنا يتبين أن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذ خطوات عملية لصناعة بيئة علمية قادرة على إنتاج المميزين، فقام بجهود حثيثة لنشر العلم، ثم مهد الطريق بصناعة العقلية العلمية الموضوعية البعيدة عن التبعية والسذاجة، وجعل الدعوة عامة لكل فئات المجتمع، وختمها بتوجيه المجتمع إلى الانطلاق نحو العلوم المفيدة، ونبذ كل ما يبدد الطاقات ويؤذي البشرية منها.

المبحث الثالث:

الحث على العمل ورفع مكانته وأثره في تهيئة البيئة الداعية للتميز

إن استثمار الوقت في العمل الجاد هو أهم سمات التميز، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، والنبي صلى الله عليه وسلم في سعيه لبناء مجتمع متميز، بنى خطته على توجيه الجهود نحو العمل المثمر، على الصعيدين الفردي والجماعي، وسار في هذه المهمة وفقاً لخطوات فعالة ومدروسة، وإليك بيان أهمها:

أولاً: الدعوة لاحترام العمل بكافة أشكاله: حث النبي صلى الله عليه وسلم على العمل، ورفع مكانته مهما كان نوع هذا العمل، مادام مشروعاً، فقال: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكْفِيَ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»^(١).

فالنبي صلى الله عليه وسلم يجعل العمل مبدأ راسخاً في الحياة، فلا مكان في المجتمع المسلم للعاطلين والمتكلمين، ففي الحديث دعوة للأفراد إلى الاتجاه إلى العمل بكافة وجوهه، وعدم الترفع عن الأعمال الصغيرة، فكل يعمل لما يسر

١- رواه البخاري في "صحيحه" كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ص ٢٣٩، ح (١٤٧١).
وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، ص ٤١٩، ح (٢٤٠٢).

له، ضمن حدوده وطاقاته، وبهذا تستغل كل الطاقات، كما أن فيه إشارة إلى أهمية العمل مهما قل شأنه وأنه أولى من الاتكال، مما يعود بالتميز من جانبين: الأول: صناعة الاكتفاء الذاتي في المجتمع في جميع المهن مهما صغرت، والثاني: الاستفادة من كافة الطاقات مهما ضعفت.

ومن جهة أخرى نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يوجه المجتمع إلى احترام العاملين في المجتمع، مهما كان نوع عملهم، ويولي تقديراً واهتماماً خاصاً ببعض ما قد يُحتقر من المهن، فكأنما ينبه على أهمية هذه المهن، وعدم الاستغناء عنها مهما صغرت، فيبارك هذا الجهد، ويقدر أهميته للمجتمع كافة، فيوجه النظر إليه، فقد روى أبو هريرة: «أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُومُ الْمَسْجِدَ - أَوْ شَابًا - فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَ عَنْهَا - أَوْ عَنْهُ - فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: «أَفَلَا كُنْتُمْ أَذْنَبُونِي؟» قَالَ: «فَكَانَهُمْ صَغَرُوا أَمْرَهَا - أَوْ أَمْرَهُ - فَقَالَ: «دُلُونِي عَلَى قَبْرِه! فَدَلُّوهُ فَصَلَّى عَلَيْهَا»^(١).

فالنبي صلى الله عليه وسلم لا يرى في هذا العمل ما يقلل من شأن تلك المرأة، بل إنه يستنكر وضع المجتمع، الذي يهملها ويقلل من شأنها، فلا يقبل منهم عدم تبليغه بموتها، ولا يترك الأمر، حتى يأتي قبرها فيصلي عليها، فيقدم قدوة حسنة في احترام المهن، وتقدير أصحابها وما يقدمونه للمجتمع من خدمة.

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم يضرب من حياته مثلاً رائعاً لقيمة العمل بكل أشكاله، فلا يفتأ يذكر أنه رعى الغنم، فيقول: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ لِأَهْلِ مَكَّةَ»^(٢) قمة

١ - أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر، ص ٣٨٥، ح (٢٢١٥) بلفظه. وأخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر بعدما يدفن، ص ٢١٣، ح (١٣٣٧) بمعناه.

٢ - أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، ص ٣٦٠، ح (٢٢٦٢)، بلفظه.

التواضع للعمل، فليس المهم شكله، وإنما نفعه، فلا يُخجله أيّاً كان نوعه، ومهما كان أجره .

بهذا يهيء البيئة الباعثة على التميز: فتوجيه الجميع نحو العمل، والاهتمام بكافة أنواع الأعمال، وعدم تحقير شيء منها، هو تظافر للجهود كافة في كل المجالات، إذ أن المجتمع لا يصلح ويتميز، بعمل فرد أو مجموعة أفراد، ولا يتميز بتفوقه في مجال واحد، بل إن نهوض الأمم وقيام الحضارات يحتاج لشعوب عاملة، كل فرد فيها لبنة صالحة، يقوم بدوره مهما صغر، واهتمام شامل ينصبُّ على كل جوانب الحياة .

إن شعوباً ركنت إلى الأرض، واعتمدت على الهبات والمعونات، أو ترفعت عن أنواع من الأعمال، لا يمكن أن تقوم لها قائمة، وكذا كل فرد لم يَهَبْ للعمل، ويفني وقته وجهده فيه لن يحقق إنجازاً، ولن يظهر أي تميز، يرفع به شأن نفسه، أو يخدم مجتمعه وأُمَّته .

ثانياً: جعل العمل عبادة يثاب عليها: إن من أبدع إرشادات النبي صلى الله عليه وسلم في الحث على العمل، أنه دعا إلى العمل حتى لو ظن الإنسان أنه لن يجني ثمرته، فقال: «إِنَّ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرَسَهَا، فَلْيَفْعَلْ»^(١) فالعمل مطلوب لذاته لأنه عبادة، وليس مرهوناً بالمكاسب الدنيوية والنتائج المحسوسة، بل يُقيّم العمل بحسب الأهداف الأخروية، وتبعاً لتحقيقه الغاية من وجود الإنسان على هذه الأرض وإعمارها .

ثم إن تحديد الغاية العليا لكافة أشكال العمل، وتوجيه كل الطاقات لغاية واحدة، وهي إعمار الأرض طاعة وعبادة للمولى عز وجل، يعد ضماناً لتسيير الجهود في اتجاه واحد، بعيداً عن تنازع الأهواء وتخبط الشهوات الفردية، كما

١ - أخرجه أحمد في مسنده: " ٢٠ / ٢٩٦، ح (١٢٩٨١). قال شعيب الأرنؤوط: صحيح على شرط مسلم.

يعمل اتحاد الغاية على توحيد القوى لتحقيق المصالح العليا، وجعلها المسار التي تدور في فلكه كل الجهود، وتتنوع ضمن أطره كل أنواع التميز والإبداع الفردي.

فجعل الإسلام أساس العمل ابتغاء وجه الله تعالى، ومعيار قبوله خلوصه له وحده، وهو ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، حين قال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١).

ويشير خبير القيادة والتحفيز أدوين لوك، إلى أن مبعث دافعية الأفراد هو الأهداف والغايات، وما لها من أهمية لديهم، فسلوك الفرد محكوم في أغلب الأحيان بالأهداف التي يسعى إليها، وما يعطيها من أهمية، فكلما كانت الأهداف محددة وواضحة ومقبولة لدى الفرد، كلما كانت الدافعية لديه لتنفيذ وتحقيق هذه الأهداف أكبر^(٢).

ولا ريب أن الهدف كلما كان أسمى كان الحافز على العمل أقوى، وليس هنالك غاية أسمى من العمل لوجه تعالى، ورجاء رضاه، والطمع في جزائه، واثقاء عقابه، هدف محدد ومقبول وفي غاية الوضوح، أكد النبي صلى الله عليه وسلم على تثبيته وترسيخه في نفوس أصحابه، مراراً وتكراراً.

ثالثاً: بث روح التعفف والاعتماد على النفس: حث النبي صلى الله عليه وسلم على العزيمة في الاعتماد على النفس ما أمكن المرء ذلك، وقد بالغ في الاهتمام بهذا الشأن حتى أنه كان يبايع المسلمين عليه.

فعن عَوْفِ بْنِ مَالِكِ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِسْعَةَ أَوْ ثَمَانِيَةَ أَوْ سَبْعَةَ، فَقَالَ: «أَلَا تَبَايَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟ وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةِ

١- سبق تخريجه.

٢- إدارة الموارد البشرية: د. مصطفى نجيب شاويش، ص ٦٠-٦١.

فَقُلْنَا: «قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ». ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تَبَايَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تَبَايَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا، وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَعَلَامَ نُبَايَعُكَ؟ قَالَ: «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَتَطِيعُوا، وَأَسْرَ كَلِمَةً خَفِيَّةً، وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا». فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلِيَّكَ النَّفْرِ يَسْقُطُ سَوْطَ أَحَدِهِمْ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يِنَاوِلُهُ إِيَّاهُ»^(١).

إن تأكيد النبي صلى الله عليه وسلم على عدم سؤال الناس يبدو عجيبيًا، فهو يأخذ البيعة عليه، ويقرنه بتوحيد الله وعبادته والطاعة، ويشدد في أمر ألا يسألوا «شيئًا»، فهو تدريب على تقوية النفس ودفعها إلى العلو في الأداء والعطاء والعمل.

إن هذه التربية الحثيثة في الترغيب بالاستعفاف، والدفع نحو روح الاعتماد على النفس، جعلت الصحابة رضوان عليهم لا يقبلون العطايا والصدقات، حتى لو منحت لهم دون سؤال، إذا كانوا قادرين على العمل والعطاء، فانظر مثلاً إلى ما فعل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فيما يرويه أنس رضي الله عنه، قال: «قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ، فَآخَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ سَعْدٌ ذَا غَنَى، فَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: «أَقَاسْمُكَ مَالِي نَصْفَيْنِ، وَأَزُوجُكَ». قَالَ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ! ذُلُّنِي عَلَى السُّوقِ، فَمَا رَجَعَ حَتَّى اسْتَفْضَلَ أَقْطًا وَسَمْنًا، فَآتَى بِهِ أَهْلَ مَنْزِلِهِ، فَمَكَّثْنَا يَسِيرًا أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَجَاءَ وَعَلَيْهِ وَضْرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهَيْمُ!»^(٢) قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ. قَالَ: «مَا سُقَّتْ إِلَيْهَا؟» قَالَ: «نَوَاةٌ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ وَزَنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ». قَالَ: «أَوْلَمْ وَلَوْ بِشَاةٍ»^(٣).

١ - أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، ص ٤١٩، ح (٢٤٠٣) مختصر.

٢ - مَهَيْمٌ: كلمة يمانية: أي ما أمركم وشأنكم؟ انظر: لسان العرب: مادة مهم، ١٢ / ٦٧١. والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٤ / ٣٧٨.

٣ - أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب البيوع، باب ماجاء في قول الله تعالى فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ، ح (٢٠٨٨).

فقد سار عبد الرحمن رضي الله عنه على هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم، الذي علمهم العفة والاعتماد على النفس، فحين قال الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم: «أَقْسَمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ! قَالَ: «لَا». فَقَالُوا: «تَكْفُونَا الْمُثُونَةَ، وَنُشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ». قَالُوا: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»^(١).

لذا اعتمد عبد الرحمن رضي الله عنه على نفسه فسعى في الأرض، باذلاً جهده وطاقته، فأغناه الله تعالى من فضله، حتى استطاع في قليل من الوقت، إن يكفي نفسه، ويتزوج، بل ويمهر زوجته نواة من ذهب، ولم يقبل أن يعيش عالية على الآخرين، فهكذا يكون التميز في الاعتماد على النفس، وهنئياً لسعد بن الربيع تلك الروح السمحة والتميز في العطاء، فقد ضرب الصحابيَّان رضوان الله عليهما مثلاً حياً في التميز، هؤلاء صحابة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، فطوبى لهم، وطوبى لمن رباهم.

بل قد وصل الأمر عند بعض الصحابة رضي الله عنهم أن يمتنعوا عن أخذ العطاء، مع أنه حق لهم، خشية أن يقبلوا من أحد شيئاً، فيعتادوا الأخذ، فتجاوز به نفوسهم إلى ما لا يريدونه^(٢)، إليك مثلاً قصة حكيم بن حزام رضي الله عنه يرويها بنفسه، قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا حَكِيمُ! إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ»^(٣)، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ^(٤)، بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ^(٥)، لَمْ يُبَارَكْ

١- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الحرث والمزراعة، باب إذا قال اكفني مؤونة النخيل وغيره، وتشركني في الثمر، ص ٣٧٣، ح (٢٣٥٢).

٢- انظر: فتح الباري: ٤ / ٢٩٠.

٣- "شبهه في الرغبة فيه والميل إليه وحرص النفوس عليه بالفاكهة الخضراء الحلوة المستلذة، فإن الأخضر مرغوب فيه على انفراده، والحلو كذلك على انفراده فاجتماعهما أشد" شرح النووي على صحيح مسلم: ٧ / ١٧٧. انظر: فتح الباري: ٤ / ٢٩٠.

٤- المراد: أخذه على وجه القناعة وطلب الكفاية، وهذا مقرون بالبركة. انظر شرح ابن بطال: ٣ / ٤٦٣-٤٦٤.

٥- المعنى: أن من أخذه على وجه الشره والحرص، لم يأخذه بحقه، فلا يبارك له فيه. انظر: شرح ابن بطال: ٣ / ٤٦٤.

لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى». قَالَ حَكِيمٌ: «فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَرَزَأُ^(١)، أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أَفَارِقَ الدُّنْيَا». فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ، فَيَأْتِي أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: «إِنِّي أَشْهَدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرَضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَنَاءِ، فَيَأْتِي أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرَزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تُوفِّيَ»^(٢).

رابعاً: جعل التمييز لصاحب اليد العليا: لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم واسع الأفق، عميق الفكرة إذا أكد على أن رغبة المرء الداخلية وجهده وعمله هو الذي يغير مستقبله، ووجهه في ذلك أن يكون عالي الطموح، شديد الهمة، ولا يقبل بالدونية أبداً، فكان يقول: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ»^(٣).

إن النبي صلى الله عليه وسلم يرجع الأمر إلى إرادة الإنسان نفسه، فهو إن أراد الاستعفاف أعانه الله عليه، وإن عزم على الاستغناء وفقه الله إليه، وإن أراد أن تكون يده هي العليا سعى إلى العمل الجاد، وترك حياة الكسل والدعة، التي تقتل الإبداع، وتجتث التمييز عند الأفراد والمجتمعات على حد سواء.

وبهذا صحح النبي صلى الله عليه وسلم المفاهيم الخاطئة التي لا تفرق بين

- ١- ما رزأ فلان شيئاً: أي ما أصاب من ماله شيئاً، ولا نقص منه. لسان العرب: مادة رزأ، ١ / ١٠٤. وانظر أيضاً فتح الباري: ٤ / ٢٩٠.
- ٢- رواه البخاري في "صحيحه" كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ص ٢٣٩، ح (١٤٧٢). ورواه مسلم في "صحيحه" كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، ص ٤١٧، مختصراً.
- ٣- رواه البخاري في "صحيحه" كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، ص ٢٣١، ح (١٤٢٧). وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، ص ٤١٦، ح (٢٣٨٦).

التكافل كقيمة اجتماعية، والتواكل والتكاسل كعيوب سلوكية وحياتية.

خامساً: الدعوة إلى إتقان العمل: ولم يقف النبي صلى الله عليه وسلم عند حد الحث على العمل، فإن الهدف لا يتحقق بمجرد العمل، أي عمل، وإن كان مهلهلاً واهياً، وإنما أراد العمل المتقن المتميز، وفي كل أمور الحياة وتفصيلاتها، والتي ربما لاتخطر ببال، فقال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»^(١) فالله سبحانه وتعالى قد أمر بالإحسان في كل شيء، وحض عليه^(٢). والإحسان هنا بمعنى «الإحكام والإكمال والتحسين في الأعمال المشروعة، فحق من شرع في شيء منها أن يأتي به على غاية كماله، ويحافظ على آدابه المصححة والمكملة، وإذا فعل ذلك قبل عمله، وكثر ثوابه»^(٣).

فالحديث وإن كان يظهر أنه يختص بنوع من أنواع الأحكام، فليس كذلك، وإنما هو عام في كل الأعمال، وقد قال الإمام النووي: «هذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام»^(٤) فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله تعالى يأمركم أن تحسنوا في كل شيء، حتى عند الذبح. فهو يشير إلى أمر جزئي بسيط، ليؤكد على العموم والشمول في هذه القاعدة، ولا ريب أن إتقان العمل والتنبه إلى تفاصيله، هو من أهم السبل الموصلة إلى التميز.

- ١- أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، ص ٨٧٣، ح (٥٠٥٥).
- ٢- انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: الحافظ أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، ١٩٢/٥.
- ٣- المرجع السابق، الموضع نفسه.
- ٤- شرح النووي على صحيح مسلم: ١٣/١٥٧.

المبحث الرابع : تهيئة بيئة التميز لجميع فئات المجتمع

حرص القائد المبدع والنبى الملهم عليه أفضل الصلوات وأجل التسليم على جعل الدولة الوليدة خلية نابضة بالحياة، كل فرد فيه يمثل عنصراً فعالاً في حركة التقدم والتطور، وعمل على فتح المجال للطاقات الكامنة في فئات المجتمع وأفراده، وفسح المجال لكل فرد بإبراز مواهبه، وتطوير جوانب التميز فيه. وفي سبيل هذه الغاية، قام النبى صلى الله عليه وسلم بمجموعة من الخطوات العملية، أبرزها:

أولاً: فسح مجال التميز لجميع الأعراق والأجناس: كان النبى صلى الله عليه وسلم حريصاً على مشاركة كل فرد في المجتمع - مهما كان جنسه أو عرقه - بأقصى حدود الطاقة، ويؤكد على هذه القاعدة بكل وضوح، فيقول: «بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»^(١).

فالتمييز المقبول في المجتمع هو تميز الجد والجهد، لا النسب والعرق، والنبى صلى الله عليه وسلم قد يُظهر تمييزاً لشعب أو عرق، لكن ذلك ليس تحيزاً أو تعصباً منه، إنما بناء على السمات المميزة لهذا الشعب أو ذاك العرق لا لمجرد أصله، فيقول: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَرْقُ أَفْئِدَةً، وَأَلَيْنِ قُلُوبًا، الْإِيمَانُ يَمَانٌ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ»^(٢) فهذا ليس تفضيلاً عنصرياً لأهل اليمن على غيرهم من الشعوب، وإنما بيان لمميزاتهم، وفي إطرئه لهم تشجيعاً على تنمية هذا التميز الفطري فيهم، وترغيباً لغيرهم في هذه المميزات فيسعدوا إلى اكتسابها.

١ - أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر، ص ١١٧٣، ح (٦٨٥٣) جزء من حديث .
٢ - أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، ص ٧٤٤، ح (٤٣٨٨). وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه، ص ٤٣، ح (١٨٤).

لذلك حرص النبي صلى الله عليه وسلم على بيان ما تمتاز به الشعوب والأعراق وامتداحهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رَجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلَاءِ»^(١) وفي رواية «رَجُلٌ مِنْ فَارِسٍ»^(٢) فهذا من باب التمييز الإيجابي، الذي يظهر التميز وينميهِ، لا الذي يقتله أو يضعفه.

إن اتباع هذه القاعدة يجعل كافة الشعوب والأجناس عناصر فعالة في المجتمع، لأنها تعلم أنه لا ينظر إليها إلا من خلال ما تبذل من جهد وما تقدم من عمل، وعلى رفيع الشأن أن يجتهد؛ لأنه يعي أن مكانته لن تغني عنه شيئاً، وعلى الضعيف الحال أن يكد؛ لأنه يعلم أن عمله هو الذي سيرفعه.

ثانياً: الفقر ليس عائقاً يسد باب التميز: عمل النبي صلى الله عليه وسلم جاهداً على تحقيق الحاجات الأساسية للأفراد من مشرب ومأكل وملبس، والتي يبقى الإنسان بدونها مهدور الكرامة، يستجدي غيره، وكان الأساس في سد هذه الحاجات، الحث على العمل الجاد ومنع الكسل والدعة، أما من كانت حاجته عن فاقة وقلة ذات اليد، فإن النبي صلى الله عليه وسلم حث على مساعدته ومساندته، وقد جعل التكافل بين المسلمين إخواناً، لا يترفع المتفضل على المحتاج، ولا يستغل الآخذ المعطي، فعندما قال الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم: «اقْسَمُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلِ! قَالَ: «لَا». فَقَالُوا: «تَكْفُونَا الْمُتُونَةَ، وَنُشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ». قَالُوا: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»^(٣)

- ١- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب التفسير، سورة الجمعة، باب قوله تعالى: " وآخرين منهم لما يلحقوا بهم" ص ٨٦٩، ح (٤٨٩٧) بلفظه. وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب فضائل الصحابة، باب فضل فارس، ص ١١١٦، ح (٦٤٩٨) بلفظ مقارب.
- ٢- أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب فضائل الصحابة، باب فضل فارس، ص ١١١٦، ح (٦٤٩٧).
- ٣- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الحرث والمزارعة، باب إذا قال اكفني مؤونة النخيل وغيره، وتشركني في الثمر، ص ٣٧٣، ح (٢٣٥٢).

فالنبي صلى الله عليه وسلم يرفض استغلال الأنصار وكرم أخلاقهم، ولا يقبل للمهاجرين إلا الرزق الطيب الذي يأتي من عرق جبينهم، وهكذا يكون صناعة التميز في المجتمعات، مجتمعاً متكافلاً متماسكاً، لا تطغي فئة على أخرى ولا تستعبدها، ولا تستغل طائفة غيرها، ولا يعيش فرد طفيلي على غيره، بل مجتمع متوازن متميز، يجد كل فرد فيه حاجاته الأساسية عن طريق الجد والاجتهاد.

ويؤكد خبراء التنمية البشرية على أهمية إشباع الحاجات الإنسانية الأساسية؛ إذ إن عدم إشباعها، أو إشباعها بعد بذل جهود مضيئة، أو بطريقة لا يقرها المجتمع، يؤدي إلى عدم انضباط وعدم توازن في السلوك الإنساني^(١)، كما ترى النظريات الحديثة في علم النفس والتنمية البشرية، كنظرية أبراهام ماسلو ونظرية بورتر في سلم الحاجات، أن الحاجات الفسيولوجية^(٢) والنفسية الأساسية تشكل أهم الدوافع على سلم الأولويات، ولا تعمل الدوافع الأخرى بصورة مؤثرة في السلوك البشري، إن لم تكن هذه الحاجات مشبعة^(٣).

ولسنا بصدد قياس فعل النبي صلى الله عليه وسلم بهذه النظريات، فهي وإن تشابهت في الفكرة العامة، إلا أن هذه النظريات ما زالت تختلف فيما بينها في تحديد سلم الأولويات، هل الحاجة إلى الطعام والشراب وغيرها من الحاجات الفسيولوجية أهم، أم الحاجة إلى الأمن وغيره، وتبقى هذه مجرد نظريات لجهود بشرية تخطئ وتصيب، ولكن أشير إليها من باب الاستئناس، وإبراز أن الجهد البشري ما زال يقدم مجرد نظريات قاصرة، مع ما وصلت إليه العلوم المعاصرة من تطور وتقدم.

ومن جهة أخرى فإن الهدي النبوي المعجز، مع اهتمامه بهذه الحاجات،

١- انظر: إدارة الموارد البشرية: ص ٤٦-٤٧.

٢- أي الحاجة إلى الطعام والشراب والمسكن.

٣- انظر: إدارة الموارد البشرية: ص ٥٢-٥٦.

وسعيه لتحقيقها، كان يؤكد على أن التميز لا يتعلق بالفقر والغنى، وكان حريصاً على تغيير تلك المفاهيم الجاهلية التي تشربها الناس لقرون، فعن سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ السَّاعِدِيُّ أَنَّهُ قَالَ: «مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا؟ فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَعَ. قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلَّةِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»^(١).

والنبي صلى الله عليه وسلم يقصد هذا الفقير خاصة خير من هذا الغني خاصة، لما تميز به الفقير هنا عن الغني، فقد جاء في بعض الروايات «خير عند الله يوم القيامة» والخيرية يوم القيامة للتميز بالإيمان والعمل، فالتمييز ليس لفقره، فليس كل فقير مُفْضَلٌ على كل غني^(٢)، وإنما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يغير ما كان سائداً عندهم؛ من أن كل غني مفضل على كل فقير، فالغنى والفقر صفتان لا تمدحان أو تذمان لذاتهما، وإنما التفضيل بالعمل المقترن بهما، فالغني المعطي خير من الفقير المتكل، والفقير العامل الصابر خير من الغني البخيل، فالنبي صلى الله عليه وسلم يهيء بذلك البيئة التي تسمح للفقير أن يتميز، كما تسمح للغني أن يتميز، كل في المجال المتاح له.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مع حرصه على تحقيق الحاجات البشرية، يدعم ذلك بتقوية الجانب الروحي، فإن عدم تحقيقها لا يعني عدم التوازن عند المسلم، إذ أن العلاقة الروحية بالله، وانتظار الأجر في الدار الآخرة، تجعله يصبر

١- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الرقاق، باب فضل الفقر، ص ١١٩، ح (٦٤٤٧) بلفظه.

٢- انظر: فتح الباري: ١٢ / ٢٣٤ - ٢٣٥.

على الضراء، وتمنعه من تحقيق هذه الحاجات بصورة غير مشروعة، بل إن هذه القوة الروحية تدفعه لتحقيق أهداف أسمى، مع افتقاره إلى هذه الحاجات، وهو الذي تغفل عنه النظريات الحديثة، وهذا من بدائع صناعة التميز في السنة.

فالنظرية النبوية للتنمية نظرية متوازنة، قادرة على مواجهة الظروف الصعبة، مع الاحتفاظ باتزان الفرد وتزويده بالدافعية والحافز للعمل حتى في أقصى الظروف وأحلكها، انظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «كَمْ مِنْ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ ذِي طَمَرَيْنِ»^(١)، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَ قَسَمَهُ مِنْهُمْ الْبِرَاءُ بْنُ مَالِكٍ، فَإِنَّ الْبِرَاءَ لَقِيَ زَحْفًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ أَوْجَعَ الْمُشْرِكُونَ فِي الْمُسْلِمِينَ»^(٢) فيؤكد النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أن الفقر لا يقف في وجه التميز، ويضرب مثلاً بالبراء رضي الله عنه، الذي لا يمنعه فقره أن يكون شجاعاً قادراً على مواجهة جمعاً من المشركين وقتالهم، فيقف النبي صلى الله عليه وسلم مشجعاً له ومبشراً.

ثالثاً: التمييز عنوانه الكفاءة لا الطبقة الاجتماعية: فئة أخرى محرومة من حق التقدم والتميز في المجتمع الجاهلي، وهي طبقة العبيد والموالي، أما في الإسلام فالشعار المعمول به «التمييز عنوانه الكفاءة، لا الطبقة الاجتماعية» ولقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أن عدم احترام هذه الطبقة وعدم تشجيعها وتعزيز طاقاتها، خسارة كبيرة للمجتمع، الذي كانت هذه الفئة تمثل فيه شريحة لا يستهان بها، ومن هنا عمل على رفع مكانة العبيد والموالي، وشجعهم ليقوموا بدور فعال في المجتمع، فجعل أجرهم مضاعفاً، فقال: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ فَلَهُ أَجْرَانِ»^(٣).

- ١- الطَّمَرُ: الثوب الخلق (البالي). النهاية في غريب الحديث والأثر. ٣/ ١٣٨، مادة طمر.
- ٢- أخرجه الحاكم في "المستدرک" كتاب معرفة الصحابة، ذكر البراء بن مالك، ٣/ ٣٣١، ح (٥٢٧٤). ثم قال: "حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".
- ٣- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب العتق، باب العبيد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده، ص ٤١١، ح (٢٥٤٧). وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الأيمان، باب ثواب العبد وأجره إن نصح لسيده وأحسن عبادة ربه، ص ٧٣٣، ح (٤٣٢٢).

فالنبي صلى الله عليه وسلم يؤكد على أهمية هذه الطبقة، ويشجعها على القيام بدورها، ويميزها بالثواب عن غيرها، ليعيد لها اعتبارها، ويعوضها عن النقص الذي تحتمله في المجتمع، فيفتح الباب واسعاً أمام أفراد هذه الطبقة للتميز، ويعمل على تعزيز قدراتهم، وإبراز مواهبهم.

فهذا الصحابي الجليل بلال بن رباح رضي الله عنه، كان عبداً حبشياً أسود اللون، وحين علمت قريش بإسلامه شرعوا في تعذيبه أشد العذاب، فلم يكن له الحق في اختيار أخص خصوصيات حياته، حتى ما يعتنق من دين، أو يعتقد من أفكار، هذا التميز في الصبر والتحمل لأجل العقيدة، لم يكن ليقابل بالتجاهل بسبب طبقته الاجتماعية، بل إن جهاده وصموده وإيمانه الصادق رفعه ليكون في مصاف السادة، حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو من أشرف مكة وعظماؤها ليقول: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا يَعْنِي بِلَالًا»^(١).

وأصبح بلال رمزاً من رموز الدولة، فقد ائتمنه النبي صلى الله عليه وسلم على أمر من أهم دعائم الإسلام - النداء للصلاة - فكان مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أقرب الناس إليه، يرافقه في جولاته، ويعينه على أعمال الدعوة، ومن ذلك أن ابن عَبَّاسٍ قِيلَ: «لَهُ أَشْهَدَتِ الْعِيدَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَوْ لَا مَكَانِي مِنَ الصُّغَرِ مَا شَهِدْتُهُ، حَتَّى أَتَى الْعِلْمَ الَّذِي عِنْدَ دَارِ كَثِيرِ بْنِ الصَّلْتِ، فَصَلَّى، ثُمَّ خَطَبَ، ثُمَّ أَتَى النِّسَاءَ وَمَعَهُ بِلَالٌ، فَوَعَّظَهُنَّ، وَذَكَرَهُنَّ، وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ، فَرَأَيْتَهُنَّ يَهُوِينَ بِأَيْدِيَهُنَّ، يَقْدِفُنَّهُ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ هُوَ وَبِلَالٌ إِلَى بَيْتِهِ»^(٢).

فكان يستأمنه على أموال المسلمين، وكذلك كان قد استأمنه على ماله، فقد

١ - أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب المناقب، باب مناقب بلال بن رباح مولى أبي بكر رضي الله عنهما، ص ٦٣١، ح (٣٧٥٤).

٢ - أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب العيدين، باب العلم الذي بالمصلى، ص ١٥٧، ح (٩٧٧) بلفظه.

سئل بلال رضي الله عنه يوماً: «كَيْفَ كَانَتْ نَفَقَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: مَا كَانَ لَهُ مِنْ شَيْءٍ، وَكُنْتُ أَنَا الَّذِي أَلِي ذَلِكَ مُنْذُ بَعَثَهُ اللَّهُ حَتَّى تُوفِّيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١).

كما «أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ مَوْتَةَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ»^(٢) رضي الله عنه وهو مولاه، ولم يمنعه ذلك من تعيينه قائداً للجيش، وأميراً على كبار الصحابة، وفيهم أشرف مكة والمدينة، ثم ولى من بعده ابنه أسامة بن زيد رضي الله عنهما، ولم يمنعه صغر سنه، ولا نسبه، أن يجعله قائداً، وعندما تكلم البعض في هذا الأمر لم يثن ذلك النبي صلى الله عليه وسلم عن رأيه، إذ رأى فيهما الكفاءة لتحمل هذه المسؤولية العظيمة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْثًا، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَطَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِمَارَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ تَطَعُنُوا فِي إِمَارَتِهِ، فَقَدْ كُنْتُمْ تَطَعُنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَإِيْمُ اللَّهِ! إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنْ هَذَا لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيَّ بَعْدَهُ»^(٣). فهو لم ينظر إلى نسب زيد وأسامه رضي الله عنهما، ولا إلى طبقتهما الاجتماعية، بل علل اختيارهما بالكفاءة، وغض الطرف عما سواها.

إن العبيد والموالي عاشوا في المجتمع الإسلامي موفوري الكرامة، قد فتحت أمامهم كل الأبواب، وهيأت لهم البيئة لاكتشاف مواهبهم وتنميتها، وليبرزوا

١- أخرجه ابن حبان في "صحيحه" كتاب التاريخ، باب صفته صلى الله عليه وسلم وأخباره، ذكر ما كان يتمنى المصطفى صلى الله عليه وسلم الإقلال من هذه الدنيا الفانية، ١٤ / ٢٦١، ح (٦٣٥١) جزء من حديث.

٢- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام، ص ٧٢١-٧٢٢، ح (٤٢٦١).

٣- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه وسلم، ص ٦٢٨، ح (٣٧٣٠) بلفظه. وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامه بن زيد رضي الله عنهما، ص ١٠٦٨، ح (٦٢٦٤) بلفظ مقارب.

تميزهم، حتى استطاعوا أن يتبوؤا أسمى المراكز الاجتماعية في الإدارة، وأعلى القيادات في الجيوش، ومنارات يهتدى بهم في الدين، بينما كان الأرقاء والموالي في ذاك العصر، وفي كل أرجاء المعمورة، يشغلون منزلة دون منزلة الإنسانية.

رابعاً: فتح باب التمييز للمرأة وتشجيعها: اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بدور المرأة في المجتمع، وعزز مكانتها، وأعطاهما الحق في التعبير عن نفسها، وإبراز مواهبها وشجعها، فهيأ لها بيئة تسمح لها بالقيام بدورها والتميز فيه، وبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بحث المرأة على المشاركة في الحياة الاجتماعية والمناسبات العامة، فتعلم وتصقل شخصيتها، فكان يقول في الأعياد: «يَخْرُجُ الْعَوَاتِقُ وَذَوَاتُ الْخُدُورِ^(١) أَوْ الْعَوَاتِقُ ذَوَاتُ الْخُدُورِ وَالْحَيْضُ وَلَيْشْهَدَنَّ الْخَيْرَ وَدَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ»^(٢). فالنبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على حضور المرأة، فهي مكلفة، ولها دورها الذي عليها أن تقوم به، فيجب أن تتعلم وتتدرب لتكون قادرة على حمل هذه المسؤولية، فهي كالرجل تماماً في ذلك، تقسم معه المهام، ويؤكد النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، فيقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(٣) ففيه تنبيه للمرأة على أن لها دوراً في الحياة، وأنها مسؤولة، فهو يقرن مسؤوليته بمسؤولية الحاكم، وكذلك لا تختلف

١- العواتق: من عتيق أي قديم. والخدور جمع خدر، وهو ناحية في البيت، عليها ستر، فتكون فيه الجارية البكر. النهاية في غريب الحديث: ١٣/٢، مادة خدر. والمراد من العواتق وذوات الخدور: النساء الكبيرات والفتيات الصغيرات.

٢- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الحيض، باب شهود الحائض العيدين ودعوة المسلمين ويعتزلن المصلى، ص ٥٦، ح (٣٢٤). وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب صلاة العيدين، باب إباحة خروج النساء في العيدين إلى المصلى، ص ٣٥٥، ح (٢٠٥٤).

٣- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب العتق، باب العبد راع في مال سيده، ص ٤١٣، ح (٢٥٥٨). وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر، ص ٨٢٠، ح (٤٧٢٤).

مسؤوليتها عن الرجل؛ فهي محاسبة أمام الله تعالى على هذه المسؤولية، وهذا حافز قوي للمرأة على الجد والاجتهاد كي لا تقصر في مسؤوليتها أمام الله تعالى، وهذا من أدعى الأمور للتمييز.

ومشاركتها في الحياة لا تقتصر على شؤون بيتها، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم يستشير المرأة في أمور حساسة تخص دولة الإسلام، ففي غزوة الحديبية حين صالح النبي صلى الله عليه وسلم قريشاً، قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: «قَوْمُوا فَنَحْرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا! قَالَ الرَّوَاي: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، دَخَلَ عَلَيَّ أُمَّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَتَحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ، ثُمَّ لَا تَكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بَدَنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ؛ نَحَرَ بَدَنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا»^(١). إن استشارته عليه الصلاة والسلام لأم سلمة رضي الله عنها، وعمله بقولها، فيه تشجيع للمرأة عموماً على إبداء رأيها، وهو ما يفتح المجال لها لاستخدام ملكاتها وإظهار تميزها وحكمتها.

كما سمح النبي للمرأة أن تعمل، فتخدم المجتمع وتعمل أسرتها، فعن «رَيْطَةَ امْرَأَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أُمُّ وَلَدِهِ، وَكَانَتْ امْرَأَةً صَنَاعًا، وَلَيْسَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مَالٌ، وَكَانَتْ تُنْفِقُ عَلَيْهِ وَعَلَى وَلَدِهِ مِنْ ثَمَرَةِ صَنَعَتِهَا، وَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ شَغَلْتَنِي أَنْتَ وَوَلَدُكَ عَنِ الصَّدَقَةِ، فَمَا اسْتَطِيعُ أَنْ أَتَصَدَّقَ مَعَكُمْ، فَقَالَ: مَا أَحَبُّ - إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ - أَنْ تَفْعَلِي، فَسَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ وَهِيَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي امْرَأَةٌ وَلِي صَنْعَةٌ، فَأَبِيعُ مِنْهَا، وَلَيْسَ لِي وَلَا

١ - أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، ص ٤٤٩، ح (٢٧٣١).

لِزَوْجِي، وَلَا لَوْلَدِي شَيْءٌ، وَشَغَلُونِي، فَلَا أَتَصَدَّقُ، فَهَلْ لِي فِي النَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْرٍ؟ فَقَالَ: «لَكَ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ مَا أَنْفَقْتَ عَلَيْهِمْ، فَأَنْفَقِي عَلَيْهِمْ»^(١). والسماح للمرأة بالعمل، يفتح لها باباً آخر، تظهر فيه قدراتها ومهاراتها، فتصبح قادرة على الانتاج والعطاء، بلا قيود أو عقبات تعترض مسيرة تميزها. فالنبي صلى الله عليه وسلم قد فتح للمرأة المجال لتشارك في مجالات الحياة، وحرص على تعليمها وتدريبها وشجعها، وجعلها مسؤولة أمام الله عز وجل، فهو بذلك يهيئ لها بيئة خصبة للتميز، فما عليها إلا أن تختار طريقها، وتبذل جهدها وتبرز كفاءتها.

خامساً: الأخذ بيد الأطفال والشباب اليافع نحو التميز: إن الأطفال والشباب اليافع هم أمل المستقبل ورجاله، ولا يمكن أن تقوم نهضة، أو تستمر حضارة في مجتمع لا يؤهل هذه الشريحة من المجتمع للتميز، وقد أولى النبي صلى الله عليه وسلم اهتماماً كبيراً لهذه الشريحة وتقديم الدعم لها لتصبح منتجة في المستقبل.

لذا حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تنشأتهم وتربيتهم تربية صالحة، فقال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ»^(٢) فهو حثُّ للأهل على العناية بتربية أبنائهم تربية صالحة، وفيه دعوة للشباب على الاستقامة والصلاح منذ نعومة أظفاره، وتوجيه طاقاته نحو العمل الصالح والبعد عن الفساد واللهو.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يبرز لهم وجوه تميزهم، ويوجههم نحوها، روى ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ

١- أخرجه ابن حبان في "صحيحه" كتاب الرضاع، باب النفقة، ذكر كتبه الله جل وعلا الأجر الجزيل للمرأة إذا أنفقت على زوجها وعيالها من مالها، ١٠/ ٥٧، ح (٤٢٤٧).

٢- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب فضل من ترك الفواحش، ص ١١٧٣، ح (٦٨٠٦). وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، ص ٤١٥، ح (٢٣٨٠).

الْخَلَاءَ، فَوَضَعْتُ لَهُ وَضُوءًا، قَالَ: «مَنْ وَضَعَ هَذَا فَأُخْبِرَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١). فالنبي صلى الله عليه وسلم أدرك أن في هذا الصبي بذرة نبوغ في معرفة أحكام الدين وفهمهما، فكأنه أراد أن يلفت نظره إلى ذلك ويوجهه إليه، ويشجعه على الاهتمام بهذا الجانب، إلى جانب توفيق الله، فدعا له بالفقه في الدين. فإذا كبر الصغير بحيث يتحمل المسؤولية، أو كل إليه النبي صلى الله عليه وسلم بعض المهمات التي يرى فيه تميزاً فيها، فيعطيه الفرصة ليتدرب، وينمي مهاراته.

ومن ذلك أنه ولي أسامة بن زيد إمارة الجيش، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْثًا، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ»^(٢) ولم يكمل العشرين من عمره، فلم يمنعه صغر سنه أن يوليه على كثير من الأشياخ، لأنه لا ينظر إلى العمر، بل إلى التميز، فيعمل على إبرازه وتشجيعه بغض النظر عن العمر، فلا يحرم المجتمع من الطاقات الهائلة التي يمتلكها الشباب، ولا يكتب هؤلاء الشباب فتطفئ عندهم جذوة التميز.

سادساً: فسح المجال لذوي الاحتياجات الخاصة والأعدار للتميز: لم يترك النبي صلى الله عليه وسلم فئة في المجتمع إلا فسح لها مجال التميز فيما يناسب مؤهلاتها، وذوي الاحتياجات الخاصة أو الأعدار فئة قد لا يكون لها امتداد كبير في المجتمع من حيث العدد، ومع ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم أراد للمجتمع أن يستفيد من كل الطاقات، ولا يحرم فئة من التميز.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ يُؤَدِّنُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى

١- أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، ص ٣٠، ح (١٤٣) بلفظه. وأخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ص ١٠٩٠، ح (٦٣٦٨) بمعناه.

٢- سبق تخريجه.

الله عليه وسلم وَهُوَ أَعْمَى»^(١) فكونه أعمى لا يعني أن يكون عاطلاً في المجتمع ، لذا وجهه النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمل يستطيع أن يقوم به ويتميز فيه ، فكان يؤذن للصلاة ، بل ربما استخلفه على المدينة عند سفره ، فقد جاء عن أنس : «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَخْلَفَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ عَلَى الْمَدِينَةِ مَرَّتَيْنِ»^(٢) ولا ريب أن في هذا تشجيع له على العطاء والتميز .

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ: «أَنَّ عَتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ يَوْمَ قَوْمِهِ وَهُوَ أَعْمَى ، وَأَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّهَا تَكُونُ الظُّلْمَةُ وَالسَّيْلُ ، وَأَنَا رَجُلٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ ، فَصَلِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي بَيْتِي مَكَانًا اتَّخَذَهُ مُصَلِّيًا . فَجَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ؟ فَأَشَارَ إِلَى مَكَانٍ مِنَ الْبَيْتِ ، فَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٣) . والأمامة شرف عظيم لم يكن يقدم إليها إلا أفضل القوم ، ففي هذا إشارة إلى أن اصحاب الأعدار لهم مواضع يستطيعون أن يتميزوا فيها ، والطريق أمامهم مفتوح .

- ١- أخرجه مسلم في " صحيحه " كتاب الصلاة ، باب جواز آذان الأعمى ، ص ١٦٢ ، ح (٨٤٥) بلفظه .
- ٢- أخرجه أبو داود في " سننه " كتاب الخراج والفيء والإمارة ، باب في الضريير يولى ، ص ٤٢٦ ، ح (٢٩٣١) بلفظه . وأخرجه ابن حبان في " صحيحه " كتاب الصلاة ، باب فرض متابعة الإمام ، ذكر الإباحة للإمام أن يؤم بالناس وهو أعمى ، ٥ / ٥٠٧ ، ح (٢١٣٥) بمعناه .
- ٣- أخرجه البخاري في " صحيحه " كتاب الآذان ، باب الرخصة في المطر والعلة أن يصلي في رحله ، ص ١٠٩ ، ح (٦٦٧) بلفظه .

الخاتمة

الحمد لله الذي بفضلته تتم الصالحات، الذي أرسل رسوله بالهدى والرشد، وأنعم علينا بما لا يحصى ويعد، وبعد؛ فإن هذا ما يسر الله عز وجل من فضله أن أقدمه في هذا الموضوع، عله يكون عملاً متقبلاً، وعلماً نافعاً، وختاماً لهذا البحث أود أن أعرض لأهم النتائج التي توصلت إليها:

أولاً: إن أهم التحديات التي تواجه صناعة التميز في المجتمعات هي: توفير البيئة اللازمة للتميز، وتحفيز المتميزين لاكتشاف مواهبهم، وإتاحة الفرصة لهم في الكشف عن مميزاتهم، لتنميتها واستخدامها في أغراض الإرتقاء والتطور والإنجاز، وقد كان الهدي النبوي نموذجاً مبدعاً في مواجهة هذا التحدي وتطويره.

ثانياً: اعتمد الهدي النبوي في بناء البيئة القادرة على صناعة المميزين على ركائز كثيرة، أهمها أربع:

١- تنمية الجانب الروحي والإفادة من أثره الإيجابي في النفس البشرية من تقوية الثقة بالنفس وجلاء البصيرة في تدعيم الدافعية وتقوية الحافز للعمل المثمر، الذي يقود إلى التميز.

٢- التأسيس لبناء مجتمع متعلم تعليماً شاملاً، وتشجيع الأفراد والجماعات على اكتساب حصيلة معرفية بناءة داعمة لحركة التقدم والإزدهار في كافة المجالات.

٣- العمل على إيجاد مجتمع نابض بالحياة، كل فرد فيه عنصر فعال قادر على العطاء، عطاء مميّزاً في أعلى درجات الدقة والإتقان.

٤- فتح المجال لكل فئات المجتمع للمشاركة في دعم التميز وصناعته، بغض النظر عن أجناسهم وأعراقهم وألوانهم، والطبقة الاجتماعية التي ينتمون

إليها، مجتمعاً الكفاءة فيه عنوان التميز.

ثالثاً: الهدي النبوي في مجال التنمية البشرية كما في غيره من مجالات الحياة، وحي معجز لا ينطق عن الهوى، شامل كامل، لا يقارن بما تنتجه العقول البشرية القاصرة، بل تقاس كل النظريات الحديثة بما يوافق الوحي الإلهي من القرآن الكريم والسنة المشرفة.

كما يشرفني أن أقدم بعض التوصيات:

١- العمل على انتاج مشروع موسوعي متكامل في مجال التنمية البشرية في ضوء السنة المشرفة، يقدم صورة كاملة عن نظرية التنمية البشرية في السنة، وتقدمها للناس بصورة قابلة للتطبيق في الحياة والواقع، والعمل على إحلالها مكان النظريات البشرية.

٢- اخضاع النظريات الحديثة في التنمية البشرية إلى موازين الإسلام، والتنبيه على أوجه الاتفاق والاختلاف مع المعايير الشرعية، وإظهار مزايا الهدي النبوي في هذا المجال.

وأخيراً فهذا جهد المقل، نسأل الله تعالى له القبول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- احترف فن الفراسة: الدكتور إبراهيم الفقي، دار الحياة للدعاية والإعلان.
- إدارة الموارد البشرية: د. مصطفى نجيب شاويش، دار الشروق - عمان ط ٤ / ٢٠٠٧ م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: الحافظ يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، دار الكتاب العربي - بيروت، مطبوع مع الإصابة في تمييز الصحابة.
- الإصابة في تمييز الصحابة: الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي - بيروت، وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب.
- تهذيب اللغة: محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ١ / ٢٠٠١ م.
- سنن أبي داود: للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني، دار السلام - الرياض، ط ١ / ١٩٩٩ م.
- سنن الترمذي: للإمام محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار السلام - الرياض، ط ١ / ١٩٩٩ م.
- شرح ابن بطلال: للإمام علي بن خلف بن بطلال، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ / ٢٠٠٣ م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- شرح النووي على صحيح مسلم: للإمام يحيى بن شرف النووي، مؤسسة قرطبة، ومكتبة الفاروق الحديثة - القاهرة، ط ٣ / ٢٠٠٣ م.

- شرح رياض الصالحين: للشيخ محمد بن صالح العثيمين، مدار الوطن للنشر - الرياض، ط / ١٤٢٥هـ.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: للإمام محمد ابن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، مكتبة دار التراث - القاهرة، تحرير: الحساني حسن عبد الله.
- صحيح ابن حبان: الحافظ محمد بن حبان البستي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢ / ١٩٩٣ م، تحقيق: محمد شعيب الأرنؤوط.
- صحيح البخاري: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام - الرياض، ط ٢ / ١٩٩٩ م.
- صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار السلام - الرياض، ط ٢ / ٢٠٠٠ م.
- عمدة القاري: للحافظ محمود بن أحمد العيني، دار الفكر - بيروت - لبنان، ط ١ / ١٩٩٨ م، إشراف: صدقي جميل العطار.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري: الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ / ٢٠٠٤ م، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي.
- لسان العرب: العلامة محمد بن مكرم بن منظور، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ / ٢٠٠٣ م، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مراجعة: عبد المنعم خليل.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: العلامة نور الدين الهيثمي، مكتبة القدسي / ١٩٩٤ م، تحقيق: حسام الدين القدسي.

- المسند، للإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط ٢ / ١٩٩٩ م، تحقيق: الشيخ شعيب الأرنؤوط وجماعة من العلماء.
- المستدرک علی الصحیحین: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية- بيروت، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.
- المعجم الكبير: للإمام سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة العلوم والحكم- الموصل، ط ٢ / ١٩٨٣ م، تحقيق حمدي السلفي.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: الحافظ أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، المكتبة التوفيقية- مصر، تحقيق: هاني الحاج.
- النهاية في غريب الحديث والأثر: العلامة المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير) مؤسسة إسماعيليان- إيران، ط / ١٩٦٧ م. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي.
- هدي الساري مقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري: للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١ / ٢٠٠٤ م، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله ابن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي.

مبدأ «التميز» وأهميته
في فهم الخطاب النبوي وتطبيقه

أ. د. محمد ناصيري
دار الحديث الحسنية - المغرب

من أبرز فقرات البحث

ومما ورد فيه قوله:

«إن استحضار مبدأ الإحسان -التميز- في الخطاب النبوي ومنهجه وتتبع أحوال الصحابة وخاصة الكبار منهم والمشهورين ليفيدنا أن النبي صلى الله عليه وسلم بنى أمة بقاعدة النموذج الصالح، وبه قدم رسالته للعالمين، وبهذا النظر نكتسب الحكمة في تنزيل خطابه بل ورسالته. فمن رام حمل الناس جميعاً على حال واحد من التدين أو التفوق في كل متطلبات الدعوة والدولة، لن يكون ناجحاً إن لم نقل سينتكس، ولهذا وجدنا سيرة كل صاحب تشتمل على التميز في جانب من جوانب البناء الحضاري».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل الرسل ببيان العدل والإحسان، والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد الموفق إلى صناعة أفضل جيل سيعرفه الإنسان، ليكون حجة يعجز عن ردها الثقلان، وعظة لمن اعترته الغفلة والوسنان، أما بعد، فإنه لا يكاد نظر اللبيب إلى ماتحملة السنة من الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب، يخطئ ما تشتمل عليه من قصد «التميز» في جوانب تكون أقرب لطبيعة كل مخاطب، خاصة في الخطاب الخاص، إذ تميز كل فرد في كل شيء يترتب عليه من العنت ما لا يخفى، ثم إن تميز كل فرد فيما هو ليس له في الحال والزمان والمكان أقرب إلى بناء الأسس والإقلاع.

في هذا البحث نسعى إلى تأكيد هذه الفرضية بالمنهج العلمي القائم على الاستقراء والرصد لظروف الخطابات النبوية الخاصة المباشرة وأحوال أعيانها، وآثار الخطابات التي خرجت مخرج العموم في واقع الصحابة؛ هل تحققت القيم والمعاني التي تحملها تلك الخطابات العامة في الحد الذي يكون علامة على التميز لدى الجميع؟ أم يتحقق كل صحابي بقدر متفاوت مقارنة بغيره؟ وماذا كانت نظرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا التفاوت؟

وفي الوقت نفسه نريد أن نتبين أهمية اعتبار مبدأ «التميز» في سياسة حمل الناس على التدين، وبناء أسس عمارة الأرض في التطبيق النبوي، وما يحققه هذا المبدأ من آمال وحيوية لمن يباشر هذه الأعمال، ويدراً من الأسى والحزن الذين يثقلان كاهل من يسعى إلى جعل الناس أمة واحدة في كل شيء.

والنتيجة هي تأكيد ما تشتمل عليه السنة من الهدى المنهاجي ومنهج الاصطفاء خاصةً، وصناعة التميز، ليطمئن من اختار السنة والوحي عموماً مصدرًا للتفكير والتدبير على ضمان أروع النتائج بأقل التكاليف.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الموضوع تناوله المتقدمون والمتأخرون مبرزين فائدته على الأشخاص، وعائدته على أداء رسالات الله، لكن ضمن مباحث بالتبع لا بالأصالة، فمن الأبحاث القديمة ما تناوله الإمام الغزالي رحمه الله في إحياء علوم الدين في أبواب المعاملات وجعل باباً للإحسان، وسياقه يدل على قصد التميز في المعاملات وبه عرف الإحسان كما سيأتي، وكتب شروح الحديث فيها مباحث نفيسة. وكتب الأستاذ سيد قطب فصلاً في كتابه معالم في الطريق سماه جيل قرآني فريد تناول فيه أهمية الاستغناء بالقرآن في بناء الأنفس النموذجية أي المتميزين، وسياق كلامه يبرز أهمية الجيل الفريد في صياغة المجتمع الإسلامي. وهكذا كتابات كثيرة ككتب منير الغضبان في المنهج الحركي وغيره.

والقيمة المضافة هنا ثلاثة أمور:

الأول: تأصيل مفهوم التميز سيما الوشائج التي أقمناها بينه وبين كلية الإحسان الشرعية وأحسبه سبقاً في حدود علمي، والتدقيق في العناصر المكونة للمفهومين قصد تيسير التنزيل.

الثاني: إبراز أهمية استحضار مطلب التميز في الخطاب النبوي ونحن نقرأه؛ لاستنباط الهدى المنهاجي، أو فهم المعاني.

الثالث: إبراز أهمية مقصد التميز في تنزيل معاني السنة في كل مجالات الحياة ذات الصلة. والجامع للأمرين الأخيرين هو جعل التميز / الإحسان مبدأً في التلقي، والمبدأ: هو منطلق الفهم والتفكير، والموجه لهما. نتناول هذه القضايا في المباحث الآتية:

المبحث الأول: تأصيل مفهوم التمييز^(١) في شرعة الإسلام ومنهاجه

أصل «مفهوم التمييز» كما في مصطلحات التنمية البشرية يرجع إلى بعض من الجزء المادي للكلية الشرعية «الإحسان»، وإن كان معنى «التمييز» اللغوي في العربية الأصيلة مجرد الانفصال بين شيئين وتباينهما فقط، وبيان هذا ما يلي:

أولاً: التمييز والإحسان من حيث التداول اللغوي.

أ- التمييز: هذه اللفظة في اللغة العربية الأصيلة حسب ما وقفت عليه من مصادرها لا تفيد أكثر من مطلق انفصال شيئين أحدهما عن الآخر، قال ابن فارس: «الميم والياء والزاي أصلٌ صحيح يدلُّ على تزيُّلٍ شيءٍ من شيءٍ وتزيُّيله... وامتازوا: تميز بعضهم من بعض»^(٢)، بمعنى مطلق الانفصال بين الأفراد لاختلاف الصفات، وقد يكون الانفصال بين متشابهين بحيث يتعصب كل لنوعه أو جنسه^(٣) فيكون تميزاً سلبياً، فلا يدل التمييز في أصل اللغة على معنى التفوق أو الإيجابية، إلا أن التداول المعاصر أضاف معنى التفوق وبدو الفضل؛ جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة في بيان معنى الامتياز: «تفوق، بدا فضله على مثله... معلم ممتاز»^(٤). أما قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْرَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٥)، ففيه معنى الفصل فقط، كما أن «تمييز وامتاز وتعني المطاوعة ل: «ماز»^(٦).

١- نقدر ضرورة استعمال مصطلحات في الندوات بدل أخرى أولى منها، تسهيلاً للتواصل مع أوسع فئة من الباحثين ممن لا يعرفون غيرها، إلا أن هذا لا يمنع من التأصيل واستكناه التراث، فكنوزه لا تنضب رغم الحاجة إلى صياغة معاصرة.

٢- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس مادة (م ي ز) ٥ / ٢٨٩.

٣- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد اليميني، مادة (م ي ز) ٩ / ٦٤٣١.

٤- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد وآخرين، مادة (م ي ز) ٣ / ٢١٤٤.

٥- سورة آل عمران الآية ١٧٩.

٦- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني مادة (م ي ز) ٢ / ٣٩٦.

ب- الإحسان: هذه اللفظة في اللغة العربية تستعمل في «فعل ما ينبغي أن يفعل من الخير»^(١)، وفي النعمة يُسديها الإنسان إلى صاحبه^(٢)، وهما معنيان متفقان، وهي تفيد التكثير والإتقان وغايات التجويد في الأفعال، والعرفان والإيقان في المعلوم؛ قال سيبويه: «لا يقال «ما أحسنه» يعني من هذه الصيغة -أي «أحسن»- لأن هذه الصيغة عنده قد اقتضت التكثير فأغنت عن صيغة التعجب»^(٣). وجاء في المعجم الوسيط: أحسن: فعل ما هو حسن. وأحسن الشيء: أجاد صنعه. وفي التنزيل العزيز: «وصوركم فأحسن صوركم». وأحسن الشيء أتقنه^(٤)، وإحسان الشيء عرفانه وإتقانه^(٥).

ثانياً: التميز والإحسان من حيث التداول الفني.

أ- التميز: من الناحية الفنية التخصصية فقد استعمل «التميز» في اصطلاح الاقتصاديين والإداريين كقيمة تنافسية لأجل الربح، إذ الدافع هو تحقيق الربح المادي أكبر قدر متاح، دون تفكير في القيم الدينية، ولولاه لما وقع التفكير في التميز، حيث تسعى الشركات من خلال استراتيجية «التميز» إلى التفوق على منافسيها في السوق من حيث جودة السلع كما وكيفاً مما يشبع الشهوة أو يدفع المضرة، ومن حيث جودة الخدمة، ويرجع بعض الباحثين السابق في كشف قوانين التميز إلى خبراء الاقتصاد^(٦)؛ فالتميز عندهم هو «اكتساب خصائص تمكن من أقصى ما يمكن من: غايات الإبداع في الأفكار وغايات الإتقان في تنفيذها وغايات التفوق في تسويقها» دون اعتبار للدين. وانتقل الأمر إلى المنظمات والدول مع

١- التعريفات، للجرجاني، ٢٧.

٢- المخصص، لابن سيده ٤٢٣/٣.

٣- المرجع السابق.

٤- المعجم الوسيط، الزياد وزميله مادة (ح س ن) ١/ ١٧٤ بتصرف.

٥- التوقيف على مهمات التعاريف، عبد الرؤوف المناوي ٤١.

٦- الموسوعة الحرة الإلكترونية "ويكيبيديا" موضوع "التميز"، وكتاب "البحث عن التميز" أو الامتياز أو البحث عن التفوق كلها عناوين لكتاب واحد مترجمة عن الاسم الإنجليزي "Search Of Excellence" مؤلفه توم بيترز وزميله روبرت ووترمان صدر سنة ١٩٨٢ والكتاب جاء ردة فعل لتفوق الشركات اليابانية.

اعتبار ما للأخلاق والدين، ومن ثمت بدأ التفكير في صناعة التميز الذي يعتمد على بحث القوانين النفسية والمادية التي تجعل أفراد المنظمة أو الدولة يكتسبون خصائص التميز.

ب- الإحسان: أما الإحسان في شرعة الإسلام ومنهاجه فهو أمر تشريعي، وكلية إيمانية، وأعلى منزلة من منازل التقرب إلى الله، يقصد به بذل غاية الجهد في تجويد الفعل الحسي^(١) والمعنوي^(٢)، القاصر والمتعدي فيما زاد على العدل الواجب منه، استحضار الرقابة الله مبتغيا بذلك وجهه تعالى؛ فقد نص عليه القرآن المكي معلنا صفة قادة الرسالة الذين ستخرجهم مدرسة القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٣)، وأكدته النبي صلى الله عليه وسلم في آخر أيامه ككلية للإسلام فقال عنه: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ»^(٤)، وتناوله الفقهاء وعلماء السلوك بمعنى التحلي بصفات الإتيان فيما بعد الواجب من الأفعال المتعدية والقاصرة دون الخروج عن حد الشرع؛ قال ابن عاشور: «وأما الإحسان فهو معاملة بالحسنى ممن لا يلزمه إلى من هو أهلها. والحسن: ما كان محبوبا عند المعامل به ولم يكن لازما لفاعله، وأعلاه ما كان في جانب الله تعالى... ثم الإحسان في المعاملة فيما زاد على العدل الواجب، وهو يدخل في جميع الأقوال والأفعال ومع سائر الأصناف إلا ما حرم من الإحسان بحكم الشرع»^(٥). وقال الغزالي: «ونعني بالإحسان فعل ما ينتفع به المعامل وهو غير واجب عليه - أي

١- الحسي: المحسوس بإحدى الحواس ويقابله المعنوي، المعجم الوسيط، الزياد وزميلاه مادة (ح س) ١٧٣/١.

٢- هو الذي لا يكون للسان فيه حظ! وإنما هو معنى يعرف بالقلب. التعريفات، الجرجاني ٢٨٥.

٣- سورة النحل الآية ٩٠.

٤- صحيح مسلم مع شرح النووي، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان ح ١ ج ١ / ص ٢٧٢-٢٧٣.

٥- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١٤ / ٢٥٥.

المحسن - ولكنه تفضل منه فإن الواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم»^(١).
وفي مدارج السالكين: «الإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق وهو أن تعبد الله كأنك تراه... وهو مراتب: تهذيبه علما بأن يجعله تابعا للعلم، والعلم اتباع الأمر والشرع، ويقارنه عزم يمضيه ولا يصحبه فتور»^(٢).

يتبين من النقول الآتية أن الإحسان إما إحسان يقتضي الإسرار دفعا للرياء، وإما لا يقتضيه، وإما لازم أو متعدد، ويعتبر الفعل إحسانا إذا تحقق فيه شروط:

أ- وقوعه وفق أوامر الشرع، فالشرع يهدي للتي هي أقوم، فمن التزمه أتقن، ومن أعظم الأوامر قصد القربة مع الإخلاص، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٣).

ب- وقوعه زيادة على حد العدل الواجب في ذلك الفعل، لأن أداء الواجب يضمن العدل ويبعد الظلم، ولأن الزيادة على الواجب بها يتحقق الأحسن، وهنا يكون مزيد الإتيان وساحة التباري؛ قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾^(٥).

ج- وجود همة اكتشاف الحاجات وابتكار سبل سدها، وهو فرع عن القول إن الإحسان تفضل على الآخرين غير واجب، إذ الواجبات معلومة سلفا عن طريق الشرع، هذا في المتعدي، أما القاصر فاستغلال الفرص كقوله صلى الله عليه وسلم: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(٦).

١- إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ٢/ ١٠٣. يجعل الإمام الغزالي الإحسان كلية أخلاقية تشريعية تنضبط بها سنن الله الكونية في الأنفس والمجتمعات، فعقد بابا لبيان الإحسان في المعاملات بعد باب ما يصح منها، ثم باب العدل فيها.

٢- مدارج السالكين، الإمام ابن قيم الجوزية ٢/ ٤٦٠.

٣- سورة الإسراء الآية ٩.

٤- سورة الملك الآية ٢.

٥- سورة المطففين الآية ٢٦.

٦- صحيح البخاري مع فتح الباري لابن حجر، كتاب المساجد، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، ح ٦٦٠ ج ٢ / ص ١٤٤.

د- توفر العزم المنافي للفتور لإمضاء المعلوم المبتكر الظاهر النفع وإلا انقطعت المنافسة. قال صلى الله عليه وسلم: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ»^(٧).

وكلما وقع الفعل تقوى فلا يقل عمل معها، وكيف يقل ما يتقبل، وعليه فلا تفاضل في هذا المحل إذ علمه عند الله.

والمفاضلة إنما تكون فيما يقتضيه الشرع كتخصيب المسؤولين، أو مصلحة الآخرين في المعاضات.

والخلاصة: أن الإحسان كلية إيمانية وأخلاقية، وضابط تشريعي تتسق به سنن الله الكونية في الأنفس والمجتمعات يشتمل على المفهوم الفني لمصطلح التمييز ويزيد عليه من الضوابط ما يضمن العدل والنفع العام، وعليه فإننا في هذا البحث سنتحدث عن التمييز بمعنى الإحسان. فالتمييز في دلالة السنة إذن نوعان: الأول: يترتب عليه المدح من الله، والإسرار به مطلوب في الإحسان إلى الغير أو النفس مما يدخله الرياء. والثاني: يترتب عليه المدح من الله بشرطه^(٨)، وإظهاره واجب لما يترتب عليه من مطالب القيادة، وتفاوت الأجور والمكافآت وهو مما تدخله المنافسات، ومقصود البحث هنا هو ماله صلة بالنوع الثاني؛ وعليه فيعتبر الفرد متميزاً إذا توفرت فيه شروط قابلة للقياس وهي الآتية:

١- مراقبة الله وتقاس بمدى الحرص على اعتبار الأمر والنهي الشرعيين في تخصصه وإذا أمكن خارجه.

٢- العلم بموضوع العمل ويقاس بالجوانب المعرفية فيه.

٧- صحيح مسلم مع شرح النووي، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره ح ٧٨٢ ج ٦ / ص ٣١٧-٣١٨.

٨- أي بشرط قصد القرية، أو عدم وجود قصد الأذى وإن لم يكن قصد القرية كالتي سقت الكلب من موقها.

٣- الكفاءة العالية في التنفيذ وتقاس بمعايير الجودة المادية المعلنة مع المقارنة بأمثاله وحصول التفوق .

٤- المبادرة، وتقاس بابتكار حلول المشكلات، فيتخذ الموقف المناسب للحالة .

٥- العزيمة المنافية للفتور وتقاس بمدى الاستمرارية في العطاء، قال علي رضي الله عنه لزياد: «إنما وليتك وأنت عندي أهل لذلك ولن تدرك ما تريد إلا بالصبر واليقين»^(١).

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الشروط مع كون المعاصرين أحسنوا صياغة بعضها فقد أخذتها من خصائص الصحابة الذين عرفوا بالتميز، ومثل بمثال يدل على سواه، فخالد بن الوليد تميز في العسكرية، فمراقبة الله تظهر في حرصه على حدود الشرع في كل معاركه، ويعتبر من أعلم الناس بموضع الحرب، وكفاءته في خططه التي تعتبر اليوم من أندر الخطط وأحكمها، ولا تخفى مبادراته عندما يكون في ساحة المعركة، وقد بقي على حاله حتى لما عزل عن القيادة . وأبو بكر رضي الله عنه أعلم الناس بسياسة الدين والدنيا بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وقد برزت مراقبته لله عندما عرض أمر الردة على شوري الصحابة، وحكمته عندما بادر إلى وأد الفتنة، وظهرت الكفاءة العالية في نقل السلطة وترسيخ الشورى... ولا تخفى عزمته.

المبحث الثاني: مظاهر مقصد التميز في الخطاب النبوي الخاص وخصائصه.

المطلب الأول: مظاهر مقصد التميز في الخطاب النبوي الخاص.

بناء على التعريف السابق للتميز باعتباره مصطلحاً فنياً، وباعتبار الضوابط التي استخرجناها من كلية الإحسان، يمكن اعتبار الخطاب النبوي التربوي خطاباً

١- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر ابن عبد البر ١/١٥٦.

لا يراد منه إلا التميز سواء على سبيل طلب تحصيله، أو على سبيل اعتباره في اتخاذ القرار، إلا أن القدر الزائد الذي لا يتفق للجميع هو ما كان في خطاب خاص؛ ونقتصر على جملة من هذه الحقيقة تسمح لنا باستخلاص خصائص تدل على غيرها تساعد على بيان أهمية استحضار هذا المقصد في التلقي أي في الفهم والتنزيل:

أولاً: وقائع قصد النبي صلى الله عليه وسلم متميزين بالتكليف.

لقد كلف النبي صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير بتعليم أهل المدينة الإسلام بعد بيعة العقبة الأولى، ولم يكن ذلك إلا لتوفره على خصائص تربوية لا توجد في غيره، قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «إن مصعب بن عمير كان خيراً مني؛ توفي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن له ما يكفن فيه»^(١)، ومن أهم الخصائص: العلم بمقاصد الرسالة، والكفاءة في التزام أخلاق الرسل، ومن أهمها الزهد في متاع الدنيا مع أنه نشأ في أنعم عائلة قرشية، فقد حقق المثال الصحيح بسلوكه لمقاصد رسالة الإسلام، ثم الكفاءة في أداء الأمانة، ونتيجتها أنه اعتمد في دعوته على الاصطفاء وهو تنزيل لمبدأ التميز، حيث اهتم بأشراف القوم المؤثرين فكانت النتيجة إسلام عباد بن بشر وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وغيرهما، ففي تاريخ الإسلام للذهبي: أسلم سعد بن معاذ على يد مصعب بن عمير - لما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يعلم المسلمين السابقين - بعد محاوراة لطيفة من مصعب رضي الله عنه مفادها سماع ما يعرضه مصعب مقابل أن يرضى سعد فيقبل أو يكره فيرفع عنه ما يكرهه، ثم بعدما سمع من مصعب رضي وقيل، ثم عاد سعد إلى نادي قومه بني عبد الأشهل وقال لهم: «كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تسلموا، فأسلموا، فكان من أعظم

- الوافي بالوفيات، الصفدي، ١٢٦ / ١٨.

الناس بركة في الإسلام»^(١). ولنا أن نتصور لو لم يحسن خطاب سيد القوم سعد بن معاذ؟. قالت عائشة: «ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلا كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعباد بن بشر»^(٢). قال الصفدي: «وكان أسيد بن حضير أحد العقلاء الكملة من أهل الرأي»^(٣). فمما لاشك فيه أن اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لمصعب نابع من تميزه، فجانبا الإخلاص أمر يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم، والزهد الشرعي في الدنيا ظاهر إذ لم ينل حظا من الدنيا، والعزيمة جلية أيضا.

وأمثلة هذا كثيرة جدا لكن المقام لا يسمح بذكرها.

ثانيا: وقائع حرص النبي صلى الله عليه وسلم فيها على التمييز والتنافس في ذلك.

يشبهه ما في زماننا من العروض التي تقدمها بعض المؤسسات لتحصيل خدمة أكثر تميزا، أخرج البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، قَالَ: الزُّبَيْرُ: أَنَا. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟ قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرِ»^(٤)، فقد بوب البخاري عليه باب فضل الطليعة، ويؤيد المقصد التربوي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمكن أن يكلف أي شخص وهو العارف بأصحابه، لكنه أثار أن يبرز الصفات التي تجعل الناس يرون ما يحظى به بعض الصحابة من الاعتبار لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك أثنى عليه بأنه حوارى وهي أعز صفة، وفي هذا وجه تربوي واضح على طلب التمييز

١- تاريخ الإسلام، الإمام الذهبي ١ / ٢٩٧.

٢- المصدر السابق ٣ / ٦٦.

٣- الوافي بالوفيات، الصفدي ٩ / ١٥٣.

٤- صحيح البخاري، مع فتح الباري لابن حجر، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الطليعة ح ٢٨٤٦ ج ٦ / ٦٥-٦٦.

في مواقف التضحية والجهاد «العسكرية».

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِينَ الرَّأْيَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»^(٥). قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ آيُنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ فَقَالُوا: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأَتُونِي بِهِ، فَلَمَّا جَاءَ بَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبِرًّا حَتَّى كَانَتْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّأْيَةَ. فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَاتَلَهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا، فَقَالَ: أَنْفِذْ عَلَيَّ رَسُولَكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»^(٦).

فمما لا شك فيه أن الصحابة كلهم يحبون الله ورسوله لكن ليسوا على قدر واحد والفرق هو الذي يصنع التميز، وفي هذه الواقعة خطاب خاص يقصد به التميز وفي بعض الطرق أنه قال في حقه ليس فرارا، وهذه صفة أخرى، ففي المعجم الكبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الراية أبا بكر الصديق فبعثه إلى بعض حصون خيبر فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح وقد جهد فقال: «لَأُعْطِينَ الرَّأْيَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، لَيْسَ بِفَرَارٍ» فدعا علي بن أبي طالب رضي الله عنه...»^(٧).

وأخرج البخاري عن حذيفة رضي الله عنه قال: «جاء أهل نجران إلى النبي

٥- وفي رواية أخرى: "لَأُعْطِينَ الرَّأْيَةَ أَوْ لِيَأْخُذَنَّ الرَّأْيَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَوْ قَالَ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِ..."، المصدر السابق.

٦- صحيح البخاري مع شرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني، كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي رضي الله عنه... ح ٣٧٠١ ج ٧ / ص ٨٧. وصحيح مسلم مع شرح النووي، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي رضي الله عنه ح ٢٤٠٦ ج ١٥ / ص ١٨٦

٧- المعجم الكبير، الطبراني ٧ / ٣٥.

صلى الله عليه وسلم فقالوا: «أبعث لنا رجلاً أميناً فقال: لأبعثنَّ إليكم رجلاً أميناً حقَّ أمينٍ، فاستشرف له النَّاسُ فبعثَ أبا عبيدةَ بنَ الجراحِ»^(١).

فهذه الواقعة والتي قبلها وإن كانت تظهر أبعد شيئاً ما عن المطلوب لكن الذي يقربهما هو ماجاء فيهما من استشراف الناس لها، خاصة أن النبي صلى الله عليه وسلم عبر بقوله في الثانية حق أمين، ومما لا يخفى أن الأمانة يشترك فيها الصحابة والتفاوت إنما في القدر الزائد وكل هذه الوقائع يستفاد منها التحريض على التميز في هذه الخصال.

ثالثاً: وقائع من باب التوسم أثار فيها ما يدعو إلى التزام ما يحقق التميز.

وردت أحاديث كثيرة في ترغيب النبي صلى الله عليه وسلم في الإتيان وإحسان الفعل وهي خطاب عام، ولسنا الآن بصدد هذا، ولذلك فالتركيز يكون حول وقائع خاصة، فهم المخاطب فيها أن المطلوب منه قدرا زائدا على الواجب وما يكون مشتركا. ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس بأن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل، فكان ذلك لنبوغ فيه وخصائص قل ما توجد في مثله، ففهم ابن عباس أن هذا الدعاء توسم من النبي صلى الله عليه وسلم في بلوغ الغاية من علم الدين وفهم القرآن، فاجتهد في الطلب اجتهادا لم يلحقه به غيره ففي الإصابة: «لما مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة مات حبر هذه الأمة ولعل الله أن يجعل في ابن عباس خلفا»^(٢). وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لما توفِّي رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - قلتُ لرجُلٍ من الأنصار: يا فلانُ هلُمَّ فلنَسألَ أصحابَ النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - فإنَّهُم اليومَ كثيرٌ. فقال: وأعجبا لك يا ابنَ

١ - صحيح البخاري، مع فتح الباري لابن حجر، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران ح ٤٣٨١، ج ٨/ص ١١٧-١١٨.

٢ - الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر ٤/ ١٤٧، قال ابن حجر: أخرجه ابن سعد بسند صحيح عن يحيى ابن سعيد الأنصاري، والمعجم الكبير، الطبراني ٥/ ١٠٨.

عَبَّاسٌ أَتَرَى النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْكَ وَفِي النَّاسِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَنْ تَرَى؟ فَتَرَكَ ذَلِكَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى الْمَسْأَلَةِ فَإِنْ كَانَ لِيُبَلِّغَنِي الْحَدِيثَ عَنِ الرَّجُلِ فَاتِيهِ وَهُوَ قَائِلٌ فَاتَوَسَّدُ رِذَايَ عَلَى بَابِهِ فَتَسْفِي الرِّيحَ عَلَى وَجْهِ التُّرَابِ فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلَا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَاتِيكَ؟ فَأَقُولُ: لَا أَنَا أَحَقُّ أَنْ أَتِيكَ فَاسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ. قَالَ: فَبَقِيَ الرَّجُلُ حَتَّى رَأَى وَقَدْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ فَقَالَ: كَانَ هَذَا الْفَتَى أَعْقَلَ مِنِّي»^(١).

وأرشد ابن عمر رضي الله عنهما إلى قيام الليل طلباً للتميز في التعبّد ولذلك كان فيه من الورع والشدة في العبادة ما ليس في غيره، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَمَنَّتْ أَنْ أَرَى رُؤْيَا أَقْصَاهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَكُنْتُ غُلَامًا شَابًّا عَزَبًا وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبُئْرِ وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ كَقَرْنَيْ الْبُئْرِ وَإِذَا فِيهَا نَاسٌ قَدْ عَرَفْتَهُمْ فَجَعَلْتُ أَقُولُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ قَالَ فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ فَقَالَ لِي لَمْ تُرَعْ^(٢) فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ فَقَصَصْتُهَا حَفْصَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ قَالَ سَأَلْتُ فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا»^(٣)، ووجه الحجّة منه أن هذا الخطاب الخاص أريد منه التميز في التعبّد، قال ابن حجر: «فمقتضاه أن من كان يصلي من الليل يوصف بكونه نعم

١- سنن الدارمي ١/ ٤٦٤ باب الرحلة في طلب العلم، واحتمال العناء فيه ح ٥٩٠، قال محققه: إسناده

صحيح، المعجم الكبير، الطبراني ١٠/ ٢٤٤

٢- فقال له الملك لم تُرَعْ: أي لا فزع ولا خوف، النهاية في غريب الأثر، الإمام مجد الدين بن الأثير ج ٢/ ص ٢٧٧.

٣- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ح ٦٥٢٥.

الرجل»^(١)، إضافة إلى أن الملك وصفه بالصلاح، لأننا لم نر هذا الخطاب الخاص لغيره، ومع أن هذه العبادة مرغوب فيها في خطاب عام، فلم يكن محافظا عليها إلا النبي صلى الله عليه وسلم والجملة من الصحابة، وهم أعيان الجيل الفريد، ولا يلام إلا من تركها رغبة عنها.^(٢)

فهما واقعتان تبينان أن الخطاب الخاص هو إثارة للتمييز وكذلك فهمه المخاطب.

رابعاً: وقائع أشرف فيها على إعداد متميزين.

أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على إعداد متميزين في مجالات عدة؛ والأسلوب هو التعليم والتطبيق والتدريب على الاستمرار والصبر.

ففي التعليم، أخرج مسلم في صحيحه عن الأعرج قال: «سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاللَّهُ الْمُوعَدُ كُنْتُ رَجُلًا مُسْكِينًا أَخْدَمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَلَأِ بَطْنِي، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ يَشْغَلُهُمُ الْقِيَامُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَبْسُطُ ثَوْبَهُ فَلَنْ يَنْسَى شَيْئًا سَمِعَهُ مِنِّي»، فَبَسَطْتُ ثَوْبِي حَتَّى قَضَى حَدِيثَهُ ثُمَّ ضَمَمْتُهُ إِلَيَّ، فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْهُ»^(٣).

وفي رواية البخاري عن أبي هريرة، قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ؟ قَالَ: «ابْسُطْ رِدَائَكَ» فَبَسَطْتُهُ، قَالَ: فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

١- فتح الباري، ابن حجر ٦/٣.

٢- المصدر السابق.

٣- صحيح مسلم، مع شرح النووي كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة ح ٢٤٩٢ ج ١٦ / ص ٢٧٦-٢٧٧، وبنحوه صحيح البخاري مع فتح الباري لابن حجر كتاب العلم باب حفظ العلم، ح ١١٩ ج ١ / ص ٢٨٦.

«ضُمَّهُ» فَضَمَّمْتُهُ، فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ»^(١).

وليس معنى هذا أن أبا هريرة لم يسلك الأسباب العادية؛ فقد بين أنه كان يلازم النبي صلى الله عليه وسلم، ومحل الشاهد هنا هو الخطاب الخاص لأبي هريرة دون غيره لما وجد فيه من الحرص والأهلية وقد بقي تحت عين النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَلَوْ لَا آيَاتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾^(١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»^(٢)، إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّنْفُقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزِمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَبَعِ بَطْنِهِ، وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ»^(٣).

وفي خلق الصبر على الأذى وترك الانتقام للنفس، عن أبي هريرة: «أَنَّ رَجُلًا شَتَمَ أَبَا بَكْرٍ، وَالنَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْجَبُ وَيَتَبَسَّمُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَامَ فَلَحَقَهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَشْتَمِينِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ غَضِبْتَ وَقُمْتَ، قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلِكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعُدْ مَعَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثَ كُلِّهِنَّ حَقٌّ، مَا مِنْ عَبْدٍ ظَلَمَ بِمَظْلَمَةٍ فَيَغْضَىٰ عَنْهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَعَزَّهُ اللَّهُ بِهَا نَصْرَهُ، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطِيَّةٍ يُرِيدُ بِهَا صِلَةً إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا كَثْرَةً، وَمَا فَتَحَ

١- صحيح البخاري، مع فتح الباري لابن حجر، كتاب العلم، باب حفظ العلم ح ١١٩ ج ١ / ٢٨٥ ج ١ / ص ٢٨٥.

٢- سورة البقرة آية ١٥٩ و ١٦٠ وقد أكملت الآية وإن كانت في الصحيح مشار إلى آخرها فقط.

٣- صحيح البخاري مع فتح الباري لابن حجر، كتاب العلم، باب حفظ العلم ح ١١٨ ج ١ / ص ٢٨٥.

رَجُلٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ يُرِيدُ بِهَا كَثْرَةً إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا قَلَّةً»^(١).

وجه الدلالة من هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خاطب أبا بكر رضي الله عنه خطاب التميز في هذا الخلق لأنه صبر أولاً فأوضح له الرسول صلى الله عليه وسلم أن الغاية بالنهاية، والذي يقوي الاحتجاج هنا بالواقعة على المطلوب هو أنه يجوز للإنسان أن ينتصر بغيربغي وهنا إنما رد بعض القول ومع ذلك أراد منه المربي الحكيم بلوغ غاية التميز، ففي هذا الموقف التعليم، وبيان وجه الحكمة، والمتابعة في التدريب وتقويم التطبيق، وأهلية أبي بكر لهذا نص عليها النبي صلى الله عليه وسلم؛ ففي المسند عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءُ عَثْمَانَ وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَبُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أَبِي بَنِي كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ ابْنِ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»^(٢). فهو يعده إعداداً خاصاً.

ولقن النبي صلى الله عليه وسلم ابن عباس مبادئ تضبط تميزه؛ «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ أَحْفَظُ اللَّهُ يَحْفَظُكَ...»^(٣).

وفي الجهر بالحق والصبر على ذلك أعد أباذر؛ فقد أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا تُقِلُّ الْغُبْرَاءُ وَلَا تُظِلُّ الْخَضْرَاءُ عَلَى ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ وَأَوْفَى مِنْ أَبِي ذَرٍّ، شَبِيهَ

- ١- المسند، أحمد بن حنبل ١٥ / ٣٩٠، قال الشيخ الأرنبوط ومن معه: حسن لغيره، مجمع الزوائد، الهيثمي ٨ / ١٩٠ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. إتخاف الخيرة المهرة، للبوصيري ٥ / ٤٧٨، وقال البوصيري: رواه مُسَدَّدٌ ومحمد بن يحيى بن أبي عمر، ورواته ثقات.
- ٢- سنن ابن ماجه، المقدمة ح ١٥٩ (واللفظ له)، المسند، أحمد بن حنبل ٢٠ / ٢٥٢، وقال الأرنبوط ومن معه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
- ٣- سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ح ٢٧٠٦.

عيسى بن مريم» عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَفَنَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فَاعْرِفُوا لَهُ»^(١).

وخاطب نساءه بعدما أعدهن إعداداً للتمييز؛ أخرج مسلم عن عائشة أم المؤمنين قالت: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَسْرَعُكُمْ لِحَاقًا بِي أَطُولُكُمْ يَدًا، قَالَتْ فُكُنَّ يَتَطَاوَلْنَ أَيَّتَهُنَّ أَطُولُ يَدًا، قَالَتْ: فَكَانَتْ أَطُولُنَا يَدًا زَيْنَبُ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَصَدِّقُ»^(٢). وإعدادهن لهن بدأ بآية التخيير ثم فرض لهن قوت سنة لكل واحدة منهن، وتخصيص بيت تتحمل مسؤوليته وحدها درءاً للاكتال، وبهذا ظهر التمييز لزینب رضي الله عنها.

المطلب الثاني: خصائص مقصد التمييز في الخطاب النبوي الخاص.

من خلال الوقائع السابقة يمكن إجمال خصائص مقصد التمييز في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يلي:

- ١- العمل بسنة الاصطفاء الربانية التي وقعت على الرسل وغيرهم لحمل الأمانة وتولي الولايات^(٣)، ويتجلى ذلك أكثر في قصة الزبير، وكذا في غيرها عامة كبعث مصعب بن عمير.
- ٢- الاهتمام بالتمييز في الجانب الإيماني تحصيلاً، واعتباراً، كما في حال أبي بكر وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم.

١- صحيح ابن حبان، ترتيب ابن بلبان، كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ذكر إنبات الصدق والوفاء لأبي ذر رضي الله تعالى عنه ج ١٦ / ص ٨٤، وقال الأرناؤوط: حسن لغيره. قال أبو حاتم: يشبه أن يكون هذا خطاباً خرج على حسب الحال في شيء بعينه، إذ محال أن يكون هذا الخطاب على عمومه وتحت الخضراء المصطفى صلى الله عليه وسلم والصديق والفاروق رضي الله عنهما.

٢- صحيح مسلم مع شرح النووي كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل زينب أم المؤمنين رضي الله عنها ج ٢٤٥٢ / ص ١٥ / ص ٢٤١.

٣- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجزيرة ١ / ٤٤ وما بعدها.

٣- مراعاة حال المخاطب، ولذلك أحيانا يترك المبادرة للمتميز لكي يعلن عن نفسه كحال الزبير، وأحيانا يخصه بالخطاب بالتكليف عندما يرى ما يقتضيه مكافأة له واعتمادا عليه وحضا للآخرين ليقتدوا به.

٤- المعرفة الدقيقة بأحوال الأصحاب ومتابعة ما يحتاجونه لبلوغ غاية التميز، كما وقع مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عندما وضع لهما أن الخاصة في حملة هذه الرسالة يجب أن يقطعوا حياة الترفه والاستكثار من الدنيا جمعا وتنعما، أما كسبا ثم إنفاقا في وجوه الخير أو على النفس دون ترفه فلا ضير فإن النبي صلى الله عليه وسلم اختار أن يكون عبداً رسولاً^(١)، والأمر نفسه وقع مع نسائه في قصة التخيير^(٢).

٥- تخصيص ذوي الاستعداد الخاص بالعناية في الجوانب المرغوبة لديهم كحال ابن عباس، وحال أبي هريرة.

٦- العناية بالأسباب العادية في تحصيل المطلوب كعدم الاتكال على مجرد الدعاء بالنسبة لابن عباس وأبي هريرة، فصنيعهم يقدم النموذج الأمثل في الموضوع.

٧- تهيئة فرص التميز الموضوعية والذاتية، كما هو حال نسائه.

٨- مراقبة السلوك لتقويم التطبيق وتطوير الخبرة.

٩- رغم رغبة النبي صلى الله عليه وسلم في تميز جميع الأصحاب إلى الغاية في كل مجال، لكن الأدلة تؤكد أنه لم يحصل ذلك، بل الأدلة السابقة تفيد أهمية تنوع ضروب التميز المفيدة للتكامل وجعل ذلك مدحا لهم، فقد عين قراء القرآن المعتمدين وعدهم عدا.

١- منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري ١٤٥ / ٥ قال حمزة قاسم: «بل كان في إمكانه - النبي - أن ينال ما يشاء، ويحصل على ما يريد ولكنه أثار أن يكون عبداً رسولاً».

٢- صحيح البخاري مع فتح الباري لابن حجر، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: "وإن كنتن تردن اله ورسوله...، ح ٤٧٨٦ ج ٨ / ص ٦٦٧-٦٦٨.

المبحث الثالث: أهمية فهم مقصد «التميز» من الخطاب النبوي التربوي الخاص.

لبيان أهمية فهم مقصد التميز في الخطاب النبوي كان لابد من تحليل هذا الخطاب؛ والنتيجة هي أنه خطاب خرج في مواقف شتى، ويتخذ قرارات في تولية المهام لافتة، فيتنوع المطلوب، وتتعدد أوجه القرارات في الولايات، وقد ظهر ذلك للبعض كالمعارض المتزاحم، أو المطلوب الذي لا يستطاع؛ أو التقديم الناتج عن محبة خاصة لاسيما في الولايات، ولا يقع الانفصال عن هذه الأمور إلا إذا فسر الهدي النبوي في ذلك بقانون الاصطفاء، وحمل الخطاب على اختلاف أحوال المخاطبين، وميولهم وقدراتهم وحاجات المجتمع الراهنة، وتزداد أهمية هذا التفسير إذا أدركنا حاجة قانون الاصطفاء - الذي سيأتي تعريفه - إلى وجود فئة متميزة يقع الاختيار منها، إذ لو لم تكن هذه الفئة التي تحمل عناصر التميز لوقع الاضطرار إلى شخص كيفما كان حاله، ولو لم يقصد التميز بمعنى مازاد على الواجب لكان للاقتصار على ذكر بعض الأعمال التي خوطب بها بعضهم معنى ترك غيره ولو كان واجبا؛ وبيان هذه الأمور فيما يلي:

أولا: شعور بعض الصحابة بصعوبة إتيان أبواب الخير كلها، إما من باب افتراض تزاحمها، أو من باب العجز عنها.

فقد سأل بعضهم عن طريق العمل بهذه الكثرة من وجوه الخير شعورا منهم بكونها أكثر من الحيز الزمني ومن الوسع ومن الرغبة؛ ولم يدركوا أن الأمر يتعلق بالإحسان والتميز تبعا للحال والحاجة الآتية، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ قَالَ: «أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيَّانِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: مَنْ خَيْرَ الرَّجَالِ يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ». وَقَالَ الْآخَرُ: «إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا، فَبَابٌ نَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٌ». قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانَكَ رَطْبًا مِنْ

ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١)، فدلهم على ملاك الأمر وهو التشبث بشيء مستطاع، مع الاستمرار عليه وإتقانه.

وعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ يَقُولُ: «إِنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَتَصَدِيقُ بِهِ، وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ. قَالَ: أُرِيدُ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: السَّمَاحَةُ وَالصَّبْرُ. قَالَ: أُرِيدُ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: لَا تَتَّبِعُهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي شَيْءٍ قَضَى لَكَ بِهِ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ. قَالَ قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا. قَالَ قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ. قَالَ: تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ. قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: تَكْفُ شَرِّكَ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَيَّ نَفْسِكَ»^(٣).

ولقد حقق ابن القيم هذا المقام أفضل تحقيق عندما تكلم عن أصناف الناس في النظر إلى أبواب الخير وتنوعها، حيث ذكر الصنف المؤثر لحظوظ روحه وقلبه، والصنف المؤثر لراحة باله، والصنف المؤثر للعمل المتعدي وإن لم يجتهد في القاصر، والصنف الذي وضع كل شيء في نصابه وهم الدرجة الرفيعة؛ قال ابن القيم: «فالأفضل في كل وقت وحال إثارة مرضاة الله في ذلك الوقت والحال والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه... وهؤلاء هم أهل التبعيد

١- المسند، الإمام أحمد ٢٩ / ٢٢٦ قال المحققون: الشيخ الأرنبوط ومن معه إسناده صحيح.
 ٢- المسند، الإمام أحمد ٣٧ / ٣٩٠ قال الشيخ الأرنبوط ومن معه حديث محتمل للتحسين،... من أجل ابن لهيعة، وقد توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح. وإتحاف الخيرة المهرة، البوصيري ١ / ٦٤ وقال البوصيري: قلت: ورواه أحمد بن حنبل في مسنده، والطبراني في معجمه بإسنادين أحدهما حسن.
 ٣- صحيح مسلم مع شرح النووي كتاب الإيمان باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال ح ٨٤ ج ٢ / ص ٤٣٣-٤٣٤.

المطلق»^(١)، «قالوا إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن. والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل...»^(٢)، ثم جعل ينوع المطلوبات بحسب الأحوال ويوازن بينها.

والنتيجة أن تنوع المطلوب في الخطاب النبوي هو تنوع الاختيارات للمكلفين حسب أحوالهم الزمانية والصحية والنفسية، والمكانية قصد تحقيق التميز ودرجة الإحسان، وهذا ما يفهم في جعل هذه المرتبة لأهل التعبد المطلق، وقد ذكر ما يؤكد هذه النتيجة قال رحمه الله: «فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره فإن رأيت العلماء رأيتهم معهم وإن رأيت العباد رأيتهم معهم وإن رأيت المجاهدين رأيتهم معهم وإن رأيت الذاكرين رأيتهم معهم وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيتهم معهم وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيتهم معهم فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم ولم تقيده القيود ولم يكن عمله على مراد نفسه وما فيه لذتها وراحتها»^(٣)، ولا تكون هذه الصفات إلا للمتميزين.

ثانيا: اعتقاد بعضهم أن تقديمه في الولايات لمحبة خاصة بينما هو لتمييز خاص.

لقد وقع هذا الأمر لعمر بن العاص رضي الله عنه عندما لم يدرك مقصد التميز والمعرفة بخطط الحرب والدهاء فيها الذي حمل النبي صلى الله عليه وسلم على تأميره على أبي بكر وعمر وجملة من السابقين الأولين، فعن أبي عثمان أن

١- مدارج السالكين، ابن القيم ١ / ٨٩.

٢- المصدر السابق ١ / ٨٨.

٣- المصدر السابق ١ / ٩٠.

رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، قَالَ: فَاتَيْتَهُ فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ. قُلْتُ: مَنْ الرَّجَالُ؟ قَالَ: أَبُوهَا. قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: عُمَرُ، فَعَدَّ رِجَالًا، فَسَكَتُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْعَلَنِي فِي آخِرِهِمْ»^(١). ووجه الدلالة منه ما نقله ابن حجر قال: «وقع عند بن سعد سبب هذا السؤال وأنه وقع في نفس عمرو لما أمره النبي صلى الله عليه وسلم على الجيش وفيهم أبو بكر وعمر أنه مقدم عنده في المنزلة عليهم فسأله لذلك»^(٢).

إذا تبين ما قلناه من أن عدم استحضار مقصد التميز في الخطاب النبوي الخاص يفسد الفهم، ويفوت المعاني الراقية والراقية، فإن أهمية استحضاره تتجلى فيما يلي:

أولاً: استفادة قاعدة «الاصطفاء» كمنهج نبوي لبناء نموذج مخرجات الرسالة

مما مضى في المبحث الثاني يمكن الجزم بأن النبي صلى الله عليه وسلم أعمل قانون الاصطفاء منهجاً وقانوناً مطرداً وهو قانون رباني قبل ذلك، وهو أعظم فائدة لا اعتبار مبدأ التميز في التلقي عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ومقتضاه اختيار المتميزين في كل ميدان، ولتحقق هذا الاختيار لا بد من إعداد الطوائف المتميزة التي تحقق مقاصده، يقول ابن القيم عن قانون الاصطفاء الرباني الذي منه استمد النبي صلى الله عليه وسلم الهدى: «ثم اختار من قريش بني هاشم، ثم اختار من بني هاشم سيد ولد آدم محمداً صلى الله عليه وسلم، وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين، واختار منهم السابقين الأولين، واختار منهم أهل بدر، وأهل بيعة الرضوان»^(٣)، وقرر في مكان آخر أن الاصطفاء يعود لصفات وأمر مشتملة عليها ذوات الأعيان والأماكن والأشخاص التي اختارها الله ليست لغيرها، فليس

١- صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة ذات السلاسل ح ٤٠١٠

٢- فتح الباري، ابن حجر ٨ / ٩٤.

٣- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ١ / ٤٤.

كل أحد أهلا ولا صالحا لتحمل رسالته^(١). ومحل الشاهد من كلام ابن القيم هو أن السابقين الأولين فئة متميزة لكن وقع اختيار أهل بدر منهم قدرا وخصهم بفضائل.

فاعتبار قانون الاصففاء، يجعلنا نعدل من كثير من سياساتنا عامة، ووسائلنا التربوية والتعليمية والتدريبية، فبذل الجهد من غير اصففاء كل فرد لما يصلح له هو من باب إهدار المال والجهد، كما أن الاهتمام بجوانب من الملكات التي هي موجودة من باب العبث. كما أن ترك الاصففاء في الولايات، هو غش محرم قال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيَهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(٢) وليس هناك غش أكثر من أن يولي من هو أدنى، أو يقصر في إيجاد الأفضل، وهو ما سعى إليه النبي صلى الله عليه وسلم كما مر في مبحث المظاهر.

ثانيا: قانون الاصففاء يبرز اهتمام الخطاب النبوي باختلاف أحوال الناس وحاجات المجتمع الأنية

يتفق أهل العلم أن الاهتمام بأحوال الناس وأحوال المجتمع في التوجيه والتربية كان مقصدا للنبي صلى الله عليه وسلم في خطابه ليحقق التميز ويصوغ النموذج من الأصففاء؛ قال النووي في شرحه لحديث عبد الله بن عمرو «أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»، وفي رواية «أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ قَالَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»، وفي رواية جابر «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(٣). قال العلماء رحمهم الله: «قوله أي الإسلام خير، معناه أي خصاله وأموره وأحواله، قالوا: وإنما وقع

١- المصدر السابق ١/ ٥٣.

٢- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لِرَعِيَّتِهِ النَّارَ، ح ٣٨٠.

٣- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أمره أفضل، ح ١٦٩.

اختلاف الجواب في خير المسلمين لاختلاف حال السائل والحاضرين فكان في أحد الموضوعين الحاجة إلى إفشاء السلام وإطعام الطعام أكثر وأهم لما حصل من إهمالهما والتساهل في أمورهما ونحو ذلك وفي الموضوع الآخر إلى الكف عن إيذاء المسلمين»^(١).

ومراعاة الحال الآنية للأمة والأشخاص كثيرة ومنها ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه «قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دلني على عمل يعدل الجهاد قال لا أجده قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر قال ومن يستطيع ذلك.

وفي مقابله عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد فقال: «جهادُكنَّ الحجُّ»^(٢). وفي رواية قال: «نعم الجهادُ الحجُّ»^(٣)، قال ابن بطال: «هذا الحديث يدل على أن النساء لا جهاد عليهن واجب،... وليس في قوله صلى الله عليه وسلم: «جهادكن الحج» دليل أنه ليس لهن أن يتطوعن بالجهاد، وإنما فيه أنه الأفضل لهن، وإنما كان الحج أفضل لهن من الجهاد؛ لأنهن لسن من أهل القتال للعدو ولا قدرة لهن عليه ولا القيام به، وليس للمرأة أفضل من الاستتار وترك المباشرة»^(٤).

ووجه الاستشهاد بما ذكر من كلام ابن بطال أن اختيار الرجال للجهاد دون النساء يرجع إلى الكفاءة الخلقية - بكسر الخاء وسكون اللام - فالقوة على الجهاد لدى الرجال أكثر. ويمكن أن تصبح الحاجة إليهن مع ضعف قوتهن عليه في بعض الظروف، قال ابن بطال: «إنما جعل الجهاد في هذا الحديث أفضل من الحج؛ لأن ذلك كان في أول الإسلام وقلته، وكان الجهاد فرضاً متعيناً على كل أحد، فأما إذ

١- شرح النووي على مسلم ٢ / ٣٦٩.

٢- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب جهاد النساء، ح ٢٩١٤.

٣- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب جهاد النساء، ح ٢٩١٥.

٤- شرح صحيح البخاري لابن بطال ٥ / ٧٥.

ظهر الإسلام وفشأ، وصار الجهاد من فروض الكفاية على من قام به، فالحج حينئذ أفضل؛ ألا ترى قوله لعائشة: «إن أفضل جهادكن الحج» لما لم يكن من أهل القتال والجهاد للمشركين، فإن حل العدو وبلدة واحتيج إلى دفعه، وكان له ظهور وقوة وخيف منه؛ توجه فرض الجهاد على العيان، وكان أفضل من الحج والله أعلم^(١). إن هذه النصوص وغيرها كثير تبين مراعاة الخطاب الخاص لأحوال المخاطبين وظروف الأمة ومقتضياتها فبينما جعل النبي صلى الله عليه وسلم الجهاد أفضل الأعمال لأحد الناس جعل الحج أفضل لآخر، وإنما المطلوب حصول التميز وليس مجرد وجود الشخص في الجيش.

لقد تبين من أحداث السيرة أن الدعوة ركزت على الرواحل^(٢)، ولقد كان لهؤلاء وقفات قبل إعلان الإسلام تقديراً منهم للالتزام والمسؤولية إلا أبا بكر لمعرفته بالرسول صلى الله عليه وسلم وعلمه بثقافة العصر وما فيها من صواب وخطأ^(٣)، وكل ذلك يدخل ضمن الاصطفاء، ونتيجته أنه لم تكن من أحد منهم ردة كما كانت ممن دخل في الدين أفواجا.

المبحث الرابع: أهمية مبدأ التميز في تطبيق الخطاب النبوي التربوي.

لقد سلك النبي صلى الله عليه وسلم في مدافعته الباطل والشر، وإحقاق الحق واستنبات الخير مسلك إعلان النموذج المجتمعي القرآني في التفكير والاجتماع والاقتصاد والسياسة، مما أضعف كل قوة ناوأته، وإنما وقع ذلك عندما تلقى ذلك الجليل خطاب النبي تلقي العامل الذي يسعى للتميز، فتجد سيرة كل صاحب

- ١- المصدر السابق ٤/ ١٩٠.
- ٢- اقتباساً من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْمَائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً». صحيح البخاري، مع فتح الباري كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، ح ٦٥٧٧.
- ٣- عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كان له فيه مرجوع وتردد إلا أبا بكر فإنه حين كلمته بالإسلام ما عثم أن أسلم». قال أبو بكر — هو ابن بطة —: «قوله» ما عثم» أي ما أطرق وفكر، ولا قال لم وكيف». انظر: الإبانة الكبرى، لابن بطة ٩/ ٤٥٧.

تشتمل على التميز في جانب من جوانب البناء الحضاري، فمن صلح للجهاد عرف به كخالد بن الوليد حيث يقول: «شَغَلَنِي الْجِهَادُ عَنْ تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ»^(١)، ومن صلح للعلم انتصب له كحال أبي هريرة، ومن صلح للإعلام تميز فيه كحال حسان بن ثابت، ومن كان من أهل الرأي تميز فيه، فقد كانوا حريصين على تتبع كل السياسات ليدلوا بما يروه صوابا كحال سعد بن معاذ وسعد بن أبي وقاص^(٢)، وهذا عثمان بن عفان المثل في الإنفاق ولو بالنفس «عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ حُوصِرَ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: «أَنْشُدْكُمْ وَلَا أَنْشُدْ إِلَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ حَفَرَ رُومَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ. فَحَفَرْتَهُ! أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ. فَجَهَّزْتَهُمْ! قَالَ: فَصَدَّقُوهُ بِمَا قَالَ»^(٣).

إن هذه الوقائع، وغيرها كثير، يؤصل لمبدأ التميز في التلقي وليس مجرد العمل في الخطاب الخاص.

١- يقول أبو بكر بن أبي شيبة في مصنفه ٢/ ٢٦٥ حدثنا الفضل بن دكين، قال: حدثنا الوليد بن جميع، قال: حدثني رجل أتني به؛ إنه أم الناس بالحيرة خالد بن الوليد، فقرأ من سور شتى، ثم التفت إلينا حين أنصرف، فقال: «شَغَلَنِي الْجِهَادُ عَنْ تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ».

٢- وخير مثال في ذلك قصة الغطفانيين في المعجم الكبير للطبراني (٦/ ٢٨١) والقصة بمجموع طرقها صحيحة، عن أبي هريرة قال: جاء الحارث الغطفاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، شاطرنا تمر المدينة، قال: «حتى أستمروا السعود»، فبعث إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عباد، وسعد بن الربيع، وسعد بن خزيمة، وسعد بن مسعود، رحمهم الله، فقال: «إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وإن الحارث يسألكم أن تشاطروهم تمر المدينة، فإن أردتم أن تدفعوا إليه عامكم هذا، حتى تنظروا في أمركم بعد»، قالوا: يا رسول الله، أوحى من السماء، فالتسلم لأمر الله، أو عن رأيك، أو هوأك، فأبنا تبع لهواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأينا وإياهم على سواء ما ينالون منا تمر إلا بشري، أو قري، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هوذا نسמעون ما يقولون»، قالوا: غدرت يا محمد، فقال حسان بن ثابت رحمه الله:

يَا حَارِ مِنْ يَغْدُرُ بِذِمَّةِ جَارِهِ أَيْدَاءُ فَإِنَّ مُحَمَّدًا لَا يَغْدُرُ
وَأَمَانَةَ الْمَرْءِ حَيْثُ لَقِيَتْهَا كَسِرَ الزَّجَاجَةَ صَدْعُهَا لَا يَجْبُرُ
إِنْ تَغْدَرُوا فَالغَدْرُ مِنْ عَادَاتِكُمْ... وَاللُّؤْمُ يُنْبِتُ فِي أَصُولِ السَّخْبَرِ

٣- صحيح البخاري مع شرح فتح الباري، للحافظ ابن حجر العسقلاني، كتاب الوصايا باب إذا وقف أرضاً أو بئراً أو اشترط مثل دلاء المسلمين ح ٢٧٧٨ ج ٥ / ص ٥١٠.

وعليه فنحن اليوم لا نقل حاجة عن ذاك المنهج في التلقي ولتحقيقه لابد من أمور:

١- توفر قيادة لا تعرف لتملك الثروة والترفة معنى، وإن كانت لها أسبابها فهو أفضل حتى يعرف أنه زهد حقيقي، ودليله ما سبق أن قاله النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه، وما خير فيه نساءه، ولنا اليوم من النماذج ما يؤكد هذا الأمر.

وضع معايير الاصطفاء لتمييز خصائص الأشخاص الجبلية، والاستعدادات النفسية التي تعود إلى طبيعة المنشأ وظروف التربية، والدليل على هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم كانت له هذه الخبرة وكان يسأل إن غاب عنه شيء؛ يدل عليه ما أخرجه مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا»^(١)، وعن عمرو بن عبسة السلمي قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض يوماً خيلاً وعنده عيينة بن حصن بن بدر الفزاري فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا أفرس بالخيال منك»، فقال عيينة: وأنا أفرس بالرجال منك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وكيف؟» قال: خير الرجال رجال يحملون سيوفهم على عواتقهم جاعلوا رماحهم على مناسج خيولهم لابسوا البرود من أهل نجد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كذبت بل خير الرجال رجال أهل اليمن، والإيمان يان إلى لحم، وجذام، عاملة، وماكول حمير خير من أكلها وحضر موت خير من بني الحارث، وقبيلة خير من قبيلة، وقبيلة شر من قبيلة، والله ما أبالي أن يهلك الحارثان كلاهما، لعن الله الملوك الأربعة

١- صحيح مسلم مع شرح النووي، كتاب الفضائل باب من فضائل يوسف عليه السلام ح ٢٣٧٨ ج ١٥ / ص ١٤٣-١٤٤.

جَمَدَاءَ^(١)، وَمَخُوسَا، وَمَشْرَحَا، وَأَبْضَعَةَ، وَأَخْتَهُمُ الْعَمْرَدَةَ^(٢)، ثُمَّ قَالَ: «أَمَرَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ أَلْعَنَ قَرِيْشًا مَرَّتَيْنِ، فَلَعَنْتُهُمْ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَصَلِّيَ عَلَيْهِمْ مَرَّتَيْنِ، فَصَلَّيْتُ عَلَيْهِمْ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ لَعَنَ قَبَائِلَ فَسَمَّاهُمْ» ثُمَّ قَالَ: «عُصِيَّةٌ عَصَتْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ غَيْرَ قَيْسٍ، وَجَعْدَةَ، وَعَصَمَةَ»، ثُمَّ قَالَ: «لَأَسْلَمَ، وَغَفَارٌ، وَمَزَيْنَةٌ، وَأَخْلَاطُهُمْ مِنْ جُهَيْنَةَ خَيْرٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ، وَتَمِيمٌ، وَغَطَفَانٌ، وَهَوَازِنٌ، عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، ثُمَّ قَالَ: «شَرُّ قَبِيلَتَيْنِ فِي الْعَرَبِ فَسَمَّاهُمَا وَأَكْثَرُ الْقَبَائِلِ فِي الْجَنَّةِ مَذْحِجٌ»^(٣).

٢- تأهيل الأفراد إيمانياً تبعاً لميولهم فمن له الاستعداد لقيام الليل والعلم يساق إليه ومن له الاستعداد في إدارة الأموال والإنفاق فليكن كذلك وهكذا، ودليله أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لأنس بأن يكثر له ماله وولده ويبارك له في ذلك، وأمر ابن عمر أن يقوم الليل، وأمر معاذاً أن يقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

٣- تشجيع التميز في كل أمر من أمور التربية والإعداد حسب حال المتلقي، وإبراز أمر التميز فيما يرى الاستعداد فيه، بعد أن يفهم أهمية التزام الشرع عموماً، ويدل عليه قصة أبي بكر السابقة، وقصة عمر رضي الله عنهما. ثم لابد من أن يشعر هذا المتلقي بالعدل والأهمية والمكانة، ليبرز المجتمع في صورة الجسم الواحد.

١- في تاج العروس للزبيدي ٤٢١/٨: "وَجَمَدٌ مَحْرَكَةٌ" وجاء في الأنساب للسمعاني: "جمد بفتح الجيم وسكون الميم أحد الملوك الأربعة وهو ابن معد يكر، ذكر هشام بن الكلبي أن مخوسا ومشرحا - كلاهما كمنبر - وجمدا وأبضعة بنو معد يكر هم الملوك الأربعة، وإنما سموا ملوكا لأنه كان لكل رجل منهم واد يملكه بما فيه، قلت ليس في الأسماء جمدا إلا هذا والله أعلم". الأنساب للسمعاني ٨٦/٢. قال ابن حزم: "وفدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتدوا، فقتلوا كلهم. جمهرة أنساب العرب ٤٢٨/٢.

٢- الْعَمْرَدَةُ بفتح العين والميم وتشديد الراء مع فتحها وفتح الدال: أُخْتُ مِشْرَحٍ وَمَخُوسٍ، كلاهما على وزن منبر، تاج العروس للزبيدي ٤٢١/٨.

٣- المسند، الإمام أحمد ١٩١/٣٢، قال الشيخ الأرئوط ومن معه: "إسناده صحيح".

خاتمة وفيها نتائج وتوصيات

النتائج: لقد تبين في هذا البحث:

- ١- أن «التميز» كمصطلح في التنمية البشرية إذا تخلص من قصد السيطرة والمنافسة الاحتكارية يدخل في عموم كلية الإحسان الشرعية، وهي كلية لها ضربان، وأن الضرب الذي يدخل فيه معنى التميز له عناصر يقاس بها، هي مراقبة الله، والعلم بموضوع الفعل والخبرة التطبيقية، والمبادرة، والعطاء المستمر.
- ٢- وأن هذا التأصيل كشف عن الكنوز التي تختزنها السنة التي لو وظفت توظيفاً علمياً لكانت أمة الإسلام قائدة العالم إلى الخير، لأن مفهوم الإحسان أقوى بكثير من مفهوم التميز، بل لو قيل بمنع المقارنة لحسن.
- ٣- وأن تلقي الخطاب النبوي الخاص فضلاً عن العام على أن مقصوده التميز وبلوغ مرتبة الإحسان، هو منهج الصحابة في التلقي، وأهميته في تلبية حاجة قانون الاصطفاء.
- ٤- وأن النبي صلى الله عليه وسلم في خطابه الخاص كان يراعي الأحوال النفسية والحاجات الزمانية والمكانية، مما مكن من بناء النموذج الذي كان واقعه دعوة للإسلام، قبل الكلام.
- ٥- وأن قانون الاصطفاء هو أعظم قانون ميز المنهج النبوي وهو ما يفسر سبب صدور الخطاب الخاص بقصد التميز، وهو الأسلوب الذي أنشأ به النبي صلى الله عليه وسلم الدولة النموذج في الفكر والاجتماع والاقتصاد والسياسة، وأعطى لدعوة الإسلام صورتها الخاصة المشرقة والمنافسة.
- ٦- وأن الخطاب العام لم يتميز فيه كل الصحابة.

وأخيرا فإن أهم التوصيات هي:

تفعيل قانون الاصفاء في كل ميادين الحياة بعد تهيئة ظروفه، وضبط عناصره .

إعادة الاعتبار للتراث الإسلامي في تشكيل العلوم الخادمة لقانون الاصفاء كعلم النفس والاجتماع والتشريع والمالية، فقد لاحظنا النفائس التي اشتمل عليه إحياء علوم الدين في كلية الإحسان / التميز، وتفسير التحرير والتنوير بما لم يأت به مفهوم التميز في التنمية البشرية .

إعداد ندوة خاصة في نصوص السنة التي تتناول قوانين النفس والاجتماع وضوابطها، نظرا لقيمة الوحي في ضبط كثير من الأمور التي لا يهتدي إليها العلم التجريبي القائم، من أجل تحقيق قانون الاصفاء وصناعة التميز إكمالا لعمل هذه الندوة .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، أبو عبد الله عبيد الله ابن محمد بن بطة العكبري، تحقيق: د. عثمان عبد الله آدم الأثيوبي، ط ٢، دار الراية - الرياض، ١٤١٨.
- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، ط ١، دار الوطن - الرياض، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، تحقيق: سيد عمران، دار الحديث القاهرة، ٢٠٠٤ م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي ط ١، دار الجيل - بيروت، ١٤١٢ هـ.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط ١، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧ م.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط ١، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٥.
- التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، ط ١، دار الفكر المعاصر، دار الفكر - بيروت،

دمشق ١٤١٠هـ.

- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر شمس الدين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، ط٢٦، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
- السنن، عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي و خالد السبع العلمي، ط١، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٧هـ.
- شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط٢، مكتبة الرشد - السعودية / الرياض، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري اليمني، تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإيراني - د. يوسف محمد عبد الله، ط١، دار الفكر المعاصر بيروت، ودار الفكر دمشق - سورية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- صحيح البخاري مع فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٩م،
- صحيح مسلم مع شرح النووي، مراجعة الشيخ خليل الميس، ط٣، دار القلم - بيروت.
- مجمع الزوائد مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر - بيروت، ١٤١٢هـ.
- المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف

- بابن سيده، تحقيق: خليل إبراهيم جفال ط ١، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي ط ٢، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- المسند، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض.
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط ٢، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد بمساعدة فريق عمل، ط ١، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى أحمد الزيات حامد عبد القادر محمد النجار، دار الدعوة.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- مفردات ألفاظ القرآن مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم، دار القلم دمشق.

- منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم، راجعه: الشيخ عبد القادر الأرنؤوط، عني بتصحيحه ونشره: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق، مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية السعودية، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- الموسوعة الحرة الإلكترونية ويكيبيديا.
- النهاية في غريب الأثر، الإمام مجد الدين بن الأثير، تحقيق: محمود الطناحي وطاهر الزاوي ط ٢، دار الفكر- بيروت ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

تنمية مهارة الاستنباط الفقهيّ
في المنهج التعليميّ النبويّ

د. أنور محمد الشلتوني
جامعة الشارقة-الإمارات العربية المتحدة

من أبرز فقرات البحث

«وعمل النبي ﷺ على تنمية مهارة الاستنباط الفقهي عند أصحابه - رضي الله عنهم - وبأشكال التحفيز الممكنة، سواءً بالغازا وتحكيما وثناءً ونحو ذلك، مما يعزز هذه المهارة لديهم ولدى الأمة كلها، حتى إنه ﷺ دعا لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - : «اللَّهُمَّ فَهِّهُ فِي الدِّينِ»، ونمى رسول الله ﷺ مهارة التفكير الاستنتاجي العقلية بما كان يلقيه عليهم من المسائل، يستحث فيه تفكيرهم على التحليل والاستنتاج، فقد أخرج الشيخان من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - (أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجْرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مِثْلُ الْمُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنَا بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي فَقَالَ: لِأَنَّ تَكُونَ قُلَّتْهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا)، وفي هذا يتجلى حرص النبي ﷺ على حث أصحابه على استثمار ملكات عقولهم، وإعطائهم الفرصة الكافية للتفكير، وذلك لإيقاظ ما لديهم من طاقات وقدرات، لحل كل ما يعترض طريقهم من مشكلات ومواقف».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإن النبي ﷺ هو صاحب الكمالات البشرية والمواهب الربانية؛ قد اصطفاه الله وعلمه من لدنه -تعالى- علما، ووهبه من عطائه فهما، فحاز تلك الكمالات والهبات وصار فيها معلما، وتلاميذه المباشرين هم أصحابه -رضي الله عنهم-، اختارهم الله تعالى لحمل الرسالة، رسالة الدين، عقيدة وفقها وسلوكا.

وقد عمل النبي ﷺ على تعليم الصحابة -رضي الله عنهم- علوما كثيرة، ليثبتوها وينقلوها لمن يحمل الشريعة بعدهم، ومن تلك العلوم (علم الفقه)، وهو العلم بالأحكام الشرعية العملية، المكتسب من أدلتها التفصيلية^(١).

وحتى يكتسب الصحابة -رضي الله عنهم- هذا العلم فقد تعددت الطرق وتنوعت الأساليب، فمنها ما كان النبي ﷺ يبينه ويفصله، ومنها ما كان يتركه (للاجتهاد الفقهي)، وهو بذل الجهد في استخراج الأحكام من شواهد الدالة عليها بالنظر المؤدي إليها^(٢)، وهذا الاستخراج هو الاستنباط.

ومن أجل تأصيل ذلك الاجتهاد وتعميقه -إذ هو أحد المصادر الرئيسة للأحكام الشرعية- فإن النبي ﷺ قام بتعليم الصحابة -رضي الله عنهم- كيفية الاستنباط الفقهي، وحرص على تنمية تلك المهارة الأساسية لديهم؛ لإحياء الفقه في الواقع المعيش، وبثه بين العلماء وطلبة العلم وعمامة الأمة على مدى الأزمنة

١- الإبهاج شرح المنهاج، السبكي، عبد الوهاب بن علي ١ / ٢٨.

٢- كشف الأسرار، البزدوي ٤ / ٢٠.

المتعاقبة.

والنبي ﷺ قاد الأمة بالإيمان في الاعتقاد، والعلم في التطبيق، والبصيرة في الدعوة، ولا يزال الناس يقتبسون من هديه ﷺ في التربية والتنمية المعرفية والمهارية، حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، ويأتي هذا البحث ليثبت إشرافات من هدي المنهج التعليمي النبوي، في تنمية مهارة الاستنباط الفقهي عند الأمة من لدن الصحابة - رضي الله عنهم - إلى أن يشاء الله رب العالمين.

تكمن أهمية هذا البحث في إضافته نواة جديدة في فهم المنهج التعليمي النبوي، فهذا البحث ينهل من السنة النبوية، وما عرضته لنا من نماذج حية قامت لتنمية المهارات التفكيرية عند الصحابة - رضي الله عنهم -، في شأن مهم من شؤون الأمة ألا وهو الأحكام العملية في الشرع، فهو يأخذ من السنة النبوية مشاهد مضيئة، ويعرضها نماذج للمعلمين والمربين في كيفية تنمية هذه المهارات، والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: آية ٢١)، ثم يعرض لبعض ثمار التأثير التطبيقي في حياة الصحابة - رضي الله عنهم - بعد ذلك، وبحسب اطلاع الباحث، فالبحث في هذه الجزئية جديد، والله أعلم.

ويسعى الباحث لتحقيق الأهداف الآتية:

أولاً: تقديم الأنموذج التعليمي النبوي للعلماء والقادة الفكريين، ليتأسوا بمنهجه ﷺ في تنمية مهارة الاستنباط في طلبتهم، وليحققوا لهم شيئاً مما حُقِّقَ للصحابة الكرام من الاجتهاد لمواجهة المشكلات.

ثانياً: جمع الشواهد التعليمية النبوية المتعلقة بتنمية مهارة الاستنباط الفقهي، المبتوثة في كتب السنة النبوية المطهرة، والعمل على تحليلها، وربطها بما

قرّره التربويّون في علم المهارات واكتسابها وتعليمها.

ثالثاً: عرض بعض الشواهد الحيّة التي تبين تشرّب الصحابة - رضي الله عنهم - هذه المهارة والعمل بموجبها بعد وفاته ﷺ، وما آل إليهم من إقامة الدين وإعمار الأرض بتعاليمه القويمة.

تكمن المشكلة البحثية في هذه الدراسة في الأسئلة الآتية:

أولاً: ما مهارة الاستنباط الفقهيّ؟ وما أهميتها؟ وما أهمية تنميتها؟ وما أثر ذلك على الاجتهاد الفقهيّ؟

ثانياً: ما الشواهد المبيّنة لتنمية النبيّ ﷺ لهذه المهارة لدى أصحابه - رضي الله عنهم - ولدى أمته؟

ثالثاً: ما الثمار العمليّة التي أثمرتها تنمية هذه المهارة في الملكة الفقهيّة عند الصحابة - رضي الله عنهم -؟

ومن الدراسات السابقة المقاربة لهذه الدراسة في الموضوع، ما كتبه فهد الوهبي بعنوان (بناء ملكة الاستنباط الفقهيّ من القرآن الكريم)، وهي مقالة في ثلاث عشرة صفحة، عرضت لبعض الآيات وكيفية الاستنباط منها، ومنها رسالة قدمت لنيل شهادة الدكتوراة بكلية الآداب بجامعة فاس وعنوانها: (بداية المجتهد وكفاية المقتصد لابن رشد ودوره في تربية ملكة الاجتهاد) لمحمد بولوز، وهو عبارة عن تتبع هذا المرجع الفقهيّ المهمّ، وربطه بتنمية ملكة الاجتهاد في مسائل معيّنة، ومن ذلك كتاب لعبد الفتاح أبو غدة وعنوانه (الرسول المعلم) ﷺ، الذي تم فيه يتتبع أساليب النبيّ ﷺ في تعليم أمته بشكل عام.

ولذلك فإن الإضافة العلميّة لهذا البحث على النحو الآتي:

أولاً: تخصيص مهارة الاستنباط الفقهيّ بالذكر، بصفتها مهارة عقلية أوردتها التربويّون في دراساتهم.

ثانياً: ربط هذه المهارة بشواهد من السنة النبويّة، بما يتطلّب هذا الربط من جمع ودراسة.

ثالثاً: التركيز على الجانب العمليّ في تنمية المهارة في الصحابة الكرام، وكيف تأثروا بذلك وصار لهم منهجاً.

والله تعالى أسأل أن يوفّقني في بحثي هذا لتقديم خدمة لسنة النبيّ ﷺ، وخدمة للمنهج التعليميّ المعاصر الذي يستهدي بالسنة النبويّة، ويتلمس إشرافاتها في بناء الجيل، وهو - سبحانه - نعم النصير والوكيل.

المبحث الأول :

تعريف المهارة والاستنباط الفقهيّ وأهمية هذه المهارة في حياة الأمة بالشريعة

تمهيد: في هذا المبحث تعريف لمصطلحات البحث الرئيسة، وتوطئة للدخول إلى البحث، معرّفاً فيه أهمية محتواه، وأثر ذلك في حياة الأمة التي تحياها بالشرع القويم^(١)، شرع رب العالمين - سبحانه -.

المطلب الأول: تعريف مصطلحات البحث الرئيسة.

- المهارة لغة: مصدر أصله (مَهَرَ) يَمْهَرُ: بمعنى يُحسِنُ وَيَحْدِقُ، مهارة ومِهارة: وهي إحسان فعل الشيء والحذاقة فيه، يقال: لم تأت إلى هذا البناء (المِهْرَة)

١- وقد جرت عادة المصنّفين في العلوم أن يذكروا تعريف الشيء ويبيّنوا فضله، قبل أن يشرعوا في بيان مسأله.

أي: لم تأت من قِبَل وجهه ولم تَبْنِه على ما كان ينبغي^(١)، ويقال للذي تكلف في الشيء (تمهّر) أي: قصد الحذق في الصناعة^(٢)، ومنه ما روته عائشة - رضي الله عنها- من قول النبي ﷺ: «المَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ»^(٣).

- المهارة اصطلاحاً: «أداء بدنيّ أو ذهنيّ يؤدي على مستوى عالٍ من الإتقان، وبأقل جهد وفي أقل وقت ممكن، ويتوصل إليه عن طريق الفهم والممارسة والدقة»^(٤)، وهناك كلمة يقارب معناها معنى (المهارة) وهي (الملّكة)، الدالة على القوة والحذق بالشيء، وهي موهبة من الله -تعالى- ودُرْبَة على الشيء واكتساب له، وتُورثُ صاحبها سرعة الفهم، وإعطاء الحكم المناسب للحال والتمييز بين المتشابهات^(٥).

- الاستنباط لغة: مصدر طلبيّ -بالسين والتاء- من الفعل (نَبَطَ) أي: استخراج الماء، ويطلق على الماء إذا أُخرج من قعر البئر عند حفرها (نَبَطَ)، وكل ما أظهر فقد أنبَطَ، ثم أُطلق على العلم إذا استخرج بالفهم والاجتهاد^(٦)، والاستنباط: الاستخراج بعد محاولة، ولذا أُطلق على استنباط الماء من غور الأرض^(٧).

- الفقه لغة: مطلق الفهم، وقد دعا شعيب عليه السلام قومه فقالوا له - كما قصه الله تعالى علينا-: ﴿قَالُوا يَنْشَعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ (سورة هود: من آية ٩١)،

- ١- لسان العرب، ابن منظور، مادة (م ه ر) ٥ / ١٨٤.
- ٢- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى أنيس وآخرون ٢ / ٧٠٠.
- ٣- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه، ١ / ٥٤٩، ح ٧٩٨.
- ٤- مهارات التربية الإسلامية، عبد الرحمن بن عبد الله المالكي ٢٠.
- ٥- تكوين الملّكة الفقهية، محمد عثمان شبير ٤٩.
- ٦- لسان العرب، ابن منظور، مادة ن ب ط ٧ / ٤١٠.
- ٧- معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعة جي ٤٧.

أي: لا نفهمه، وتطلق العرب الفقه على العلم، كما تطلقه على الفهم، يقول الفيروزآبادي: «الفقه: العلم بالشيء والفهم له»^(٨).

- والفقه اصطلاحاً: «العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية»^(٩)، فهو علم ذو موضوع خاص متعلق بالأحكام التي طريق تلقيها الشرع الإسلامي، المختصة بالجانب العملي للمكلفين، المستنبطة من أدلتها التفصيلية التي احتواها القرآن والسنة، وهما المصدران الإجماليان للتشريع الإسلامي^(١٠).

- الاستنباط الفقهي اصطلاحاً: عرفه الجرجاني - رحمه الله - بأنه استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن وقوة القريحة^(١١)، ويستخلص من تعريفات الأصوليين له بأنه: استخراجه الحكم أو العلة إذا لم يكونا منصوبين ولا مجمعا عليهما بنوع من الاجتهاد، فيستخرج الحكم بالقياس، أو الاستدلال أو الاستحسان ونحوها^(١٢). والاستنباط بحسب ما سبق عملية تفكير عقلية، فهو استدلال منطقي يستهدف التوصل إلى استنتاج ما، أو معرفة جديدة بالاعتماد على أحكام سابقة؛ ولذا فإن المهارة المرتبطة بالاستنباط مهارة ذهنية وليست بدنية.

- ويكون معنى مهارة الاستنباط الفقهي: العمل الذهني الدقيق لاستخراج الأحكام الشرعية العملية الاجتهادية، وفق تميز في ذلك الاستخراج لتحقيق أفضل نتائجه.

- وتنمية هذه المهارة أي: دوام صناعتها والترقي بها لدى أهلها، للوصول

٨- بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب ٤ / ٨.

٩- الإبهاج شرح المنهاج، السبكي، عبد الوهاب بن علي ١ / ٢٨.

١٠- المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي، الأشقر، عمر سليمان ٣٧.

١١- التعريفات، الجرجاني ١ / ٣٨.

١٢- موسوعة الفقه الكويتية، مجموعة من العلماء المعاصرين ٤ / ١١١.

-على أحسن الوجوه - إلى ثمرة ذلك الاستنباط، وهو نيل الأحكام الشرعية التي يحتاجها المكلفون، للقيام بما كلفهم الله تعالى القيام به.

محلّ مهارة الاستنباط في العلوم النفسية السلوكية: يقرر علماء النفس والسلوك والتربية أن مهارة الاستنباط هي إحدى (مهارات التفكير)، ويطلقون عليها (مهارة الاستخراج) أو (مهارة الاستنتاج)، وهي قسيمة لمهارات تفكيرية ذهنية أخرى كالملاحظة والوصف والتذكر، والتصنيف وحل المشكلات وغيرها، ويعرّفونها بأنها: «القدرة العقلية التي يتم فيها استخدام ما يملكه الفرد من معارف ومعلومات من أجل الوصول الى نتيجة ما»^(١)، وبهذا تتقاطع مع ملكة الاستنباط عند الأصوليين؛ إذ إن ملكة الاستنباط إنما هي قائمة على أدلة ومعان وعاما المجتهد وبني عليها استخراجها للأحكام المنشودة.

المطلب الثاني: أهمية أركان البحث.

أ- مكانة الاستنباط في الشرع الرباني القويم:

أولاً: رفع الله تعالى شأن الاستنباط في كتابه الحكيم فقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (سورة النساء: آية ٨٣)، وقد سمى - سبحانه - في هذه الآية من يستخرج الحكم أولاً (مستنبطاً)، فظهر أن من يدرك الحكم بعده لا يسمى كذلك، وفي هذا رفع لمكانة الذي يهتم للأمر، فيبحث ويجتهد للتوصل إلى الأحكام الشرعية غير المنصوص أو المجمع عليها، وأن له في الدين سبقاً كالذي استخراج الماء أولاً.

وفي هذا المعنى يروي عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - فيقول: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: «لَمَّا أُنزِلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ، قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا النَّاسُ يَنْكُتُونَ بِالْحَصِيِّ، وَيَقُولُونَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

- ١ - تدريس مهارات التفكير، جودت أحمد سعادة ١٣١.

وسلم نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب، فقال عمر: فقلت لأعلمن ذلك اليوم..... الحديث والذي يبين أن عمر استبان ذلك من رسول الله ﷺ ثم قال عمر: «فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ونزلت هذه الآية»^(١).

ثانيا: جعل الله تعالى (المستنبتين) خلاصة الخلاصة، فأوجب رد الأمر إلى رسول الله ﷺ ثم إلى أولي الأمر، ومنهم طائفة مختصة بالاستنباط، تعلم ما لا يعلمونه، ولا شك أن هذا رفع لمكانتهم وإعلاء لقدرهم لما حملوه من مهمة (الاستنباط) الذي يرشد الأمة للهدى، ويدفع عنهم الزلل، يقول الجصاص - رحمه الله -: «قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ (سورة النحل: آية ٤٤)، فحسنا على التفكير فيه، وحرصنا على الاستنباط والتدبر، وأمرنا بالاعتبار لتسابق إلى إدراك أحكامه، وننال درجة المستنبتين والعلماء الناظرين»^(٢).

ثالثا: الاستنباط أس الاجتهاد الشرعي: والاجتهاد هو بذل الجهد في استخراج الأحكام من شواهدها الدالة عليها بالنظر المؤدي إليها^(٣)، وهذا الاستخراج هو الاستنباط، ولعل سر تسمية الأصوليين لهذا الاستخراج استنباطا، أنه مفتقر إلى جهد بالغ في التوصل لثمرته^(٤)، فهو مشابه لاستخراج الماء من قعر البئر، ولا يكون هذا إلا بجهد بالغ، والاستنباط ثمرة (الاجتهاد) وأسّه؛

١- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، ١١٠٥/٢، ح ١٤٧٩.

٢- أحكام القرآن، الجصاص ٣٤/٤.

٣- كشف الأسرار، البزدوي ٢٠/٤.

٤- التقرير والتحجير، ابن أمير الحاج ١٨/١.

فعملية الاجتهاد إنما تقوم لاستخراج الحكم الشرعي، بل إن بعض المصنفين جعل الاستنباط والاجتهاد اصطلاحين مترادفين يطلقان على المعنى نفسه^(١).

ولا يخفى أن الاجتهاد - مقوم من مقومات حفظ الشريعة، شاء الله تعالى أن تبقى به مستوعبة الزمان والمكان في تدبير شأن الإنسان، ومعالجة نوازل حياته، وهو (استثمار) للنصوص^(٢) المحدود عدّها، اللامحدود مداها ووسعها.

يقول الشافعي - رحمه الله -: «والعلم من وجهين اتباع أو استنباط، والاتباع اتباع كتاب، فإن لم يكن فسنّة، فإن لم تكن فقول عامّة من سلفنا، فإن لم يكن فقياس، ولا يجوز القول إلا بالقياس...»^(٣).

ب- أهميّة المهارة بالنسبة للمجتهد المستنبط:

لا بدّ لمن يقوم بالاجتهاد الاستنباطي في الفقه أن يتحصّل لديه ملكة ومهارة في ذلك الفنّ، ولا يتأتّى له الاستنباط بحفظ نصوص الكتب ومتونها وحواشيها فحسب، وإنما مخالطة ذلك العلم لوعيه وحسّه، تأسيساً على ما تحصّل له من فهم الأصول والفروع، والقواعد العامّة من الشرع بمصادره الأساسيّة والتبعية، يقول ابن خلدون - رحمه الله -: «تعليم العلم من جملة الصنائع؛ وذلك أن الحدق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه، إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصّل هذه الملكة لم يكن الحدق في ذلك الفنّ المتناول حاصلاً، وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي؛ لأننا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيتها، مشتركاً بين من شدا في ذلك الفن، وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامّي الذي لم يحصّل

١- الاجتهاد بين التأصيل والتجديد، حسن عبد الرحمن بكير ص ٢٠.

٢- ولعل أول من أطلق على الاجتهاد الاستثمار الغزالي - رحمه الله - في المستصفى، ينظر: المستصفى ٢٠٤/١.

٣- الأم، الشافعي، محمد بن إدريس ١/ ١٧٩.

علماء، وبين العالم النحرير، والمملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواهما»^(١).

ج- أهمية تنمية هذه المهارة ورعايتها:

يقرر التربويون أن المهارات لا بد لها من تنمية ورعاية حتى تتجلى وتثمر، وبهذا يستطيع الفرد المتعلم للمهارة أن يواجه متطلبات الحياة والمستقبل، ويعمل على زيادة ثقة الفرد بنفسه وتزداد حيويته ويتفعل نشاطه^(٢)، يقول ابن خلدون - رحمه الله -: «والملكات كلها جسمانية، سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب، والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر إلى التعليم، ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة يفتقر إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند كل أهل أفق وجيل»^(٣).

ويشير الشاطبي - رحمه الله - إلى أهمية أن يقوم المعلم بتعليم ملكة الاجتهاد للتلميذ، وكيف يؤدي هذا إلى تميزه وارتقائه فيقول: «طالب العلم إذا استمر في طلبه مرت عليه ثلاثة أحوال، أحدها: أن يتنبه عقله إلى النظر فيما حفظ والبحث عن أسبابه، وإنما ينشأ هذا عن شعور بمعنى ما حصل لكنه مجمل، وربما ظهر له في بعض أطراف المسائل جزئياً لا كلياً، وربما لم يظهر بعد، ومعلمه عند ذلك يعينه بما يليق به في تلك الرتبة، ويرفع عنه أوهاماً وإشكالات تعرض له في طريقه، يهديه إلى مواقع إزالتها في الجريان على مجراه، مثبتاً قدمه ورافعاً وحشته ومؤدباً له، حتى يتسنى له النظر والبحث على الصراط المستقيم...»^(٤).

١- المقدمة، ابن خلدون ١ / ٢٤٦.

٢- تنمية مهارات التفكير، عدنان العتوم وآخرون ٤٥.

٣- المقدمة، ابن خلدون ١ / ٢٤٦.

٤- الموافقات، الشاطبي ٤ / ٢٢٥.

المبحث الثاني :

الشواهد العملية لتنمية مهارة الاستنباط الفقهيّ في واقع المنهج التعليميّ النبويّ
تمهيد: في هذا المبحث مقدمة مبيّنة لوصف (المعلم) في شخصية النبيّ ﷺ،
وبعض شواهد ذلك التعليم ومقاصده، ومسالك لمنهج النبيّ ﷺ في تنمية مهارة
الاستنباط الفقهيّ لدى الصحابة الكرام والأمة، مستعرضاً كل مسلك وما يدل
عليه من شواهد ومواقف نبويّة عمليّة.

المطلب الاول: النبيّ ﷺ مُعلِّمًا.

أرسل الله تعالى محمداً ﷺ نبياً ورسولاً، وجعل (التعليم) من مهامه العظيمة،
وقال الله - عز وجل - في ذلك: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة الجمعة: آية ٢) (١)،
وحرص النبيّ ﷺ على أن يعلم الصحابة الكرام والأمة من بعدهم علوم الدين
من قرآن وسنة واجتهاد في ضوئهما بشتى وسائل التعليم، من فعل يشهدونه
ويعيشونه، وقول يسمعونه ويعونه، وسؤال يسألونه فيعلمون جوابه، أو يسألونه
فيُفهمونه.

ويُثبت النبيّ ﷺ لنفسه مهمة التعليم، إذ يروي جابر رضي الله عنه في حديث تخيير
النبيّ ﷺ لزوجاته فيقول: «فبدأ بعائشة رضي الله عنها - فقال: «يَا عَائِشَةُ إِنِّي
أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ أَمْرًا أَحَبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبِيكَ». قَالَتْ:
وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَتَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ قَالَتْ: أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْتَشِيرُ أَبِي بَلْ
أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي
قُلْتَ، قَالَ: «لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْشِنِي مُعْتَنًا وَلَا مُتَعْتَنًا

١- ومن لطائف هذه الآية العظيمة أنها ذكرت مئة الله تعالى على عباده أن بعث فيهم نبياً أمياً منهم، ثم بين
أنه يعلمهم الكتاب والحكمة، ولعل هذا ظاهر في بيان أن علمه ﷺ وتعليمه للناس إنما هو هبة من الله تعالى
ووحي خالص.

وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيسِّرًا»^(١).

ملاح منهج النبي ﷺ في تعليم مهارة الاستنباط للصحابة الكرام^(٢):
كان النبي ﷺ يحرص على تعليم الصحابة الكرام، ويحرص في تعليمهم على أمور منها:

- الرفق بهم: فكان أحسنَ الناسَ تعليماً، ييسر عليهم الأمور ويأخذ بيدهم، ويغضب على من يعسر عليهم، أو يخاطبهم بما لا يفهمون، أو يكلفهم ما لا يطيقون^(٣).
- يركّز على المعلومة: فيكرّرها يؤكدها لجلسائه، ويحدد الكلمات يوجزها حتى لو شاء العادّ أن يعدّها لعدّها.
- يعلمهم بكل الأساليب: فيسألهم ويستحثهم على التفكير، ويحكمهم كما حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في بني قريظة، يستشيرهم ليعتبر رأيهم، ويأتي جبريل عليه السلام يعلمهم في هيئة رجل، فيحاوره النبي ﷺ مستغرقاً، وهو عليه السلام يعلم أنه جبريل عليه السلام، لكنه يريد تعليمهم الحوار، وكيف يسأل السائل ويُجيب المُجيب^(٤).

مقاصد تنمية النبي ﷺ مهارة الاستنباط عند أصحابه وأمتة:

حرص النبي ﷺ على تنمية مهارة الاستنباط عند أصحابه وأمتة، وذلك لحكم ومقاصد بالغة، لعلّ منها:

- ١- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، ١١٠٤/٢، ح ١٤٧٨.
- ٢- وهذا مبحث يطول عرض نصوصه وشواهد من السنة النبوية، فعرضت بنوده مكتفياً بشهرة النصوص التي تضافرت لإثباتها.
- ٣- سياسة الرسول ﷺ التعليمية وأثرها في تطور العلوم، محمد الشريف بحث على موقعه الإلكتروني، يوم الدخول ووقته ١٥ / ١٠ / ٢٠١٣، ٢٠، ٣٠ م.
- ٤- وينظر: الرسول المعلم ﷺ، عبد الفتاح أبو غدة ٢١ وما بعدها.

أولاً: حاجة المسلمين بعد عصر النبوة إلى بيان الأحكام التي تخص الحوادث المستجدة؛ إذ لا بد لمعرفة أحكامها من الرجوع إلى الوحي، ولا يكون ذلك إلا بتعلمهم الفقه، وكيفية تحصيله والاجتهاد فيه^(١)، يقول ابن بطال - رحمه الله -: «النبي ﷺ قد علم أمته كيفية القياس والاستنباط، في مسائل لها أصول ومعان في كتاب الله وصحيح سنته؛ ليريهم كيف يصنعون فيما عدموا فيه النصوص؛ إذ قد علم أن الله تعالى لا بد أن يكمل له الدين»^(٢).

وأما حكمة مشروعية الاجتهاد بالنسبة للصحابة الكرام في عصره فذلك لتدريبهم وتعليمهم كيفية الاجتهاد، وحتى يكونوا مستعدين لحمل الأمانة الكبرى وهي الحكم بما أنزل الله، وإدخال الحوادث الجديدة تحت أحكام الشريعة، حتى يُعلم حكم الشرع في كل ما ينزل بالمسلمين، وتدريب من بعدهم على ذلك^(٣).

ثانياً: يريد الله تعالى هذا الدين بعد وفاة رسول الله ﷺ، دين عمل وجهاد وتربية، وهذا الجهد إنما يكون من طائفة من المسلمين، نذرت نفسها لتعلم الدين، وتعليمه كما قال - سبحانه -: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (سورة التوبة: آية ١٢٢)، والنبي ﷺ أراد صناعة هذه الطائفة التي يرفعها الله، ويرفع الأمة بها درجات^(٤).

ثالثاً: عمل النبي ﷺ على تطبيق آي القرآن الكريم التي دعت إلى التفكير وإعمال العقل، وذلك بحث أمته على الاجتهاد وتربيتها عليه، والله تعالى يقول:

١- هناك مثل صيني قديم، وينسب إلى (كونفوشيوس): "لا تعطني سمكة ولكن علمني كيف أصطاد"، وهذا المثل ينطبق على ما نحن بصدد؛ إذ معناه: لا تعطني الشيء جاهزاً، ولكن علمني كيف أحصل عليه إذا ما احتجت إليه في كل مرة، والنبي ﷺ قام بهذا المعنى عن علم بحاجة الأمة أن تستنبط، لا أن تأخذ الأحكام جاهزة، فإذا أوجها الحال للحكم عجزت عن ذلك.

٢- شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٣٥٦/١٠.

٣- الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه في هذا العصر، سيد محمد توانا الأفغانستاني ٣٠٩-٣١٠.

٤- ضرورة الاجتهاد للمحافظة على مواصفات المجتمع الإسلامي، عابد السفيناني مقالة مثبتة على شبكة الإنترنت، يوم الدخول ووقته ١٦ / ١٠ / ٢٠١٣، ٣٥، ٣٠٣ م.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة يوسف: آية ٢)، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة البقرة: آية ٢١٩)، والاجتهاد إنما هو نوع من التفكير في الآيات، وإعمال العقل في الوقائع والوصول لأحكامها^(١).

رابعاً: سنّ النبي ﷺ للمعلمين طريقة التدريب الاجتهاديّ العمليّة، ليتأسى بها من أراد أن يسلك طريق التنمية مع تلاميذه في كل عصر، والله - سبحانه - هو الذي علّم النبي ﷺ. والمتخصصون اليوم يطرحون هذا المعنى في سياق أهمية (التفويض) في صنع القادة، والنبي ﷺ صنع قادة بتفويضه إياهم بالاستنباط حتى أثناء حياته ﷺ بينهم، ليصنع منهم قادة في الفقه والتربية وإدارة الحياة بعد وفاته ﷺ^(٢).

المطلب الثاني: مسالك المنهاج النبويّ في تنمية مهارة الاستنباط الفقهيّ لدى الصحابة الكرام والأمة.

ثبت لدى علماء الأصول أن السنّة النبويّة: هي ما صدر عن النبي ﷺ من غير القرآن من قول أو فعل أو تقرير^(٣)، وسأنتقل في تقسيم مسالك المنهج النبويّ في تنمية مهارة الاستنباط الفقهيّ من أقسام السنّة النبويّة.

المسلك الأول: تنمية مهارة الاستنباط بالقدوة، وفيه صورتان:

الصورة الأولى: استنباط النبي ﷺ بنفسه أمام الصحابة - رضي الله عنهم - وهو ما يعبر عنه الأصوليون باجتهاد النبي ﷺ، وقد ذهب جمع منهم إلى القول بتحقيق الاجتهاد في أفعال الرسول ﷺ، وأن الله تعالى تعبّده بذلك

١- الاجتهاد في الإسلام، نادية العمري ٢٥٩، والإحالة هنا لفكرة ارتباط الاجتهاد بالتفكير وإعمال العقل فحسب.

٢- أهمية التفويض، محمد بدره مقالة مثبتة على شبكة الإنترنت يوم الدخول ووقته: ٢٢ / ١٠ / ٢٠١٣، ٤٠، ٤٠ م.

٣- إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ١ / ٩٥.

فيما لا نصّ فيه، وخالفهم فريق في ذلك، ومنهم من أجاز ذلك في سياسة الدنيا والحروب ونحوها^(١)، وما أورده الأصوليون من وقائع لاجتهاد النبي ﷺ يدلّ بالفعل على المنهج التعليمي النبوي بالقدوة والأسوة في تطبيق الاستنباط الفقهي وأهميته وأليته، ولهذه الصورة شواهد متعددة، ومنها:

- **الشاهد الأول: الاجتهاد في أسرى بدر ومفاداتهم:** ممّا عدّه بعض الأصوليين من اجتهاد النبي ﷺ ما وقع في أسرى بدر ومفاداتهم، ونزول القرآن الكريم مبينا وجوب الإثخان في الأرض ابتداء^(٢)، قال الآمدي - رحمه الله -: فقال النبي ﷺ: «لو نزل من السماء إلى الأرض عذاب ما نجا منه إلا عمر»؛ لأنه كان قد أشار بقتلهم، وذلك يدل على أن ذلك كان بالاجتهاد لا بالوحي^(٣).

- **الشاهد الثاني: الإذن للمعتذرين بالتخلف عن غزوة تبوك:** كذلك أذن للمعتذرين بالتخلف عن غزوة تبوك، وفي ذلك نزل قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَقٌّ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمُوا الْكُذِبِ﴾ (سورة التوبة: آية ٤٣). يقول الآمدي - رحمه الله -: «عاتبه ربه على ذلك ونسبه إلى الخطأ، وذلك لا يكون فيما حكم فيه بالوحي، فلم يبق سوى الاجتهاد، وليس ذلك خاصا بالنبي ﷺ بل كان غيره أيضا من الأنبياء متعبدا بذلك، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَاهُمْ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (سورة الأنبياء: آية ٧٨-٧٩)، وما يذكر بالتفهم إنما يكون

١- والمسألة أنضجت بحثا في كتب الأصول، ومن فصل فيها القول، الآمدي في الإحكام في أصول الأحكام ٤ / ١٧٢.

٢- صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، ٣ / ١٣٨٣، ح ١٧٦٣.

٣- الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي ٤ / ١٧٣.

بالاجتهاد لا بطريق الوحي»^(١).

- **الشاهد الثالث: الانتفاع بالقدور المكسرة يوم خيبر:** ومن ذلك ما أخرجه البخاري - رحمه الله - عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا أَمَسُوا يَوْمَ فَتَحُوا خَيْبَرَ أَوْقَدُوا النَّيرَانَ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم (عَلَامٌ أَوْقَدْتُمْ هَذِهِ النَّيرَانَ؟) قَالُوا: لِحُومِ الْحُمْرِ الْإِنْسِيَّةِ، قَالَ: (أَهْرَيْقُوا مَا فِيهَا وَاكْسِرُوا قُدُورَهَا)، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقَالَ: نَهْرَيْقُ مَا فِيهَا وَنَغْسِلُهَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (أَوْ ذَاكَ)^(٢)، فَهُوَ يَأْخُذُهُمْ أَوْ لَا بِالْأَشَدِّ حَسْمًا لِلْمَادَةِ، وَمَنْعًا لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوهَا، فَلَمَّا سَلِمُوا بِالْحُكْمِ وَأَشْعَرُوهُ أَنْ تَكْسِيرِ الْقُدُورِ قَدْ يَفُوتُ عَلَيْهِمْ مَصْلِحَةٌ وَيَزِيدُهُمْ حَرْجًا، رَخَّصَ لَهُمْ فِي غَسْلِهَا لِيَنْتَفِعُوا بِهَا فِي غَيْرِ هَذَا^(٣). ولعل وقوع الاجتهاد من الرسول صلى الله عليه وسلم تعليم للأمة من بعده^(٤)، وكان يمكن أن يهتدي النبي صلى الله عليه وسلم لكنوز الأحكام من الوحي، لكن وكأن الله تعالى أراد من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلم أمته طرق الاستنباط، ويمرنهم على كيفية أخذ الأحكام من أدلتها الكلية، ليستطيع أهل الفقه والمعرفة من بعده بقوة مداركهم أن ينزلوا ما يجد من الحوادث على عموماً النصوص، وذلك مصداق قول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة النحل: من آية ٨٩)^(٥).

الصورة الثانية: فعلة صلى الله عليه وسلم المبين لكيفية الاستنباط (تعليم طرق الوصول للمهارة): وهو الفعل المبين لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم في الاستنباط الفقهي وكيفيته، ليحصل للصحابة - رضي الله عنهم - وعلماء أمته التأسسي بتلك الكيفية النبوية، التي تمثل الأنموذج الاستنباطي الأصيل والسديد.

- ١- الإحكام في أصول الأحكام، الأمدي ٤ / ١٧٣.
- ٢- صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب آية الجوس والميتة، ٧ / ٩٠، ح ٥٤٩٧.
- ٣- نشأة الفقه الاجتهادي وأطواره، محمد علي السائيس ١٦.
- ٤- الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه في هذا العصر، الأفغانستاني ٣٠٩-٣١٠.
- ٥- نشأة الفقه الاجتهادي وأطواره، السائيس ٢٤.

- **الشاهد الأول:** الرجوع إلى القرآن -أولاً- في حمل المطلق على المقيد: وجه النبي ﷺ أنظار العلماء إلى أنه ينبغي الاعتماد على القرآن نفسه في فهم آياته، وذلك من خلال فعله ﷺ، ومن ذلك: ما أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (سورة الأنعام: آية ٨٢)، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبِسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ إِلَّا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لَقْمَانَ لابنه: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة لقمان: آية ١٣)^(٦)، وأَعْلَمَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ وَأُمَّتَهُ أَنَّ الظلم المطلق هناك المراد به هذا المقيد وهو (الشرك)، فقال لهم النبي ﷺ بعد ذلك: ليس الظلم على إطلاقه وعمومه كما ظننتم، إنما هو الشرك، كما قال لقمان لابنه، فالصحابه -رضى الله عنهم- حملوا الظلم على عمومه، والمتبادر إلى الأفهام منه وهو وضع الشيء في غير موضعه^(٧)، وهذا التقييد فرع أصولي مُرشد لمسلك استنباطي فقهي يتعلم فيه المستنبط تقييد المطلق والتقليل من شيعه، وفي هذا المثال تعليم كيفية رد المتشابه للمحكم، وتوضيحه وفق القواعد التي أتت بها النصوص الشرعية^(٨).

- **الشاهد الثاني:** التعلق بعموم النص، والأخذ بالظاهر المفهوم في الاستنباط: أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ لثَلَاثَةٍ؛ لِرَجُلٍ أَجْرٌ وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ»

٦- البخاري، الصحيح، كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب مَا جَاءَ فِي التَّائِلِينَ، ٤/١٤١، ح ٣٣٦٠ (اللفظ له)، مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، ١/١١٤، ح ١٢٤.

٧- شرح صحيح مسلم، النووي ٢/١٤٣.

٨- مقال، البيان النبوي لكيفية الاستنباط من آيات الكتاب، مقال مثبت على شبكة الإنترنت، يوم الدخول ووقته: ٢٥/١٠/٢٠١٣، ٤٠، ٤٤م.

فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَالَ فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيلِهَا ذَلِكَ الْمَرْجُ وَالرَّوْضَةُ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيلَهَا فَاسْتَنْتَ شَرْفًا أَوْ شَرْفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَزْوَائُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرَدْ أَنْ يَسْقِي بِهِ كَانَتْ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ، وَهِيَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ أَجْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَعْنِيًا وَتَعَفُّفًا وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً فَهِيَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَزُرٌّ. وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْحُمْرِ قَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهَا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ الْفَاذَةَ الْجَامِعَةَ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (سورة الزلزلة: آية ٧-٨) (١).

- فهذا تعليم منه ﷺ لأُمَّته الاستنباط والقياس، وكيف تفهم معاني التنزيل؛ لأنه ﷺ شبه ما لم يذكر الله في كتابه وهي (الحُمْر) بما ذكره من عمل مثقال ذرة من خير، إذ كان معناهما واحداً، وهذا نفس القياس؛ لأن قوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} يدخل فيه جميع أفعال البرِّ دقيقتها وجليلها، ألا ترى إلى فهم عائشة - رضي الله عنها - وغيرها من الصحابة هذا المعنى حتى تصدقوا بحبة عنب وقالوا: كم فيها من مثاقيل الدر (٢).

- كما أن هذا الاستدلال منه ﷺ دال على التعلق بالعموم والاستفادة منه فيما يخص الاستنباط كما أشار أهل العلم، وكما لا يخفى أن في ذلك إرشاداً إلى الأخذ بالظاهر المفهوم فيما يخص الاستنباط، وعدم العدول عنه إذا لم يوجد دليل صحيح صريح، فقد وجه النبي ﷺ إلى الاهتمام بالنص العام في

١- البخاري، الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الأحكام التي تعرف بالدلائل وكيف معنى الدلالة وتفسيرها، ٣/ ١١٣، ح ٢٣٧١ (اللفظ له)، مسلم، الصحيح، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، ٢/ ٦٨٠، ح ٩٨٧.

٢- شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/ ٦٤، قال ابن حجر العسقلاني: سمّاها جامعة لشمولها لجميع الأنواع من طاعة ومعصية، وسمّاها فاذا لانفرادها في معناها، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٦/ ٦٥.

القرآن الكريم وعده من مصادر الاستنباط من القرآن الكريم^(١).

المسلك الثاني: إقرار الصحابة الكرام على الاستنباط: (تطبيقات أولية منضبطة للمهارة من المتعلمين):

أقر النبي ﷺ على اجتهاداتهم الاستنباطية، تحفيزاً لهم ولغيرهم على العمل بذلك المنهج، وتصحيحاً لفعالهم، وتنمية لتلك المهارة الفكرية التي توصلهم إلى معرفة الأحكام الشرعية الفقهية والقضائية^(٢)، ومن الشواهد على تنمية مهارتهم الاستنباطية بإقرارهم على الاستنباط بأنفسهم:

- الشاهد الأول: ترتيب أدلة الاستنباط، وعده الاجتهاد مصدراً له: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن قال له: «كَيْفَ تَقْضِي؟» فَقَالَ: أَقْضِي بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟» قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟» قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي. قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٣)، قال ابن القيم - رحمه الله -: «وفي هذا الحديث أقر النبي ﷺ معاذاً على اجتهاده

- ١- مقال، البيان النبوي لكيفية الاستنباط من آيات الكتاب، مثبت على شبكة الإنترنت موقع ملتقى أهل التفسير، بتوقيع: أم عبد الله الجزائرية، يوم الدخول ووقته: ٨ / ١٠ / ٢٠١٣، ١٠، ١٠م.
- ٢- اختلف الأصوليون في جواز الاجتهاد في عصر النبي ﷺ فقبل الاجتهاد جائز في عصره ﷺ وقيل لا يجوز، وقيل جائز بإذنه ﷺ، وقيل جائز للبعيد عنه دون القريب لسهولة مراجعته، والأصح أن الاجتهاد جائز في عصره ﷺ وقد وقع للبعيد عنه، ولكن أذن له ﷺ بالاجتهاد، ولكن الاجتهاد لم يكن مصدراً للتشريع. شرح جمع الجوامع، جلال الدين المحلي ٢ / ٢٥٦.
- ٣- رواه الترمذي في السنن، كتاب الأحكام عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي، ٩ / ٣، ح ١٣٢٧، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل، ورواه أبو داود في السنن ٢ / ٣٢٧، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، ح ٣٥٩٢، وقال الألباني: ضعيف. أقول: لكن قال ابن القيم - رحمه الله -: هذا حديث وإن كان بعض الرواة غير مسمين فيه، فهم أصحاب معاذ وذلك يدل على شهرة الحديث، وأن الذي حدث به الحارث بن عمرو عن جماعة من أصحاب معاذ لا واحد منهم، وهذا أبلغ في الشهرة من أن يكون عن واحد منهم لو سمي، كيف وشعبة حامل لواء هذا الحديث؟ وقد قال بعض أئمة الحديث: إذا رأيت شعبة في إسناده حديث فاشدد يديك به، وهذه الأحاديث لا تثبت من جهة الإسناد، ولكن لما تلقتها الكافة عن الكافة غنونا بصحتها عندهم عن طلب الإسناد لها، فكذاك حديث معاذ، لما احتجوا به جميعاً غنوا عن طلب الإسناد له. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية ١ / ٢٠٢.

باعتماد رأيه فيما لم يجد فيه نصًا عن الله ورسوله»^(١).

وزاد الدريني أن الحديث لا يدلّ على حصر الاجتهاد فيما لا نص فيه، بل جُلّ ما فيه الدلالة على أن الاجتهاد بالرأي مصدر للتشريع حين يُعوز النص، وقد كان العصر عصر تنزيل، حيث لم يكتمل فيه الدين بعد، وإذا كان النبي ﷺ قد حثّ على الاجتهاد بالرأي حيث لا نصّ، فليس معنى ذلك ألا يكون الاجتهاد بالرأي في النصّ نفسه تفهما واستنباطًا وتطبيقًا، وصنيعُ عمر والصحابة - رضي الله عنهم - دالّ على ذلك^(٢). والحديث يدلّ على ترتيب مصادر الاستنباط كما فهمها معاذ بن جبل، وأقرّه على فهمه رسول الله ﷺ وذلك بتقديم الوحي أولاً على الرأْي، والوحي كتابٌ وسُنّةٌ، والسُنّة تابعةٌ للقرآن من حيث إنّها مُبيّنةٌ له، أمّا مرتبة النظر والاستنباط فحيث لا يكون الوحي، فهي جديرةٌ بالتأخّر بعده بهذا الاعتبار، وهذا الترتيب من جهة البدء في الاستدلال، أمّا من جهة كون الدليل حُجّةً فالوحي: كتابٌ وسُنّةٌ درجةٌ واحدةٌ^(٣).

- الشاهد الثاني: الاستنباط لا بد له من دليل، وقد يكون عموم النص القرآني: يلمح هذا في تقريره ﷺ للصحابي عمرو بن العاص رضي الله عنه لما صلى في إحدى السرايا بأصحابه وكان جنباً، فتيمّم ولم يغتسل، قال ﷺ: «اِحْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي عَزْوَةِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَتَيْمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا عَمْرُو صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنْبٌ، فَأَخْبَرْتَهُ بِالَّذِي مَنَعَنِي مِنَ الْاِغْتِسَالِ وَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (سورة النساء: آية ٢٩)، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١- إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية ١/ ٢٠٢.

٢- المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي، محمد فتحي الدريني ١٧.

٣- تيسير علم أصول الفقه، عبدالله بن يوسف الجديع ١١٠.

وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا»^(١)، وهذا تقرير منه ﷺ على الاستنباط الفقهيّ باستخراج الحكم الشرعي من النصوص والقواعد العامة في التشريع^(٢)، وَلَمْ يُنْكَرْ عَلَى عَمْرٍو ﷺ الاجْتِهَادَ فِي تَرْكِهِ الْمَاءَ وَالْعُدُولَ عَنْهُ إِلَى التُّرَابِ، وَلَمْ يُنْكَرْ عَلَى أَصْحَابِهِ أَيْضًا الاجْتِهَادَ فِي وُجُوبِ اسْتِعْمَالِهِ، إِذَا كَانَتْ الْحَالُ عِنْدَهُمْ وَفِي اجْتِهَادِهِمْ غَيْرَ مَخْفِيَةٍ^(٣)، ولم يقل النبي ﷺ لعمر و ﷺ شيئا بعد بيان الدليل الذي استند إليه في اجتهاده، ولو كان الفاعل غير مجتهد للامه ﷺ، ألا تراه قال في (صباح الشجة) لما أفتاه أصحابه بأن يغتسل فمات: «قَتَلُوهُ قَتْلَهُمُ اللَّهَ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»^(٤).

وإقرار النبي ﷺ لعمر و ﷺ على الاستنباط تحفيز آخر على ممارسة هذه المهارة التفكيرية المهمة، وتحقيق لمعاييرها، فإنه ﷺ لما سأل عن الدليل الذي استند إليه عمر و ﷺ ووافق، فإنه يؤصل لمعيار من معايير المهارة الاستنباطية، ويبين له ولأمته أن اكتساب المهارة لا بد له من خطوات صحيحة، وإلا أدى إلى نتائج غير صحيحة.

- الشاهد الثالث: الاستنباط البياني للمقصود من فحوى النص في صلاة العصر في بني قريظة: وقد اجتهد الصحابة في زمن النبي ﷺ في كثير من الأحكام ولم يعنفهم، فقد أخرج الشيخان من حديث ابن عمر - رضي

١- رواه أبو داود في سننه ١ / ١٤٥، كتاب الطهارة، باب إذا خاف الجنب البرد أيتيم؟ ح ٣٣٤، وأورده البخاري في توبيه فقال، باب إذا خاف الجنب على نفسه المُرْضُ أَوْ الْمَوْتَ أَوْ خِافَ الْعَطَشَ تَيْمَمَ وَيُذَكِّرُ أَنْ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِيِ أَجْنَبَ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فَتَيْمَمَ وَتَلَا ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، فذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعْنَفْ، صحيح البخاري، ١ / ٧٧، كتاب التيمم، باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تيمم، ح ٣٤٥.

٢- الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، يوسف القرضاوي ٧٧.

٣- الفصول في الأصول، أحمد بن علي الجصاص ٤ / ٣٩.

٤- إجابة السائل شرح بغية الأمل، محمد بن إسماعيل الصنعاني ١ / ٣٩٣، وانظر تخريج الحديث: رواه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب في المجرع يتيمم، ١ / ١٤٥، ح ٣٣٦، والعي، الجهل أو التحير عون المعبود، محمد أبادي ١ / ٣٨٣.

الله عنهما - قال: «قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَنَا مَا رَجَعَ مِنَ الْأَحْزَابِ: «لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»، فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي؛ لَمْ يَرِدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنَّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ»^(١).

- قال ابن القيم - رحمه الله -: «نظر بعضهم إلى المعنى واجتهد آخرون وأخروها إلى بني قريظة فصلوها ليلا، نظروا إلى اللفظ، وهؤلاء سلف أهل الظاهر، وهؤلاء سلف أصحاب المعاني والقياس»^(٢)، ويقول ابن حجر - رحمه الله -: «قال السهيلي وغيره: في هذا الحديث من الفقه إنه لا يُعاب على من أخذ بظاهر حديث أو آية ولا على من استنبط من النص معنى يخصه»^(٣).

- والحقيقة أن تعنيف المتدربين لا يؤدي إلى اكتسابهم المهارة المراد تحصيلها لديهم، بل يؤدي إلى إحجامهم عن العمل بتلك المهارة، والنبِيُّ ﷺ قد فتح للصحابة الكرام أن يستنبطوا ما داموا في دائرة يسعها النص؛ تشجيعا لهم على ممارسة تلك المهارة العقلية المميزة، وبيانا لسعة الفقه الذي يتعاملون معه، ويتوصلوا إلى أحكام حياتهم به.

- الشاهد الرابع: الإقرار على الاجتهاد القضائي وإقرار عليّ ﷺ على قضائه: ومن تدريب الصحابة الكرام على الاستنباط وإقرارهم على العمل بهذه المهارة ما رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ حَيْثُ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْيَمَنِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى قَوْمٍ قَدْ بَنَوْا زُبَيْةً^(٤) لِلْأَسَدِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ يَتَدَاغُونَ إِذْ سَقَطَ

١- البخاري، الصحيح، كتاب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء، ١٥/٢، ح ٩٤٦ (واللفظ له)، مسلم، الصحيح كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين، ٣/١٣٩١، ح ١٧٧٠.

٢- إعلام الموقعين، ابن القيم ١/٢٠٣.

٣- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٧/٤٠٩.

٤- الزبية: حفيرة تحفر للأسد والصيد، ويُعطى رأسها بما يسترها ليقع فيها. النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٢/٧١٢.

رَجُلٌ فَتَعَلَّقَ بِأَخْرَ، ثُمَّ تَعَلَّقَ رَجُلٌ بِأَخْرَ، حَتَّى صَارُوا فِيهَا أَرْبَعَةً، فَجَرَحَهُمُ
الْأَسَدُ، فَانْتَدَبَ لَهُ رَجُلٌ بِحَرْبَةٍ فَقَتَلَهُ، وَمَاتُوا مِنْ جِرَاحَتِهِمْ كُلُّهُمْ، فَقَامَ أَوْلِيَاءُ
الْأَوَّلِ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْآخِرِ فَأَخْرَجُوا السَّلَاحَ لِيَقْتَتِلُوا، فَاتَاهُمْ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى
تَفِيئَةٍ ذَلِكَ فَقَالَ: تُرِيدُونَ أَنْ تَقَاتِلُوا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيٌّ؟! إِنِّي أَقْضِي بَيْنَكُمْ
قَضَاءً إِنْ رَضِيْتُمْ فَهُوَ الْقَضَاءُ، وَإِلَّا حَجَزَ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ حَتَّى تَأْتُوا النَّبِيَّ
ﷺ، فَيَكُونَ هُوَ الَّذِي يَقْضِي بَيْنَكُمْ، فَمَنْ عَدَا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَا حَقَّ لَهُ، اجْمَعُوا
مَنْ قَبَائِلَ الَّذِينَ حَفَرُوا الْبُئْرَ: رِبْعَ الدِّيَةِ وَثُلْثَ الدِّيَةِ وَنِصْفَ الدِّيَةِ وَالِدِّيَّةَ
كَامِلَةً، فَلِلْأَوَّلِ الرِّبْعُ لِأَنَّهُ هَلَكَ مِنْ فَوْقِهِ، وَلِلثَّانِي ثُلْثُ الدِّيَةِ، وَلِلثَّلَاثِ نِصْفُ
الدِّيَةِ، فَأَبَوْا أَنْ يَرْضَوْا فَاتُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ - فَقَصُّوا
عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، فَقَالَ: «أَنَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ» وَاحْتَبَى، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِنَّ عَلِيًّا
قَضَى فِينَا، فَقَصُّوا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فَأَجَازَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(١).

- وفي هذا الحديث يقرّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على اجتهاده الفقهيّ القضائيّ،
تنمية لاستنباط الصحابة الكرام والأمة، وفتحاً لباب الاجتهاد الذي لا غنى
للأمة عنه، وفيه - بالإضافة لذلك - إرساء لمبدأ عظيم، وهو احترام قضاء
القاضي، وأنه إذا كان القاضي مجازاً بالقضاء فينبغي تقدير اجتهاده، ما
دام لا يخالف أصول الاجتهاد، ولا شك أن هذا خليف باستقرار الأفضية
والقضاء بعامّة. واحترام ما يتوصل إليه المتدرّب في المهارة - ما دام في
دائرة الصواب - أمرٌ يعزز عنده سلوكها والتميز بها، وفي صناعة القائد
الماهر لا بد من منحه حربة في المحاولة والتجربة، واحترام نتائج تلك التجربة
مهما كانت، وفي ذلك إشعار للفرد بإنسانيته، فهو يخطئ ويصيب، والمدرب
الناجح هو الذي يحترم تجربة المتدرّبين، ولا يقلل من شأنهم ^(٢).

١- المسند، أحمد بن حنبل ٢ / ١٥، ح ٥٧٣.

٢- صناعة القائد، طارق سويدان وفيصل باسراجيل ١٠٤، ٢٢٦.

فرع: التنبيه على خطأ المتدرّب على الاستنباط فرع عن تعليمه المهارة الاستنباطية: ومن المهم القول هنا إن النبي ﷺ كان يقرّهم إذا كان الاستنباط في محله، فإذا لم يوافق محله - نتيجة فهم خاطئ ونحوه - فحاشاه ﷺ أن يقرّهم على الخطأ؛ فهو مبلغ عن الله تعالى، مستأمن على شرعه، وعلى تعليم الأمة كيف يكون الاستنباط، ويظهر ذلك جلياً في تشنيعه فعل أولئك الذين أفتوا رجلاً جرح في رأسه بوجوب الاغتسال فمات، فقال: «قتلوه قتلهم الله»^(١)، وقد يتلطف إذا لم يبلغ الأمر كذلك، كما قال لعديّ ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن الشَّعْبِيِّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (سورة البقرة: آية ١٨٧)، عَمَدْتُ إِلَى عَقَالٍ أَسْوَدَ وَإِلَى عَقَالٍ أَبْيَضَ فَجَعَلْتُهُمَا مَحْتًا وَسَادَتِي فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ فَلَا يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»^(٢)، وهذا من جملة التعليم والتفهم، أن يعرف المصيب أنه أصاب والمخطئ أنه أخطأ، فيكون للمصيب فسحة في الاستزادة من الاستنباط، وللمخطئ تحوط في ما يقدم عليه من الاجتهاد.

المسلك الثالث: تحفيز الصحابة - رضي الله عنهم - على الاستنباط:

وعمل النبي ﷺ على ذلك من خلال السنة القولية المحفزة على المهارة بالاستنباط الفقهيّ، وبأشكال التحفيز

الممكنة، سواءً بالغازا وتحكيما، وثناءً على صاحب الاستنباط ونحو ذلك، مما يعزز هذه المهارة عند الأصحاب الكرام والأمة كلّها، حتى إنه ﷺ دعا لبعضهم

١ - سبق تخريجه.

٢ - تربية ملكة الاجتهاد من خلال بداية المجتهد لابن رشد، محمد بولوز ٢٩٥. والحديث أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، باب قول الله تعالى وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ٣ / ٢٨، ح ١٩١٦ (واللفظ له)، مسلم، الصحيح كتاب الصيام، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، ٢ / ٧٦٦، ح ١٠٩٠.

بذلك، كما دعا لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: «اللَّهُمَّ فَكِّهْ فِي الدِّينِ»^(١)،
وفيما يأتي شواهد على هذا التحفيز.

- **الشاهد الأول:** تنمية مهارة التفكير الاستنتاجي العقلية: كان ذلك بما يليق به رسول الله ﷺ من المسائل على أصحابه؛ إذ يستحث فيه تفكيرهم على التحليل والاستنتاج، ويكتشف طاقاتهم وقدراتهم المهارية، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجْرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مِثْلُ الْمُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبَرْنَا بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي فَقَالَ: «لَأَنْ تَكُونَ قَلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا»^(٢).

قال الحموي: «فيه دليل على أنه ﷺ كَانَ يَقْصِدُ الْإِلْعَازَ فِي كَلَامِهِ، وَيُسَمِّي اللَّغْزُ أَحْجِيَّةً أَيْضًا؛ لِأَنَّ الْحِجَابَ هُوَ الْعَقْلُ، وَهَذَا النَّوعُ يُقَوِّي الْعَقْلَ عِنْدَ التَّمَرُّنِ»^(٣). وفي هذا يظهر حرص النبي ﷺ على حث أصحابه على استخدام عقولهم، وإعطائهم الفرصة الكافية للتفكير، وذلك لإيقاظ ما لديهم من طاقات وقدرات واستثمارها، لحل كل ما يعترض طريقهم من مشكلات ومواقف^(٤).

- **الشاهد الثاني:** الاجتهاد القضائي وتحكيم سعد بن عبد الله في بني قريظة (ممارسة المتدرب للمهارة بنفسه): فقد أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

- ١- البخاري، الصحيح، كتاب الوضوء، باب وَضْعُ الْمَاءِ عِنْدَ الْخَلَاءِ، ١ / ٤١، ح ١٤٣.
- ٢- البخاري، الصحيح، كتاب العلم، باب الْحَيَاءِ فِي الْعِلْمِ، ١ / ٣٨، ح ١٣١ (زاللفظ له)، مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب مثل المؤمن مثل النخلة، ٤ / ٢١٦٤، ح ٢٨١١.
- ٣- غمز عيون البصائر، أحمد الحموي ٧ / ٣٢٠.
- ٤- الإسلام ومهارات التفكير، محمد عبد البديع السيد مقال مثبت على شبكة الإنترنت، يوم الدخول ووقته: ٢٨ / ١٠ / ٢٠١٣، ١٠، ١٠، م.

أَنَّ أَنَسًا نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ، فَلَمَّا بَلَغَ قَرِيبًا مِنَ الْمَسْجِدِ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «قَوْمُوا إِلَيَّ خَيْرُكُمْ أَوْ سَيِّدُكُمْ» فَقَالَ: «يَا سَعْدُ إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ»، قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تَقْتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَتُسَبِّحَ ذَرَارِيَهُمْ، قَالَ: «حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ - أَوْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ -»^(١)، وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ حُكْمَهُ عَنِ اجْتِهَادٍ^(٢)، وَكَانَ حَكَمَ سَعْدِ رضي الله عنه فِيهِمْ اجْتِهَادًا قِيَاسِيًّا أَصْلَهُ عَقُوبَةُ الْمُحَارِبِينَ الْوَارِدَةَ فِيمَا نَزَلَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ (سورة المائدة: آية ٣٣)، وَهَؤُلَاءِ مَالُؤُوا قَرِيشًا وَنَقَضُوا الْعَهْدَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَقِيلَ قَاسَهُمْ عَلَى أُسْرَى بَدْرِ الَّذِينَ عَوَّتَبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي عَدَمِ قَتْلِهِمْ^(٣).

وَكَانَ يُمْكِنُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ بِنَفْسِهِ؛ إِذْ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ الْحَاكِمُ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ صَوَّبَ اجْتِهَادَ سَعْدِ رضي الله عنه عَلَى الْفُورِ، لَكِنَّهُ أَرَادَ - فِي وَاحِدَةٍ مِنَ الْحُكْمِ الْعَظِيمَةِ - أَنْ يَدْرِبَ الصَّحَابَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - عَلَى الْاسْتِنْبَاطِ الْفَقْهِيِّ وَالْقَضَائِيِّ، وَمُوَاجَهَةِ الْمَشْكَلَاتِ وَالْوُقُوعِ بِمَا تَحْصُلُ لَدَيْهِمْ مِنْ مَهَارَةٍ وَمَلَكَةٍ.

- الشاهد الثالث: تعليم النبي صلى الله عليه وسلم آليات مهارة الاستنباط كما في حديث قضاء دين الله تعالى: وهذا الجانب في تنمية مهارة الاستنباط الفقهي مهم للغاية؛ وذلك أن القياس باب عظيم من أبواب الاستنباط الفقهي للمسائل التي لم ينص على حكمها، فالقياس هو: الاستواء بين الفرع والأصل في العلة المستنبطة من حكم الأصل^(٤)، والأصوليون عندما يستدلون لمصدرية القياس وأهميتها في الفقه، فإنما يستندون إلى شواهد في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم

- ١- البخاري، الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه، ٣٥ / ٥، ح ٣٨٠٤ (واللفظ له)، مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، ٣ / ١٣٨٨، ح ١٧٦٨.
- ٢- شرح جمع الجوامع، جلال الدين المحلي ٢ / ٢٥٦.
- ٣- نشأة الفقه الاجتهادي وأطواره، محمد علي السائيس ٢٠.
- ٤- الإحكام في أصول الأحكام، الأمدي ٣ / ٢٠٩، وهو ما اختاره الأمدي بعدما عرض التعريفات وبين الاعتراضات عليها.

القياس لأصحابه وأمته^(١)، فقد أخرج البخاري - رحمه الله - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج، فماتت قبل أن تحج، أفأحج عنها؟ قال: «نعم، حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟» قالت: نعم، فقال: «اقضوا الله الذي له فإن الله أحق بالوفاء»^(٢). ويظهر جلياً تدريب النبي ﷺ أصحابه على مهارة الاستنباط من خلال أدواتها المهمة، ومنها القياس والموازنة بين الأمور المتماثلة للوصول إلى الحكم الصحيح، وما هذا إلا لتمكين المتدربين من تطبيق هذا النهج في حياتهم.

الشاهد الرابع: تنمية مهارة الاستنباط القياسي من خلال حديث الجمل الأورق: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلاماً أسوداً وإنني أنكرته، فقال له رسول الله ﷺ: «هل لك من إبل؟» قال: نعم، قال: «فما ألوانها؟» قال: حُمْرٌ، قال: «هل فيها من أورق؟» قال: إن فيها لورقاً، قال: «فأنت ترى ذلك جاءها؟» قال: يا رسول الله عرق نزعها، قال: «ولعل هذا عرق نزعها»، ولم يرخص له في الانتفاء منه^(٣). وقد بوب البخاري - رحمه الله - للحديثين الأخيرين فقال: «باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل ميبين، وقد بين النبي ﷺ حكمهما ليفهم السائل»، أقول: وهذا هو القياس العقلي واللغوي فهو تقدير شيء بشيء للشبه الذي بينهما، لكن فيه إشارة واضحة للبناء على القياس الشرعي، وإثباتاً لتعضده في الشرع - لا سيما - في حديث قضاء دين الله تعالى، قال النووي - رحمه الله -: «وفيه

١- فتح الباري، ابن حجر ١٣ / ٢٩٧.

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب، باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل ميبين قد بين الله حكمهما، ليفهم السائل، ١٠٢ / ٩، ح ٧٣١٥.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب، باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل ميبين قد بين النبي ﷺ حكمهما، ليفهم السائل، ١٠١ / ٩، ح ٧٣١٤ (واللفظ له)، مسلم، الصحيح، كتاب اللعان، باب ١١٣٧ / ٢، ح ١٥٠٠.

- أي الحديث الأخير- إثبات القياس والاعتبار بالأشباه^(١). وقد استخدم الرسول ﷺ مع هذا الرجل طريقة حوارية تجعله يعود إلى التجربة التي يعيشها يومياً، لينظر ويتأمل ويدقق ويقيس الأشياء بنظائرها، فيصل بذلك إلى الحكم الصحيح، والعلم الذي يطمئن إليه القلب، فيزول عنه شكُّ جعله ينكر أن تلد امرأته غلاماً مالت بشرته إلى السواد. ولم يحدث الرسول ﷺ الرجل عن القوانين الوراثية، أو عن قدرة الله في إخراج الأسود من الأبيض، ولكنه جعله يستخلص من ملاحظاته الخطأ الذي وقع فيه، بفضيل الملاحظة والاستنتاج السليم عادت الطمأنينة إلى قلب الرجل، ونزع ما في نفسه من ظنٍّ لا دليل عليه^(٢)، والملاحظة الصحيحة من أدوات مهارة الاستنتاج أو الاستنباط.

- الشاهد الخامس: نقض العلة (أداة مهارة الاستنباط) المستند إليها في حديث السؤال عن قبلة الصائم: وهذا مسلك من مسالك الاستنباط بالقياس، علمه النبي ﷺ للصحابة - رضي الله عنهم - والأمة من خلال ما رواه أبو داود وأحمد وغيرهما - رحمهم الله - من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «هَشَشْتُ يَوْمًا فَقَبِلْتُ وَأَنَا صَائِمٌ فَاتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: صَنَعْتُ الْيَوْمَ أَمْرًا عَظِيمًا، قَبِلْتُ وَأَنَا صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ تَمَضَّمْتَ بَمَاءٍ وَأَنْتَ صَائِمٌ». قُلْتُ: لَا بَأْسَ بِذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَفِيمَ؟»^(٣).

قال المزني - رحمه الله -: «فبين له بذلك أنه لا شيء عليه كما لا شيء في

١- شرح صحيح مسلم للنووي ١٠ / ١٣٤.

٢- سياسة الرسول ﷺ التعليمية وأثرها في تطور العلوم، محمد موسى الشريف، يوم الدخول ووقته ٢٢ / ١٠ / ٢٠١٣، ٩٥٠ م.

٣- أبو داود، السنن، كتاب الصيام، باب القبلة للصائم، ١ / ٧٢٥، ح ٢٣٨٥، المسند، أحمد بن حنبل ١ / ٤٣٩، ح ٣٧٢ (واللفظ له)، وقال الألباني: صحيح.

المضمضة»^(١)، وقال بعض الأصوليين: «هذا الشاهد لا يشهد للتعليل، وإنما يشهد لنقض العلة؛ وذلك لأن النبي ﷺ إنما ذكر ذلك بطريق النقص لما توهمه عمر رضي الله عنه من كون القبلة مفسدة للصوم، لكونها مقدمة للوقاع المفسد للصوم، فنقض النبي ﷺ ذلك بالمضمضة؛ فإنها مقدمة للشرب المفسد للصوم وليست مفسدة للصوم، أما أن يكون ذلك تنبيها على تعليل عدم الإفساد بكون المضمضة مقدمة للفساد فلا؛ وذلك لأن كون القبلة والمضمضة مقدمة لإفساد الصوم ليس فيه ما يتخيل أن يكون مانعا من الإفطار، بل غايته أن لا يكون مفطرا فكان الأشبه بما ذكره النبي ﷺ أن يكون نقضا لا تعليلا»^(٢). وأيا كان موقع هذا النص عن النبي ﷺ في الأصول، فهو دال على أصل استنباطي فقهي، بينه النبي ﷺ لعمر رضي الله عنه من خلال السؤال التعليمي، الذي ينبئ عن اشتراك في الصور المتماثلة، وهذا الاشتراك وفهمه يسهم في استنباط صحيح، مما ينمي تلك المهارة الاستنباطية والاستنتاجية عند الصحابة الكرام وعلماء الأمة ومجتهديها.

- الشاهد السادس: تنمية مهارة تخريج المناط، وتشبيت العلة وركنيتها في القياس من خلال حديث الرُّطْب: والعلة: هي «الْوَصْفُ الظَّاهِرُ الْمُضْبِطُ الَّذِي يَلْزَمُ مِنْ تَرْتِيبِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ مَصْلَحَةٌ لِلْمُكَلَّفِ مِنْ دَفْعِ مَفْسَدَةٍ أَوْ جَلْبِ مُنْفَعَةٍ»، وسميت «المناط» لأن الحكم يُناط - أي يتعلق - بها^(٣)، وتخريج المناط: هو استنباط العلة من الحكم الثابت بنص أو إجماع^(٤). ومن شواهد النبوية ما رواه سعد رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُسْأَلُ عَنْ اشْتِرَاءِ التَّمْرِ بِالرُّطْبِ، فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: «أَيَنْقُصُ الرُّطْبُ إِذَا يَبَسَ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، فَهَيَّ عَنْ

١- البحر المحيط، الزركشي ٤ / ٢١.

٢- الإحكام، الأمدي ٣ / ٢٨٣.

٣- الموسوعة الفقهية الكويتية، نخبة من العلماء المعاصرين ١٢ / ٣١٨.

٤- معجم لغة الفقهاء، قلعة جي ١ / ٢٥.

ذَلِكَ - وفي رواية فقال: «فلا إذن»^(١).

وبدهي أن النبي ﷺ كان عالماً أن الرطب ينقص إذا يبس، فهو يعيش في قلب جزيرة العرب، وهي بلد التمر والرطب، ولكنه سألهم لينبئه أصحابه وتابعيه إلى علة النهي عن بيع الرطب بالتمر، وهي نقصه عند يبسه، فلا يجوز أن يباع هذا بهذا على سبيل التساوي بالكيل، فبين العلة إذ كانت خفية، وربط الحكم بها حتى لا يظن ظان أن العلة غيرها^(٢)، وتميز العلة ضرورة من ضرورات مهارة الاستنباط، وتثبيت ركنيتها في عملية الاستنباط أمر مهم، حرص عليه النبي ﷺ من خلال منهجه التعليمي الحكيم، وذلك من خلال السؤال والجواب والمعلومة المبيّنة.

- الشاهد السابع: إثبات القياس العكسي من خلال حديث الأُجور: وقياس العكس نوع من الاستنباط القياسي وهو: «تحصيل نقيض حكم معلوم ما في غيره؛ لافتراقهما في علة الحكم»^(٣)، بمعنى أن ثبت للشيء عكس الحكم المعلوم لدينا؛ لأن العلة بينهما مختلفة. وشاهد ذلك التعليم ما رواه أبو ذر رضي الله عنه من أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور؛ يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟

١- الترمذي، السنن، كتاب أبواب البيوع، باب ما جاء في النهي عن المحاقلة والمزابنة، ٢/ ٥١٩، ح ١٢٢٥، وقال: حديث حسن صحيح.

٢- البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي ٤/ ١٦٩، الرسول المعلم ﷺ، عبد الفتاح أبو غدة ١١٢.

٣- الإحكام الأمدي ٣/ ٢٠١.

فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»^(١).

قال النووي - رحمه الله -: «وفي هذا الحديث جواز القياس، وهو مذهب العلماء كافة، ولم يخالف فيه الا أهل الظاهر، ولا يعتدّ بهم، واما المنقول عن التابعين ونحوهم من ذم القياس فليس المراد به القياس الذي يعتمده الفقهاء المجتهدون، وهذا القياس المذكور في الحديث هو من -قياس العكس- واختلف الأصوليون في العمل به، وهذا الحديث دليل لمن عمل به وهو الأصح»^(٢). وبهذا قاييس لهم النبي ﷺ مقياسة عقلية بين الأمرين، حتى اتضح لهم الحكم وفهموه، وهو أن الاستمتاع المشروع يكون به للمرء أجر وثواب، لما يترتب عليه من الآثار الحسنة، والبعد عن الحرام وطرقه^(٣)، والقياس من أدوات مهارة الاستنباط التي عمل النبي ﷺ على تنميتها لدى الصحابة - رضي الله عنهم - بهذا الشاهد وأمثاله.

- الشاهد الثامن: كان يكثر ﷺ من النص على العلة (بيان أداة الاستنباط والاستنتاج في المهارة): والعلة تمثل في المهارة الاستنتاجية أو الاستنباطية، الأداة التي تعين صاحب المهارة على الاستنتاج فهي محل الربط بين الأصل والفرع، والنبي ﷺ حرص على تثبيت هذه العلة كأداة أساسية للاستنباط، والمواقف النبوية التعليمية المثبتة لذلك كثيرة يعزّ حصرها، لكن طلب الفائدة البحثية يوجب على الباحث ذكر بعضها موجزا^(٤):

أولاً: أخرج البخاري - رحمه الله - من حديث سَلَمَةَ بِنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (مَنْ ضَحَّى مِنْكُمْ فَلَا يُصْبِحَنَّ بَعْدَ ثَالِثَةِ وَبَقِيَّ فِي بَيْتِهِ مِنْهُ شَيْءٌ)،

- ١- مسلم، الصحيح، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، ٢ / ٦٩٧، ح ١٠٠٦، قال النووي: والدثور، جمع دثر - بفتح الدال - وهو المال الكثير.
- ٢- شرح صحيح مسلم للنووي، ٧ / ٩٣.
- ٣- الرسول المعلم ﷺ، عبد الفتاح أبو غدة ١١١.
- ٤- ذكر بعض هذه التوجيهات النبوية الشيرازي في اللمع في أصول الفقه ١ / ٦٠، ومحمد الدويش في مقاله، وقفات يسيرة مع هديه ﷺ في تعليم الصحابة مقال مثبت على شبكة الإنترنت، يوم الدخول ووقته: ٢٢ / ١٠ / ٢٠١٣، ٤٠، ١٠، ٤٤.

فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَفَعَلْ كَمَا فَعَلْنَا عَامَ الْمَاضِي؟ قَالَ: (كُلُوا) وَأَطْعِمُوا وَادْخَرُوا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ الْعَامَ كَانَ بِالنَّاسِ جَهْدٌ فَأَرَدْتُ أَنْ تَعِينُوا فِيهَا^(١)، وفي معناه ما رواه مسلم - رحمه الله - وفيه: «قالوا: نهيت أن تؤكل لحوم الضحايا بعد ثلاث، فقال: (إنما نهيتكم من أجل الدافاة التي دفت، فكلوا وادخروا وتصدقوا)»^(٢).

ثانيا: ما رواه البخاري - رحمه الله - من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا جُعِلَ الْإِسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصْرِ»^(٣). قال ابن حجر - رحمه الله -: «أي شرع من أجله؛ لأن المستأذن لو دخل بغير إذن لرأى بعض ما يكره من يدخل إليه أن يطلع عليه»^(٤).

ولهذا الإكثار من النص على العلة مرتبطة بالأحكام آثارٌ يمكن أن أوجز بعضها في:

أولاً: معرفة العلة للحكم المذكور وربطها به لتمييز مقاصد الشريعة وغاياتها.

ثانيا: قياس ما يستجد من نوازل على تلك الأحكام إذا اطردت العلة، وقد قال الأصوليون: النَّصُّ عَلَى الْعِلَّةِ كَالْتَّصْرِيحِ بِوُجُوبِ الْقِيَاسِ عَلَيْهِ^(٥)، وقال الشافعي - رحمه الله -: «متى وجدنا في كلام الشارع ما يدل على نصبه أدلة أو أعلاما ابتدرنا إليه، وهو أولى ما يسلك»، وقال الزركشي - رحمه الله -: «المشهور أن إلحاق المسكوت عنه بالعلة المنصوصة قياس، ثم قال: قال ابن فورك:

١- البخاري، الصحيح، كتاب الأضاحي، باب مَا يُؤْكَلُ مِنْ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ وَمَا يَنْزَوُدُ مِنْهَا، ١٠٣/٧، ح ٥٥٦٩.

٢- مسلم، الصحيح، كتاب الأضاحي، باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام... ١٥٦١/٣، ح ١٩٧١. والدافاة: القوم يسرون جماعة سير ليس بالشديد، وهنا قوم من الأعراب قدموا المدينة عند الأضحى النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢٩١/٢.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الاستئذان، باب الْإِسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصْرِ، ٥٤/٨، ح ٦٢٤١.

٤- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٤/١١.

٥- البحر المحيط، الزركشي ٨٥/٤.

ليس قياساً، وإنما هو استمسك بنص لفظ الشارع، فإن لفظ التعليل إذا لم يقبل التأويل عن كل ما تجري العلة فيه كان المتعلق به مستدلاً بلفظ ناص في العموم»^(١).

ثالثاً: تنمية المهارة الاستنباطية عند مجتهدى الأمة ليتسنى لهم بناء الأحكام على العلل، ويربطوا اجتهاداتهم بالأوصاف الظاهرة المنضبطة، وكل نص على العلة فهو دليل جديد يضاف إلى مقصد النبي ﷺ في تنمية الاستنباط ومهارته عند أصحابه - رضي الله عنهم - لتكون استنتاجاتهم سليمة، وبناء الأحكام عليها صحيحاً.

- الشاهد التاسع: إعانة الصحابة الكرام وعلماء الأمة على الاستنباط من خلال العموم: وفي هذه الإعانة فتح لأبواب الاستنباط من عموم النص، وذلك حرّياً بأن يفتح للمجتهدين أبواباً من الاستدلال لأحكام الوقائع المعاصرة، في كل ما يصلح له عموم النص ويستغرقه. ومن شواهد ما رواه أصحاب السنن - رحمهم الله - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه إذ يقول: سأل رجل النبي ﷺ فقال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَرَكَبُ الْبَحْرَ وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطَشْنَا، أَفَتَوَضَّأُ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ؟» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُوَ الطَّهُّورُ مَاؤُهُ الْحَلُّ مِيتَةٌ»^(٢). وفي هذا الحديث لم يقتصر رضي الله عنه على قوله: نعم، وإلا كان الحكم قاصراً على الحالة موضع السؤال وحدها، إنما أعطاه حكم ماء البحر، وزاده فائدة أخرى يحتاج إليها حين قال: «هُوَ الطَّهُّورُ مَاؤُهُ الْحَلُّ مِيتَةٌ»، ويعني هذا أن ماء البحر له سائر أحكام الماء الطهور، وليس الأمر محصوراً باستعمال مائه في الوضوء فحسب^(٣)،

١- المرجع السابق، ٤ / ١٦٧.

٢- الترمذي، السنن، كتاب الطهارة، باب مَا جَاءَ فِي مَاءِ الْبَحْرِ أَنَّهُ طَهُورٌ، ١ / ١٢٥، ح ٦٩ (واللفظ له)، أبو داود، السنن، كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، ١ / ٦٩، ح ٨٣، وقال الألباني: صحيح.

٣- وقفات بسيرة مع هديه رضي الله عنه في تعليم الصحابة، محمد الدويش، يوم الدخول ووقته: ١٣ / ١٠ / ٢٠١٣، ٣٠، ١١ م.

فإن هذا السائل بحار، ويوشك أن يحتاج للأكل من البحر، فيشتبه عليه حكم الميتة منه، وهذا من جملة صنيع الخير منه ﷺ في التعليم، واستيفاء ما يحتاجه المتعلم^(١).

وفي هذا يقول بعض الأصوليين: قد يكون الجواب أعم من السؤال في حكم آخر غير ما سئل عنه، كسؤال الصحابة الكرام عن التوضئ بماء البحر، فلا خلاف أنه عام لا يختص بالسائل، ولا بمحل السؤال من ضرورتهم إلى الماء وعطشهم، بل يعمّ حال الضرورة والاختيار^(٢).

وهذا العموم المستفاد من أجوبة النبي ﷺ يستثمره المجتهد في الاستنباط إذا ما ألت به نازلة، كما لو احتاج لمعرفة حكم فردٍ مندرج تحت هذا العموم النبوي الكريم، وهو إثراء لمهارة الاستنباط بفتح أبواب جديدة لها من النص، فتحها النبي ﷺ بفضل ما علمه الله تعالى من لدنه، فأفاض على المجتهدين من الأمة مما علمه ربه - سبحانه -.

- الشاهد العاشر: تنمية الاجتهاد المقاصدي (مهارة الاستنتاج التقاط معانٍ ضمنية في النص والبناء عليها): إنَّ الاجتهاد المقاصدي: هو بذل الجهد في استنباط الأحكام الشرعية مع مراعاة مقاصد الشريعة، والالتفات إليها، والاعتداد بها^(٣)، ومن إحدى وسائله الأصيلة العمل على استنباطه من السنة النبوية، حيث كان بيانها جزءاً من منهج النبي ﷺ، وكان ذلك مساعداً للصحابة الكرام على تنمية استنباطهم للأحكام الاجتهادية الشرعية. وقد عرّف بعض المتخصصين المهارة الاستنتاجية «الاستنباطية» بأنها القدرة على قراءة ما بين السطور وما وراء السطور، والقدرة على التقاط المعاني الضمنية

١- الرسول المعلم ﷺ، عبد الفتاح أبو غدة ١٤٤.

٢- إرشاد الفحول، الشوكاني ١ / ٣٣٤.

٣- الاجتهاد المقاصدي، نور الدين بن مختار الخادمي ٣٩.

العميقة التي أراها الكاتب ولكنه لم يذكرها صراحة في النص، مع ضرورة أن يكون الاستنتاج مبنياً على شيء مذكور صراحةً أو ضمناً في النص^(١). ويمكن التعبير عن هذا في الاستنباط الفقهي بالالتفات إلى المقاصد المتوخاة من النص الشرعي، ثم البناء عليها في مهارة الاستنباط للأحكام الاجتهادية، والنبوي ﷺ قال لهند بنت عتبة - رضي الله عنها -: «خُذِي مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدِكَ بِالْمَعْرُوفِ»^(٢)، وهو بذلك يؤصّل للمقصد الشرعي الجزئي في هذا الباب وهو «العادة محكمة والعرف محكم»، ويقول لكل سائل سأله في الحج: «أَفْعَلْ وَلَا حَرَجَ»^(٣)، فيؤصّل للمقصد الكلي: «التيسير ورفع الحرج»^(٤).

كما أن الشواهد النبوية التعليمية ماثلة لخدمة تعليم الأمة الاستنباط الفقهي الاحترازي المسمى عند الأصوليين (سدّ الذرائع)، والمبني على النظر في مآلات الأفعال، يقول الشاطبي - رحمه الله -: «الأدلة الشرعية والاستقراء التام أن المآلات معتبرة في أصل المشروعية»^(٥)، فقد روت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال لها: «يَا عَائِشَةُ لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُو عَهْدِ بِجَاهِلِيَّةٍ لَأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهْدَمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَالزَّقْتَهُ بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَّغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ»^(٦)، وهذا التبيان النبوي خادم للنظر في المآلات، وتقديم درء المفسدة على جلب المصلحة، ودفع المفسدة الأعظم^(٧).

- ١- فهم المقروء، ربما الجرف مقالة مثبتة على موقع جامعة أم القرى، يوم الدخول ووقته ١٣/٢/٢٠١٣، ١١، ٣٠ م.
- ٢- صحيح البخاري ٧/٦٥، كتاب النفقات، باب إِذَا لَمْ يُنْفَقِ الرَّجُلُ فَلِلْمَرْأَةِ أَنْ تَأْخُذَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ مَا يَكْفِيهَا وَوَلَدَهَا بِالْمَعْرُوفِ، ح ٥٣٦٤.
- ٣- البخاري، الصحيح، كتاب العلم، باب الْفُتْيَا وَهُوَ وَقَفَّ عَلَى الدَّابَّةِ وَعَيْرَهَا، ١/٢٨، ح ٨٣، مسلم، الصحيح، كتاب الحج، باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي، ٢/٩٤٨، ح ١٣٠٦.
- ٤- الاجتهاد المقاصدي، نور الدين بن مختار الخادمي ٨٠ وما بعدها.
- ٥- الموافقات، الشاطبي ٤/١٩٦.
- ٦- متفق عليه، البخاري، ١/٢٨، كتاب الحج، باب فَضْلُ مَكَّةَ وَبَيْتَانِهَا، ح ١٥٨٦ - مسلم ٢/٩٤٨، كتاب الحج، باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي، ح ١٣٠٦.
- ٧- الموافقات، الشاطبي ٤/٦٢.

وهذا الأصل مهمّ في تنمية مهارة الاستنباط المستند إلى الاحتراز وسدّ الذرائع لمنع الوقوع في المآلات الفاسدة، وهو مما يحتاجه كل من تصدى لسلوك تلك المهارة الاستنباطية، فيسلّكها بحذر وتأنّ، مستقرّاء العرف والمآلات المتوقعة، فيجتهد في ضوئها لتحقيق مقاصد الشرع من جلب المصلحة ودرء المفسدة.

المبحث الثالث :

الأثار العمليّة للتنمية النبويّة للمهارة الاستنباطيّة في اجتهادات الصحابة الكرام

تمهيد: في هذا المبحث مقدّمة مبيّنة لحال مهارة الاستنباط لدى الصحابة الكرام بعد وفاة النبيّ ﷺ، وكيف أثر تعليمه ﷺ في استنباطاتهم الفقهيّة، وبعض شواهد ذلك الأثر، متتبعا ذلك في مسالك رئيسة سلّكوها في اجتهاداتهم، من قياس وتفسير للنصوص وتحقيق للعلة، وتطبيق للمصلحة الراجحة ودرء للمفسدة الغالبة، مستعرضا كل مسلك وما يدل عليه من مواقف اجتهادية عملية.

انتقل النبيّ ﷺ إلى الرفيق الأعلى، تاركا وراءه تلاميذه الصحابة الكرام -رضي الله عنهم- الأمناء على شرع الله عز وجل، فساروا على الطريق الواضحة التي رسمها لهم، ووجدوا أنفسهم أمام مشاكل وحوادث متجددة، فبدلوا قصارى جهدهم في استنباط الأحكام، وتوسعوا في الاجتهاد وتعليل الأحكام، اعتقادا منهم أن شريعة الله ليست جامدة على ظاهر النصوص ليقع الناس في الإصر الذي وضعه الله عنهم، فتراهم تارة يعلّلون الفتيا بما علّل الكتاب أو السنة، وتارة يعمدون إلى النص فيعلّلونه توسيعا لدائرته، وأنا يعلّقون العمل بالنص لأن علته قد زالت، وحيناً يمينعون الناس من مباح سدّا لذريعة الفساد ونحوه^(١)، وتميزوا في ذلك حتى قال بعض الأصوليين لو لم يكن لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُعْجِزَةٌ

١ - تعليل الأحكام، محمد مصطفى شلبي ٣٥.

إِلَّا أَصْحَابُهُ لَكَفَّوهُ فِي إِبْطَاتِ نُبُوَّتِهِ^(١). والفضل في ذلك لله - سبحانه - ثم للتربية التي ربّاهَا النبي ﷺ لأصحابه الكرام، ففي تربيته العلمية لأصحابه لم يكن يقتصر على تعليم أصحابه مسائل علمية فقط، بل ربي علماء ومجتهدين، وحملة علم للبشرية، ولقد ظهرت آثار هذه التربية على صحابته في مواقفهم بعد وفاته، من استخلاف خليفة يسوس الدنيا بالدين، ومن علاج حادثة الردة، وجمع القرآن، وعقوبة شارب الخمر، وغير ذلك من المسائل التي اجتهد فيها الصحابة الكرام^(٢). ويستعرض هذا المبحث في هذه السطور بعضاً من اجتهادات الصحابة - رضي الله عنهم -، بحسب ما تعلموه من طرق الاستنباط التعليميّة النبويّة، وذلك كتطبيق عمليّ لتلك التنمية الاستنباطية الفقهيّة.

الأثر الأول: اتباعهم منهج المهارة الاستنباطية الصحيح:

نقل ابن القيم عن أبي عبيد - رحمهما الله - كيف كان اجتهاد الأوّلين من الصحابة - رضي الله عنهم -، فقال: كان أبو بكر الصديق ﷺ إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى به، وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله ﷺ، فإن وجد فيها ما يقضي به قضى به، فإن أعياه ذلك سأل الناس: هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء؟ فربما قام إليه القوم فيقولون: قضى فيه بكذا وكذا، فإن لم يجد سنة سنّها النبي ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به^(٣). وهذا يشير إلى تشرب الصحابة الكرام في عهد الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - لمنهج الاستنباط الصحيح، الذي أسسه فيهم النبي ﷺ عن طريق تنمية تلك المهارة الاستنباطية القويمة، يوم سأل معاذاً ﷺ وأقرّه على مسلكه الاستنباطي الصحيح، وقد عملوا

١- أنوار البروق، القرافي ١١٨/٨.

٢- وقفات يسيرة مع هديه ﷺ في تعليم الصحابة، محمد الدويش، يوم الدخول ووقته ٢١/١٠/٢٠١٣، ٩٠، ١٠م.

٣- إعلام الموقعين، ابن القيم ٦٢/١.

بتلك المهارة جماعياً، فصدروا عن رأيٍ سديد، وفكر يجتمع فيه المعرفة والعلم، وقوة تلاقي العقول إذا تلاقت، وتلاقح نظرها بكل معارفه وآفاقه.

الأثر الثاني: استخدامهم أدوات المهارة الاستنباطية من رأيٍ وقياس شرعيّ:

عمل الصحابة - رضي الله عنهم - بالقياس الشرعي الذي علمهم إياه النبي ﷺ كما مرّ في ما سبق، وكان ذلك من أول الأمر، فكان أول ما قاسوا خلافة أبي بكر على اختيار النبي ﷺ له إماماً في الصلاة، يقول ابن القيم - رحمه الله -: «ومن ذلك أن الصحابة قدموا الصديق ﷺ في الخلافة وقالوا: رضيه رسول الله ﷺ لدينا أفلا نرضاه لدينا فقاسوا الإمامة الكبرى على إمامة الصلاة»^(١)، ومن ذلك أن سمرة بن جندب ﷺ لما باع خمر أهل الذمة وأخذه في العشور التي عليهم، فبلغ عمر ﷺ فقال: قاتل الله سمرة، أما علم أن رسول الله ﷺ قال: (لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها وأكلوا أثمانها)، وهذا قياس من عمر ﷺ؛ فإن تحريم الشحوم على اليهود كتحرим الخمر على المسلمين، وكما أن ثمن الشحوم المحرمة حرام فكذلك يحرم ثمن الخمر الحرام^(٢).

بل قد صار لهم تعليم النبي ﷺ حادياً لتعليم عمّالهم ما فقهوه منه ﷺ، فثبت عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لقاضيه أبي موسى الأشعري ﷺ: (واعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عندك)^(٣).

وقد اجتهد ابن مسعود ﷺ في المفوضة^(٤)، وقال أقول فيها برأيي ووقفه الله للصواب، وقال عكرمة - رحمه الله -: (أرسلني ابن عباس - رضي الله عنهما -

- ١- المرجع السابق ١ / ٢١٠.
- ٢- إعلام الموقعين، ابن القيم ١ / ٢٠٩، والأثر في سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، كتاب الأشربة، باب النهي عن الخمر وشرائها، ٢ / ١٥٦، ح ٢١٥٠، قال المحقق حسين أسد، إسناده صحيح.
- ٣- البحر المحيط، الزركشي ٤ / ٢٢.
- ٤- وهي التي نكحت بلا ذكر مهر أو على أن لا مهر لها التعريفات للجرجاني ١ / ٢٨٩.

إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه أسأله عن زوج وأبوين، فقال زيد رضي الله عنه: (للزوج النصف، وللأم ثلث ما بقي، وللأب بقية المال)، فقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: (للأم الثلث كاملاً)، لفظ حديث يزيد بن هارون -وفي رواية روح-: وللأم ثلث ما بقي وهو السدس، فأرسل إليه ابن عباس -رضي الله عنهما- أفي كتاب الله تجد هذا؟ قال: لا، ولكن أكره أن أفضل أمّا على أب^(١)، وذلك استنباط بالرأي وفق مبادئ الشرع في جعل نصيب الذكر مثل نصيب الأنثيين، وكانت هذه الاجتهادات تنال رضا الصحابة -رضي الله عنهم- لكونهم نهلوا من نفس المعين الصافي الذي علمهم مهارة الاستنباط وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الأثر الثالث: من مهارتهم تطبيقهم لأصل في الاستنباط وهو البناء على العلل، وتحقيق المناط:

والصحابه الكرام بحثوا في التعليل، فلاحظوه وعملوا بمقتضاه، وظهر ذلك في مواضع:

- لما علموا نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن قطع يد السارق في السفر، عدّوا ذلك إلى منع الحد في شرب الخمر ونحوه في الغزو، لئلا يلحق المحدود بالكفار، ففعلوا ذلك درءاً لمفسدة أعظم.

- ومن ذلك أنهم لم يروا المناط يتحقق في أحول جاء النص فيها معللاً فزال العلة فيه، كمنع عمر رضي الله عنه من كان يأخذ سهم الزكاة لتأليف قلبه من أن يأخذه، فقد رأى أن الله تعالى أعزّ الإسلام وأغناه عن التأليف، وأمر أولئك النفر بالعمل والكسب.

- وكذلك رأوا في الإبل الضالة أن تعرّف ثم تباع كما روي ذلك عن عثمان

١- السنن الكبرى للبيهقي باب فرض الأم، ٦/ ٢٢٨، حديث ١٢٠٨٥ وقد والمسألة الأخيرة معروفة بالمسألة العمريّة في الميراث، ذكرت تلك الوقائع ابن القيم في كتابه، إعلام الموقعين ١/ ٢٠٤-٢٠٥.

ﷺ، أو يحتفظ بها في بيوت خاصة للحفاظ كما فعل علي ﷺ، مع أن الأمر النبويّ جاء بتركها ليجدها صاحبها؛ وذلك لما رأوا الذم قد تغيّرت وأن تركها سيؤدي إلى ضياعها، والنص أراد حفظها لصاحبها، فتعلقوا بالعلة وهي الحفظ دون ظاهر النص، لما رأوا المناط لا يتحقق بالترك المنصوص عليه^(١).

ومما ورد في جزئيات هذه الدراسة رأينا كيف كان النبي ﷺ يركز لهم على العلة وأهميتها وركنيتها في الاستنباط، فإنهم -رضي الله عنهم- فقهوا ذلك، واستقرّ شأن العلة في نفوسهم، فكانت هذه الاجتهادات ثمرة تعلمهم لمهارة الاستنباط على أصولها، فأثمر ذلك اجتهادات صالحة مصلحة لحياتهم بشؤونها المختلفة.

الأثر الرابع: من مهارتهم الاستنباطية تفسير النصوص ليبينوا عليها فقههم للمسائل:

اجتهدوا في تفسير النصوص كما علمهم النبي ﷺ في تأويل الظلم بالشرك كما مرّ، فأبو بكر الصديق ﷺ يقول في الكلالة: (أقول فيها برأبي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، أراه ما خلا الوالد والولد).

فلما استخلف عمر ﷺ قال: (إني لأستحيي من الله أن أورد شيئاً قاله أبو بكر)^(٢)، وهذا ظاهر في تقدير بعضهم بعضاً في اجتهاداتهم، وإنما هذه ثمرة عن تقدير النبي ﷺ لاستنباطاتهم وهو بينهم كما مرّ مسبقاً، فحفظوا ذلك عنه ﷺ ولم ينسوه، وهذا جزء من آداب المتدرّبين على المهارة ابتداءً، العاملين بموجبها انتهاءً.

١- المسوط، السرخسي ١١/١٩، تعليل الأحكام، محمد شلبي ٣٦-٤٠.

٢- إعلام الموقعين، ابن القيم ١/٢٠٤.

الأثر الخامس: مهارتهم الاستنتاجية في التقاط المعاني، كأخذهم بسدّ الذرائع، والنظر في المآلات:

مما مرّ ذكره من طرائق المنهج النبويّ التعليميّ لمهارة الاستنباط ما ركّزه النبي ﷺ في نفوس الصحابة - رضي الله عنهم - من سدّ الذرائع ودرء المفسد، والنظر في المآلات بناء واستنباطاً، فلما آل الأمر إليهم - رضي الله عنهم - إذا بهم يقفون أمام حالة غريبة في القضاء، مريض بمرض الموت يطلق امرأته^(١)، فورثوها حتى لا يتجرأ الناس على الظلم، ويصبح هذا الأمر المشروع آيلاً إلى مفسدة، بسبب ضعف النفوس وغلبة الهوى عليها^(٢).

وضمنوا الأجير المشترك (كصاحب محلات الكوي والخياطة ونحوهما) حتى لا تضيع حقوق الناس بالتقصير في التعامل معها وحفظها، مع أن الأصل أنه لا يضمن لأنه أمين، لكن لما تهاون عدد منهم في حفظ أموال الناس، فكان لا بدّ من مراعاة مآلات الأمور حتى لا تنفلت^(٣).

وقتلوا الجماعة إذا تمالؤوا على قتل واحد لثلاث تضيع الدماء، بضياح دمه بين قاتليه، وإن كان القصاص يأبى ذلك، لكنهم فعلوا ذلك سداً لذريعة التعاون على سفك الدماء^(٤).

الأثر السادس: عملهم بالاجتهاد المقاصدي والمصلحي في بناء الاستنباطات المتعددة:

وقد تعلموا ذلك من منهج النبي ﷺ في البناء على مقاصد الشرع وتعليه،

- ١- وهو عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، ولم يطلقها فراراً ولا ضراراً كما قال رضي الله عنه، وهذا ما أكده عثمان رضي الله عنه الذي قضى بتوريثها فقال، ما اتهمته ولكنني أردت السنّة،
- ٢- الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٣ / ٣٢١، إعلام الموقعين، ابن القيم ٣ / ١٤٣.
- ٣- المسوط، السرخسي ١٥ / ١٥٠.
- ٤- إعلام الموقعين، ابن القيم ٣ / ١٤٣.

وما أورثهم إياه من مهارة في الاستنباط الفقهيّ، وذلك أكثر من أن يحصر، ومن ذلك:

- أنهم جمعوا القرآن في مصحف حفاظا عليه، ولم يكن لهم نصّ في ذلك، وإنما المصلحة التي قصدها الشارع الحكيم في كلّ أحكامه.
 - وحرّق عثمان رضي الله عنه المصاحف وجمع الناس على مصاحف محددة لئلا يختلفوا كما اختلفت اليهود والنصارى، وذلك بعدُ نظر، واستنباط مصلحيّ جليل للأمة.
 - وأبقى عمر رضي الله عنه أرض السواد وقفا على بيت المال لدوام استثمارها، وحتى لا ينشغل الناس بها عن الجهاد، ولا تضيع حقوق الأجيال فيها^(١).
- وما كان ذلك ليكون لولا توفيق الله تعالى للصحابة - رضي الله عنهم - في استنباطاتهم الفقهية، التي اهتدت بما أرساه النبي صلّى الله عليه وآله فيهم من مهارة الاستنباط الفقهيّ، في التعليم بالقدوة والأسوة، وفي التوجيه والتحفيز، والإقرار على أفعالهم وأحكامهم الاجتهادية الاستنباطية من أول الأمر.

١- وينظر في ذلك: إعلام الموقعين ١ / ٢١٠، وتعليل الأحكام ٣٦-٤٠، ونشأة الفقه الاجتهادي، للسايس ٣٥ وما بعدها.

الخاتمة والتوصيات

الحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على نبينا محمد رحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد، فقد يسّر الله تعالى لي خوض غمار هذا البحث، وتبدّت لي في ختامه جملة من النتائج، لعلّ من أهمها:

أولاً: مهارة الاستنباط الفقهيّ: هي العمل الذهني الدقيق لاستخراج الأحكام الشرعية العملية الاجتهادية، وفق تميز في ذلك الاستخراج لتحقيق أفضل نتائجه، وقد رفع الله تعالى قدر المستنبطين فخصّهم بخصوصية المرجعية في العلم بالأحكام الاجتهادية فقال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، وذلك لعظيم مكانة الاستنباط، الذي هو أساس الاجتهاد، ذلك المصدر الأصيل الذي يجدد لها حيوية الفقه، ويعالج لها وقائع كل زمان ومشكلاته.

ثانياً: لا بدّ لمهارة الاستنباط من ترقية وتنمية: ويكون ذلك من خلال استثمار المَلَكَة الموهوبة من الله تعالى للعبد، ثم معلّم مرشد، يثبت قدم التلميذ، ويرفع وحشته، ولذلك حرص النبي ﷺ على تعليم الصحابة الكرام هذه المهارة فهو المعلّم الأمين، وقدم بذلك الأعمود القيادي التعليمي، الذي يعمل على صنع القادة والمتميزين.

ثالثاً: خطّ النبي ﷺ للمعلّمين والمربين أعظم خطة يسلكونها في صناعة التميز في المهارات الاستنباطية، ونقل العلم من كونه معرفة تلقّن، إلى أن صار علماً حوارياً نشطاً، وقد أرسى النبي ﷺ مهارة الاستنباط الفقهيّ عند الصحابة ومجتهدي الأمة من خلال مسالك في التركيز واستخدام شتى الأساليب التعليميّة، ظهرت في الآتي:

أ- السنة الفعلية: استنباط منه ﷺ في الوقائع التي لم يسبق فيها الوحي، أو

في السياسات الدنيوية المجتمعية، فمثل بذلك القدوة في تعليم مهارة النظر والاستنباط.

ب- السنة التقريرية: حيث أقرّ الصحابة - رضي الله عنهم - على استنباطاتهم الموافقة للشرع ومعاييره، وبين لهم الخطأ بأساليب تعليمية شتى، وأذن لهم بالاجتهاد في حضرته وفي حال سفرهم وغيابهم، فأكسبهم المهارة بطريق الممارسة والتدريب المباشر، وتعليمهم بالخطأ والصواب أو ما يسمّى بالتجربة والخطأ.

ج- السنة القولية: حثّم النبي ﷺ على الاستنباط فدعى لهم بالفقه، وكرّر السؤال عن كيفية توصلهم للأحكام، وعمل على تثبيت أفضيتهم واجتهاداتهم، فاحترم بذلك قدراتهم، ولم يعنّفهم في طور تعليم المهارة؛ ترغيباً لهم في المزيد من اكتسابها والترقية في مدارجها.

رابعاً: علّم النبي ﷺ صحابته الكرام وعلماء أمته طرق الاستنباط المعروفة بـ (أصول الفقه وقواعده)، من حمل للمطلق على المقيد، واستخدام للقياس العكسي، وأخذ من العموم، والاستدلال بالدليل، وترتيب للأدلة الشرعية المعمول بها في الاجتهاد، فمثل بذلك المرجع العلميّ لهم، ثم أرسى مصدر القياس من خلال أقيسته ﷺ، وعلّل الأحكام، وربطها بمقاصدها، ليرشد إلى تخريج المناط وتنقيحه وتحقيقه.

خامساً: سلك الصحابة - رضي الله عنهم - بمهارة الاستنباط الفقهيّ مذ تسلّموا الأمانة بعد وفاته ﷺ، فقاوسوا بموجب اتحاد العلل، وعملوا بالمصالح ودرء المفسد، وسدّوا الذرائع، وفسّروا النصوص بما يتفق مع ضوابط التفسير وأدواته، فكانوا بذلك نعم المتدرّبين المتميزين، الأوفياء للنهج الذي تعلموه من النبي ﷺ.

وختاماً فإن الباحث يوصي:

بإيلاء هذا الموضوع اهتماماً علمياً وتعليمياً أكبر، حيث إنه يخدم المناهج العلمية الشرعية وغيرها، ويبيّن منهج النبي ﷺ في صناعة التميز في مهارة مهمّة، ينبني عليها فقه الناس، وذلك من خلال:

أ- جمع شتاته من كتب السنة النبويّة وأصول الفقه.

ب- تقرير شيء من ذلك على طلبة العلم الشرعي - لا سيّما- في الدراسات العليا.

ج- ربط هذه المسالك النبويّة بالمهارات التدريسيّة التي وضعها المتخصصون في التربية والسلوك، لتنتقل من معارف بشرية محضّة إلى معارف مهتدية بهدي الوحي وأنواره. والحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإبهاج في شرح المنهاج: السبكي، علي بن عبد الكافي، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الاجتهاد بين التأصيل والتجديد: حسن عبد الرحمن بكير، رسالة دكتوراه، مثبتة على شبكة الإنترنت، ولم أعثر على مصدرها.
- الاجتهاد في الإسلام - أصوله أحكامه آفاهه -: نادية شريف العمري، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الاجتهاد في الشريعة الإسلامية: يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، دار القلم، بيروت.
- الاجتهاد المقاصدي (حجيته ضوابطه مجالاته): نور الدين بن مختار الخادمي، العدد (٦٥)، ١٤١٩هـ، من سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.
- الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه في هذا العصر: سيد محمد توانا الأفغانستاني، دار الكتب الحديثة، طبعة ١٩٧٣م.
- الإحكام في أصول الأحكام: الأمدي، سيف الدين علي بن محمد، تحقيق: سيد الجميلي، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- أحكام القرآن: الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي، طبعة ١٤٠٥هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول: الشوكاني، محمد بن

علي بن محمد، تحقيق: أحمد عزو، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

- أصول الفقه المسمى إجابة السائل شرح بغية الأمل: محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق: القاضي حسين السياغي وحسن مقبولي الأهدل، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- إعلام الموقعين عن رب العالمين: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي، تحقيق: طه سعد، ١٩٧٣، دار الجليل، بيروت.

- الأم: الشافعي، محمد بن إدريس، المكتبة الشاملة، والمصدر: موقع يعسوب، والترقيم موافق للمطبوع.

- أنوار البروق في أنواء الفروق: القرافي، أبو العباس، شهاب الدين أحمد ابن إدريس، المكتبة الشاملة، والمصدر موقع الإسلام، والترقيم في النسخة آلي وغير موافق للمطبوع.

- البحر المحيط في أصول الفقه: بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد تامر، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، مطابع الأهرام، القاهرة، ١٩٧٠م.

- تدريس مهارات التفكير: جودت أحمد سعادة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، دار الشروق، عمان، الأردن.

- تربية ملكة الاجتهاد من خلال بداية المجتهد لابن رشد: محمد بولوز، رسالة لنيل شهادة الدكتوراة في الدراسات الإسلامية بكلية الآداب، جامعة فاس،

المغرب .

- التعريفات: الجرجاني، علي بن محمد، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- تعليل الأحكام: محمد مصطفى شلبي، مطبعة الأزهر، ١٩٤٧م.
- التقرير والتحرير: ابن أمير الحاج، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية، لبنان.
- تكوين الملكة الفقهية: محمد عثمان شبير، العدد (٧٢) من سلسلة كتاب الامة، ١٤٢٠هـ، وزارة الأوقاف، قطر.
- تنمية مهارات التفكير: عدنان يوسف العتوم وآخرون، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، دار المسيرة، عمان، الأردن.
- تيسير علم أصول الفقه: عبدالله بن يوسف الجديع، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، مركز البحوث الإسلامية، توزيع مؤسسة الريان.
- الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.
- سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
- سنن الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى، المحقق: بشار عواد معروف، ١٩٩٨، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- سنن الدارمي: عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، المحقق: حسين أسد، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، دار المغني، السعودية.

- السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.
- شرح جمع الجوامع: جلال الدين المحلي، المكتبة الشاملة على الحاسوب، الترقيم غير موافق للمطبوع.
- شرح صحيح البخارى لابن بطلال: أبو الحسن علي بن خلف بن بطلال القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ، مكتبة الرشد، الرياض.
- صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، المحقق: محمد زهير بن ناصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة.
- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- صناعة القائد: طارق سويدان وفيصل باشراحيل، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م، مجموعة الإبداع ومكتبة جرير.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود: محمد شمس الحق العظيم آبادي، المكتبة الشاملة، ومصدره موقع يعسوب.
- غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر: أحمد بن محمد الحموي، المكتبة الشاملة، ومصدر النسخة موقع الإسلام.
- الفتاوى الكبرى: ابن تيمية، أحمد الحراني، تحقيق: محمد حسنين مخلوف، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ، دار المعرفة، بيروت.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري: أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني،

تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، دار الفكر، بيروت.

- الفصول في الأصول: أحمد بن علي الجصاص، تحقيق: عجيل جاسم النشمي، الطبعة الأولى، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، دولة الكويت.

- كشف الأسرار عن أصول البزدوي: البخاري، علاء الدين عبد العزيز بن أحمد، تحقيق: عبد الله محمود عمر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

- لسان العرب: ابن منظور، محمد بن مكرم، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت.

- اللمع في أصول الفقه: أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

- المبسوط: السرخسي، شمس الدين أبو بكر محمد بن أبي سهل، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ، دار الفكر، بيروت.

- المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي: الأشقر، عمر سليمان، الطبعة الأولى، دار النفائس، عمان، ٢٠٠٥م.

- المستصفي من الأصول: الغزالي، أبو حامد محمد، تحقيق محمد الأشقر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- المسند: أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: (شعيب الأرنؤوط وآخرون)، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- معجم لغة الفقهاء: محمد رواس قلعة جي، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ، دار

النفائس، بيروت، لبنان.

- المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى أنيس وآخرون، تحقيق مجمع اللغة العربية.
- المقدمة: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المكتبة الشاملة، مصدرها موقع الوراق، والنسخة مرقمة أليا.
- المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي: محمد فتحي الدريني، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، الشركة المتحدة للتوزيع.
- المنهاج شرح صحيح مسلم: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- مهارات التربية الإسلامية: عبد الرحمن بن عبد الله المالكي، عدد رقم (١٠٦)، من إصدارات كتاب الأمة، وزارة الاوقاف، قطر.
- الموافقات: الشاطبي، إبراهيم بن موسى، تحقيق: عبد الله دراز، طبعة دار المعرفة، بيروت.
- موسوعة الفقه الكويتية: مجموعة من العلماء المعاصرين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة ذات السلاسل، الكويت.
- النهاية في غريب الحديث والأثر: أبو السعادات الجزري، تحقيق: طاهر الزاوي والطناحي، ١٣٩٩هـ، المكتبة العلمية، بيروت.

قائمة المراجع الإلكترونية:

- الإسلام ومهارات التفكير: محمد عبد البديع السيد (مقال مثبت على شبكة الإنترنت موقع مجلة المستقبل الإلكترونية:
(<http://elmustaqbal.own0.com/t170-topic#173>).

- أهمية التفويض: محمد بدره (مقال مثبت على شبكة الإنترنت، موقع النجاح: http://annajah.net/arabic/show_article.shtml?id=61.
- البيان النبويّ لكيفية الاستنباط من آيات الكتاب: بتوقيع أم عبد الله الجزائرية، مقال مثبت على شبكة الإنترنت، موقع ملتقى أهل التفسير: <http://www.tafsir.net/vb/tafsir27822>.
- سياسة الرسول ﷺ التعليمية وأثرها في تطور العلوم: محمد موسى الشريف، بحث مثبت على موقعه الإلكتروني على شبكة الإنترنت، موقع التاريخ: <http://www.altareekh.com>.
- ضرورة الاجتهاد للمحافظة على مواصفات المجتمع الإسلامي: عابد السفياي، مقالة مثبتة على شبكة الإنترنت: <http://islamport.com/w/amm/Web/135/490.htm>.
- فهم المقروء: ريماء الجرف، مقال مثبت على شبكة الإنترنت، موقع جامعة أم القرى: <http://uqu.edu.sa>.
- وقفات يسيرة مع هديه ﷺ في تعليم الصحابة: محمد عبد الله الدويش، مقالة مثبتة على شبكة الإنترنت، وهي جزء من مجلة البيان: <http://mountada.darcoran.org/index.php?showtopic=32957>.

- تم بحمد الله رب العالمين -

مهارة الحفظ والتذكر
مكائنها، وتعزيزيها، وطرق علاج ضعفها
-دراسة تطبيقية تحليلية في المنهج النبوي-

د. علي محمد أبو شكر
جامعة حائل - المملكة العربية السعودية

من أبرز فقرات البحث

«إن الباحث في المنهج النبوي ضمن جوانبه التربوية والمعرفية، ومنها توجيهاته -صلى الله عليه وسلم- في تنمية المهارات للوصول إلى التميز والإبداع، ليخرج بنتيجة مفادها أن هذا المنهج الرباني الموحى من عند الله سبحانه وتعالى لهو المنهج الأساس الذي ينبغي على كل مهتم بالمعرفة الإنسانية، والتربية والتعليم، ومشتغل بها، أن يأخذ منها قواعد ومبادئه، وأن يدقق في أصول ذلك المنهج ليتوصل إلى الطريق القويم في عملية تطوير التعليم.

وتعد مهارة الحفظ والتذكر من العمليات المعرفية الضرورية لدى الإنسان، فهي تشارك عددا من العمليات المعرفية الأخرى التي تساهم في بنية العقل وتطويره، لأجل ذلك وجدنا الاهتمام النبوي في تنمية هذه المهارة وترسيخها».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. تعد مهارة الحفظ والتذكر من العمليات المعرفية الضرورية لدى الإنسان، فهي تشارك عددا من العمليات المعرفية الأخرى التي تساهم في بنية العقل وتطويره، مثل الإدراك والتفكير وغيرهما. وقد عرّف هذه المهارة مجموعة من علماء التربية والسلوك، ومن تلك التعريفات ما ذكره (مولر): «هي العملية العقلية الدالة على تخزين المعلومات واسترجاعها بصورتها الأصلية، ولا يتم ذلك إلا بعد الاكتساب والتعلم»^(١).

فالذاكرة الجيدة تعد غالبا علامة على ارتفاع مستوى الذكاء، ومن الملاحظ أن ذوي الذاكرة الضعيفة جدا يكون أداؤهم ضعيفا في الاختبارات وغيرها^(٢). ومع فقدان مهارة الحفظ والتذكر يفقد معها الإنسان البنيان الأساسي في البناء النفسي والمعرفي، لذا أولت المؤسسات التربوية والتعليمية هذا الجانب من العملية المعرفية رعاية واهتماما، فقدمت لها البرامج المختلفة، من حيث تطويرها، وعلاج مشكلات ضعفها، لما لتلك العملية من آثار إيجابية في عملية التعلم والتعليم.

إن الناظر في التراث الإسلامي ليجد أن علماءنا ومفكرينا نظروا إلى مهارة الحفظ والتذكر نظرة رعاية واهتمام، بل جعلوها أساسا من أساسيات الحفاظ على العلوم الشرعية، وأهم مصادرها: القرآن الكريم، والسنة النبوية، فهناك من الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة ما يدل دلالة واضحة على ذلك، وكذلك النظر في أقوال العلماء الذين امتدحوا مهارة الحفظ والتذكر، بحيث

١- علم النفس التربوي، د.رامي اليوسف، ص ٣٧٥.

٢- المخ البشري، كرستين تمبل، ص ١١٣.

طوروا لها العمليات العقلية التي تعززها، وذمّوا من ضعفت همته، وقل حفظه. ونجد ذلك عيانا في أقوال أهل الصنعة من علماء الحديث، خاصة في علم الجرح والتعديل، في أهمية الحفظ ومكانته من حيث قبول الراوي وتوثيقه، أو في رد روايته وتضعيفه. إن الباحث في المنهج النبوي ضمن جوانبه التربوية والمعرفية، ومنها توجيهاته-صلى الله عليه وسلم- في تنمية المهارات للوصول إلى التميز والإبداع، ليخرج بنتيجة مفادها أن هذا المنهج الرباني الموحى من عند الله سبحانه وتعالى لهو المنهج الأساس الذي ينبغي على كل مهتم بالمعرفة الإنسانية، والتربية والتعليم، ومشتغل بها، أن يأخذ منها قواعده ومبادئه، وأن يدقق في أصول المنهج ليتوصل إلى الطريق القويم في عملية تطوير التعليم.

فالنبي-صلى الله عليه وسلم هو المعلم والمربي، كيف لا؟ وهو من حمل الرسالة العالمية هدى ونورا، وبشيرا ونذيرا. لأجل ذلك رأيت أن أسهم ولو بجزء يسير في تسليط الضوء على جانب من جوانب المنهج النبوي في التربية والتعليم، وخاصة فيما يتعلق بمهارة الحفظ والتذكر، لما رأيت في ذلك من أحاديث تبين مكانة تلك المهارة، وطرق تعزيزها، والأساليب المتنوعة في علاج مشكلات ضعفها. فهو القائل-صلى الله عليه وسلم-: «فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه»^(١). وفي رواية: «فربّ مبلغ أحفظ من سامع»^(٢).

يطرح البحث الإشكالية الآتية: ما مدى التوافق بين قول بعض الباحثين التربويين إن التركيز على مهارة الحفظ والتذكر في العملية التعليمية جهد في غير محله يفوّت على المتعلمين فرصة التعلم المطلوب، فلا يجب الاتكاء على الحفظ والذاكرة؛ فهو تعليم-حسب رأيهم- يقوم على التلقين الذي يلغي العقل، بل يجب إعطاء الفرصة للتفكير الناقد، والتفكير المبدع. وبين اهتمام السنة النبوية

١- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قوله: رب مبلغ أوعى من سامع، ح ٦٧.

٢- سنن ابن ماجه، كتاب العلم، باب من بلغ علما، ح ٢٣٢، صححه الألباني، صحيح ابن ماجه، ج ١، ص ٣٠٤.

بمهارة الحفظ، بصفتها مهارةً من مهارات التعلم، التي يجب التوفيق بينها وبين الملكات الأخرى لضرورة توفير البيئة التعليمية المناسبة التي تعطي مقداراً متوازناً بين العمليات التعليمية المتنوعة.

من هنا جاءت أهداف هذا البحث على النحو الآتي:

- ١- التأصيل لنوع من علوم النفس التربوي وهو علم (النفس المعرفي) من خلال الرجوع إلى الهدي النبوي وتوجيهاته في هذا الشأن، لتبين من خلاله السبق الحضاري الذي حازته الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم فيما يتعلق بالعلوم التربوية.
 - ٢- يسعى البحث إلى توظيف الحديث في استنباط قواعد للتربية الإبداعية، وخاصة في تنمية مهارة الحفظ والتذكر، ومحاولة لإعادة ترتيب تبويب موضوعاته على أسس من المصطلحات العلمية المعاصرة لتمكين الباحثين من الإفادة منه قدر الإمكان.
 - ٣- تُظهر الدراسة أثر الهدي النبوي في تربية الجيل الإسلامي الأول-الصحابة- وانتقال ذلك الأثر إلى تابعيهم والأجيال المتعاقبة من بعدهم.
 - ٤- تبصير الدارسين والمتخصصين في علم التربية بالتراث الإسلامي، وفتح سبل الإفادة من هذا الميراث في واقع الأمة المعاصر ومستقبلها.
- لم أجد- في حدود بحثي- دراسة اعتنت بتقديم دراسة خاصة تبين المنهج النبوي في تنمية مهارة الحفظ والتذكر عند المتعلمين- إلا ما نجده من عناوين في تراجم بعض كتب السنة- بحيث يتم توظيف تلك النصوص الواردة واستنباط الفوائد منها ضمن العلوم التربوية المعاصرة، وصياغتها بأسلوب يفيد الباحثين المعتنين بالعلوم التربوية، وربطهم بالتراث الإسلامي.

تمهيد:

الحفظ لغة واصطلاحاً: يطلق على لفظ الحفظ الضبط. وتعريف الحفظ أو الضبط لغة: ضبط فلان الأمر حفظه بالحزم، أي أنه حازم الفؤاد. ورجل أضبط أي يعمل بيديه جميعاً، أي فيه قوة. وفي كل ذلك دلالة على القوة وشدة اللزوم بين الحافظ والمحفوظ^(١). وجاءت مشتقات لفظ (حفظ) في القرآن الكريم على عدة وجوه في المعنى، فمنها مثلاً ما ذكره الراغب الأصفهاني في مفرداته: «الحِفْظُ يقال تارة لهيئة النفس التي بها يثبت ما يؤدي إليه الفهم، وتارة لضبط الشيء في النفس، ويضاده النسيان، وتارة لاستعمال تلك القوة، فيقال: حَفِظْتُ كذا حِفْظاً، ثم يستعمل في كلِّ تفقّد وتعهد ورعاية»^(٢). واستعمل علماء الحديث أيضاً لفظ الحفظ مرادفاً لمصطلح (الضبط) حيث به تعرف مكانة الراوي ومدى دقته في الرواية. ومراد المحدثين بذلك هو أن يكون الراوي موصوفاً باليقظة وبالحفظ إن حدث من حفظه، وهو ما أطلقوه على ضبط الصدر، بحيث يثبت الراوي ما سمعه مع القدرة على استحضاره عند الحاجة^(٣). فهي في اصطلاح المحدثين: ملكة تؤهل الراوي لأن يروي الحديث كما سمعه من غير زيادة ولا نقصان. ومن بينه خير بيان الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - حين قال: «أن يكون الراوي حافظاً إن حدث من حفظه»^(٤). وجاء لفظ (الحفظ) ومشتقاته أيضاً في استعمالات علماء الجرح والتعديل واصفين بذلك الرواة الذين تؤخذ روايتهم، أو أولئك الذين ترد روايتهم بسبب سوء الحفظ. فمنها على سبيل المثال: «قوي الحفظ، كان ثقة يحفظ الحديث، سيء الحفظ، في حفظه شيء..... وغيرها من الألفاظ»^(٥). ورصدت

١- مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة ضبط.

٢- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ج١، ص٢٤٤، مادة حفظ.

٣- فتح المغيث، السخاوي، ج١، ص٢٦٦.

٤- الرسالة، ص٣٦٩.

٥- دراسات في الجرح والتعديل، محمد ضياء الرحمن الأعظمي. الرفع والتكميل، محمد عبد الحي اللكنوي.

لنا كتب التاريخ ما عُرِف عن العرب في الجاهلية وما بعدها قوة الحافظة، فالأخبار والقصص في ذلك رصدت من المواقف ما دل على عجائب وغرائب إن دلت على شيء فإنها تدل على ما كان يتمتع به أولئك من مهارات وقدرات في ذلك الشأن.

وقد عرّف هذه المهارة مجموعة من علماء التربية والسلوك، ومن تلك التعريفات ما ذكره (مولر): «هي العملية العقلية الدالة على تخزين المعلومات واسترجاعها بصورتها الأصلية، ولا يتم ذلك إلا بعد الاكتساب والتعلم»^(١). فالذاكرة الجيدة تعد غالباً علامة على ارتفاع مستوى الذكاء، ومن الملاحظ أن ذوي الذاكرة الضعيفة جداً يكون أداؤهم ضعيفاً في الاختبارات وغيرها^(٢). فيتضح مما سبق مكانة تلك المهارة وأهميتها، وردّ على بعض الأقوال التي خرجت تنادي بعدم إعطاء هذه المهارة الجانب الوافر في العملية التعليمية بحجة أنها لا تعين على التفكير الناقد أو الإبداعي وأنها تجعل الطلبة عبارة عن أشربة تسمع ما تحفظ فحسب. وقد نسلّم بهذا القول إن كانت العملية مجردة عن الفهم والتفكير، لكن إن اجتمعت مهارة الحفظ إلى جانب المهارات الأخرى لتصبح عملية متكاملة، فمن الخطأ تغليب جانب على آخر، لذا كان من الضروري إعداد المناهج التي تراعي التعددية في اكتساب المهارات، لإنتاج أفراد ذوي مهارات مختلفة، مع التوازن بين النمطية والتنوع. يقول الأستاذ الدكتور عبد الله عويدات عن حال التعليم في الوطن العربي: «فالتعليم حتى هذه اللحظة مغرق في اللفظية، ومغرق في الاتكاء على الذاكرة على حساب التفكير الناقد، والتفكير المبدع، وعلى حد تعبير أحد المفكرين - إن كل طفل من أطفالنا منذ مولده مغموس حتى قدميه بالذاكرة - . إن هذا النموذج من التعليم يقوم على التلقين الذي يلغي العقل»^(٣). ويكفي أن

١ - علم النفس التربوي، د.رامي اليوسف، ص ٣٧٥.

٢ - المخ البشري، كرستين تمبل، ص ١١٣.

٣ - إعداد الطالب لمواجهة القرن الحادي والعشرين، د. عبد الله عويدات، بحث غير منشور، ندوة شومان، ١٩٩٨م، ص ٢٢.

نعرف أن دوائر في الغرب تنظم مسابقات سنوية لطلبة في صفوف ابتدائية تختبر قدراتهم على الحفظ والتذكر في مسائل شتى، من حفظ للشعر، أو للمفردات والتراكيب، أو للمعادلات الرياضية وقوانينها، أو لشخص وأحداث تاريخية. وأقدم هذا الخبر من مجلة (CNN) بتاريخ ١٠ / ٦ / ٢٠١٢ يظهر فيه إعلان لمسابقة في هذا الشأن:

(One of the last places where you still find people passionate about the idea of a disciplined, cultivated memory is a strange contest held each spring in New York called the USA Memory Championship. Contestants compete to see who can memorize the most lines of poetry, the most names of strangers, even the most random digits in five minutes).

وترجمة هذا الإعلان هي: «في إحدى مناطق ولاية نيويورك ما زلت تجد فيها أناسا يجتمعون وينظمون مسابقة في مهارات قوة الذاكرة لدى المشاركين، ففي كل ربيع يجتمع أولئك لعقد مسابقة تحت عنوان (بطولة الولايات المتحدة للذاكرة) حيث يقوم المتسابقون بالمنافسة على تسميع أكبر قدر من النصوص الشعرية، وحفظ أكثر الأسماء غرابة واستحضارها، والأرقام والحسابات العشوائية في أقل فترة ممكنة قد تصل إلى خمس دقائق».

المبحث الأول: رعاية الفئة الموهوبة بمهارة الحفظ والتذكر في السنة النبوية.

المطلب الأول: اختصاصهم في التحمل والأداء لبعض المهام:

إن من يحمل مهارة الحفظ والاستعداد العقلي والنفسي لها، له حق على مجتمعه بالرعاية والعناية، لأن هذه الموهبة تؤهل صاحبها تحمل الأعباء التي توكل إليه، فكان من الواجب الاهتمام بهذه الفئة، وبذل كل جهد من أجل النهوض

بها ورعايتها، فهي تمثل ثروة إنسانية. ومما يدل على أهمية رعاية تلك الفئة، ما وجدناه من اهتمام النبي -صلى الله عليه وسلم- بهم، وما أوكله لهم من مهام، فمنهم من تحمل المسؤولية، وحمل راية الدين، وتحمل هم التبليغ، ففتح الله لهم القلوب، وشيدت من بعدهم حضارة امتدت لعصور، مما يدفعنا -نحن التربويين والأكاديميين- إلى بذل الوسع والطاقة، وتوفير البرامج والوسائل في سبيل العناية بهم، وإشراكهم في تحمل المسؤولية كل حسب كفاءته. وتتضح مدى العناية النبوية بهم فيما رواه أنس بن مالك: قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِيٍّ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ. قَالَ أَبُوٌّ: اللَّهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: اللَّهُ سَمَّكَ لِي. فَجَعَلَ أَبُوٌّ يَبْكِي. قَالَ قَتَادَةُ: فَأُثْبِتُ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾^(١)» قال: وسماني؟ قال: نعم. فبكي^(٢).

قال الحافظ ابن حجر: «وفي رواية: إقرأ على أحد من أصحابك، فقال أبي: فاخترتني أنت؟ قال: نعم. فبكي، قوله فبكي: من شدة الفرح والسرور، أو خوفا من التقصير في شكر النعمة»^(٣). وقال القرطبي: «تعجب أبي من ذلك لأن تسمية الله له ونصه عليه ليقرأ عليه تشریف عظيم»^(٤).

قلت: وفيه التنبيه لفضيلة الصحابي أبي بن كعب وتقدمه في الحفظ، مما جعله يحوز سبق لهذا التكريم، وتوكيله بالمسؤولية في تحمّل القرآن الكريم وأدائه. ومما نجده أيضا من الرعاية والاهتمام لتلك الفئة ما رواه أنس قال: «جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَيَّ عَهْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعَةً كُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ؛ أَبِيٌّ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأَبُو زَيْدٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ. قُلْتُ لِأَنْسٍ: مَنْ أَبُو زَيْدٍ؟ قَالَ: أَحَدُ عُمُومَتِي»^(٥). قال الحافظ

١- سورة البينة، آية ١.

٢- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة لم يكن، ح ٥٠١٢.

٣- فتح الباري، ج ٧، ص ١٢٧.

٤- المرجع السابق، ج ٧، ص ١٢٧.

٥- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب زيد بن ثابت، ح ٣٨١٠. والسائل هنا قتادة راوي الحديث.

ابن حجر: «قوله: «جمع القرآن» أي استظهره حفظاً»^(١). إن في اختيار هؤلاء المذكورين في الحديث، لدلالة على أسلوب الانتقاء والاختيار، وطريقة من طرق التصنيف على أساس الموهبة والكفاءة، والتفوق العلمي، فالبحث عنهم في المجتمع، وتوفير الجو العلمي المناسب لهم، وتوكيل المهام لهم، ضرورة دينية وديوية.

وهذا النوع من التعليم تقوم فلسفته على ما يعرف (بتفريد التعليم) فهو مكون من مكونات نظريات علم النفس المعرفي، ويقوم على مبدأ مراعاة الفروق الفردية، حيث تختلف قدرات الناس، فيتم إعطاء المتميزين تدريبات وتمارين إضافية بحيث تتلاءم مع مستوياتهم ليتم الارتقاء بهم. ونجد في التوجيه النبوي حرصاً على توصيل العلم إلى أولئك الفئة، لأن الفائدة المرجوة من ذلك العلم قد تتحقق فيهم أكثر من غيرهم، فالأصل الحرص على تعليمهم وتنمية قدراتهم. وأصرح حديث في ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»^(٢). وفي رواية: «فَرَبٌّ مُبَلِّغٌ أَحْفَظُ مَنْ سَامِعٍ»^(٣).

روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود: «عَلَّمَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّشْهُدَ وَأَمَرَهُ أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ»^(٤). وفي سبب اختيار ابن مسعود لهذه المهمة ما نجد إجابته في حديث آخر حين كان غلاماً ولقي النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، قَالَ: فَمَسَحَ رَأْسِي، وَقَالَ: «يُرَحِّمُكَ اللَّهُ فَإِنَّكَ غُلِيْمٌ مُعَلَّمٌ». وفي رواية: «فَأَخَذْتُ مِنْ فِيهِ سَبْعِينَ سُورَةً، لَا يَنَازِعُنِي فِيهَا أَحَدٌ»^(٥).

١- فتح الباري، ج٧، ص١٢٧.

٢- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قوله: رب مبلغ أوعى من سامع، ح٦٧.

٣- سنن ابن ماجه، كتاب العلم، باب من بلغ علماً، ح٢٣٢، صححه الألباني، صحيح ابن ماجه، ج١، ص٣٠٤.

٤- مسند أحمد، ج٦، ص٢٨. صححه شعيب الأرنؤوط في التحقيق.

٥- المرجع السابق، ج٦، ص٨٣. حسنه شعيب الأرنؤوط في التحقيق.

المطلب الثاني: التقديم والقيادة:

هياً الله تعالى نبيه الكريم لتحمل أعباء الرسالة، وهو القائل سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(١). فكان من تقدير الله تعالى بأن ملاً قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حكمة وإيماناً، وصفاء ذهن وفؤاد ليتلقى الوحي، حيث استشعر النبي - صلى الله عليه وسلم - عظم الأمانة، حتى أنه مع بداية نزول القرآن الكريم كان يحرك به لسانه خشية أن يتفلت منه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ حَرَكَ بِهِ لِسَانَهُ، يُرِيدُ أَنْ يَحْفَظَهُ، فَانزَلَ اللَّهُ: «لَا تَحْرُكَ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ»^(٢).

قال الطبري: «فقال بعضهم: قيل له ذلك، لأنه كان إذا نزل عليه منه شيء عجل به، يريد حفظه من حبه إياه، فقيل له: لا تعجل به فإننا سنحفظه عليك»^(٣). إن تقديم أصحاب الكفاءات والمؤهلين، أمانة يتحملها أصحاب القرار في كل مجتمع، فكان لا بد من توجيه الجهود في البحث عن المؤهلين والموهوبين لتحميلهم جانباً من المسؤوليات، ومنهم فئة من يملك ملكة الحفظ، فالأصل البحث عنهم، لما لهم من قدرة على التواصل والتوصيل، وإقناع الآخرين، ولما لهم من مهارات في ترتيب الأفكار وتنظيمها، واستحضارها عند اللزوم.

وهناك من المواقف في السيرة النبوية ما يدل على رعاية تلك الفئة، وتقديمها على غيرها في بعض المهام بما حازته من مواهب عقلية دون النظر إلى أي اعتبارات أخرى. عن ابن عمر قال: «لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ الْعُصْبَةَ مَوْضِعَ بَقْبَاءَ قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يُؤْمَهُمْ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ وَكَانَ

١- سورة المزمل، آية ٥.

٢- صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، ح ٥٠. صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة، ح ٤٤٨.

٣- جامع البيان، ج ١٧، ص ٥٧٧.

أَكْثَرَهُمْ قُرْآنًا»^(١). وفي رواية أبي داود: «وَفِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ»^(٢). قال الطيبي: «فيه إشارة إلى أن سالما مع كونه مفضولا كان أقرأ، وهو معدود في القراء، لأنه كان يحفظ منه كثيرا»^(٣). ومما يدل على هذه الرعاية، وعلى تقدم أصحاب المواهب في الحفظ على غيرهم قصة عمرو بن سلمة وقدراته العقلية في الحفظ، والتي من الله بها عليه منذ نعومة أظفاره، حيث روى البخاري من طريق أيوب عن أبي قلابة أنه سأل عمرو بن سلمة فقال: «كُنَّا بَمَاءِ مَمَّرِ النَّاسِ، وَكَانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكْبَانَ، فَسَأَلَهُمْ مَا لِلنَّاسِ مَا هَذَا الرَّجُلُ، فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ - أَوْحَى إِلَيْهِ أَوْ أَوْحَى اللَّهُ بِكَذَا - فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الْكَلَامَ، وَكَأَنَّمَا يُقَرُّ فِي صَدْرِي، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَلَوُّمَ بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ، فَيَقُولُونَ أَتُرْكُوهُ وَقَوْمُهُ فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقَعَةُ أَهْلَ الْفَتْحِ بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: جِئْتُكُمْ وَاللَّهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقًّا، فَقَالَ: صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينَ كَذَا، وَصَلُّوا كَذَا فِي حِينَ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فليُؤذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَليُؤمِّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا، فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي، لَمَّا كُنْتُ أَتَلَّقِي مِنَ الرُّكْبَانَ فَقَدُمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتِّ أَوْ سَبْعِ سَنِينَ، وَكَانَتْ عَلَيَّ بُرْدَةٌ كُنْتُ إِذَا سَجَدْتُ تَقَلَّصْتُ عَنِّي. فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْحَيِّ: أَلَا تَغْطُوا عَنَّا اسْتَقَارَتِكُمْ، فَاسْتَرَوْا فَقَطَّعُوا لِي قَمِيصًا، فَمَا فَرَحْتُ بِشَيْءٍ فَرَحِي بِذَلِكَ الْقَمِيصِ»^(٤). قال الحافظ ابن حجر: «فكأنما يقر: من القرآن، وفي رواية بزيادة ألف مقصورة، من التقرية، أي يُجمع، وللإسماعيلي «يعرَى» بغين معجمة، أي: يلصق بالغراء. وفي الحديث حجة للشافعية في إمامة الصبي المميز في الفريضة»^(٥). وفي رواية عند أبي داود يقول عمرو بن سلمة عن نفسه:

١ - صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب إمامة العبد والمولى، ح ٦٩٢.

٢ - سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب مَنْ أَحَقَّ بِالإِمَامَةِ، ح ٥٨٨.

٣ - مرقاة المفاتيح، ج ٣، ص ٨٦٨.

٤ - صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب منه، ح ٤٣٠٢.

٥ - فتح الباري، ج ٨، ص ٢٣.

«وَكُنْتُ غُلَامًا حَافِظًا»^(١). أي أملك مهارة الحفظ والتذكر منذ كنت صغيراً، حيث وظّف تلك المهارة في حفظ كلام الله تعالى من حين سماعه، وخدمته تلك الموهبة بأن قدّمه الناس، وشهدوا له بالتفوق. حتى إن النبي -صلى الله عليه وسلم- جعل مهر امرأة يقدمه لها رجل على ما يحفظ من القرآن الكريم، وفي هذا دلالة على مكانة الحفظ في الإسلام، وأنها شاهد على رجاحة العقل وأهلية صاحبه، حيث قال النبي -صلى الله عليه وسلم- حين عرض عليه رجل خطبة امرأة فقال له: «مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: مَعِيَ سُورَةٌ كَذَا، وَسُورَةٌ كَذَا، وَسُورَةٌ كَذَا، عَدَّهَا، قَالَ: «اتَّقِرُوهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «اِذْهَبْ فَقَدْ مَلَكَتْكِهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٢). ونقرأ في سيرة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه كان يدني الحفاظ والعلماء من مجلسه، وخاصة الذين يقرءون القرآن ويحفظونه، حيث ذكر البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قَدِمَ عِيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ، وَمُشَاوِرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شَبَابًا»^(٣).

المطلب الثالث: المرجعية في توثيق المعلومة:

مما لا شك فيه أن نسيان بعض تفاصيل حادثة، أو قصة، أو رواية حاصل في حياة الناس، فهو من طبائع البشر، فلا بد من وجود أناس من أهل العلم والاختصاص يكونون بمثابة مراجع موثوقة يرجع لهم عند الحاجة، ملكوا مهارة الحفظ والتذكر، ذاع سيّطهم، وعرفهم الناس. وهذا الأمر كان في هديه -صلى الله عليه وسلم-، فمن سيرته أنه كان في بعض الأحيان يحب الاستماع إلى القرآن الكريم من بعض الصحابة وعليه أنزل، تعليماً منه لهذا المنهج، بأن يتوثق الإنسان من معلومته مهما

١- سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب من أحق بالإمامة، ح ٥٨٥.

٢- صحيح البخاري، كتاب فضال القرآن، باب القراءة عن ظهر قلب، ح ٥٠٣٠.

٣- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب خذ العفو وأمر بالعرف، ح ٤٦٤٢.

كانت مكانته من العلم والمعرفة، فلعل بعضهم حفظ ما نسيه. روى الإمام البخاري في صحيحه والإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: رَحِمَهُ اللهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا، آيَةً أَسْقَطْتُهُنَّ مِنْ سُورَةٍ كَذَا وَكَذَا»^(١). والنسيان من النبي -صلى الله عليه وسلم- لشيء من القرآن -كما ذكر بعض أهل العلم- يكون على قسمين: أحدهما نسيانه الذي يتذكره عن قرب، وذلك قائم بطباع البشرية، والثاني إرادة النسخ، فأما القسم الأول فعارض سريع الزوال. وبين بعض الأصوليين إنه لا يقع منه نسيان أصلاً، وإنما يقع منه صورته لِيَسُنَّ^(٢).

وقد أخذ الصحابة هذا المنهج وحملوه على خير وجه، فكان من حرصهم -رضي الله عنهم- التثبت في الرواية والتحري فيها، فهم لا يروون شيئاً من الحديث حتى يتم التوثق منه، فإن حصل واحتيج في مسألة إلى الدليل الصحيح فيها كان الحفاظ منهم بمثابة المرجع الموثوق يُرجع إليه فيذكرون ما عندهم من حفظهم ما ورد في تلك المسألة. وعن سمرّة بن جندب قال: «لَقَدْ كُنْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غُلَامًا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا أَنْ هَاهُنَا رَجُلًا هُمْ أَسْنُّ مِنِّي، وَقَدْ صَلَّيْتُ وَرَاءَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى امْرَأَةٍ مَاتَتْ فِي نَفْسِهَا، فَقَامَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ وَسَطَّهَا»^(٣).

وهذا ابن مسعود لَبَّى حِينَ أَفَاضَ مِنْ جَمْعٍ. فَقِيلَ: «أَعْرَابِي هَذَا؟! فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: «أَنْسِيَ النَّاسُ أَمْ ضَلُّوا؟ سَمِعْتُ الَّذِي أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ يَقُولُ فِي هَذَا الْمَكَانِ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ»^(٤). ففي قولهم: «أعرابي هذا» استنكاراً منهم لفعله،

١- صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب شهادة الأعمى، ح ٢٦٥٥

٢- فتح الباري، ج ٩، ص ٨٥.

٣- صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب أين يقوم الإمام من الميت، ح ٩٦٤.

٤- صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب إدامة الحاج التلبية حتى يشرع في رمي جمرة العقبة يوم النحر، ح ٣٥١٢.

وبأنه يجهل الحكم، فبين لهم ابن مسعود الحكم الشرعي في المسألة وأخرج لهم ما يحفظ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وذكر الإمام مسلم رواية من طريق عبد الله بن رباح عن أبي قتادة حديثاً طويلاً وفيه قصة، والشاهد منه أن عبد الله بن رباح قال: «إِنِّي لِأَحَدْتُ هَذَا الْحَدِيثَ فِي مَسْجِدِ الْجَامِعِ، إِذْ قَالَ عُمَرَانُ ابْنُ حُصَيْنٍ: انْظُرْ أَيُّهَا الْفَتَى كَيْفَ تُحَدِّثُ فَإِنِّي أَحَدُ الرُّكْبِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، قَالَ: قُلْتُ فَإِنَّتَ أَعْلَمُ بِالْحَدِيثِ. فَقَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: مِنَ الْأَنْصَارِ. قَالَ: حَدِّثْ فَإِنَّتُمْ أَعْلَمُ بِحَدِيثِكُمْ. قَالَ: فَحَدَّثْتُ الْقَوْمَ. فَقَالَ عُمَرَانُ: لَقَدْ شَهِدْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَمَا شَعَرْتُ أَنَّ أَحَدًا حَفِظَهُ كَمَا حَفِظْتُهُ»^(١). فهذه شهادة من صاحبي لأحد التابعين بأن يحدث بهذا الحديث، وأن يصبح مصدرًا من مصادر تلك الرواية، فأعطاه التعزيز وأيده، لمجرد أنه امتلك مهارة الحفظ والتذكر، فهو مؤهل لحمل تلك الأمانة.

المطلب الرابع: المرجعية في الترجيح عند الاختلاف:

إن الاختلاف واقع لا محالة بين بني البشر. لكن القضية كيف يتم الترجيح عند الاختلاف، فهي من المسائل التي طرحها العلماء، ووضعوا لها القواعد والضوابط، ومن تلك الضوابط النظر في حال الراوي من حيث قوة حفظه وضبطه، والقرائن التي تحتف بها روايته، كأن يكون هو صاحب القصة، أو عُرف عنه شدة حفظه ودقته، وغيرها من مسائل الترجيح وذلك للوصول إلى دقة المعلومة وتوثيقها. قال الإمام الشافعي: «يُسْتَدَلُّ عَلَى حِفْظِ أَحَدِهِمْ بِمُوَافَقَةِ أَهْلِ الْحِفْظِ، وَعَلَى خِلَافِ حِفْظِهِ بِخِلَافِ حِفْظِ أَهْلِ الْحِفْظِ لَهُ. وَإِذَا اخْتَلَفَتِ الرِّوَايَةُ اسْتَدَلَّلْنَا عَلَى الْمَحْفُوظِ مِنْهَا وَالْغَلَطِ بِهَذَا، وَوَجُوهٍ سِوَاهُ، تُدَلُّ عَلَى الصِّدْقِ وَالْحِفْظِ وَالْغَلَطِ»^(٢).

١- صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة، ح ٣١١.

٢- الرسالة، ص ٣٨٠.

وَعَنْ شَقِيقٍ قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَجْنَبَ فَلَمْ يَجِدِ الْمَاءَ شَهْرًا، أَمَا كَانَ يَتِيمٌ وَيُصَلِّي، فَكَيْفَ تَصْنَعُونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا»؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَوْ رُخِّصَ لَهُمْ فِي هَذَا لَأَوْشَكُوا إِذَا بَرَدَ عَلَيْهِمُ الْمَاءُ أَنْ يَتَيَمَّمُوا الصَّعِيدَ. قُلْتُ: وَإِنَّمَا كَرِهْتُمْ هَذَا لَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ أَبُو مُوسَى: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ عَمَّارٍ لِعُمَرَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَاجَةٍ، فَأَجْنَبْتُ فَلَمْ أَجِدِ الْمَاءَ، فَتَمَرَّغْتُ فِي الصَّعِيدِ كَمَا تَمَرَّغُ الدَّابَّةُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَصْنَعَ هَكَذَا، فَضْرَبَ بِكَفِّهِ ضَرْبَةً عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ نَفَضَهَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهَا ظَهَرَ كَفِّهِ بِشِمَالِهِ أَوْ ظَهَرَ شِمَالِهِ بِكَفِّهِ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَفَلَمْ تَرَ عُمَرَ لَمْ يَقْنَعْ بِقَوْلِ عَمَّارٍ؟»^(١). وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ النَّسَائِيِّ: «فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ يَا عَمَّارُ. فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّ شَيْئًا لَمْ أَذْكُرْهُ. قَالَ: لَا، وَلَكِنْ نُؤَلِّيكَ مِنْ ذَلِكَ مَا تَوَلَّيْتَ»^(٢).

نقل الحافظ ابن حجر عن النووي في ذلك: «معنى قول عمر: اتق الله يا عمار أي فيما ترويه وتثبت فيه فلعلك نسيت أو اشتبه عليك فإني كنت معك ولا أتذكر شيئاً من هذا. ومعنى قول عمار: إن رأيت المصلحة في الإمساك عن التحديث به راجحة على التحديث به وافقتك وأمسكت فإني قد بلغته فلم يبق علي فيه حرج. فقال له عمر: نوليكَ ما توليت، أي لا يلزم من كوني لا أتذكره أن لا يكون حقاً في نفس الأمر فليس لي منعك من التحديث به»^(٣).

ويختلف سمرة بن جندب وعمران بن حصين، قال سمرة: «سَكَّتَانِ حَفِظْتَهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ، وَقَالَ: حَفِظْنَا

١- صحيح البخاري، كتاب التيمم، باب التيمم ضربة، ح ٣٤٧.

٢- سنن النسائي، كتاب الطهارة، باب نوع آخر من التيمم، ح ٣١٦.

٣- فتح الباري، ج ١، ص ٤٥٧.

سَكَنَةً! فَكَتَبْنَا إِلَى أَبِي بَنِ كَعْبٍ بِالْمَدِينَةِ فَكَتَبَ أَبِي أَنْ حَفِظَ سَمْرَةَ»^(١). فمن حفظ حجة على من لم يحفظ. وكذلك في مسألة الشهادات يؤخذ بعين الاعتبار في شروط الشهادة مدى ضبط الواقعة وحفظها، وذلك بالنظر إلى القرائن المحتفة في أداء الشهادة، بحيث تخف معها احتمالية النسيان، أو الخلط. ومن ذلك لو نظرنا إلى قول الله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^(٢). قال القرطبي: «أجيزت شهادتهن في الأموال خاصة في قول الجمهور بشرط أن يكون معهما رجل، وإنما كان ذلك في الأموال دون غيرها، وأجاز العلماء شهادتهن منفردات فيما لا يطَّلَعُ عليه غيره للضرورة»^(٣). وقال الخازن في باب التأويل: «وقوله تعالى: «أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا» أي تنسى إحدى المرأتين فتذكر إحدى الأخرى لأن الغالب على طباع النساء النسيان فأقيمت المرأتان مقام الرجل الواحد حتى لو نسيت إحداهما تذكرها الأخرى فتقول حضرنا مجلس كذا وسمعنا كذا فيحصل بذلك الذكرى»^(٤). فشهادة المرأة مما اختلف فيها الفقهاء فيما يخص العدد، أو في الأمور التي تجوز فيها شهادتها، ومع هذا قبل أهل العلم شهادتها منفردة في القضايا التي تكون فيها القرينة من حيث تذكرها أكثر، وضبطها للواقعة فيها أدق، كشهادتها في النكاح أو الرضاع وغيرهما^(٥).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: «تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُكُمْ، فَاتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «وَكَيْفَ وَقَدْ قِيلَ، دَعَاهَا عَنْكَ، أَوْ نَحْوَهُ»^(٦). فهنا أخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- بشهادة المرأة، وما حفظته في

١- سنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب مَنْ أَحَقُّ بِالْإِمَامَةِ، ح ٢٥٢، قال الترمذي: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

٢- سورة البقرة، آية ٢٨٢.

٣- أحكام القرآن، ج٣، ص ٣٩١.

٤- باب التأويل، ج١، ص ٢١٦.

٥- مغني المحتاج، الخطيب الشربيني، ج٦، ص ٣٨٦ وما بعدها. حاشية ابن عابدين، ج٥، ص ٤٧٣ وما بعدها.

٦- صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب شهادة المرضعة، ح ٢٦٦٠.

القضية لأنها أدعى للتذكر في هكذا حوادث أكثر من غيرها. وفي المقابل نجد أن عمر بن الخطاب رد قول فاطمة بنت قيس بعدم وجوب السكنى والنفقة للمطلقة ثلاثا بقوله المشهور: «لَا تَرُكُ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْلِ امْرَأَةٍ لَا نَدْرِي لَعَلَّهَا حَفِظَتْ أَوْ نَسِيَتْ، لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ»^(١). وهذه مسألة مما اختلف فيها العلماء من حيث القول بسقوط السكنى، أو النفقة، أو ثبوتها، أو ثبوت أحدهما، ومن قال بسقوطهما احتج بما حفظته فاطمة بنت قيس^(٢).

المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في تعزيز مهارة الحفظ والتذكر وعلاج ضعفها في السنة النبوية

المطلب الأول: عامل الإيمان والتقوى في تنمية المهارة:

قال الله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾^(٣). وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤). ففي عطف العلم على أمره بالتقوى إحياء بأن التقوى سبب لإفاضة العلوم وتحصيلها، والتوفيق فيها، فالأصل النية الخالصة في تحصيله. إن الاستعداد الإيماني إلى جانب الاستعداد الذهني من العوامل التي تؤثر على القدرات العقلية عند الإنسان، ومنها مهارة الحفظ، وهذا مما أدركه الصحابة - رضوان الله عليهم جميعا - فقد حرصوا على نيل الدعاء وبركته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لحفظ دينهم وأبدانهم، وأن يعلمهم الحكمة، ويحفظها عليهم. ذكر أبو هريرة - رضي الله عنه - عن نفسه أنه قال: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي سَمِعْتُ مِنْكَ كَثِيرًا فَأَنْسَاهُ، قَالَ: ابْسُطْ رِدَاءَكَ، فَبَسَطْتُ فَغَرَفَ بِيَدِهِ فِيهِ ثُمَّ قَالَ: ضُمَّهُ، فَضَمَّمْتُهُ فَمَا نَسِيتُ حَدِيثًا بَعْدُ»^(٥). وهذا ابن عباس

١ - صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثا، ح ١٤٨٠.

٢ - شرح النووي على مسلم، ج ١٠، ص ٩٥.

٣ - سورة الكهف، آية ٢٤.

٤ - سورة البقرة، آية ٢٨٢.

٥ - صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب منه، ح ٣٦٤٨.

- رضي الله عنهما- يقول: «ضَمَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ»^(١). أي: حفظه ألفاظه وفهمه معانيه. وقد مر حديث ابن مسعود حين لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، قَالَ: فَمَسَحَ رَأْسِي، وَقَالَ: «يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَإِنَّكَ غُلِيمٌ مُعَلَّمٌ». وفي رواية: «فَأَخَذْتُ مِنْ فِيهِ سَبْعِينَ سُورَةً، لَا يُنَازِعُنِي فِيهَا أَحَدٌ»^(٢). قال الإمام الشافعي: «ليس العلم ما حُفِظَ، العلم ما نَفَعَ. ومن ذلك دوام السكينة، والوقار والخشوع والتواضع لله والخضوع»^(٣). ونعلم تحذير النبي -صلى الله عليه وسلم- من تعلم العلم رياء، ومباهاة، فقد روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيَجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيَمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^(٤). وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ... وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَتَىٰ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ! ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(٥).

وإذا كانت التقوى من أعظم أسباب تحصيل العلم والانتفاع به، فالمعاصي من أعظم أسباب نسيان العلم ومحق بركته والعياذ بالله، قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ

- ١- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب اللهم علمه الكتاب، ح ٧٥.
- ٢- مسند أحمد، ج٦، ص ٨٣. قال شعيب الأرنؤوط في التحقيق: صحيح.
- ٣- تذكرة السامع، ابن جماعة، ص ١٥.
- ٤- سنن الترمذي، كتاب العلم، باب فيمن يطلب علمه لنديا، حسنه الألباني، صحيح الترمذي، ج٦، ص ١٥٤.
- ٥- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قتل رياء، ح ١٩٠٥.

أَوْ تَرُكُّهُ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾. قال البغوي: «قال عطاء: هذه أشد آية على العلماء، وذلك أن الله أخبر أنه آتاه آياته من اسمه الأعظم والدعوات المستجابة، والعلم والحكمة، فاستوجب بالسكون إلى الدنيا واتباع الهوى تغيير النعمة، والانسلاخ عنها، ومن الذي يسلم من هاتين الخلتين إلا من عصمه الله»^(٢). قال الشافعي: شكوت إلى وكيع سوء حظي..... فأرشدني إلى ترك المعاصي وقال اعلم بأن العلم نور..... ونور الله لا يؤتاه عاصي

المطلب الثاني: المنافسة والبحث عن التفوق:

إن التنافس في أمور الخير أمر امتدحه الشرع، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾^(٣). ولا يليق بأهل العلم تعاطي المنافسة والشحناء على الدنيا، لأنها سبب العداوة والبغضاء، بل يجب أن يكون التنافس خالصاً لله تعالى، لتتحصل الفائدة في الدنيا، والسعادة في الآخرة. يرى هوارد غاردنر—أحد علماء علم النفس— أن علاقة الباحث عن التفوق والمنافس في التعلم بميدان معين تبدأ بمرحلة مبكرة من عمره، حيث تبدأ هذه العلاقة على شكل ميل، أو تفضيل لموضوع، أو تخصص، ثم ينمو هذا الميل ليصبح ولعاً بالموضوع في مراحل العمر اللاحقة، ويتمثل هذا بالانكباب على قراءته، وحفظه، وفهم مشكلاته. ويضيف غاردنر على تفسير نظريته أن هذا السلوك يتألف من ثلاثة مكونات، فإن فقد أحدها فقد معها الإبداع والتفوق. والمكونات الثلاث هي:

(١) الفرد المبدع (٢) ميدان الإبداع (٣) الحكماء المختصون الذي يحفزون

١- سورة الأعراف، الآيات من ١٧٥ إلى ١٧٧.

٢- مختصر تفسير البغوي، ج١، ص ٣٢٤.

٣- سورة المطففين، آية ٢٦.

تلك الطاقات^(١).

وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحث صحابته على التنافس في العلم، وأيهم يحفظ أكثر مما يصدر عنه، والحرص عليه. عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ فِي يَدِهِ لَيَأْتِينَ عَلَى أَحَدِكُمْ يَوْمٌ وَلَا يَرَانِي، ثُمَّ لَأَنْ يَرَانِي أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ مَعَهُمْ»^(٢). فمقصود الحديث حثهم على ملازمة مجلسه الكريم، ومشاهدته، للتأدب، وتعلم الشرائع وحفظها وتبليغها. ولأن التنافس في العلم يورث صاحبه الهمة والعزم، وإرادة التفوق على قرائه، فيعطي الدافعية (motivation) للعلم والتعلم، هذا مع توفير البيئة، والجو المناسب للإبداع والتفوق. وقد كان الصحابة -رضي الله عنهم- يبحثون دوما عن التفوق والسبق في تبليغ العلم، وأيهم يحفظ أكثر، قال ابن مسعود عن نفسه: «قَرَأْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْعِينَ سُورَةً، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ لَهُ ذُوَابَةٌ فِي الْكِتَابِ»^(٣). ومعلومة مكانة ابن مسعود في المسائل المتعلقة بالمصاحف ورسمها وروايتها.

فهذا الشغف والاهتمام بدأ في مراحل مبكرة من عمره، وتم تعزيزه من قبل النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى وصل إلى ما وصل إليه من علم. ولننظر إلى حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- الذي يقول فيه: «إِنَّكُمْ تَقُولُونَ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقُولُونَ مَا بَالَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ لَا يُحَدِّثُونَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانُوا يَشْغَلُهُمْ صَفْقُ الْأَسْوَاقِ، وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مِلءِ بَطْنِي، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا، وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا، وَكَانَ

١- الإبداع، د. فتحي جروان، ص ٥١.

٢- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل النظر إليه، ح ١٤٢.

٣- مسند أحمد، ج ٦، ص ٢٢٥. قال شعيب الأرنؤوط في التحقيق: حديث صحيح.

يَسْغَلُ إِخْوَتِي مِنَ الْأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ، وَكُنْتُ أَمْرًا مَسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ،
 أَعْيَ حِينَ يَنْسُونَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثٍ يُحَدِّثُهُ
 إِنَّهُ لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ ثُوبَهُ حَتَّى أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ، ثُمَّ يَجْمَعُ إِلَيْهِ ثُوبَهُ إِلَّا وَعَى مَا
 أَقُولُ، فَبَسَطْتُ نَمْرَةً عَلَيَّ حَتَّى إِذَا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ
 جَمَعْتُهَا إِلَى صَدْرِي، فَمَا نَسِيتُ مِنْ مَقَالَةٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ مِنْ
 شَيْءٍ»^(١).

قال الحافظ ابن حجر: «في هذه القصة دلالة على تميز أبي هريرة في الحفظ،
 وعدم مبالاة الحافظ بإنكار من لم يحفظ»^(٢). قلت: وفيه أيضا بيان لهذا الميل وتلك
 الرغبة من أبي هريرة في تحصيل العلوم وحفظها، وخاصة أن إسلامه جاء متأخرا،
 فأراد أن ينافس في هذا الخير، ويلحق ما فاته من حديث، ووجد الميدان الملائم
 للتنافس في الطاعة والدين، حتى لقي من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رعاية
 لتلك الموهبة، فوصل به لهذا الإبداع والتفوق في حفظ حديث رسول الله -صلى
 الله عليه وسلم- فأصبح يعد من المكثرين بين الرواة من الصحابة -رضي الله عنهم
 جميعا-. ومعلوم أن بعض الصحابة كان يتخصص في مجال معين، يهتم به،
 ويتقنه، فما كان من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا أن عزز هذا الاهتمام
 ونمّاه في نفوسهم، مثل حذيفة بن اليمان، وابن عباس، ومعاذ بن جبل، وزيد بن
 ثابت وغيرهم من الذين تميزوا في تخصصات معينة^(٣). روى الترمذي من طريق
 عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «خَرَجَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنْ عِنْدِ
 مَرَوَانَ نَصَفَ النَّهَارَ، قَلْنَا مَا بَعَثَ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا لَشَيْءٍ سَأَلَهُ عَنْهُ، فَقُمْنَا
 فَسَأَلْنَاهُ فَقَالَ: نَعَمْ سَأَلْنَا عَنْ أَشْيَاءَ سَمِعْنَاهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
 سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا

١- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إذا قضيت الصلاة، ح ٢٠٤٧.

٢- فتح الباري، ج ٣، ص ١٩٥.

٣- أسباب تفوق الصحابة في ضبط الحديث، د. محمد عيد الصاحب، ود. سلطان العكايلة، ص ٢٤.

فَحَفَظَهُ، حَتَّى يَبْلُغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فَقَّهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَقَّهِ لَيْسَ بِفَقِيهِ»^(١). قال المباركفوري شارحاً معنى الحديث: «المعنى: خصه الله بالبهجة والسرور لما رزق بعلمه ومعرفته من القدر، والمنزلة بين الناس في الدنيا ونعمه في الآخرة حتى يرى عليه رونق الرخاء والنعمة، ثم قيل: إنه إخبار يعني جعله ذا نضرة. وقيل: دعاء له بالنضرة، وهي البهجة والبهاء في الوجه من أثر النعمة. وقوله: (فحفظه) أي بالقلب أو بالكتابة»^(٢). ونلاحظ من الرواية اختيار مروان بن الحكم لزيد بن ثابت -رضي الله عنه- ليحدثه، ودلالة ذلك على الخصوصية، والمكانة العلمية التي يتمتع بها زيد بن ثابت في حفظه لحديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقوة أدائه له، فكان مرجعاً علمياً يرجع له عند الحاجة، كل ذلك نتج عن التزامه توجيهات النبي -صلى الله عليه وسلم- بحفظ حديثه، والتنافس في تحصيله، حتى ينال شرف ذلك الدعاء وبركته.

المطلب الثالث: التسميع والمذاكرة:

ذكر علماء التربية مصطلح (التسميع) والتي تعتمد على تكرار ما يحفظ، وعرفوها: «الطريقة التي يردد بها الفرد المعلومات ترديدا لفظيا كي يتم حفظها في الذاكرة». وترجع أهميته إلى أنه يساعد طلبة العلم على الاحتفاظ بالمعلومات في حالة نشطة باستمرار في مخزن الذاكرة^(٣). وهو ما عبر عنه علماءنا السابقون (بالمذاكرة) وهي أسلوب ووسيلة رئيسية لتثبيت الحفظ وتمكينه، فعلى طالب العلم أن يذاكر بمحفوظاته الذي يحفظ من كان مثله في المرتبة، أو فوقه، أو تحته، فإن المذاكرة تثبت الحفظ، وتحرره وتقرره، ويزداد بحسب كثرة المذاكرة^(٤). وقله المراجعة والمذاكرة تورث عند الإنسان النسيان، وهي آفة تصيب الذهن

١- سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، ح ٢٦٥٦، قال الترمذي: حسن.

٢- تحفة الأحوذى، ج٧، ص ٣٤٨.

٣- سيكولوجية التعليم، د. جابر عبد الحميد، ص ١٧٧.

٤- تذكرة السماع والمتكلم، ابن جماعة، ص ٧٥. النظم التعليمية عند المحدثين، مكي أفلاينة، ص ٧٦.

والذاكرة، والنسيان الذي يكون عن إهمال وتقصير مذموم، على خلاف النسيان الذي هو من طبائع البشر، ومن هنا يفهم معنى حديث: «بَسَّ مَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتٍ وَكَيْتٍ، بَلْ نُسِي، وَاسْتَذَكَّرُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنْ صُدُورِ الرَّجَالِ مِنَ النَّعْمِ»^(١). فيلاحظ من الحديث اللفظة الأولى (نسييت) بالتخفيف فيه إشعار بعدم التقصير، وهذا غير حاصل، وإنما جاء التوجيه بالثقل (نسييت) وفي معناه أنه عوقب بوقوع النسيان عليه لتفريطه في معاهدته واستذكاره^(٢). ومن هنا جاء التوجيه من النبي -صلى الله عليه وسلم- بتعاوده، واستعمال المحفزات والمساعدات على الحفظ والتذكر، وتنشيط الذاكرة. جاء في حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ»^(٣). وقد اتضح أن من أهداف المذاكرة تثبيت الحفظ، ويظهر هذا الهدف جليا في حديث أنس -رضي الله عنه- قال: «نَا نَكُونُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَبْمَا كُنَّا نَحْوًا مِنْ سِتِّينَ إِنْسَانًا، فَيُحَدِّثُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَقُومُ فَتَرَجَعُهُ بَيْنَنَا، هَذَا وَهَذَا وَهَذَا، فَتَقُومُ، وَكَأَنَّمَا قَدْ زُرِعَ فِي قُلُوبِنَا»^(٤).

المطلب الرابع: أسلوب الأداء والإلقاء:

أساليب الأداء والإلقاء من الأمور التي اهتم بها التربويون، لما لها من دور بالغ الأهمية في عملية التعليم والتواصل بين المتلقي والمدرس، فهي تعين على تمكين الحفظ، وبالتالي على استحضار المخزون عند الحاجة إليه. ويمكننا أن نتوصل إلى ما اختطه المنهج النبوي من أساليب بليغة بلغت مستوى راقيا من المنهاج التربوي المتكامل والذي كان له وقع عظيم، وأثر تربوي تعليمي في نفوس

١- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن، ح ٥٠٣٢.

٢- مرقاة المفاتيح، ج٤، ص ١٤٩.

٣- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر قلب، ح ٥٠٣١.

٤- الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي، ج٢، ص ١٢٧.

المسلمين. وقد وجدنا في هديه-صلى الله عليه وسلم- الأساليب المتنوعة في تبليغ الحكمة والمواعظ حتى لقيت في القلوب مستودعها، ووعتها أذهانهم حفظا وتبليغا. حيث ذكر بعض الباحثين أساليب نبوية كثيرة تعين على الحفظ والتذكر مثل: استخدام ضرب المثل، والقصة، والرسوم، والحوار وغيرها^(١). وقد ذكر عنه-صلى الله عليه وسلم- طريقته في الإلقاء والبيان، حيث تروي لنا عائشة-رضي الله عنها- «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ»^(٢). وقالت أيضا: «كَانَ كَلَامُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلَامًا فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ»^(٣). قال الملا علي القاري: «أي لم يكن يتابع الحديث كسرديكم أي المتعارف بينكم من كمال اتصال ألفاظكم، بل كان كلامه فصلا بينا واضحا لكونه مأمورا بالبلاغ المبين، وبينته بقولها: «لو عده العاد» أي لو أراد عده مريد العد لأحصاه أي عده واستقصاه. قال الطيبي: يعني لم يكن حديثه متتابعا حيث يأتي بعضه إثر بعض فيلتبس على المستمع، بل كان بفصل كلامه لو أراد المستمع عده أمكنه، فيتكلم بكلام واضح مفهوم في غاية الوضوح والبيان»^(٤). وقال بدر الدين بن جماعة في مسائل أساليب التعليم: «وينبغي ألا يطيل تطويلا يمل، ولا يقصر تقصيرا يخل، ويراعي في ذلك مصلحة الحاضرين في الفائدة في التطويل، ولا يرفع صوته زائدا على قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضا لا يحصل معه كمال الفائدة، وقد روي عن النبي-صلى الله عليه وسلم- أن كلامه كان فصلا يفهمه من سمعه، وأنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا لئلفهم عنه»^(٥).

- ١- أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبد الرحمن النحلاوي. أسباب تفوق الصحابة، د. محمد عيد الصاحب ٥
- ٢- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي-صلى الله عليه وسلم، ح ٣٥٦٨.
- ٣- سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب الهدي في الكلام، ح ٤٨٣٥، حسنه الألباني، صحيح أبي داود، ج ١، ص ٢.
- ٤- مرقاة المفاتيح، ج ٩، ص ٧١٥.
- ٥- تذكرة السامع، ص ٣٩. والحديث المذكور أخرجه الطبراني وإسناده حسن كما قال الهيثمي في المجمع، ج ١، ص ١٢٩.

المطلب الخامس: اختيار الأوقات المناسبة:

على المربين مراعاة طبائع المتعلمين، ومعرفة أوقات نشاطهم، واختيار الأوقات التي يكون فيها الطالب أكثر استعدادا للتلقي، مع صفاء الذهن للحفظ، فعلى المعلم ألا يتابع درسه إلا بعد أن يتأكد من بقائهم على نشاطهم. قال ابن جماعة: «ولا يدرس في وقت جوعه، أو عطشه، أو هممه، أو غضبه، أو نعاسه، أو قلقه، ولا في حال برده المؤلم، وحره المزعج»^(١). عن ابن مسعود-رضي الله عنه- قال: «كان النبي-صلى الله عليه وسلم- يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السامة علينا»^(٢). ذكر أهل العلم في معنى الحديث أي: كان يطلب حالاتهم وأوقات نشاطهم، وفيه الاقتصاد في الموعظة لئلا تملها القلوب فيفوت المقصود. قال الملا علي القاري: «أي يعظنا يوما دون يوم، ووقتاً دون وقت، ويروى (بالحاء) أي: يتأمل أحوالنا التي ننشط فيها للموعظة فيعظنا فيها»^(٣).

المطلب السادس: الوعي والإدراك لما يحفظ:

إن تحصيل الهدف المنشود من حفظ المعلومة لا يتم إلا إذا ارتبطت بالفهم والإدراك، فمن حفظ وفهم ما استوعبته ذاكرته كان المرجو منه في تبليغ العلم أكثر، والفائدة المتحصلة منه أكد. «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٤). يرى بعض علماء التربية أن من المساعدات على تثبيت الحفظ في الذاكرة ما يعرف (بإستراتيجية التنظيم) وهي تعني: «تجميع وتصنيف العناصر المتشابهة من حيث المعنى»، فهي محاولة لإيجاد تنظيم أو ترتيب للمادة المتعلمة تعين على استحضار المعلومة عند الحاجة إليها»^(٥). روى الترمذي في سننه عن حذيفة قال: «أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ

١- تذكرة السامع، ص ٣٣.

٢- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان يتخولهم بالوعظة، ح ٦٨.

٣- مرقاة المفاتيح، ج ١، ص ٢٩.

٤- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ح ٥٠٢٧.

٥- علم النفس التربوي، د.رامي اليوسف، ص ٣٩٢.

صلى الله عليه وسلم من غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَاكِرُ السَّاعَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ..... الحديث»^(١). فمن الملاحظ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطاهم إلى جانب ما يحفظونه من علم، وما لديهم من معلومات حول تلك المسألة (قيام الساعة) قضايا ومسائل أخرى تعينهم على الفهم، وبتنظيم وترتيب علمي يعين على الحفظ. ومما يدل كذلك على عناية الشرع بالحفظ مرتبطا بالفهم، ما رواه زيد بن ثابت -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفَظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَيْسَ بِفِقْهِهِ»^(٢). ومن اعتنى بذلك من كبار فقهاء الصحابة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- حيث حذر أيما تحذير من يروي دون فهم ووعي لما يروي لخطورة ذلك على تبليغ الدين، وأهمية ارتباط الحفظ بالفهم لما في ذلك تثبيت للحفظ والتذكر. روى البخاري عن ابن عباس قال: «جَلَسَ عُمَرُ عَلَى الْمُنْبَرِ، فَلَمَّا سَكَتَ الْمُؤَذِّنُونَ، قَامَ فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً قَدْ قُدِّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا، لَا أَدْرِي لَعَلَّهَا بَيْنَ يَدَيَّ أَجَلِي، فَمَنْ عَقَلَهَا وَوَعَاَهَا»^(٣) فليحدث بها حيث انتهت به راحلته، وَمَنْ خَشِيَ أَنْ لَا يَعْقَلَهَا فَلَا أَحَلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيَّ: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الرَّجْمِ فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا... الحديث»^(٤). ومن هنا أباح علماء الحديث رواية الحديث بالمعنى بشروط، ومنها أن يكون الراوي عالما بما تحيل إليه المعاني، قال الخطيب البغدادي: «يجوز للعالم بمواقع الخطاب ومعاني الألفاظ رواية الحديث على المعنى»^(٥).

أجرى الباحث (أبنجهاوس)- أستاذ الطب النفسي في جامعة كولومبيا- دراسات

- ١- سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في الخسف، ح ٢١٨٣، وقال عنه: حديث حسن صحيح.
- ٢- سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، ح ٢٦٥٦، وقال عنه: حسن.
- ٣- وعند القرطبي في جامع بيان العلم وفضله بزيادة: " وحفظها"، ج ٢، ص ١٠٣.
- ٤- صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الجلي من الزنا إذا أحصنت، ح ٦٨٣٠.
- ٥- الكفاية، ص ١٩٨.

في هذا المجال على مدى تأثير المعنى في الحفظ والنسيان، فقد استخدم لأول مرة مقاطع لا معنى لها في تجربة التعلم والحفظ، ومن هذه الدراسات اتضح أنه بعد ساعة واحدة كان المفحوص لا يحتفظ بأكثر من ٤٠٪ مما كان قد حفظه، وفي نهاية اليوم كان النسيان قد أصاب معظم ما حفظه. فأثبت تجربته أن التعلم المصاحب للمعنى يبقى لمدة طويلة في الذاكرة^(١).

المطلب السابع: أسلوب الكتابة والمحو:

من الأهداف الأساسية للتقويم الشامل للطلبة هي إبراز نواحي القوة وتشخيص نقاط الضعف وعلاجها. فقد تكون الكتابة مثلاً إجراء علاجياً لمن ضعفت همته على الحفظ، فيستعين بالكتابة عليها. وقد وجدنا تصديق ذلك في المنهج النبوي ما رواه أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمرو قال: «كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَنِي قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَوْمَأَ بِأَصْبَعِهِ إِلَيَّ فِيهِ فَقَالَ: «اَكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»^(٢). ففي هذا الحديث دلالة على فضيلة لعبد الله بن عمرو في حفظه للحديث واستعانتها على الحفظ بالكتابة، مع إذن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- له بالكتابة، وهذه الفضيلة جعلته في تنافس مع أبي هريرة رضي الله عنهما في حفظ الحديث، مع مزية لعبد الله بن عمرو، وهي ما ذكرها أبو هريرة بنفسه حين قال: «مَا كَانَ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنِّي، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ بِيَدِهِ وَيَعِيهِ بِقَلْبِهِ، وَكُنْتُ أَعِيهِ بِقَلْبِي

١- الذاكرة، د. إبنجهاوس، ص ٤٣.

٢- سنن أبي داود، كتاب العلم، باب كتابة العلم، ح ٣٦٤٦. صححه الألباني، صحيح أبي داود، ج ١، ص ٢٠.

وَلَا أَكْتُبُ بِيَدِي»^(١). فتحمّل أكثرية عبد الله بن عمرو على ما فاز به من رخصة الكتابة والتي استعان بها على ضبط المحفوظ. روى الترمذي من طريق أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلاً قال: «يا رسول الله إني لا أحفظ شيئاً، قال: استعن بيمينك على حفظك»^(٢). فالكتابة إجراء علاجي قد تصلح لفئة دون أخرى، وقد مر معنا أن أبا هريرة حين اشتكى نسيانه للحديث وجهه النبي -صلى الله عليه وسلم- لإجراء آخر، وهو حينما طلب منه أن يبسط رداءه ثم دعا له. فكل حالة تؤخذ على حدة، فما يصلح لشخص كإجراء علاجي قد لا يكون نافعا لغيره. وهذا ما يعرف بعلم التربية المعاصر (التدريس العلاجي)، فالطلبة يتلقون تدريساً جماعياً وقد يقعون في أخطاء الأمر الذي يستوجب تدخلاً تعليمياً لتصحيح هذه الأخطاء من خلال أساليب علاجية معينة وحتى يعمل هذا التصحيح بشكل فعال لا بد أن يسبقه تشخيص دقيق لهذه الأخطاء. ومن ثم فإن عماد فكرة التدريس العلاجي هما عمليتا التشخيص والعلاج. وحتى يكون الإجراء العلاجي فعالاً فإنه يجب مراعاة الأسس التالية:

(١) الاستفادة من نقاط قوة التلميذ في علاج نقاط ضعفه.

(٢) التنوع في الأنشطة العلاجية.

(٣) مراعاة اهتمامات التلاميذ وميولهم^(٣). لكن قد يكون في المقابل بعض المتعلمين الذين لا يصلح معهم الإجراء العلاجي السابق، فيكون في حقهم إجراء آخر، بحيث يكون أسلوب الكتابة غير ناجح لهم، وقد يضعف ذاكرتهم، فيلجأ إلى طريقة أخرى، بأن تكون الكتابة في حقهم بداية، ولفترة

١- المسند، أحمد بن حنبل، ح ٩٣٥٤، شرح معاني الآثار، الطحاوي، ج٤، ص ٣١٨. حسنه ابن حجر، فتح الباري، ج١، ص ٢٠٧.

٢- سنن الترمذي، كتاب العلم، باب الرخصة في كتابة العلم، ح ٢٦٦٦، قال الترمذي: إسناده ليس بذلك القائم.

٣- سيكولوجية التعليم، د. جابر عبد الحميد، ص ١٢٥ وما بعدها.

محددة حتى يتحصل الحفظ، ثم يكون من الأفضل لهم محو ما كتبوه، وهذا وارد في تراثنا التربوي من عصر النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن بعده من جيل الصحابة والتابعين. فوجدنا من أخبار عن النبي -صلى الله عليه وسلم تأمر بالمحو لمن كتب شيئاً غير القرآن الكريم، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لَا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ»^(١). روى الخطيب بسنده عن أبي نصرَةَ، قال: قلنا لأبي سعيد: لو كتبتُم لنا، فإننا لا نحفظُ، قال: «لَا نُكْتُبُكُمْ وَلَا نَجْعَلُهَا مَصَاحِفَ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُنَا فنَحْفَظُ، فَاَحْفَظُوا عَنَّا كَمَا كُنَّا نَحْفَظُ عَنْ نَبِيِّكُمْ»^(٢). وقد ورد عن بعض السلف بأن بعض طلبتهم كانوا يكتبون، فوجهوهم نحو المحو، لأن الاعتماد دوماً على ما هو مكتوب يضعف الذاكرة، فكان لابد من التعود على تنشيط الذاكرة، واستحضار المحفوظ دون اللجوء دائماً إلى المحفزات الأخرى التي لو تعود عليها الإنسان ضعفت همته وذاكرته. روى الخطيب بسنده عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، قال: «كُنَّا نَسْمَعُ الشَّيْءَ فَنَكْتُبُهُ، فَفَطَنَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ فَدَعَا أُمَّ وَلَدِهِ، وَدَعَا بِالْكِتَابِ وَبِإِجَانَةِ مِنْ مَاءٍ، فَغَسَلَهُ»^(٣). وقال الخطيب البغدادي: «وَنَهَى عَنِ الْإِتِّكَالِ عَلَى الْكِتَابِ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى اضْطِرَابِ الْحِفْظِ حَتَّى يَكَادُ يَبْطُلُ، وَإِذَا عُدِمَ الْكِتَابُ قَوِيَ لَذَلِكَ الْحِفْظُ الَّذِي يَصْحَبُ الْإِنْسَانَ فِي كُلِّ مَكَانٍ... وَكَانَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ يَسْتَعِينُ عَلَى حِفْظِ الْحَدِيثِ بِأَنْ يَكْتُبَهُ وَيُدْرُسَهُ مِنْ كِتَابِهِ، فَإِذَا أَتَقَنَهُ مَحَا الْكِتَابَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَتَّكَلَ الْقَلْبُ عَلَيْهِ فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى نَقْصَانِ الْحِفْظِ وَتَرْكِ الْعِنَايَةِ بِالْمَحْفُوظِ»^(٤).

١- صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث، ح ٣٠٠٤.

٢- تقييد العلم، الخطيب البغدادي، ص ٣٦.

٣- تقييد العلم، ص ٣٩.

٤- المرجع السابق، ص ٥٨.

المطلب الثامن: الوسائل الطبية:

تشير الدراسات العلمية إلى أن النسيان يحدث نتيجة لإخفاق الفرد في استرجاع الخبرة التي تم تخزينها في الذاكرة، لوجود بعض العوامل التي تؤثر على الذاكرة، فمنها العوامل الطبية (البيولوجية)، أو النفسية (السيكولوجية)، والتي قد تؤدي إلى اختلال وظيفة الجهة المسؤولة عن الذاكرة في جسم الإنسان. فنجد مثلاً أن تحريم الشرع للمسكرات فيه حفاظ على مقصد من مقاصد الشريعة، وهو الحفاظ على العقل، لما لتأثير المواد المسكرة بصورة سلبية على جسم الإنسان. جاء في صحيح مسلم أَنَّ طَارِقَ بْنَ سُؤَيْدِ الْجُعْفِيِّ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَمْرِ فَهِيَ أَوْ كَرِهَ أَنْ يَصْنَعَهَا، فَقَالَ: إِنَّمَا أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ! فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ، وَلَكِنَّهُ دَاءٌ^(١). إن تعاطي المواد الكحولية لفترات يؤدي إلى ضعف الذاكرة، لأن المتعاطي يستهلك كميات من السعرات الحرارية فينشأ ميل إلى إهمال أنواع الغذاء الأخرى، فيصبح من الواجب تناول كميات ونوعيات من الأغذية أكثر، وهو لا يحصل من المتعاطي، فتتقص عنه مادة (الثيامين) وهي إحدى عناصر فيتامين (ب) والتي يطردها جسم المتعاطي للكحول، فيعاني تلفاً في الذاكرة، لأن التلف يصيب أجساماً في المخ وهي ما تعرف (بالأجسام الحلمية) والمسؤولة عن تنشيط الذاكرة في الجسم^(٢). وقال أهل العلم والفضل: «وينبغي أن يستعمل ما جعله الله تعالى سبباً لجودة الذهن، وينبغي أن يجتنب ما يورث النسيان»^(٣). ومما لاشك فيه أن التوجيه النبوي نحو نوعيات من الأطعمة والأغذية، أو نحو سلوكيات معينة تعين على نمو الجسم بصورة سليمة، مثل الرياضة والنشاط، وساعات النوم والراحة، والصحة النفسية، وغيرها من التوجيهات، فيها حكم ربانية، وصحة لبني الإنسان، وخاصة ما هو متعلق بالحفاظ على قوة الذاكرة، والابتعاد عن كل ما يسبب ضعفها أو تلفها^(٤).

١- صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب تحريم التداوي بالخمر، ح ١٩٨٤.

٢- المخ البشري، كرستين تمبل، ص ١١٢.

٣- تذكرة السامع، ابن جماعة، ص ٧٧.

٤- يراجع للمزيد في ذلك ما رصدته لنا المصادر والمراجع في الطب النبوي.

نتائج وتوصيات

- (١) مهارة الحفظ والتذكر مهارة عقلية عليا، لها قيمتها الشرعية والإنسانية.
- (٢) مهارة الحفظ والتذكر لها أهمية بالغة في العملية التعليمية وجب المحافظة عليها وتعزيزها.
- (٣) يكمن التوجيه النبوي للمحافظة على مهارة الحفظ وعلاج ضعفها في عوامل، يمكن استخلاصها في الآتي:
 - أ- لابد من اتقان العملية التعليمية والتعلمية منذ البداية، مع توفير الميدان، أو البيئة المناسبة لذلك.
 - ب- يجب أن تكون الصلة وثيقة بين ما يتعلمه الفرد وحاجاته الشخصية واهتماماته.
 - ج- يجب توجيه المهمة اللاحقة لما يتعلمه الفرد نحو أهداف سامية، إلا وهي توظيف ما تم تحصيله في المصالح الدينية والدنيوية.
 - د- الصحة الجسمية والنفسية للشخص وقت التعلم، ووقت الاسترجاع ضرورية لتلك العملية.
- (٤) يجب مراعاة الموهبة المبكرة للمتعلم، وتوفير الجو المناسب لاستخراج طاقاتها، إذ لوحظ أن مجموعة من مشاهير الصحابة ظهرت عليهم الموهبة المبكرة منذ نعومة أظفارهم. وإن الرعاية النبوية التي شملتهم صنعت منهم علماء كبار وقادة عظام.
- (٥) توجيه الدارسين نحو دراسة المنهج النبوي في رعاية الموهوبين في المجالات المختلفة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،،

قائمة المراجع

- الإبداع، د. فتحي جروان، دار الفكر، عمان، الأردن، ٢٠٠٢ م.
- أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص، تحقيق القمحاوي، دار إحياء التراث، ١٤٠٥ هـ.
- أسباب تفوق الصحابة في ضبط الحديث، د. محمد الصاحب، د. سلطان العكايلة، ابن الجوزي، ٢٠١٠ م.
- أصول التربية الإسلامية وأساليبها، د. عبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر، ١٩٩٢ م.
- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، ابن جماعة، دار الكتب العلمية، ١٣٥٤ هـ.
- تقييد العلم، الخطيب البغدادي، دار إحياء السنة، بيروت.
- الذاكرة، د. أبنجهاوس، دار المعرفة، ١٩٩٣ م.
- الرسالة، الشافعي، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، ١٩٤٠ م.
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
- سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية.
- سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٧٥ م.
- سيكولوجية التعليم، د. جابر عبد الحميد، دار النهضة العربية، ١٩٩١ م.
- شرح معاني الآثار، الطحاوي، تحقيق محمد سيد جاد الحق، عالم الكتب،

١٩٩٤ م.

- صحيح و ضعيف سنن ابن ماجه، ناصر الدين الألباني، مرقم آليا.
- صحيح و ضعيف سنن أبي داود، ناصر الدين الألباني، مرقم آليا.
- صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار طوق، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
- علم النفس التربوي، د.رامي اليوسف، دار الأندلس، ٢٠١٠م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.
- فتح المغيث شرح ألفية الحديث، السخاوي، تحقيق علي حسين، مكتبة السنة، ٢٠٠٣م.
- الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي، تحقيق عادل يوسف، دار ابن الجوزي، ١٤٢١هـ.
- الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.
- لباب التأويل، الخازن، تحقيق محمد شاهين، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري، دار الفكر، ٢٠٠٢م.
- مسند أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الرسالة، ٢٠٠١م.
- مغني المحتاج، الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية.

- مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩ م.
- المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢ هـ.
- إعداد الطالب لمواجهة القرن الحادي والعشرين، د. عبد الله عويدات ١٩٩٨ م، ندوة شومان.
- المخ البشري، كرستين تمبل، ترجمة: د. عاطف أحمد، سلسلة عالم المعرفة، نوفمبر ٢٠٠٢ م، العدد ٢٨٧.
- النظم التعليمية عند المحدثين، مكي إقلاينة، سلسلة كتاب الأمة، العدد ٣٤، ١٤١٣ هـ.

مبادئ الجودة في السنة النبوية تأصيلاً وتطبيقاً

د. محمد يحيى بلال منيار
جامعة الطائف - السعودية

من أبرز فقرات البحث

«حديث مرور النبي صلى الله عليه وسلم على صبرة طعام، فأدخل يده فيها فوجد طعاما مبلولا، وفيه قوله: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟! من غش فليس مني!». في هذا الحديث نموذج لتطبيق الرقابة الخارجية فيما يتعلق بجودة السلع، وكشف (الغش التجاري) فيها، فقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم في جولة تفتيشية للبضائع والسلع، وفي أثناء تجوله مرّ على هذه الصبرة المغشوشة، فقال ذلك. ولا شك أن تطبيق مثل هذه الرقابة ستحمي العمل التجاري من صور أخرى منتشرة من الغش في السوق، كتقليد الماركات العالمية أو المحلية ذات الجودة العالمية أو المحلية، والاتجار في السلع الفاسدة أو المنتهية الصلاحية، وكتابة محتويات على الصندوق أو مواصفات لا تنطبق على ما بداخله، وتزوير الكتب والمصنفات والسطو عليها، وتزييف النقود المحلية والأجنبية ذات الفئات الكبيرة، وتزوير الشيكات المصرفية، وسحب المبالغ من البنوك المحلية بشيكات أو حوالات مزورة، أو من خلال تزوير الاعتمادات المستندية المعززة بموافقة البنوك».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد: فإن موضوع (الجودة) وإن ظهر بمفهومه المعاصر في الفكر الإداري الحديث، وصارت له شهرة عالمية بسبب تبني بعض المنظمات والهيئات العالمية له، فهو في أصوله وجذوره يرجع إلى مصادر ديننا الإسلامي، التي أصَلَّتْ لفكر الجودة وثقافتها، بأسمى وأتقن مما وصلتْ إليه أدبيات الجودة المعاصرة.

ومن هنا جاء هذا البحث لِيُبرز تأصيل هذا الموضوع من خلال (السنة النبوية) بمبادئ رائعة في مجال التميز بالجودة، والتي تقوم بتوظيف الملكات الإبداعية لدى الفرد المسلم لتصل به إلى أعلى درجات التميز البشري.

وتكمن أهمية البحث في كونه ينبع من رَحِمِ السنة النبوية تأصيلاً وتطبيقاً. فالبحث أصله وأساسه: نصوص نبوية ذات صيغ تأصيلية، هي منطلق لمبادئ الجودة. والبحث في تطبيقاته: نصوص من الأحاديث أيضاً، جاء فيها إرشادات ووقائع وأحداث يُفهمُ من خلالها على أن الفكر التطبيقي لمبادئ الجودة، كان موجوداً في السنة المطهرة بصور مبدعة - ربما يُعد بعضها فرائد في التاريخ - قبل أن تنطلق شعارات تطبيق الجودة المعاصرة.

ويهدف البحث إلى الآتي:

- جمع الأحاديث ذات الصيغ التأصيلية في الجودة، لتشكّل بذلك المبادئ

والأصول في هذا الفن^(١). وعدم الاكتفاء بمجرد الاستشهاد والاستدلال لعناصر الجودة من السنة النبوية.

- بيان سبق السنة النبوية بإشراقات متميزة من النصوص التي تشمل الجانبين: التأصيلي والتطبيقي للجودة، فليست الجودة بعيدة عن الفكر الإسلامي وتأصيله.

- يأمل الباحث أن تكون الأحاديث التأصيلية التي اختيرت لتُعبّر عن مبادئ الجودة، هي فاتحة انطلاق شعارات لمبادئ الجودة، بحيث تصير هذه الأحاديث على طرف الثمام من المهتمين بالجودة وغيرهم، ومن خلالها يتم تداول تلك المبادئ، وبهذا نعيد الجودة إلى أصولها الطاهرة من نصوص السنة النبوية.

إن موضوع (الجودة) تناوله عددٌ من الباحثين من خلال المنظور الإسلامي^(٢)، إلا أن تناولهم له كان من خلال رؤية إسلامية عامة بحسب ما ورد في نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة وأقوال السلف، ولم يُتَح لأحد منهم - فيما تيسر الاطلاع عليه - الكتابة عن هذا الموضوع في السنة النبوية من الجانب التأصيلي خاصة.

١- ينظر في هذا السياق بحثي المقدم للندوة الخامسة فقد اشتملت فكرته أيضا على تععيد موضوع إدارة الأزمات من خلال السنة النبوية، وكان عنوانه: «نصوص قواعديّة من السنة النبوية لإدارة الأزمات عرضا وتطبيقا».

٢- مثل: مبادئ إدارة الجودة الشاملة في ضوء المنهج الإسلامي دراسة مقارنة لإبراهيم طه العجلوني. الجودة الشاملة في التعليم العام: المفهوم والمبادئ والمتطلبات (قراءة إسلامية) لبدريّة بنت صالح الميمان.

جودة التعليم في التصور الإسلامي، مفاهيم وتطبيقات لمحمود خليل أبو دف.
جودة التعليم من منظور إسلامي (ورقة علمية) لمحمد عبد الفتاح شاهين، إسماعيل شندي.
ومن الكتابات الوحيدة - التي تيسر الاطلاع عليها - التي يقترب عنوانها من عنوان هذا البحث، مقال: «رؤية تأصيلية لمفهوم الجودة في الإسلام» للحاج عبد المولى الصديقي، مجلة عالم الجودة، العدد الأول ص ٢١-٢٣، وهو تأصيل عام أيضا - كغيره من الكتابات - مقصودٌ به مجرد الاستشهاد للجودة من خلال نصوص القرآن والسنة، وليس تأصيلا مختصا بالسنة النبوية.

جوانب من الجودة في البحث:

١- أنه بحث تأصيلي لموضوع الجودة في السنة النبوية.
٢- إبراز تطبيقات من السنة النبوية، ربما يطلع العديد من القراء على صلتها بالجودة لأول مرة.

٣- بيان مفهوم الجودة ومبادئها (في التمهيد)، واختيار تعريف اصطلاحي للجودة، يُتوقع أن يكون فيه شيء من الجدة والإبداع على الرغم من كثرة ما كُتب في هذا الموضوع.

رُتبت المبادئ السبعة للجودة في البحث على النحو الآتي: الإتقان. ومهارة الأداء. والكفاءة المهنية. والعمل بروح الفريق. وحُسن التعامل. والرقابة. ثم أخيرا التحسين المستمر. ومن هنا نجد أن الإتقان أساس الجودة ومنطلقها؛ ويحتاج الإتقان إلى اكتساب مهارة الأداء؛ والقدرة على المهارة تحتاج إلى كفاءة؛ وقد تجتمع كفاءات متعددة ومختلفة في عمل ما، فيتطلب النجاح حينئذ العمل بروح الفريق فيما بين تلك الكفاءات؛ ولا تتأتى هذه الروح المشتركة على الوجه المطلوب إلا بحسن التعامل فيما بين كل من له صلة بالعمل؛ ثم تأتي الرقابة التي تُمسك بزمام جميع ما سبق، لبث روح الجودة في العمل؛ ثم يبقى بعد ذلك متابعة تحسين العمل والحرص على إضفاء مزيد من الجودة عليه باستمرار.

وفي الختام أسأل الله التوفيق والسداد، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد: مفهوم الجودة ومبادئها

أولاً: بيان مفهوم الجودة.

معنى كلمة «الجودة»: الجودة كلمة معروفة، بمعنى ضد (الرداءة)، وتُنطق بفتح الجيم وضمها^(١). وأصل الكلمة تدل على السماحة وكثرة العطاء^(٢)، ولهذا يطلق هذا الوصف على من يصدر عنه الشيء بكثرة وعفوية، ومن ثم يقال: فلان جَوَادٌ، ويقال للفارس السريع: الجواد، وللمطر الغزير الواسع: الجَوْدُ^(٣). ويُلاحظ من هذه الإطلاقات اللغوية أنها تُلَمِّح من طَرَفٍ خَفِيٍّ إلى تضمين كلمة «الجودة» معنى «الإتقان»، لأن الإتقان ينتج عن كثرة الممارسة، بحيث يصير ذلك الشيء سهلاً على صاحبه، يصدر عنه بطابع العفو والسماحة لكثرة تَعَوُّده عليه، فيكون كأنه أتقنه^(٤).

التعريف الاصطلاحي للجودة: الجودة اصطلاحاً: هي الإتقان بالشيء بأتم صورة، بحيث يتحقق الغرض المقصود منه بأعلى درجة ممكنة بصفة دائمة^(٥).

توضيحات تتعلق بتعريف الجودة:

١- (الجودة) مصطلح إداري حديث، استخدمت للدلالة على مراعاة أمور تتعلق بإتقان العمل المهني خاصة. ولم يرد تعريفها في الاصطلاح الإسلامي

١- تاج العروس ٧/ ٥٢٦.

٢- معجم مقاييس اللغة ١/ ٤٩٣.

٣- معجم مقاييس اللغة ١/ ٤٩٣ وتاج العروس ٧/ ٥٢٧-٥٢٩.

٤- وبهذا تكون اللغة العربية سبقت اللغة اللاتينية في تضمين كلمة (الجودة) معنى الإتقان، وذلك لأن الجودة Quality ترجع في اللغة اللاتينية إلى كلمة Qualitas وهي بمعنى مستوى ودرجة إجادة الشيء وإتقانه the degree of excellence of a thing. ينظر:

مراقبة الجودة لفاطمة علي متولي ص ٣.

ينظر استراتيجية إدارة الجودة الشاملة لأحمد كردي ص ٧.

قاموس أكسفورد فسر (الجودة) بأنها الدرجة العالية من النوعية أو القيمة.

٥- استخلص هذا التعريف من معاني كلمتي الإتقان والإحسان، كما سيأتي بيان ذلك في التوضيحات.

بما يوافق المعنى المراد لها لدى أصحاب الجودة المعاصرين، ولذا اجتهد في استخلاص تعريفها -المذكور أعلاه- من معاني كلمتي (الإتقان) و(الإحسان)، وهما أبرز كلمتين تشتركان معها في الدلالة على المعنى المطلوب لها في مفهومها المعاصر^(١).

٢- نفى بعض المعاصرين ورود لفظ (الجودة) في القرآن الكريم أو السنة النبوية^(٢). وهذا النفي إن كان المراد به خصوص هذه الكلمة بعينها ولفظها، فهو نفي صحيح. أما إن كان المراد به النفي المطلق لأصل مادة (الجودة) - بأي مشتق من مشتقاتها-، فهو نفي غير صحيح، وذلك لورود إحدى مشتقاتها في سياق حديث، وهو ما في «صحيح مسلم» عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحَسِّنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَصَلِّي رَكَعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بَقَلْبِهِ وَوَجْهَهُ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ». قَالَ -عقبة-: فَقُلْتُ: مَا أَجُودَ هَذِهِ! فَإِذَا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيَّ يَقُولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجُودُ! فَظَنَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ قَالَ: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ جَنَّتَ أَنْفًا، قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبَلِّغُ أَوْ فَيَسْبِغُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(٣). فهذا يُثبت ورود أصل هذه المادة في السنة النبوية، وكون هذا الإطلاق جاء - في المرتين- على لسان صحابي، لا ينفي نسبته للسنة النبوية، لأنه إطلاق راجع لوصف

١- وقد استخلص هذا التعريف من قوله تعالى: (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ)، وقوله تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ). ينظر لذلك: البحر المحيط ٧/ ٧٨، التحرير والتنوير ٢١/ ١٥٠، معجم الفرائد القرآنية لباسم البسومي، مادة (تقن). كما أن الذين عرفوا الجودة بحسب الاصطلاح الإسلامي، كانوا يحاولون تعريفها من خلال نفس كلمتي الإتقان والإحسان الواردين في الكتاب والسنة، ينظر مثلاً: الجودة الشاملة في التعليم العام (قراءة إسلامية) لبدرية الميمان ص: ١١ و ٢٤، ومقال جودة التعليم من منظور إسلامي، إعداد محمد عبد الفتاح شاهين، إسماعيل شندي.

٢- جودة التعليم من منظور إسلامي، محمد عبد الفتاح وإسماعيل شندي <http://uqu.edu.sa/page/82354/ar>.

٣- صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الذِّكْرِ الْمُسْتَحَبِّ عَقَبَ الْوُضُوءَ، ١/ ٢٠٩ (واللفظ له). سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب مَا يَقُولُ الرَّجُلُ إِذَا تَوَضَّأَ ١/ ٤٣ (١٦٩).

مقولة النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة في الحديث .

٣- (الجودة) بصفتها مصطلحٌ حديث، فقد اختلف لدى المعاصرين في تعريفها على صيغ عديدة تختلف فيها وجهات أنظار أصحابها. فمعظم هذه التعريفات تركز على الجانب المهني والصناعي، لأنه هو الجانب المطلوب لدى أصحابها في معنى الجودة، ولذا يرد في عباراتهم كلمات (العميل، المستفيد، المنتج، الخدمة، المتطلب، السعر، القيمة) ونحو ذلك من الألفاظ^(١). ولاشك أن هذه الألفاظ تحقق ما يريده أصحابها من الجودة في الجانب المهني والصناعي، لكنها تُخرج التعريف عن شموليته للجوانب الأخرى من الحياة، مع كون الجودة مطلوبة فيها أيضا، ولذا فإن أصحاب منهجية الجودة المسماة بـ(الكايزن) أرادوا بمنهجيتهم تحقيق الجودة في جميع جوانب الحياة، بما فيها الحياة الشخصية. وهناك تعريفات جيدة تمتاز بالعموم والسهولة والاختصار، لكنها ليست وافية في عباراتها، أو تقتصر على بعض متطلبات الجودة، مثل كون الجودة تعني: الكفاءة والفاعلية أو التميز والمثالية، أو الخلو من العيوب^(٢). وبالنظر إلى ما سبق من العرض، يقال: ليس المقصود بهذا العرض والتحليل، إهدار تلك التعريفات، خاصة إذا علمنا أنها من وضع رواد في مجال الجودة، فينبغي إبقاؤها والاستفادة منها في مجالاتها وميادينها الخاصة بها، لكن مع الاعتراف بقيمة تلك التعريفات، اجتهد هنا أن يُختار تعريف اصطلاحى للجودة، يخلو من الملحوظات السابقة قدر الإمكان، ويكون شاملا لجميع جوانب الحياة، فكان هو التعريف

١- ينظر: استراتيجية نظام الجودة في التعليم لمحسن بن نايف، الفصل الأول (فقرة ١)، والجودة الشاملة لبدرية الميمان ص ٢٠-٢٢ ومراقبة الجودة لفاطمة متولي ص ٤. ومن أجود ما وقفت عليه من هذا النوع من التعريفات، التعريف الآتي: «فهم ما يحتاجه المستفيد وتوفيره له بفاعلية». ينظر برنامج الإدارة العامة للتربية والتعليم بالأحساء (يوتيوب). وينبغي أن يُعتمد هذا التعريف لـ(الجودة) لكل علاقة جودة تكون بين طرفين، أحدهما مفيد والآخر مستفيد.

٢- ينظر الجودة الشاملة في التعليم العام لبدرية الميمان ص ٢١، ومراقبة الجودة لفاطمة متولي ص ٤.

الذي تم إيرادُه^(١).

٤- لا يلزم في تحقيق الجودة أن يكون الشيء المراد فعله جميلاً أيضاً في الوقت نفسه، كما يتبادر إلى الأذهان عادةً من مفهوم كلمة «الجودة» والربط الذهني بينها وبين الجمال، وإنما المراد بالجودة: أن يؤتى بالشيء تاماً كاملاً (بدون عيب فيه) بحيث يتحقق منه الغرض المقصود، سواء كان ذلك الشيء: يتطلب تحقيق (الجمال والحسن) أم لا يتطلب ذلك. وهذا هو الذي قصد إليه بكلمة «بأتم صورة» في صيغة التعريف. وعلى هذا، فإذا تم الإتيان بـ (الشيء غير الجميل)، على ما يقتضيه عمله ويناسبه ويؤفي بغرضه، فقد تحققت الجودة فيه من جهة أن مقتضى الحسن في هذا الشيء هو أن يؤتى به على هذه الصفة والهيئة، فهو حسنٌ بمقتضى المطلوب فيه، وإن لم يكن حسنًا من حيث الصورة والشكل أو المضمون. ويتضح هذا من قول الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧] أن الإحسان هنا يحتمل أحد وجهين: إما (معنى الإحكام والإتقان) أو (معنى التحسين الذي هو في معنى الجمال والحسن)، قال: «فلما كان في خلقه ما لا يُشك في قبحه وسماجته، علم أنه لم يعن به أنه حسن كل ما خلق، ولكن معناه: أنه أحكمه وأتقن صنعته»^(٢). ومن هذا المعنى جاء قول ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية نفسها: أما إن استُ القرد ليست بحسنة، ولكنه

١- ولعل أقرب تعريف يتفق مع التعريف المختار، أن الجودة: أداء العمل وفق معايير عالية الدقة والإحكام، بحيث يتحقق العمل بنتائجه بأعلى درجة ممكنة. ينظر جودة التعليم لشاهين، شندي (سبق العز وإليه). ويلحظ عليه عدم سلامة التعبير اللغوي في قولهم (يتحقق العمل بنتائجه). ومن التعريفات المقاربة أيضاً للتعريف المختار: «عمل الأشياء بطريقة صحيحة من المرة الأولى، وبطريقة أفضل في المرة التالية». إدارة الجودة الشاملة لنورة العفيف، ملف باور بوينت (شريحة ٤)، وكذا تعريف: «العمل الصحيح بشكل صحيح من أول مرة وفي كل مرة». ينظر الجودة الشاملة لنيف الشمري، ملف باور بوينت (شريحة ٣).

٢- تفسير الطبري ١٨ / ٥٩٩.

أَحْكَمَ خَلَقَهَا^(١). ويتضح هذا أيضا (عدم الترابط بين الجودة والجمال) من جهة أن تطبيق الثواب والعقاب، يعد تحقيقا للجودة، مع أن العقاب - في نفسه - ليس حَسَنًا ولا مرغوبًا فيه، ولكنه يعتبر حَسَنًا لأن تطبيقه في محله هو الذي يحقق غرضه، ولذا فعدم تطبيقه سيؤدي إلى إخلال بالجودة. وهذا المعنى أو ما إليه بعض المفسرين في معنى إتقان الله تعالى لمخلوقاته في قوله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] وهو أنه تعالى من إتقانه للأشياء رَبَّ الجزاء أحسن ترتيب، فقال عقبه ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾^(٢) [النمل: ٨٩، ٩٠]، أي فتطبيق الثواب والعقاب، تطبيق للجودة والإتقان.

٥- معيار تحقق الجودة في كون الشيء محققًا للغرض المقصود منه، يتضح من قول ابن عاشور في تفسير قوله تعالى (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ): «الإحسان: جعل الشيء حسنًا، أي محمودًا غير معيب، وذلك بأن يكون وافيا بالمقصود منه»، قال: «فإنك إذا تأملت الأشياء رأيتها مصنوعة على ما ينبغي، فصلاصة الأرض مثلا للسير عليها، ورقة الهواء لیسهل انتشاقه للتنفس، وتوجه لهيب النار إلى فوق لأنها لو كانت مثل الماء لتلتهب يمينا وشمالا لكثرت الحرائق، فأما الهواء فلا يقبل الاحتراق»^(٣).

٦- وأخيرا فإن التعريف يبدو - حسب المستطاع - شاملا لمبادئ الجودة السبعة المذكورة في البحث، بما فيها (مبدأ التحسين المستمر) الذي أشير إليه في آخر التعريف، بأن يبقى تحقق الغرض المقصود من الشيء مستمرا بأعلى درجة ممكنة بصفة دائمة. ومعنى هذا متابعة التحسين المستمر للشيء، وإلا

١- تفسير الطبري ١٨ / ٥٩٧. و«است» بهمزة الوصل. ينظر: تاج العروس ٤ / ٤١٩، والشافية لابن الحاجب ص ٦١.

٢- نظم الدرر للبقاعي ٥ / ٤٥٦.

٣- التحرير والتنوير ٢١ / ١٥٠.

فعند ما يتوقف التحسين، يبدأ ذلك الشيء يتناقص في تحقيق غرضه على الوجه المطلوب، فيكون ذلك نقصاً في جودته.

ثانياً: بيان مفهوم «مبادئ الجودة»:

معنى كلمة «المبادئ»: المراد بـ(المبادئ) القواعد الأساسية التي يقوم عليها الشيء ولا يخرج عنها^(٤)، ومنه يقال: المبدأ الأساسي في التعامل بين الدول مثلاً، هو الاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للآخرين. ويقال: أساسيات الموضوع: أي مبادئه أو أصوله الجوهرية^(٥). ولعل من التعبيرات الجيدة لمعنى كلمة (المبادئ): ما يمكن بها الشروع في الشيء على بصيرة^(٦).

بيان معنى «مبادئ الجودة»: وعلى هذا فمبادئ الجودة تعني: الأسس والمرتكزات التي تنطلق منها الجودة وتبنى عليها، والتي تعبر عن الممارسات الجوهرية الواجب اتباعها لتحقيق الجودة، ولذا فإن الإخلال بها يؤدي إلى الإخلال عادةً بالجودة^(٧).

توضيحات تتعلق ببيان معنى «مبادئ الجودة»:

١- ليس معنى (مبادئ الجودة)، أنه لا بد من توفر جميع عناصرها في آن واحد في كل عمل من الأعمال، بحيث لو لم توجد بجمعها لاختل معيار الجودة في العمل، وإنما المراد أن الجودة لا تستغني عن هذه المبادئ عموماً وإجمالاً،

٤- ويعبر عنها في الإنجليزية: basic things about something ينظر قاموس فرنسي عربي إنجليزي (أساس)

٥- ينظر المعجم الوسيط ١ / ٤٢، ونحو إتقان الكتابة باللغة العربية لمكي الحسني ص ١٩٦ وقد عبر الشيخ عبد الوهاب خلاف في كتابه علم أصول الفقه بكلمة (المبادئ) لمعنى (الأصول والقواعد التشريعية)، ينظر فيه: ص ٩٢ المبادئ الشرعية التي بُنيت على الاستصحاب؛ ص ٢٠٧ المبادئ الخاصة بدفع الضرر؛ ص ٢٠٩ المبادئ الخاصة برفع الحرج. وفي ص ٢٣٢ ذكر مبادئ ترجيحية عامة مثل قولهم: إذا تعارض المحرّم والمبيح، رُجِحَ المحرّم.

٦- التقرير والتحبير ١ / ٥٢ لابن أمير حاج.

٧- ينظر: الجودة الشاملة في التعليم العام لبدرية الميمان ص ١٨.

أما ما يتعلق بتوفرها كلها أو بعضها في العمل، فذلك يرجع إلى طبيعة العمل، فبعض الأعمال لا بد فيها من توفر جميع هذه المبادئ، وبعضها الآخر قد لا يلزم فيها ذلك، بل ربما يكفي وجود بعضها بحيث تتحقق الجودة، ولا يعني ذلك إلغاء المبدأ الذي لم تكن له ضرورة في ذلك العمل، من قائمة مبادئ الجودة كلية^(١).

٢- يختلف المعاصرون في تسمية (مبادئ الجودة) -سواءً منها التي اختيرت في هذا البحث، أو غيرها- بتسميات أخرى عديدة، مثل (المفاهيم، أو المتطلبات، أو المقومات، أو الآليات، أو العناصر الأساسية، أو المكونات، أو المعايير) ونحو ذلك من الألفاظ التي مؤداها واحد مع الاختلاف في التعبير. وقد اختار غير واحد ممن كتب في موضوع الجودة، التعبير بلفظ (مبادئ الجودة)^(٢).

٣- كما اختلف كُتّاب الجودة في تسمية (مبادئ الجودة) بعناوين مختلفة، اختلفوا كذلك في تعدادها وتحديدتها، فمن مُقلِّ (٣ أو ٤ عناصر)، ومتوسِّطٍ

-
- ١- فمثلاً: مبدأ العمل بروح الفريق، لا يُستغنى عنه -إلى جانب المبادئ الأخرى- في الأعمال الجماعية، لكنه لا يلزم وجوده في الأعمال الفردية، ولا يعني ذلك إلغاءه من (مبادئ الجودة) لعدم ضرورته هنا.
 - ٢- ينظر (مبادئ الجودة):
 - مبادئ إدارة الجودة الشاملة في ضوء المنهج الإسلامي لإبراهيم العجلوني.
 - الجودة الشاملة في التعليم العام: المفهوم والمبادئ والمتطلبات (قراءة إسلامية) لبدرية الميمان.
 - مبادئ الجودة لخالد السحيم، ملف باور بوينت.
 - مبادئ الجودة الإدارية في الإسلام لخليفة بن عبد الله الفواز (لم أطلع عليه).
 - مبادئ إدارة الجودة الشاملة لمحمد الشواربي، نشر جامعة الأزهر (لم أطلع عليه أيضاً).
 - ومن المقالات التي تناولت عناصر الجودة وعُبرت عنها بكلمة (مبادئ الجودة):
 - مبادئ الجودة بقلم علي بن عبد الله الغماش <https://www.google.com.sa/url>
 - أربعة مبادئ للجودة <http://www.ansarsunna.com/vb/showthread.php?p=257863>
 - شرح مبادئ إدارة الجودة الشاملة بقلم عدنان حميد <http://www.arabicstat.com/board>
 - مبادئ إدارة الجودة الثمانية، محمد هشام - http://www.aleqt.com/2009/02/05/art_cle_192862.html
 - مبادئ نظام إدارة الجودة آيزو ٩٠٠٠-٢٠٠٠ iso <http://www.broonzyah.net/vb/t3575>.html

(٧ أو ٨ عناصر)، ومُكثر (١٤ عنصراً)؛ إلا أن القدر المشترك الذي يُستخلص من مجموع تلك الكتابات، يكاد يدور - في الأغلب - في فلك (المبادئ السبعة) المذكورة في هذا البحث^(١).

١- ينظر ما ذُكر من الكتب والمقالات في الهامش السابق. ويضاف إلى ذلك: مفاهيم أساسية عن الضبط الشامل للجودة وإدارة الجودة الشاملة لمحمد عيشوني. بل إن مبادئ ديمينج الأربعة عشر التي اعتمدها كثير من المنظمات في العالم (الصناعية منها والخدمية، والربحية وغير الربحية)، وُجد بالاستقراء أنها تعود إلى سبع عناصر رئيسية. مبادئ إدارة الجودة الشاملة لإبراهيم العجلوني ص ٣-٤ وتلك العناصر السبعة التي تعود إليها مبادئ ديمينج، كلها سوى واحدة منها، هي نفس المبادئ السبعة المذكورة في هذا البحث مع اختلافات في العناوين.

ثم إن مبادئ الأيزو لخصها أيضاً بعض الباحثين في ثمانية عناصر، ومعظمها مذكورة ضمن المبادئ السبعة في هذا البحث.

مقال رواد الجودة بقلم سوسن شاكر مجيد <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp> ذُكرت فيه معايير بالدريج (أحد رواد الجودة)، وهي سبعة معايير تقترب في الجملة من المبادئ السبعة المذكورة في هذا البحث.

ثم مما يسرني أنني بعد الانتهاء من البحث اطلعتُ على دراسة بعنوان «مبادئ الجودة» للدكتور خالد السحيم، فوجدتُ أنه ذُكر أن الاختلاف بين الباحثين في تحديد مبادئ الجودة، وقلتها أو كثرتها، لا يعني وجود تباين وعدم ترابط بينها، وإنما كل ما في الأمر أن كل باحث يركز على بعض المبادئ التي يراها أساسية للجودة، ومن ثم يرى أن ما عداها هي مبادئ فرعية تنضوي تحت تلك الأساسيات، فهو اختلاف تنوع لا اختلاف تباين. ثم أجاد الدكتور السحيم فصنّف مبادئ الجودة بمختلف أنواعها عند الباحثين، إلى ثلاث مجموعات تبعاً لدرجة شيوعها في كتاباتهم. فالمجموعة الأولى: هي التي تكاد تكون مشتركة لدى غالبية باحثي الجودة. والمجموعة الثانية: هي المبادئ التي نالت نسبة أقل من الاتفاق لدى الباحثين. أما المجموعة الثالثة فهي مبادئ نالت نسبة أقل من المجموعتين السابقتين في بحوث الجودة. وقد ظهر بالمقارنة بحمد الله أن مبادئ المجموعتين الأولى والثانية - وهما اللتان أخذتا نسبة الغالبية لدى باحثي الجودة - احتواهما هذا البحث في مبادئه السبعة. أما المجموعة الثالثة فمع كون مبادئها ذات نسبة أقل من المجموعتين السابقتين في بحوث الجودة، ففيها أيضاً ما يعود إلى المبادئ السبعة في هذا البحث.

المبدأ الأول: «إن الله عز وجل يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»^(١)

الإتقان أساس الجودة ومنطلقها^(٢)

هذا الحديث يُعدّ منطلقاً أساسياً لمفهوم الجودة في الإسلام، ولهذا درج جملةً من كتب في موضوع الجودة في الإسلام، على الاستشهاد به وجعله أصلاً لتقرير مفهوم الجودة في الإسلام، حتى قال بعضهم: (الجودة الشاملة بمفهومنا المعاصر هي مفتاح الإتقان والإحسان فيه)^(٣).

إن معنى الإتقان: أن يُحسِنَ العاملُ عمله بأن لا يُبقي فيه مقالاً لقائل^(٤)، فهو يقوم على تجويد العمل بطريقة تصل إلى المطابقة للمواصفات المثالية التي ترتقي بمستوى العمل بطريقة مبدعة، وتُعطي للعمل قيمةً ورونقاً خاصاً^(٥). يقول المناوي: «فعلَى الصانع الذي استعمله الله في الآلات والعدد مثلاً: أن يعمل بما علّمه الله عملَ إتقان وإحسان بقصد نفع خلق الله، ولا يعمل على نية أنه إن لم يعمل ضاع، ولا على مقدار الأجرة، بل على حسب إتقان ما تقتضيه الصنعة؛ كما ذكر أن صانعاً عملاً عملاً أخلّ فيه بالإتقان المطلوب فيه، ودفعه لصاحبه؛ فلم ينم ليلته، وجلاً من أن يظهر في عمله شيءٌ غيرٌ مُتقن، فشرع في عملٍ آخر بدلاً عنه حتى

١- المعجم الأوسط للطبراني ١ / ٢٧٥ (١٩٧)، من حديث عائشة رضي الله عنها. وفي إسناده ضعف لوجود مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤ / ٩٨: «وثقه ابن حبان وضعفه جماعة». والمعتمد تضعيفه، فقد قال عنه ابن حجر في تقريب التهذيب (٦٦٨٦): «لین الحديث». لكن له شاهد أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٧ / ٢٣٤ من طريق قطبة بن العلاء بن المنهال عن أبيه عن عاصم بن كليب عن كليب بن شهاب الجرهمي مرسلًا. وهو ضعيف أيضاً لكونه مرسلًا بالإضافة إلى من تكلم فيه من رواته، لكن الألباني في السلسلة الصحيحة ٣ / ١٠٦ (١١١٣) يقول عن هذه الرواية: «إنها تُقوي رواية الطبراني بعض القوة». ثم إن معنى (الإتقان والإحسان) مبثوث في نصوص الشريعة كما لا يخفى، فيمكن بمجموع ذلك أن يقال بتقوية الحديث وانجبار ضعفه.

٢- وما يسر كاتب البحث أن جامعة الطائف (التي هو أحد منسوبيها)، اختارت إحدى إداراتها (إدارة الخدمات العامة بعمادة الدراسات الجامعية) ضمن القيم، هذا الحديث شعاراً لنفس هذا المبدأ بعنوان (الجودة والكفاءة والتميز)، ولم يطلع عليه الباحث إلا بعد انتهاء البحث.

٣- مفهوم إدارة الجودة الشاملة <http://www.afifedu.gov.sa/vb/showthread.php?p=٨٣١١١>

٤- فيض القدير ٢ / ٢٨٧.

٥- الأبعاد التربوية لمفهوم الاستقامة في القرآن الكريم والسنة النبوية لسهير كولك ص ٥٦.

أَتَقَنَهُ بِمَا تُعْطِيهِ الصَّنْعَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهِ لِصَاحِبِهِ، فَاسْتَرْجَعَ مِنْهُ الْعَمَلَ السَّابِقَ، وَأَعْطَاهُ الْعَمَلَ الثَّانِي، فَشَكَرَهُ هَذَا، فَقَالَ لَهُ: لَمْ أَعْمَلْ لِأَجْلِكَ، بَلْ قِضَاءً لِحَقِّ الصَّنْعَةِ! كِرَاهَةً أَنْ يَظْهَرَ مِنْ عَمَلِي عَمَلٌ غَيْرٌ مِتَقَنٌ! قَالَ الْمَنَاوِي: «فَمَتَى قَصَّرَ الصَّانِعُ فِي الْعَمَلِ لِمَجْرَدِ نَقْصِ الْأَجْرَةِ، فَقَدْ كَفَرَ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ، وَرَبَّمَا سُلِبَ الْإِتْقَانُ!»^(١).

وتظهر قيمة الإتيان أولاً من جهة محبة الله تعالى للعمل المتقن، فإن الإمداد الإلهي ينزل على العامل بحسب عمله، فكل من كان عمله أتقن وأكمل فالحسنات تُضاعف له أكثر، وإذا أكثر العبد من الحسنات أحبه الله تعالى^(٢). كما تظهر هذه القيمة ثانياً في أن صفة الإتيان تلتقي مع وصف الله تعالى لنفسه بإتقانه لمخلوقاته، فقد قال تعالى عن نفسه: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. قال ابن القيم: «ومن وافق الله في صفة من صفاته، قَادَتَهُ تِلْكَ الصِّفَةُ إِلَيْهِ بِزَمَامِهِ، وَأَدْخَلَتْهُ عَلَى رَبِّهِ، وَأَدْنَتْهُ مِنْهُ، وَقَرَّبَتْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَصَيَّرَتْهُ مَحْبُوبًا لَهُ»^(٣).

تطبيقات من السنة النبوية للإتيان:

١- حديث: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ»^(٤). «الماهر: هو الحاذقُ الكاملُ الحفظ، الذي لا يتوقف ولا يشقُّ عليه القراءة، لجودة حفظه وإتقانه»^(٥). وظهرت قيمة مهارته في كونه جعل مع الملائكة السفرة الكرام البررة، «فيكونُ بالمهارة عند الله كريماً بَرًّا»^(٦).

١- ينظر فيض القدير ٢/ ٢٨٦.

٢- التيسير للمناوي ١/ ٢٦٩.

٣- الجواب الكافي ص ٤٤.

٤- متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ لمسلم. صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة عبس ٤/ ١٨٨٢ (٤٦٥٣)، صحيح مسلم، كتاب فضائل القرآن، باب فضل الماهر بالقرآن ١/ ٥٤٩.

٥- شرح صحيح مسلم للنووي ٦: ٨٤.

٦- شرح صحيح البخاري لابن بطال ١٠: ٥٤٢.

٢- حديث إتيان زيد بن ثابت لغة اليهود وكتابتهم، فقد قال: «أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعلّمت له كتاب يهود. وقال: إني والله ما آمن يهود على كتابي فتعلّمته فلم يمرّ بي إلا نصف شهر حتى حدّثته فكنت أكتب له إذا كتبت وأقرأ له إذا كتب إليه»^(١). والحديث واضح في إتيان زيد تعلّم تلك اللغة، وقد ظهرت أيضا مهارته الفائقة في تعلّمها في مدة وجيزة تقرب من نصف شهر!

٣- حديث: «إن العبد إذا نصّح لسيدته وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين»^(٢). والشاهد هنا: لفظ «نصّح لسيدته» فإنه يدل على إبراز عنصر الإتيان في الخدمة، لأن معنى النصّح: أنه قام بمصالحه على وجه الخلوص وأخلص الخدمة^(٣). وهذه الكلمة «النصح للسيد» تشمل ما يسمى في أيامنا بـ(الخدمة المميزة)، وهي التي تقتضي من الشخص بذل كل ما يمكنه من إجادة وإحسان ومهارات في أداء الخدمة، حتى يصدّق عليه أنه قام بحق (النصح)، فإن (النصيحة) كما قال الخطابي: كلمة يُعبّر بها عن جملة هي (إرادة الخير للمنصوح له)...^(٤). كما يمكن أن يدخل في معنى كلمة «العبد» -مجازاً- في هذه الأيام: كل من يكون مرؤوسا وتابعا لشخص أو جهة ما، فإنه من وجه يعد مملوكا، ويعد رئيسه سيّداً له، فهو لاء إذا بذلوا النصّح في الخدمة المفوضة إليهم من جهة رؤسائهم، وأبدوا ما لديهم من مهارات ومواهب

١- رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام ٦ / ٢٦٣١، تعليقا مجزوما به، ورواه بنحوه أبو داود، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم ٣ / ٣١٨ (٣٦٤٥) (واللفظ له)، والترمذي، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في تعليم السريانية، ٥ / ٦٧ (٢٧١٥). قال الترمذي: «حسن صحيح». وحسن إسناده محقق مسند أحمد (٢١٦١٨).

٢- متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، واللفظ لمسلم. صحيح البخاري، كتاب العتق، باب العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده ٢ / ٨٩٩ (٢٤٠٨)، وصحيح مسلم، كتاب الأيمان، باب ثواب العبد وأجره إذا نصّح لسيدته وأحسن عبادة الله ٣ / ١٢٨٤.

٣- ينظر شرح الزرقاني على الموطأ ٤ / ٥٠٩، وعون المعبود ١٤ / ٥٢.

٤- معالم السنن للخطابي ٤ / ١٢٥، شرح النووي على صحيح مسلم ٢ / ٣٧.

لتقديم خدمة مميزة ولو لم يُطلب ذلك منهم، مع عدم الإخلال في الوقت نفسه بحق الله تعالى، فيرجى لهم الدخول في ضمن هذا الحديث. ومما يشهد لهذا المعنى العام، ورود هذا الحديث في رواية بلفظ عام دون تقييده بلفظ «العبد» هكذا: «نِعْمَ مَا لِأَحَدِهِمْ، يُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ»^(١)، فكلمة «لأحدهم» بعمومها تشفع في تعميم معنى الحديث بحيث يشمل غير (العبيد المملوكين) المعروفين بمعناهم الاصطلاحي الخاص.

٤- وُصفت بعض النساء الصحابيات في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بإتقان الصناعات اليدوية. فمنهن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، فقد وُصفت «أنها كانت صَنَاعًا»^(٢) أي كانت حاذقةً في الصناعة^(٣). وفي رواية: «وكانت زينبُ امرأةً صَنَاعَةَ اليد، فكانت تدبُغ وتخرزُ» الحديث^(٤)، وظهر من هذه الرواية نوعُ تلك الأعمال، وأنها كانت تتطلب مهارةً يدويةً. ومنهن: زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما، فقد وُصفت أيضا بأنها كانت صَنَاعَ اليدين^(٥).

٥- أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى العناية بإتقان العمل حتى ولو كان ذلك يتعلق بتكفين الميت ودفنه، فعن جابر رضي الله عنه أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قُبِضَ فُكِّنَ فِي كَفْنٍ غَيْرِ طَائِلٍ^(٦)، فقال صلى الله

- ١- صحيح البخاري، كتاب العتق، باب العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده ٢ / ٩٠٠ (٢٤١١).
- ٢- مسند البزار ١ / ٣٦٠ (٢٤١). وإسناده صحيح كما في السلسلة الضعيفة للألباني ١٣ / ٧٤٦ (٦٣٣٥).
- ٣- مشارق الأنوار للقاضي عياض ٢ / ٤٧.
- ٤- المستدرک ٤ / ٢٦، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وأقره ابن حجر في الفتح ٣ / ٢٨٧. ولكن فيه إسماعيل بن أبي أويس، قال ابن حجر عنه في التقريب (٤٦٠): «صدوق أخطأ في أحاديث من حفظه»، وكذلك أبوه (أبو أويس) قال عنه ابن حجر في التقريب (٣٤١٢): «صدوق يهيم»، فيكون الحديث حسناً كما في السلسلة الضعيفة للألباني ١٣ / ٧٤٦ (٦٣٣٥). وعليه يمكن أن يُحمل تصحيح الحاكم، ثم إن هذه الرواية تتقوى برواية البزار السابقة.
- ٥- سنن ابن ماجه، كتاب الزكاة، باب الصدقة على ذي قرابة ١ / ٥٨٧ (١٨٣٥)، وصحح إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة ٢ / ٩٣.
- ٦- أي حقير غير كامل الستر. شرح صحيح مسلم للنووي ٧ / ١١.

عليه وسلم: «إِذَا كَفَّنَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُحَسِّنْ كَفَنَهُ»^(١). ويشمل ذلك تحسين الكفن من جميع النواحي، كإسباغ ثوب الكفن، وتعميمه وستره لبدن الميت، وكثافته، ونظافته ونقائه، وتحسينه، وتعطيره، ونحوه^(٢). وفي حديث دفن الأموات يوم أحد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «احْفَرُوا وَأَوْسِعُوا وَأَحْسِنُوا»^(٣)، وفيه إرشاد من النبي صلى الله عليه وسلم إلى «حُسنِ عملِ القبر»^(٤)، «أي: اجعلوا القبر حسناً بتسوية قعره ارتفاعاً وانخفاضاً، وتنقيته من التراب والقذارة وغيرهما»^(٥).

٦- حديث أن بلالا رضي الله عنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر برني فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَيْنَ هَذَا؟ قَالَ بِلَالٌ: كَانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ رَدِيٌّ فَبَعْتُ مِنْهُ صَاعَيْنِ بِصَاعٍ لِنُطْعِمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: أَوْهَ أَوْهَ عَيْنُ الرَّبِّ! عَيْنُ الرَّبِّ! لَا تَفْعَلْ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ فَبِعِ التَّمْرَ بَبَيْعٍ آخَرَ ثُمَّ اشْتَرِهِ»^(٦). ومثل ذلك: الواقعة الأخرى التي فيها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلاً على خيبر فجاءه بتمر جنيب (نوع من أفضل التمر). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَكَلِ تَمْرٍ خَيْرٍ هَكَذَا؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ

١- صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب في تحسين كفن الميت ٦٥١ / ٢. وكلمة «كفنه» في الحديث، وإن كان الأقرب فيها كونها بفتح الفاء أي بمعنى (ثوب الكفن)، إلا أنها ضبطت أيضاً بإسكان الفاء أي «كفنه»، فتكون بمعنى «هيئة تكفينه»، كما أشار إليه ابن عبد البر في الاستذكار ٣ / ١٩.

٢- شرح صحيح مسلم للنووي ٧ / ١١-١٢ وحاشية السندي على سنن النسائي ٤ / ٣٣ وفيض التقدير ١ / ٤٥٥.

٣- سنن الترمذي، كتاب الجهاد، باب ما جاء في دفن الشهداء ٤ / ٢١٣ (١٧١٣)، وقال: «حديث حسن صحيح». وأخرجه أحمد في مسنده (١٦٢٦٢) وقال محققه: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

٤- وبه بوب عبد الرزاق في مصنفه ٣: ٥٠٧ على الحديث، وهكذا فعل ابن المنذر في الأوسط ٥: ٤٥٠ فقال (ذكر الأمر بحفر القبور للموتى وتحسين ذلك والتوسع فيه) ثم ساق هذا الحديث.

٥- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٣ / ١٢١٩.

٦- متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. صحيح البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا باع الوكيل شيئاً فاسداً فبيعه مردود ٢ / ٨١٣ (٢١٨٨) (واللفظ له)، وصحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل ٣ / ١٢١٥.

هَذَا بِالصَّاعَيْنِ وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثَةِ (وفي رواية بالصَّاعَيْنِ مِنَ الْجَمْعِ وَهُوَ تَمْر رَدِيءٌ). فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَفْعَلْ بِعِ الْجَمْعِ بِالذَّرَاهِمِ، ثُمَّ ابْتَعْ بِالذَّرَاهِمِ جَنِيبًا»^(١). ففي هذين الحديثين إرشاد إلى ركيزة من ركائز الإتيقان عند رواد الجودة المعاصرة، وهي أن تنطلق ثقافة الجودة من لدن القيادة والإدارة العليا، ويعبر عنها بـ(قيادة ذات رؤية)^(٢)، فذلك هو الذي يجعل روح الجودة تسري في كيان العاملين ويغيرهم بالحرص عليها والتنافس فيها. فهنا نبه النبي صلى الله عليه وسلم - وهو المثل الأعلى والقدوة - إلى الاهتمام بثقافة الجودة، ببيان أن هذه الطريقة في استبدال التمر الجيد مكان الرديء، مخالفة للجودة الشرعية، ثم أرشدهم في الوقت نفسه إلى حل بديل لهذا الاستبدال بطريقة جائزة ومهارة سهلة، بأن يُباع التمر الرديء أولاً، ثم يُشترى بثمنه ما يراد من التمر الجيد. وهذا الإرشاد للحل البديل هو أيضاً من عناصر الجودة التي ينبغي أن تحرص عليها القيادة ذات الإتيقان، لأنه يؤدي إلى الوقاية ومنع حدوث الأخطاء والعيوب من البداية، بدلاً من أن يقع الخطأ ثم يُصحح، وهذا ما وصلت إليه الجودة المعاصرة في أرقى مراحل تطوراتها، ويعبر عنها بمبدأ (افعله صحيحاً منذ المرة الأولى)^(٣).

- ١- متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه ٧٦٧ / ٢ (٢٠٨٩)، كتاب الاعتصام، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ ٢٦٧٥ / ٦ (٦٩١٨) (واللفظ له والزيادة من كتاب الاعتصام)، وصحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل ٣ / ١٢١٥.
- ٢- ينظر: مبادئ إدارة الجودة الشاملة للعجلوني ص ٦٤، ورؤية تأصيلية لمفهوم الجودة في الإسلام للحاج عبد المولى الصديق، مجلة عالم الجودة ص ٢٢.
- ٣- ينظر مفاهيم أساسية عن الضبط الشامل لعيشوني ص ٢٧.

المبدأ الثاني: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ
فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ»^(١)
مهارة الأداء: قيمة ورونق لا غنى عنها في الجودة

هذا الحديث يعدّ قاعدة في العناية بأسلوب تنفيذ العمل وكيفية أدائه (ولعله الذي يسمى لدى أصحاب الجودة المعاصرة بمنهج العملية، أو تصميم العمليات وتنفيذها)، ويكون ذلك بأن يعتني العامل بدقة الأداء وإتقانه في جميع مراحل العمل وخطواته، وبهذا تتحقق (جودة في كل جزئية من جزئيات العمل)، ينتج عنها (جودة تراكمية في مجموع أجزاء العمل)، وذلك يؤدي طبيعياً إلى إنتاج عمل متكامل في الجودة. والمراد بـ(الإحسان) هنا: تحسين الأعمال المشروعة، لا مجرد الإنعام على الغير، فحقُّ على من شرع في شيء منها أن يأتي به على غاية كماله، ويحافظ على آدابه المصححة والمكملة؛ وليحذر من أن تُسوّل له نفسه أنه إذا فعل ذلك قلَّ عمله، لأنه وإن قلَّ: يزيد به الثواب حتى يفوق مع قلته، الكثير الذي لا إحسان فيه^(٢).

وقد اختار النبي صلى الله عليه وسلم - في الحديث - مثالا لتقريب هذا المعنى (وهو الإحسان في تنفيذ العمل)، فقال: «فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ». وكان اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لهذين المثالين لتوضيح معنى الجودة في أداء العمل، من باب ما يسمى بـ(التنبيه بالأولى)، أي أنه إذا كان أداء العمل بإحسان ومهارة مطلوباً حتى في تنفيذ الذبح والقتل، مع أن فيهما إزهاقاً للروح وإنهاءً للحياة، وفيهما غاية الأذى للمقتول والمذبوح، فكان يمكن أن يتم ذلك بأي طريقة كانت، بدون أن يستدعي ذلك الاهتمام والعناية

١ - صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة ٣ / ١٥٤٨، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

٢ - ينظر: ألفهم ٥ / ٢٤٠، والفتح المبين بشرح الأربعين للهيتمي ص ٣٤١.

بكيفية تنفيذ كل منهما، ومع ذلك طلب أداء هذين العاملين بإحسان، ليكون ذلك مُنبهًا من (باب أولى) إلى رعاية الإحسان في أداء بقية الأعمال التي هي أعلى من مجرد الذبح والقتل، أي فهي أحرى أن يُطلب فيها الإحسان^(١).

تطبيقات من السنة النبوية لمهارات الأداء:

١- أرشد النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث نفسه إلى حُسن تنفيذ الذبح بقوله «وَلْيُحِدِّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَيْبِحَتَهُ»، وهذان لفظان وجيزان يجمعان عددا من صور الإحسان المطلوبة في الذبح، ومنها: الرفق بالبهيمة، فلا يَصْرَعُهَا بعنف، ولا يجرُّها من موضع إلى موضع. وإحداؤ الآلة. والإجهاز^(٢). وقطع الودجين والحلقوم. وإراحتها. وتركها إلى أن تبرُد^(٣). ويمكن أن يقال: إن الأمر بإحسان الذبح، يمكن نقله وتوسيع دائرته إلى جميع الأعمال، وذلك من خلال التركيز على عنصرين - يستفادان من هذين اللفظين -، يتحقق من خلالهما أداء الأعمال بجودة ومهارة، وهما:

أولاً: العناية بجودة آلات العمل والمقدّمات اللازمة له، وهو المشار إليه في لفظ (وَلْيُحِدِّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ).

ثانياً: العناية بأداء العمل بمهارة وتفوق، وهو المشار إليه في لفظ (وَلْيُرِحْ ذَيْبِحَتَهُ).

٢- في حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار^(٤)، ظهرت مهارة أحد الأشخاص

١- ينظر الفتح المبين ص ٣٤٢.

٢- أي إمرار السكين على الذبيحة بسرعة وقوة، لئلا تطول عملية الذبح فتؤذي إلى تعذيب الحيوان كما كان يفعل أهل الجاهلية. ينظر: شرح البخاري لابن بطال ٥ / ٤٢٠ و ٦ / ٢٢ وعون العبود ٨ / ٨.

٣- ينظر المفهم ٥ / ٢٤١-٢٤٢.

٤- متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرا فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد ٢ / ٧٩٣ (٢١٥٢)، وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة ٤ / ٢٠٩٩.

في كيفية تقديم الخدمة للوالدين بصورة نادرة تدل على مدى غاية الكمال والإحسان في تلك الخدمة. وكذلك في الحديث نفسه، نقف على مهارة ذكية لدى الشخص الذي كان استأجر أجراً للعمل، حيث قام بحفظ مال أحد أولئك الأجراء عن طريق وضعه في مشروع استثماري، فأسدى بذلك صورة نادرة من الإجابة في حفظ الأمانة وأدائها.

٣- من النماذج الفريدة التي ظهرت فيها مهارة بارعة في أداء العمل: قصة الصحابي الذي قام بضيافة أحد الأشخاص في ليلة من الليالي، ولم يكن عنده في البيت إلا قوتُ صبيانه، فطلب من زوجته أن تنوم الصبيان بدون العشاء، وأن تطفئ السراج إذا جلس الضيفُ للأكل، ففعلت المرأة ذلك، فجعل يريان الضيف أنهما يأكلان وهما في الحقيقة لم يأكلا شيئاً! فأكل الضيفُ وباتا طاويين! فلما أصبح الصباحُ غداً هذا الصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «قد عجبَ اللهُ من صنعكما بضيفكما هذه الليلة» وأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]^(١). يقول النووي: «أثنى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على هذا الرجل وامرأته، فدل على أنهما لم يتركا واجباً، بل أحسنا وأجملاً، رضي الله عنهما»^(٢).

٤- حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: استمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآتي من الليل، فلما أصبحت، قال: «يا أبا موسى، استمعت قرآتك الليلة لقد أوتيت مزمارة من مزامير آل داود»، قلت: يا رسول الله،

١- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول الله (ويؤثرُونَ على أَنفُسِهِمْ ولو كان بِهِمْ خَصَاصَةٌ) ٣/ ١٣٨٢ (٣٥٨٧)، وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره ٣/ ١٦٢٤.
٢- شرح صحيح مسلم للنووي ١٤/ ١٢.

لَوْ عَلِمْتُ مَكَانَكَ، حَبَّرْتُ لَكَ تَحْبِيرًا»^(١). هذا الحديث يدل على ما كان أوتيهِ أبو موسى رضي الله عنه من الأداء الحَسَنِ العَالِي في قراءة القرآن الكريم، ولهذا لما علم أبو موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم استمع إليه وأعجب به، تمنى أنه عَلِمَ بذلك لزيد في تحسين القراءة وتجميلها، حتى يُعَرِّفَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه متمكن من القراءة والأداء، فيحمده النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو له، فتحصل له فضيلة ومنقبة^(٢).

المبدأ الثالث: «إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»^(٣) الكفاءة المهنية: شريان نظام الجودة

في هذا الحديث إرشاد رائع لتأصيل وتقرير ما يسمى في مبادئ الجودة بـ(الكفاءة المهنية)، وهو مبدأ مهم يُعبر عنه أصحاب الجودة وخبرائها بقولهم: (عنصر الرجل المناسب في المكان المناسب). وأصل هذا الحديث ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

فلقد أبان هذا الإرشاد النبوي ربط هذا المبدأ بالجودة، من جهة أن عدم إسناد الأمور إلى أهلها (وهم الأكفاء الجديرون بتحملها والقيام بها)، يعد تضييعاً لمبدأ أمانة العمل وتحمل مسؤوليته بكافة أنواعها، وسيؤدي ذلك إلى خراب

١- صحيح ابن حبان، كِتَابُ إِخْبَارِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ مَنَاقِبِ الصَّحَابَةِ، ذَكَرُ قَوْلِ أَبِي مُوسَى لِلْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَوْ عَلِمَ مَكَانَهُ لَحَبَّرَ لَهُ، ١٦ / ١٧٠ (٧١٩٧)، وإسناده على شرط مسلم كما قاله محققه. وأصل الحديث في الصحيحين من دون قوله: «لو علمت مكانك...». صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن ٤ / ١٩٢٥ (٤٧٦١)، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ١ / ٥٤٦.

٢- ينظر: المفهم للقرطبي ٢ / ٤٢٣، جمع الوسائل لعلي القاري ص ١٤٢.

٣- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة ٥ / ٢٣٨٢ (٦١٣١)، كتاب العلم، باب من سئل علماً وهو مشغول في حديثه فأنتم الحديث ثم أجاب السائل ١ / ٣١ (٥٩)، وفيه اللفظ المشهور: «إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

الأعمال وفسادها وتضييعها؛ إذ إن صاحبها سيكون أخرج لا يُحسن الصناعة ولا يجيد العمل، فلن يُتوقع منه الإحسان والإتقان في أداء العمل، وإذا استشرى هذا التضييع للأمانة في تولية غير الأكفاء واستمرى، فإنه سيؤدي شيئاً فشيئاً إلى انتشار الخراب والفساد في نظام الحياة عامة دينياً ودينيوياً^(١)، وذلك مؤذنٌ بقيام الساعة ونهاية العالم، فإن من علامات الساعة أن تنقلب الأحوال وتصير الأمور عموماً إلى غير الأكفاء، بل سيرتفع غيرُ الأكفاء على الأكفاء، كما في قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «ويعلُّ التُّحوتُ الوعولُ» وفيه: قلنا: وما التُّحوتُ؟ قال: «فُسولُ الرجال وأهلُ البيوتات الغامضة، يُرفعون فوق صالحِيهم. والوعولُ: أهلُ البيوت الصالحة»^(٢).

هذا، وأهم أنواع الكفاءات - التي تنضوي تحتها بقية الكفاءات - أربع كفاءات أساسية، جمعتها ثلاث آيات كريمات في القرآن الكريم، جاء فيها ذكر هذه الكفاءات الأربع في صميم الأهلية المطلوبة لتولي الأعمال. فأولى تلك الآيات، قوله تعالى في بيان كفاءة يوسف عليه السلام عند ما رشح نفسه لتولي الوزارة المالية^(٣): ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥]. وهاتان الصفتان (الحفظ والعلم) تُعبّران عن (الكفاءة العملية) و(الكفاءة العقلية، أو كفاءة الخبرة والتخصص). وهما صفتان تتعلقان بكل الأعمال والوظائف، ولهذا استدل بهما يوسف عليه السلام لأهليته للوزارة، (ولم يقل: إني حسيب كريم، وإن كان هو كذلك، ولا قال: إني جميل مليح، إنما قال: «إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ»، فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال)^(٤). وثانية تلك الآيات، قوله تعالى في بيان كفاءة موسى عليه السلام في العمل، حسب ما شاهدته ابنة صاحب مدين:

- ١- جامع العلوم والحكم ص ٤١.
- ٢- المعجم الأوسط للطبراني ١ / ٢٢٨ (٧٤٨) وإسناده حسن إن لم يكن صحيحاً كما في السلسلة الصحيحة للألباني ٧ / ٦٤١-٦٤٣ (٣٢١١).
- ٣- تفسير ابن سعد ص ٤٠١.
- ٤- تفسير القرطبي ٩ / ٢١٦.

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦].
 وثالثتها: قوله تعالى عن عفريت الجن في عهد سليمان عليه السلام حين وصف
 نفسه بكفاءته لإحضار عرش ملكة سبأ: ﴿ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَايُنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن
 مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل: ٣٩].

ففي هاتين الآيتين تكرر ذكر صفتي (القوة) و(الأمانة) في معرض بيان
 كفاءة العمل، وهما تعبيران عن (الكفاءة التأهيلية)، و(الكفاءة النفسية). وهاتان
 الكفاءتان هما الميزان الذي تُوزَن به الكفاءة والجودة والتميز في كل من يتولى
 عملاً، صغيراً كان أم كبيراً.

وبالجمله فإن هذه الصفات الأربع (الحفظ والعلم، والأمانة والقوة) هي
 أصول كفاءات العمل، ومتى وجدت هذه الصفات في عامل أو موظف أو مدير،
 فإنه - في الغالب - سيكون جيداً في عمله، مثمراً في أدائه، عالياً في قدراته، مؤدياً
 لواجبه.

تطبيقات من السنة النبوية لاختيار أصحاب الكفاءات المهنية:

١ - حديث: «اسْتَقْرُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَسَالِمِ مَوْلَى أَبِي
 حُدَيْفَةَ وَأَبِي بَنٍ كَعْبٍ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ»^(١). وقد قيل ضمن وجوه تخصيص
 هؤلاء الأربعة بأخذ القرآن عنهم: «أنهم كانوا أكثر ضبطاً لألفاظه، وأتقن
 لأدائه»^(٢).

٢ - حديث زيد بن ثابت في توليه مهمة جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله
 عنه، فقد قال له أبو بكر رضي الله عنه حين أراد تكليفه بهذه المهمة: «إِنَّكَ

١ - صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ٣: ١٣٧٢ (٣٥٤٩)

وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود ٤: ١٩١٣.

٢ - ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٦ / ١٧ وفتح الباري ٧ / ١٠٢.

رَجُلٌ شَابٌ عَاقِلٌ، لَا نَتَهَمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَتَبِعَ الْقُرْآنَ فَاجْمَعُهُ»^(١). وواضح من هذه الكلمات مدى ثقة أبي بكر رضي الله عنه في كفاءة زيد رضي الله عنه لتولي هذه المهمة الجليلة، فقد «ذَكَرَ لَهُ أَرْبَعُ صِفَاتٍ مَقْتَضِيَةٌ خُصُوصِيَّتَهُ بِذَلِكَ: كَوْنُهُ شَابًا فَيَكُونُ أَنْشَطَ مَا يُطَلَّبُ مِنْهُ، وَكَوْنُهُ عَاقِلًا فَيَكُونُ أَوْعَى لَهُ، وَكَوْنُهُ لَا يُتَّهَمُ فَتَرَكْنَ النَّفْسُ إِلَيْهِ، وَكَوْنُهُ كَانَ يَكْتُبُ الْوَحْيَ فَيَكُونُ أَكْثَرَ مِمَّا رَسَمَهُ لَهُ. وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ لَهُ، قَدْ تَوَجَّدَ فِي غَيْرِهِ لَكِنَ مَفْرَقَةً»^(٢). وقد أشار الإمام البخاري إلى شيء من هذه الكفاءات، حيث بَوَّبَ عَلَى الْحَدِيثِ فِي مَوْضِعٍ بَد (باب يستحب للكتاب أن يكون أميناً عاقلاً)^(٣).

٣- حديث جابر رضي الله عنه في زواجه بالثيب دون البكر، وبيانه سبب ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله: تُوْفِّي وَالِدِي أَوْ اسْتُشْهِدْ، وَلِي أَخَوَاتٌ صَغَارٌ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ مِثْلَهُنَّ فَلَا تُؤَدِّبُهُنَّ وَلَا تَقُومَ عَلَيْهِنَّ، فَتَزَوَّجْتُ ثَيْبًا لَتَقُومَ عَلَيْهِنَّ وَتُؤَدِّبُهُنَّ^(٤)، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أَصَبْتَ»^(٥)، وفي رواية قال: «فبارك الله لك» أو قال لي خيراً^(٦). فهنا ظهرت جودة عقل جابر رضي الله عنه في كونه أتى بزوجة تكون كفؤاً لتحمل مسؤوليات البيت وتربية هؤلاء الأخوات، وقد استحسّن النبي صلى الله عليه وسلم منه هذه الكياسة والحصافة في هذا التصرف حيث دعا له بالبركة والخير.

١- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن ٤/١٩٠٧ (٤٧٠١).

٢- فتح الباري ٩/١٣.

٣- صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب يستحب للكتاب أن يكون أميناً عاقلاً ٦/٢٦٢٩ (٦٧٦٨).

٤- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب استئذان الرجل الإمام ٣/١٠٨٣ (٢٨٠٥) وصحيح مسلم ٣، كتاب المساقاة، باب بيع البعير واستئناء رُكُوبِهِ ٣/١٢٢١. ووردت ألفاظ أخرى، فمنها: فتزوجت ثيباً تعلمهن وتؤدبهن، ومنها: فأحببت أن أتزوج امرأة تجمعهن وتمسطنهن وتقوم عليهن. ينظر صحيح البخاري (٢٢٧٥) و(١٩٩١) وصحيح مسلم ٢/١٠٨٩.

٥- صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب إذ همت طائفتان منكم أن تفسلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ٤/١٤٨٩ (٣٨٢٦)، وصحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب استجاب نكاح البكر ٢/١٠٨٨.

٦- صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب استجاب نكاح البكر ٢/١٠٨٧.

٤- في قصة الهجرة، اختار النبي صلى الله عليه وسلم دليلاً مشركاً لأنه كان ماهراً خريئاً في معرفة الطريق السري - غير الطريق المعروف -^(١)، فقد «نظر - صلى الله عليه وسلم - في هذا الاختيار إلى الكفاية وحدها، فإذا اكتملت في أحد ولو مشركاً استخدمه وانتفع بموهبته»^(٢).

٥- حديث طلق بن علي اليمامي قال: بنيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد المدينة، فكان يقول: «مكنوا اليمامي من الطين، فإنه من أحسنكم له مساً»^(٣). وفي رواية عند الإمام أحمد، قال طلق: جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه يبنون المسجد، قال: فكأنه لم يعجبه عملهم، قال: فأخذت المسحاة، فخلطت بها الطين، فكأنه أعجبه أخذ المسحاة وعملي، فقال: «دعوا الحنفي والطين، فإنه أضبطكم للطين»^(٤). هذا الحديث واضح في «توسيد الأمر إلى أهله»، وبه بوب صاحب كنز العمال عليه^(٥).

٦- حديث: «أنزلوا الناس منازلهم»^(٦). يقول الشيخ ابن سعدي: ومن تنزيل الناس منازلهم: أن تجعل الوظائف الدينية والديوية والمتميزة منهنما للأكفاء المتميزين، الذين يفضلون غيرهم في ولاية تلك الوظيفة...؛ وهذه الولايات من أعظم الأمانات، فيتعين أن تؤدى إلى أهلها، وأن يوظف فيها أهل الكفاءة

١- صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب استئجار المشركين عند الضرورة ٢ / ٧٩٠ (٢١٤٤).

٢- فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ١٧١.

٣- المعجم الكبير للطبراني ٨ / ٣٣٢ (٨٢٤٢) وأخرجه صاحب «الأحاديث المختارة» ٨ / ١٦٩ من طريق الطبراني، وقال: إسناده صحيح. وأخرجه ابن حبان ٣ / ٤٠٤. وإسناده قوي كما قال محققه. وفي رواية في دلائل النبوة للبيهقي ٢ / ٥٤٢: «فإنه من أحسنكم له بناء».

٤- مسند أحمد ٣٩ / ٤٦٥ (٣١) وفيه أيوب بن عتبة، لئن من قبل حفظه كما قال الذهبي في السير ١٣ / ٣٦٢ لكنه يتقوى بمتابعاته التي منها الرواية السابقة، ولهذا حكم عليه محقق المسند بقوله: «حديث حسن».

٥- كنز العمال ٣: ٤٨ و ٣: ٢٨٠.

٦- رواه مسلم تعليقا في مقدمة صحيحه ١ / ٦، ورواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم ٤ / ٢٦١ (٤٨٤٢) من حديث عائشة رضي الله عنها. وتكلم عليه السخاوي في المقاصد الحسنة ص ١٦٣ بأن فيه انقطاعا وكذلك اختلف في رفعه ووقفه، لكن ذكر له شواهد مرفوعة وموقوفة، وقال بعد ذلك: «وبالجملة فحديث عائشة حسن»، وهكذا قال أيضا في كتابه «الجواهر والدرر» كما نقله عنه ابن علان في دليل الفالحين ٢ / ٢١٨.

بها؛ وكلُّ وظيفة لها أكفاء مختصون، وهو داخل في هذا الحديث الشريف^(١).
 ٧- حديث: «كُلُّ عَامِلٍ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِهِ»^(٢). هذا الحديث فيه تنبيه أيضا إلى أن الكفاءات البشرية تختلف، وأن الناس توجد بينهم فروق فردية ومهارات متنوعة، وكلُّ يُيَسَّرُ وَيُهَيَّأُ لما خُلِقَ له، ولما هو قَابِلٌ له بطبعه، فلا يقدر على غيره^(٣). ولهذا قيل: من بورك له في صناعة أو حرفة أو تجارة فليزْمها^(٤).

٨- حديث: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ الْمَائَةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»^(٥). هذا الحديث تظهر بلاغته في كونه يرشد إلى ما يسمى في الدراسات التربوية المعاصرة بـ(التأهيل) أو (إعادة التأهيل)، وهو السعي في تعليم من يفتقد الكفاءات الأساسية المطلوبة للعمل وتقويمه، حتى يكتسب الكفاءة والمهارة في الأمور التي لا بدَّ له منها^(٦). فالحديث مع كونه يُخبر فيه صلى الله عليه وسلم عن أمر واقع، وهو أن الناس كثيرون، فإذا أردت أن تنتخب منهم من يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامة أو الولايات الكبار أو الصغار أو الوظائف المهمة، لم تكد تجد من يقوم بتلك الوظيفة قياما صالحا؛ ومع هذا الإخبار بالواقع نستشف من مضمون الحديث توجيهاً إلى أنه ينبغي لمجموع الأمة أن يسعوا ويجتهدوا في (تأهيل الرجال) الذين يصلحون للقيام بالمهام والأمر الكلية العامة النفع. فالوظائف الدينية والدينية، والأعمال الكلية، لا بد للناس منها، ولا

- ١- شرح جوامع الأخبار لابن سعدي، بتلخيص وتصرف ص ٤٣-٤٤.
- ٢- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كَيْفِيَّةِ الْخَلْقِ الْإِدْمِيِّ فِي بَطْنِ أُمَّهِ وَكِتَابَةِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقَاوَتِهِ وَسَعَادَتِهِ ٤ / ٢٠٤١، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وفي رواية: كلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ. صحيح البخاري (٧١١٢) وصحيح مسلم، الموضوع السابق، كلاهما من حديث عمران رضي الله عنه.
- ٣- ينظر صحيح البخاري ٦/٢٧٤٤، وشرح النووي على مسلم ١٦/١٩٦، وفيض القدير ٥ / ٣٥، «لا إنكار في مسائل الخلاف» للدكتور عبد السلام مقبل المجيدي، تقديم عمر عبيد حسنة ص ٢.
- ٤- لسان العرب ٤/٢٤٩.
- ٥- متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة ٥/٢٣٨٣ (٦١٣٣) وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسُ كَالإِبِلِ مَائَةٌ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً ٤/١٩٧٣.
- ٦- الثقافة الإسلامية، المستوى الرابع ص ١٥٨.

تم مصلحتهم إلا بها، وهي لا تتم إلا بأن يتولاها الأكفاء والأمناء، وذلك يستدعي السعي في تحصيل هذه الأوصاف بحسب الاستطاعة^(١).

المبدأ الرابع: «يدُ الله مع الجماعة»^(٢)

العمل بروح الفريق: عَضُدُ نظام الجودة^(٣)

هذا الحديث الوجيه يقرر قيمة العمل بروح الفريق، وهو المعبر عنه في لغة القرآن والسنة المطهرة بمبدأ (التعاون) الذي هو ضرورة من ضروريات الحياة، فلا يَسْتغْنِي عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم^(٤).

والتعاون هو: المساعدة على الحق ابتغاء الأجر من الله سبحانه، وهذا المعنى هو المقصود الذي ينبغي أن يظهر في (العمل الجماعي)، ولهذا يأتي مبدأ (التعاون) معبراً أساساً عن روح العمل الجماعي، فليست العبرة من اجتماع القوم هي مجرد الاجتماع فحسب، بل الغاية من ذلك هي أداء العمل بروح الفريق الواحد المتعاون، الذي تكون فيه مصلحة المجموعة أو المؤسسة، أو ربما مصالح المبادئ، أعلى من مصلحة الفرد، مع الاعتراف في الوقت نفسه بحقوق الأفراد بكاملها، باعتبار أن الفرد الصالح هو اللبنة الأساسية في العمل الجماعي السليم^(٥).

١- شرح جوامع الأخبار لابن سعدي ص ٢٤٩.

٢- صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب طاعة الأئمة، ذكر إثبات معونة الله جل وعلا الجماعة ١٠ / ٤٣٧ (٤٥٧٧). وإسناده صحيح كما في تعليقات محققه. ورواه مسلم في صحيحه من غير قوله: «يد الله مع الجماعة»، انظر: كتاب الإمارة، باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع ٣ / ١٤٧٩.

٣- مما يشرّ كاتبُ البحث هنا أيضاً - كما سبق في المبدأ الأول - أن جامعة الطائف (التي هو أحد منسوبيها) اختارت إحدى إداراتها (إدارة الخدمات العامة بعمادة الدراسات الجامعية) هذا الشعار الحديثي لنفس هذا المبدأ، وقد اطلع الباحث على هذا بعد الانتهاء من البحث.

٤- الصواعق المرسله ٢ / ٥١٧ و ٦٤١.

٥- أهمية التعاون في الإسلام، سمير ابو تيلخ <http://www.panet.co.il/online/articles/32/33/S-625003.32.33.html>، والمؤسسية بين التنظير والممارسة، د. محمد ناجي عطية <http://albayan.co.uk/MGZarticle2.aspx?ID=1817>

إن قيمة العمل الجماعي من حيث الجودة تظهر في أن إتقان العمل يكون أبلغ معه، لأن العمل بالاشتراك مع آخرين يجعله أخف مشقة وأسهل وطأة؛ لتوزع الحمل والعبء فيه على الجميع؛ ثم إنه يتيح لكل فرد أن يشعر بالمسئولية، فيجعله ذلك أكثر التزاماً وإصراراً على تحقيق نتائج أفضل؛ كما أنه يساعد أفراد الفريق على تحقيق تقدير أفضل للذات، والشعور بثقة أكثر بالنفس، وهذا يحسن الاتصالات والعلاقات فيما بينهم في العمل، فيزيد ذلك من الإنتاجية وتحسين النتائج النهائية؛ ولذلك يقول علماء الإدارة: إن الرؤية المشتركة إبداع^(١).

وقبل ذلك وبعد، فإن السنة النبوية أعطت العمل الجماعي جودةً وقيمةً من حيث حصول التأييد الإلهي له، وهو الوارد في هذا اللفظ النبوي الشريف «يُد الله مع الجماعة»، كما أنها أعطته جودةً من حيث حلول البركة الإلهية فيه^(٢) - والبركة خيرٌ كلها-، وشاهد هذا في المتفق عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «طَعَامُ الْاِثْنَيْنِ كَافِي الثَّلَاثَةِ وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الْاَرْبَعَةِ»^(٣)، «فيؤخذ منه أن الكفاية تنشأ عن بركة الاجتماع، وأن الجمع كلما كثر ازدادت البركة»^(٤).

وهذه الكفاية هي نماء معنوي يحصل في الشيء المجتمع عليه، فيزيد الإنتاج عما هو أكثر من حاجة الفريق وعددهم، وهذا ما يوضحه ابن خلدون بمثال واقعي في الحياة، وهو أن القوت من الحنطة لو انتدب لتحصيله شخصٌ واحدٌ بمفرده لما أمكنه أن يحصل على ما يكفي كفاية تامة، لكن إذا انتدب لتحصيله عدد من الناس

١- كونوا على الخير أعوانا لمحمد صالح المنجد <http://www.islamdoor.com/k/292.htm>

٢- ينظر <http://forum.moe.gov.om/~moeoman/vb/showthread.php?t=302557>

٣- صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الْاِثْنَيْنِ ٥ / ٢٠٦١ (٥٠٧٧)، وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب فضيلة المأساة في الطعام القليل وَأَنَّ طَعَامَ الْاِثْنَيْنِ يَكْفِي الثَّلَاثَةَ وَنَحْوِ ذَلِكَ ٣ / ١٦٣٠.

٤- فتح الباري ٩/ ٥٣٥. وما يشهد له حديث «قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ! قَالَ: فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ يَبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ». أبو داود، السنن، كتاب الأطعمة، باب في الاجتماع على الطعام (٣٧٦٦)، مسند أحمد (١٦٠٧٨). وقد تكلم في إسناده، لكن يظهر - من خلال دراسة إسناده - ترجيح قول العراقي في كتابه تخريج أحاديث الإحياء ٣٤٩/١ (١٣١٠) بتحسين إسناده.

وتوزَّعوا بينهم المهمات المختلفة المتعلقة به، فما يحصل حينئذ من القوت المجتمع، يكون قوتاً لأضعافهم مرات. ولهذا يقول ابن خلدون: فالأعمال بعد الاجتماع: تزيد على حاجات العاملين وضروراتهم^(١).

وبالجمله فتظهر أهمية هذا المبدأ (العمل بروح الفريق) في الواقع المعاصر، في كونه يُجسّد (مبدأ التعاون) بمفهومه المتجدد؛ حيث صار يُقاس مدى نجاح أيّ مؤسسة أو إخفاقها بمقدار التعاون القائم بين أفرادها، وعملهم فيما بينهم بروح الفريق الواحد؛ ولذلك خَصَّصت بعضُ الدول جائزة بهذا الاسم (جائزة العمل بروح الفريق)، تُمنح للإدارة أو القسم الذي يتحلَّى بهذه الروح، لتكون الجائزة تقديراً جماعياً للفريق بأكمله^(٢).

تطبيقات من السنة النبوية لمبدأ التعاون والعمل بروح الفريق:

١- حديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ^(٣).
وحديث: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»^(٤). هذه الأحاديث تُبرز أثر مهارة التعاون في إقامة العلاقات الإنسانية الفاعلة، حيث يمكن تحقيق المهمة والعمل بسرعة وإتقان؛ لأن التعاون يوفر الوقت والجهد^(٥).
وفي لفظة (التشبيك بين الأصابع) إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يقتصر التعاون بين العاملين، على من هم داخل المؤسسة الواحدة، بل لا بد أن يمتد إلى

١- مقدمة ابن خلدون بتصرف وتلخيص ص ٣٦٠.

٢- العمل بروح الفريق لمحمد عبد القادر الشواف <http://www.alukah.net/Social/0/3184/>

٣- متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، واللفظ للبخاري. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً ٥/٢٢٤٢ (٥٦٨٠)، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ١٩٩٩/٤.

٤- متفق عليه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، واللفظ لمسلم. صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم ٥: ٢٢٣٨ (٥٦٦٥) وصحيح مسلم، الموضع السابق.

٥- <http://www.bishaedu.gov.sa/vb/showthread.php?t=32339>

المؤسسات الأخرى في البلد الواحد، بل حتى خارج البلد مع الدول الأخرى ذات التجارب المتقدمة في مجال التجويد والتطوير.

٢- حديث النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»^(١). فيه إرشاد إلى تعاون أصحاب المسؤوليات وكل من تجمعهم مهمة واحدة في العمل الجماعي، بأن يتفق المشاركون في الحكم والقرار ولا يختلفوا، فإن الاختلاف يورث الاختلال؛ فإن اتفقوا فذاك، وإلا تباحثوا حتى يتفقوا على الصواب، وإلا رفعوا الأمر لمن فوقهم^(٢).

٣- حديث: «قَالَتِ الْأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْسَمُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا (المهاجرين) النَّخِيلَ. قَالَ: لَا. فَقَالُوا (الأنصار): تَكْفُونَا الْمُؤَنَةَ، وَنُشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ. قَالُوا (المهاجرون): سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»^(٣). هذا الحديث فيه نموذج تطبيقي للعمل بروح الفريق، وذلك أنه لما قدم المهاجرون المدينة من مكة ولم يكن بأيديهم شيء، أحبَّ الأنصار أن تُقسَمَ أموالهم بينهم وبين المهاجرين لتحقيق الإخاء بينهم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أحب أن تبقى أموال الأنصار وعقاراتهم بأيديهم، فلم يرضَ صلى الله عليه وسلم بقسمتها، فعرض الأنصار صورةً أخرى تُحقِّق ما يهدفون إليه من مواساة إخوانهم المهاجرين، وهي صورة (العمل بروح الفريق)، وذلك أن يقوم المهاجرون بالعمل في نخيل الأنصار، ويكون المحصول بعد ذلك مشتركا

١- متفق عليه من حديث أبي موسى رضي الله عنه. صحيح البخاري: كتاب الجهاد، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب ٣: ١١٠٤ (٢٨٧٣)، وكتاب الأحكام، باب أمر الوالي إذا وجَّه أميرين إلى موضع أن يتطوعا ولا يتعاصبا ٦: ٢٦٢٤ (٦٧٥١)، وصحيح مسلم: كتاب الجهاد، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ٣: ١٣٥٨.

٢- ينظر: شرح مسلم للنووي ١٢/ ٤١، فتح الباري ١٣/ ١٦٢ و١٦٣، عمدة القاري ١٤/ ٢٨١، كونوا على الخير أعوانا للمنعج (سبق العزو إليه).

٣- صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب إذا قال: اكفني مؤونة النخل أو غيره، وتُشركني في الثمر ٢/ ٨١٨ (٢٢٠٠)، وكتاب فضائل الصحابة، باب إخاء النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ٣/ ١٣٧٨ (٣٥٦٩).

بينهم وبين الأنصار (أصحاب الأموال)، وبهذا يتحقق بقاء ملكية الأنصار لأصول أموالهم بأيديهم، مع مواساتهم لإخوانهم المهاجرين يشاركونهم معهم في الثمار^(١). وهنا كما أبدى الأنصارُ رُوح التضحية بالتعاون، فقد أبدى المهاجرون أيضاً تلك الروح العالية من التعاون حيث قالوا: «سمعا وطاعة» للعمل بهذه الطريقة التي يتحملون فيها عبء العمل مع اقتسام الثمرة بينهم وبين الأنصار، فرضي الله عنهم وأرضاهم. ويشبه هذا النموذج من التعاون، ما حصل من تعاون الصحابة رضي الله عنهم مع سلمان رضي الله عنه، في فكاكه من الرّق، فقد كان سلمان رضي الله عنه كاتباً - بأمر النبي صلى الله عليه وسلم - سيده اليهودي ليتخلص من الرّق، على ثلاثمائة نخلة يعطيها له مغروسة جاهزة، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «أَعِينُوا أَخَاكُمْ» فَأَعَانُونِي بِالنَّخْلِ، الرَّجُلُ بِثَلَاثِينَ وَدِيَّةً (أي صغار الفسيل)، وَالرَّجُلُ بِعَشْرِينَ، وَالرَّجُلُ بِخَمْسِ عَشْرَةَ، وَالرَّجُلُ بِعَشْرِ، يُعِينُ الرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلَاثُمِائَةَ وَدِيَّةٍ. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اذْهَبْ يَا سَلْمَانَ فَفَقِّرْ لَهَا (احفر لها)، فَإِذَا فَرَعْتَ فَاتْنِي أَكُونُ أَنَا أَضْعَافَ بِيَدِي». قَالَ: فَفَقَّرْتُ لَهَا، وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي، حَتَّى إِذَا فَرَعْتُ مِنْهَا جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعِيَ إِلَيْهَا، فَجَعَلْنَا نَقْرَبُ لَهُ الْوُدْيَ وَيَضَعُهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ مَا مَاتَتْ مِنْهَا وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ فَادَّيْتُ النَّخْلَ»^(٢).

٤- حديث «طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة»^(٣). هذا الحديث يدل على أهمية توزيع المهمات داخل العمل

١- صحيح البخاري، كتاب الهبة، باب فضل المنيحة ٩٢٦/٢ (٢٤٨٦). وينظر: شرح ابن بطال ٤٦٠/٦ و١١٣/٨، فتح الباري ٨/٥-٩.

٢- مسند أحمد (٢٣٧٣٧)، وإسناده حسن كما قال محققه.

٣- صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ١٠٥٧/٣ (٢٧٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والساقة: هم الذين يكونون وراء الجيش - في آخر العسكر - ويحفظون الجيش. النهاية لابن الأثير ٤٢٤/٢ وشرح النووي على مسلم ١٢/١٣٢.

الجماعي، وأن كل شخص له قيمته أيًا كان موقعه في ذلك العمل ومسؤوليته فيه، وأن أدائه لذلك العمل داخل المنظومة الجماعية بإخلاص وإتقان، يجعله ذا شأن رفيع عند الله تعالى ثم عند الناس، بغض النظر عن مسماه أو مستواه الوظيفي في العمل، فسواء وُضع في الصدارة أو المؤخرة أو الحراسة، «فأين اتَّفُق له كان فيه»^(١).

٥- حديث: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»^(٢). هذا الحديث يبين أهمية الاشتراك والمساهمة في إنجاز العمل الجماعي وتسهيل أدائه، ويندرج في هذا صوراً معاصرة من المعاونة في إقامة الأنشطة الخيرية والأعمال الإسلامية الجماعية، كالشاركة فيها بالنفس والمال والوقت، والحث على الحضور، وشحن الهمم لتنفيذ مهامها، والذب عنها وحراسة أهلها؛ ويلحق بذلك حُسن استقبال روادها، وإتقان وضع برامجها وترتيب جداولها، ومقاومة محاولات هدمها وإعاقتها^(٣).

المبدأ الخامس: «البرُّ حُسْنُ الخُلُقِ»^(٤)

حُسن التعامل: مهارةٌ تزيد من فاعلية الجودة

هذا الحديث من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم؛ إذ (البرُّ) كلمة جامعة لجميع أفعال الخير وخصال المعروف^(٥). والمراد بحُسن الخلق: خصوص الخلق الكريم، المعروف بهذا الاسم، وعليه فيكون تفسير (البرِّ) به لأهميته وعظيم

١- كشف المشكل لابن الجوزي ٥٣٩/٣، وينظر أهمية التعاون <http://majdah.maktoob.com/vb/majdah42283>

٢- متفق عليه من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، واللفظ لمسلم. صحيح البخاري: كتاب الجهاد؛ باب فضل من جهز غازياً أو خلفه بخير ١٠٤٥/٣ (٢٦٨٨)، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة؛ باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بركوب وغيره وخلافته في أهله بخير ١٥٠٦/٣.

٣- ينظر: شرح مسلم للنووي ٤٠/١٣، دليل الفالحين ١/٤٥٤، كونوا على الخير أعوانا للمنجد (سبق العزو إليه).

٤- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم ١٩٨٠/٤ (٢٥٥٣) من حديث النواس رضي الله عنه.

٥- الفتح المبين بشرح الأربعين لابن حجر الهيتمي ص ٤٦١-٤٦٢.

شأنه، فكأن معنى الحديث أن حُسن الخلق -مما لا ينبغي أن يخالغ القلب فيه ريبٌ وتردّدٌ- أنه أعظمُ خصال البرِّ، كما قال صلى الله عليه وسلم: «الحجُّ عرفة» و«الدينُ النصيحة»^(١). قال العلماء: البرُّ يكون بمعنى الصلة، وبمعنى الصدق، وبمعنى اللطف والمبرّة، وحسن العشرة والصحبة، ولين الجانب، واحتمال الأذى، وقد أُشير إلى هذه المعاني في الجملة في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فهذه الأمور هي مجامع حُسن الخلق، وكلها تدرج تحت عنوان «البر حُسن الخلق»^(٢).

وجمع بعضهم ذلك كله في قوله: هو أن تفعل معهم ما تحب أن يفعلوه معك^(٣)، وهو ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم «وَلِيَّاتٍ إِلَى النَّاسِ: الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(٤)، وهي قاعدة تُعدّ من كبريات القواعد الأخلاقية التي تعتمد عليها معظم الأخلاق الاجتماعية^(٥)، وهي تطبيق عملي لحديث: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٦)، وهي قاعدة من قواعد السعادة في الحياة، ولو أن الناس مشوا عليها في التعامل فيما بينهم لنالوا خيراً كثيراً^(٧).

- ١- حديث «الحج عرفة»: مسند أحمد (١٨٧٤) عن عبد الرحمن بن يَعْمَر رضي الله عنه؛ وإسناده صحيح كما قال محققه. وحديث «الدين النصيحة»: صحيح مسلم ١/ ٧٤ عن تميم الداري رضي الله عنه. ينظر: الفتح المبين للهيتمي ص ٤٥٨ و ٢٥٤، غريب الحديث للخطابي ١/ ٥٨٥، فتح القوي المتين شرح الأربعين لعبد المحسن العباد (ح ٢٧).
- ٢- ينظر في شرحها: الفتح المبين للهيتمي ص ٤٥٨-٤٥٩، المنهاج وشرح الأربعين للشيخ عطية، دروس صوتية، الدرس رقم ٣٩ و ٦٠.
- ٣- ينظر: الفتح المبين للهيتمي ص ٣٥٩.
- ٤- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الوفاء ببيعة الخلفاء الأوّل فالأوّل ٣/ ١٤٧٢. وهو جزء من حديث لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
- ٥- ينظر: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق (بحث)، لجمال محمد الزكي ص ٤٩، قواعد نبوية لعمر المقبل «وَلِيَّاتٍ إِلَى النَّاسِ: الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ». <http://www.islamdoor.com/a/viewtopic.php?f=٢٦٢&t=٤٤&p=٢٦٢>. شرح جوامع الأخبار لابن سعدي ص ٢٣٣، الأخلاق الفاضلة، قواعد ومنطلقات لاكتسابها للرحيلي ص ٦١.
- ٦- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ١/ ١٤، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يُحِبَّ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمَ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ ١/ ٦٧. من حديث أنس.
- ٧- شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ٦/ ٢٣٥ (باب النهي عن الإيذاء)، قواعد نبوية للدكتور عمر المقبل (سبق العزو إليه).

إن هذا المبدأ (حسن الخلق) يتضمن بعمقه وشموليته ما يعبر عنه خبراء الجودة المعاصرة بتعبيرات جزئية ضمن مبادئ الجودة، كـ(إرضاء العميل أو المستفيد) أو (العلاقة الأمثل مع الموردین والمستفيدين) ونحو ذلك من التعبيرات؛ كما يؤكدون على كسب رضا العملاء سواء كان داخليين (وهم زملاء العمل داخل نطاق المؤسسة) أو خارجيين (وهم من تربطنا بهم صلة تتعلق بالعمل خارج نطاق المؤسسة)؛ وكل تلك العلاقات يشملها هذا المبدأ النبوي (البر حسن الخلق) ببلاغته وإيجازه الرائع. ومما يظهر قيمة هذا المبدأ في تحقيق الجودة في العمل وحسن الأداء الوظيفي والمهني، أنه أصبح له صدى في العصر الحاضر فيما يسمى بـ(أخلاق المهنة)، ومن أجل ذلك ظهرت مصطلحات عديدة في هذا الشأن مثل (ميثاق المهنة وآدابها) و(أخلاقيات الوظيفة والعمل) و(أخلاقيات الإدارة) ونحو ذلك، وهي تشمل جوانب عديدة تتعلق بالعمل، مثل: أخلاق مزاولة المهنة، وأخلاق التعامل مع المستفيدين من المهنة، أخلاق التعامل مع زملاء العمل داخل بيئة العمل.

وعلى كل يؤكد الباحثون المتخصصون في الجودة، أن الأخلاق ومنظومة القيم في كل منشأة، تعد ركيزة أساسية في تحقيق الجودة الشاملة وفعاليتها. وربما يكفي القول بصددها ما لحسن الخلق من قيمة ومكانة في مجال العمل، ما تنص عليه مؤسسات العمل ومنظماتها في مؤهلات شغل الوظيفة، أن يكون المتقدم لها حائزاً على شهادة حسن السيرة والسلوك^(١).

تطبيقات لحسن التعامل من السنة النبوية:

١- حديث: «رَحِمَ اللهُ رجلاً سَمَحاً إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى»^(٢). وفي

١- استفيد في كتابة هذا الموضوع من كتاب الثقافة الإسلامية، المستوى الرابع، إعداد سعيد الغامدي، بادحدح ص ٩٩-١٠٧ و١٣٦.

٢- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، ومن طلب حقاً فليطلبه في عناف ٢ / ٧٣٠.

رواية: «سمحا إذا اقتضى، سمحا إذا قضى»^(١). قال ابن حجر: «وفيه الحض على السماح في المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم»^(٢).

ومن صور هذه السماح:

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ لِرَجُلٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنٌّ مِنَ الْإِبِلِ^(٣)، فَجَاءَهُ يَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْطُوهُ» فَطَلَبُوا سَنَهُ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ إِلَّا سَنًا فَوْقَهَا، فَقَالَ: «أَعْطُوهُ» فَقَالَ: أَوْفَيْتَنِي وَفَى اللَّهُ بِكَ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»^(٤).
هذه الواقعة تدل على أدب المستدين مع الدائن^(٥) والتعامل معه بما يرضيه ويسره (أي ما يسمى بكسب رضا العميل). كما أنها تدل على حسن تعامل الدائن أيضا مع المستدين، وذلك أن الدائن يُشرع له إذا استوفى دينه، أن يدعو بهذا الدعاء للمستدين فيقول له: أوفيتني أوفى الله بك^(٦).

- عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَاتَ رَجُلٌ فَقِيلَ لَهُ^(٧)، قَالَ: كُنْتُ أَبَايُعُ النَّاسِ فَأَتَجَوَّزُ عَنِ الْمَوْسِرِ، وَأُخَفِّفُ

١- صحيح ابن حبان ١١ / ٢٦٧ (٤٩٠٣) من حديث جابر أيضا. وإسناده صحيح على شرط الصحيح كما قال محققه.

٢- فتح الباري ٤ / ٣٠٧.

٣- أي جمل له سنٌّ معين. فتح الباري ٥: ٥٩.

٤- متفق عليه وألفظ للبخاري. صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض، باب حسن القضاء ٢ / ٨٤٣ (٢٢٦٣)، وصحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب من استسلف شيئا ففرض خيرا منه وخيركم أحسنكم قضاء ٣ / ١٢٢٥.

٥- وبه بؤب صاحب «كنز العمال» ٦ / ١٠ (١٥٥٥٨) على الحديث.

٦- ينظر: تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين ص ٢٩١. وكلمة «أوفى الله بك» هي مثل «أوفاك الله» كما في رواية عند البخاري ٢ / ٨٤٣ (٢٢٦٢) «أوفيتني، أوفاك الله». فالباء في «بك» للتأكيد كما في عمدة القاري ١٢ / ١٣٤.

٧- أي: ما كنت تصنع؟ كما في فتح الباري ٥ / ٥٨. وفي رواية عند البخاري (١٩٧١) تَلَقَّتْ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَالُوا أَعْمَلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا؟

عَنْ الْمُعْسِرِ، فَغَفِرَ لَهُ»^(١). التجوز معناه: المسامحة في الاقتضاء والاستيفاء، وقبول ما فيه نقص يسير^(٢). هذا نموذج مثالي في تعامل هذا الرجل بسماحة وأريحية وكرم في الاقتضاء وفي الاستيفاء، سواء استوفى من موسر أو معسر^(٣)، فكان يتجاوز عن حقوقه مع الصنفين، وذلك أن ما كان يتعلق بحلول الأجل فإنه كان يؤخره، وما يتعلق باستيفاء الحق فيُسقط بعضه، أو يُسامح في النقود المزيّقة^(٤).

- وحديث الصحابي أبي اليسر رضي الله عنه، أنه كان له على رجل قرض، فلما ذهب إلى بيت الغريم لاستيفاء حقه، اختبأ الغريم منه استحياءً من أن يلقاه، فلما سأله أبو اليسر عن سبب استخفائه، قال: «كُنْتُ وَاللَّهِ مُعْسِرًا. قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ، قَالَ: اللَّهُ. قُلْتُ: اللَّهُ، قَالَ: اللَّهُ. قَالَ: فَآتَى بِصَحِيفَتِهِ فَمَحَاها بِيَدِهِ. فَقَالَ: إِنَّ وَجَدْتَ قِضَاءً فَأَقْضِنِي، وَإِلَّا أَنْتَ فِي حِلٍّ، فَأَشْهَدْ بِبَصْرِ عَيْنِي هَاتَيْنِ، وَوَضَعَ إصْبَعَيْهِ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَسَمِعَ أُذُنِي هَاتَيْنِ، وَوَعَاهُ قَلْبِي هَذَا وَأَشَارَ إِلَى مَنَاطِ قَلْبِهِ، رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظْلَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ»^(٥). هذا نموذج مميز في السماحة، وهو أن يكون الإنسان رفيعا في التعامل مع إخوانه، فلا يشغله التفكير بما له من حقوقٍ تُجاههم، عن التفكير بما ينبغي أن يكون عليه من سماحة وتقدير لظروفهم ورفع الحرج عنهم.

- ١- صحيح البخاري، كتاب الاستقراض، باب حسن التقاضي ٨٤٣/٢.
- ٢- ينظر: إنجاح الحاجة شرح سنن ابن ماجه ص ١٧٤. وما يوضح معنى التجوز، الحديث المشهور: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتحوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه. صحيح البخاري ١/٢٥٠ من حديث أبي قتادة.
- ٣- ينظر: إنجاح الحاجة شرح سنن ابن ماجه ص ١٧٤.
- ٤- ينظر: المفهم ٤/٤٣٦ وقد وردت هذه الصور لسماحة هذا الرجل في الروايات الأخرى لهذا الحديث مثل (فكنت أنظر المعسر، وأتجوز في السكة أو في النقد)، وفي لفظ (أنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر)، وفي لفظ (كنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر)، وفي لفظ (أقبل من الموسر وأتجاوز عن المعسر)، وفي لفظ (كنت أقبل الميسور وأتجاوز عن المعسر). صحيح البخاري (١٩٧١) وصحيح مسلم ٣/١١٩٤.
- ٥- صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر ٤/٢٣٠١.

٢- حديث أنس رضي الله عنه: «خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي أَفَّا قَطُّ! وَلَا قَالَ لِي لَشَيْءٍ لَمْ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟»^(١). لا شك أن هذا الحديث واضح جداً في بيان كمال خلقه صلى الله عليه وسلم وحسن عشرته وحلمه وصفحه^(٢)، لكن الحديث بهذا القدر المختصر المشهور على الألسنة، يفهم منه عموماً أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يمارس شيئاً يتعلق بتربية خادمه هذا ولا توجيهه، وإنما كان يتغاضى ويتحمل ولا يقول شيئاً. وليس الأمر كذلك بإطلاقه، بل نبه الخبراء على أن الحديث نموذج إداري يحتوي على مبدأ مثالي في التوجيه والإرشاد، ينبغي أن يُحتذى في التعامل مع الموظفين وكل من يكون مرؤوساً وتابعا (أي التعامل مع العملاء الداخليين)، وهو ترك اللوم والعتاب على التقصير، لأن اللوم لا يأتي بخير، فإن ما قُدِّرَ سيكون^(٣)، وهناك مجال لتدارك ما حصل فيه تقصير في المرة القادمة، ولكن ليس معنى هذا أيضاً ترك الحبل على الغارب وعدم المساءلة والاستفسار، وإنما يُستبدل اللوم بأسلوب توجيهي آخر يهدف إلى تحقيق المقصود وحمل الشخص على أن يتنبه بنفسه - مع الاحتفاظ بخاطره^(٤) من دون إحراج لشخصه ولا غض من كرامته - إلى تدارك الخلل. وهذا الأسلوب الآخر هو (أسلوب الاستيضاح والاستفسار)، وهو موضح في رواية أخرى لهذا الحديث نفسه، فقد قال أنس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجة، فقلت: والله لا أذهب - وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله صلى الله عليه وسلم -، فخرجت، حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في

١- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، ٤: ١٨٠٤.

٢- شرح صحيح مسلم للنووي ٧١ / ١٥.

٣- كما ورد عن أنس في رواية لهذا الحديث: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما أرسلني في حاجة قط، فلم يتهم لي إلا قال: «لو قُضِيَ لكان، ولو قدر لكان». شعب الإيمان للبيهقي ١٠ / ٤١١ (٧٧١٤) وإسناده صحيح كما في مسند أحمد بتعليقات محققه (١٣٤١٨).

٤- ينظر فتح الباري ١٠ / ٤٦٠.

السوق، فإذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قد قبَضَ بقَفَاي من ورائي، قال: فنظرتُ إليه وهو يضحك، فقال: «يا أنيسُ، أَذَهَبَتْ حيثُ أمرْتُكُ؟» قال: قلتُ: نعم أنا أذهبُ يا رسول الله. قال أنس: والله لقد خدمته تسعَ سنين، ما علمته قال لشيء صنعته: لم فعلتَ كذا وكذا؟ أو لشيء تركته: هلاّ فعلتَ كذا وكذا^(١). فهذا بيان لأسلوب التوجيه الذي اتخذه الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنس رضي الله عنه، وتضمن: السؤال بإيجاز وبلفظ: «أَذَهَبَتْ حيثُ أمرْتُكُ»، وجمَعَ مع سؤاله ابتسامته المشرقة عليه الصلاة والسلام، وقبل ذلك، صغَّر اسمه تمليحًا. ويستخلص من هذا أن الصرامة والحزم في التوجيه لتدارك الخلل، وعدم ترك ما يؤدي إلى التسبب والتقصير، يمكن تطبيقه عن طريق الاستفسار والاستيضاح بدون استخدام التوبيخ والتفريع أو التحقير^(٢).

٣- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَفْرِكُ مؤمنٌ مؤمنةً؛ إن كرهَ منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَرَ»^(٣). لاشك أن هذا الحديث خاص بالحياة الزوجية، وهو من أكبر الأسباب والدواعي إلى حسن العشرة بين الزوجين، حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يُبغض الرجل زوجته بغضا كلياً يحمله على فراقها، بل ينبغي أن يلاحظ ما فيها من الأخلاق الجميلة والأمور التي تناسبه، وأن يجعلها في مقابلة ما كره

١- صحيح مسلم، الموضع السابق ٤/ ١٨٠٥. وقد جاءت القطعة الأخيرة في هذا الحديث وهي قول أنس (والله لقد خدمته تسع سنين...) في نسخة صحيح مسلم ط. محمد فؤاد عبد الباقي، مفصلة عن السياق الذي قبله، فصار الحديث حديثين مستقلين، والصحيح أن هذه القطعة هي جزء من الحديث نفسه بسياقه التام، وهكذا جاء الحديث تاماً مشتملاً على هذه القطعة الأخيرة في الأحكام الشرعية للإشبيلي ٣: ٨٣ نقلاً عن صحيح مسلم، وهكذا هو في سنن أبي داود ٤/ ٢٤٦ (٤٧٧٣).

٢- للفائدة في شرح الحديث انظر المواقع الآتية: حديث مدهش لفهد السيف. <http://www.almoslim.net/node/102547>، ومحاضرة في الإدارة بقلم سالم عبد الجليل. <http://www.hrdiscussion.com/hr17241.html>، والمنهج النبوي في تصحيح أخطاء الغلمان لعامر الهوشان <http://forsanhaq.com/showthread.php?t=348883>

٣- صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب الوصية بالنساء ٢/ ١٠٩١.

من أخلاقها، وبهذا تدوم الصحة، وربما أدى هذا إلى أن تسعى الزوجة إلى تعديل ما يكرهه زوجها منها وتبديله. وهذا الأدب لا ينبغي أن يقتصر على الحياة الزوجية فقط، بل ينبغي استعماله مع جميع المعاشرين والمعاملين؛ لأن الكمال في الناس متعذر، فتوطين النفس على ما يجيء من المعاشرين مما يخالف رغبة الإنسان، يُسهّل عليه حُسن الخلق، وفعل المعروف والإحسان مع الناس^(١).

المبدأ السادس: «الإحسان أن تخشى الله كأنك تراه»^(٢)

الرقابة: روح الجودة

هذه الجملة النبوية هي صيغة أخرى للحديث المشهور «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»^(٣)، لكن هذا اللفظ «أن تخشى الله كأنك تراه» أصرح في تأصيل (مبدأ الرقابة) الذي هو مبدأ أساسي من مبادئ الجودة، للوصول إلى إتقان العمل، إذ بدون الرقابة تختل معايير الجودة في العمل. ولتقريب معنى الرقابة وأثرها في جودة العمل، يمكن أن يقال من باب التمثيل: إن الحرص على الجودة في العمل، يزداد لدى أحدها درجة بعد أخرى من خلال الإحساس بأهمية المتلقي للعمل ومرتبته، ويستمر هذا الترتيقي إلى أن تصل الجودة إلى أعلى درجاتها حين يكون هذا العمل مقدماً لأعلى منصب أو سلطة في العمل.

فإذا كان هذا الإحساس المتعلق بالمراتب البشرية يؤثر في درجة جودة العمل،

- ١- ينظر شرح جوامع الأخبار لابن سعدي ص ١٣٤-١٣٥.
- ٢- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسلام ما هو وبيانه خصاله ١ / ٤٠. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- ٣- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ١ / ٢٧ (٥٠)، وغيرها من المواضع. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسلام ما هو وبيانه خصاله ١ / ٣٩، ورواه مسلم بهذا اللفظ ١ / ٣٦ من حديث عمر رضي الله عنه.

ويؤدي إلى الارتقاء بالجودة كلما علت تلك المرتبة، فكيف لو شعر العامل أن ما يقوم به من عمل، هو مقدّم لله سبحانه وتعالى! فهنا سيأتي (الإحسان في العمل) في أعلى صورته، لأنه نابع من مراقبة عظمة المرتبة الإلهية المذكورة في هذه القاعدة النبوية، وهو ما يوضحه بعض السلف بقوله: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك^(١). وإلى هذا المعنى للمراقبة وأثرها في جودة العمل، يرشد الغزالي بقوله في تمثيل لطيف: «فالصلاة عندك قربةٌ وتحفةٌ تتقربُ بها إلى حضرة ملك الملوك؛ كوصيفة يُهديها طالبُ القرية من السلاطين، إليهم؛ وهذه التحفة تُعرض على الله عز وجل، ثم تردُّ عليك يوم العرض الأكبر، فإليك الخيرة في تحسين صورتها وتقبيحها؛ فإن أحسنت فلنفسك، وإن أسأت فعليها»^(٢). وما أعطاه الغزالي هنا من توصيف لتحقيق المراقبة في الصلاة، يمكن تطبيقه في سائر الأعمال كما لا يخفى، وبذلك تتحقق الجودة قدر الإمكان في كل عمل من الأعمال، سواء كانت أعمالاً دينية أم دنيوية.

ثم إن المراقبة التي تتحقق بها الجودة المطلوبة في العمل، نوعان:

- مراقبة ذاتية داخلية: تنبع من داخل الإنسان وضميره، وهي استشعار المسلم رقابة الله تعالى على نفسه وما يصدر عنها من الأقوال والأفعال^(٣).
- ومراقبة خارجية: وتتمثل في الرقابة البشرية، وسميت بالخارجية؛ لكونها تقع خارج نطاق الشخص^(٤).

والمرتبة الأولى (المراقبة الذاتية)، هي التي يؤصل لها هذا الحديث «الإحسان

١- جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٣٦ (شرح حديث الإحسان) وص ١٦٢ (شرح حديث أبي ذر اتق الله حيثما كنت).

٢- إحياء علوم الدين ١ / ١٥٩.

٣- ينظر: نظام الرقابة على المال العام في الاقتصاد الإسلامي لنور الدين بو كريد الجزائري <http://www.islamselect.net/mat/86138>، وينظر دورة في أخلاقيات العمل لسلمان العودة.

٤- ينظر الرقابة الذاتية لسلمان العودة ١٥/٢٢٢٠١٥ <http://muntada.islamtoday.net/html>، ونظام الرقابة على المال العام لنور الدين الجزائري، الهامش السابق

أن تخشى الله كأنك تراه»، وهي الأصل في تحقيق الجودة الحقيقية، إذ إنها تكون دافعةً للالتزام بالمسؤولية تجاه (المراقبة الخارجية)، وإلا فبدونها ربما تكون (المراقبة الخارجية) وحدها قليلة الجدوى - بل أحياناً عديمة الجدوى - في تحقيق متطلبات الجودة. ثم إن الرقابة الخارجية عنصر مهم أيضاً، لا يقلل من شأنها أهمية الرقابة الذاتية^(١)، لأنه يندر أن يوجد لدى القائمين بالعمل إحساسٌ ذاتي بمسؤولية العمل وأدائه بجودة، ولهذا تُعدّ الرقابة الخارجية إحدى الآليات الرئيسية للجهاز الإداري التي لا يُستغنى عنها في العمل، وقد جاءت بعض التطبيقات في السنة النبوية لهذا النوع من الرقابة أيضاً، وحرّص النبي صلى الله عليه وسلم عليها كما سيأتي في التمثيل للتطبيقات.

تطبيقات من السنة النبوية للرقابة الذاتية:

١- حديث: «مَنْ اسْتَعْمَلَنَا مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمْنَا مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢). الغلول: هو السرقة من المال العام قبل تقسيمه في الغنائم^(٣)، ويلحق به الآن: السرقة من المال العام اعتماداً على المنصب أو الموقع أو المعارف^(٤). وبهذا الأسلوب الزاجر يُعد الحديث أصلاً كبيراً في الترهيب - عن طريق تنمية الرقابة الذاتية - من السرقات والاختلاسات المالية التي تُعد داءً وبيلاً منتشراً في مؤسسات العمل^(٥). ومن أخطر هذه الاختلاسات التي لا يُتنبه لدخولها في هذا الحديث - مع أنها داخلة فيه - : (الرشوة)، كما يفهم من تبويب ابن حبان رحمه الله في صحيحه على هذا

-
- ١- ينظر مفهوم الرقابة <http://www.moudir.com/vb/showthread.php?t=20123>
 - ٢- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال ٣ / ١٤٦٥، من حديث عدي بن عميرة الكندي رضي الله عنه.
 - ٣- ينظر: شرح صحيح مسلم للنووي ١٢ / ٢١٦ والنهاية لابن الأثير ٣ / ٨٠.
 - ٤- غسل الأموال في النظم الوضعية، رؤية إسلامية، لمحمد بن أحمد الصالح ص ٤٤.
 - ٥- نظام الرقابة على المال العام لنور الدين الجزائري (سبق العزو إليه).

الحديث^(١).

٢- حديث «رَجَالًا يَتَخَوِّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).
في هذا الحديث أيضا توجيه رقابي بتخويف من يتقلد شيئا من أمور المسلمين
فينبسط في أموالهم بغير إذنه، ويتصرف فيها بمجرد التشهي وبالباطل، بما
سيحل به من العقاب يوم القيامة^(٣). ولا شك أن مثل هذا الأسلوب الزاجر
يبعث عموماً استشعار الرقابة الذاتية في نفس أصحاب الضمائر اليقظة
والقلوب الحية.

٣- في حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار، ظهرت المراقبة الذاتية في حق الرجل
الذي أراد أن يقع بابنة عمه، وهو أنه لما قدر عليها، ذكَّرتُه البنتُ بخشية الله
ومراقبته، فقالت له: «اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفْضُ الْخَاتِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ»، فانصرف عنها؛ ولهذا
توسل إلى الله تعالى بهذه المراقبة قائلاً: «فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ
خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا»^(٤). والحديث واضح في أثر المراقبة الذاتية في الانكفاف
عن مثل هذه الجريمة مع كون جميع الوسائل والفرص مهياً ومتاحة لصاحبها
في ارتكابها. وهكذا يمكن تطبيق هذا النموذج من المراقبة الذاتية في بقية
الجرائم بمختلف أنواعها، مما يكون له أثر كبير في نقاء المجتمع وطهارته من
الجرائم، خصوصاً الجرائم الخلقية.

تطبيقات من السنة النبوية للرقابة الخارجية:

١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ طَعَامٍ فَادْخَلَ

- ١- صحيح ابن حبان، باب الرشوة، ذكر البيان بأن اسم الغلول قد يقع على الرشوة ١١ / ٤٦٨ (٥٠٧٨).
- ٢- صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول الله تعالى فإن الله خمسته وللرسول ٣ / ١١٣٥ (٢٩٥٠)،
من حديث خولة رضي الله عنها.
- ٣- ينظر: صحيح ابن حبان ١٠ / ٣٧٠ (٤٥١٢) وفتح الباري ٦: ٢١٩.
- ٤- متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، حديث الغار ٣ /
١٢٧٨ (٣٢٧٨). وصحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة ٤ / ٢٠٩٩.

يَدُهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ! قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَمَا يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»^(١). هذا الحديث نموذج واضح لتطبيق الرقابة الخارجية فيما يتعلق بجودة السلع وكشف الغش التجاري فيها عن طريق إجراء جولات تفتيشية^(٢). ولا شك أن تطبيق مثل هذه الرقابة ستحمي العمل التجاري من صور أخرى منتشرة من الغش في السوق، كتقليد الماركات العالمية أو المحلية ذات الجودة، والاتجار في السلع الفاسدة أو المنتهية الصلاحية، وكتابة محتويات على الصندوق أو مواصفات لا تنطبق على ما بداخله، وتزوير الكتب والسطو عليها، وتزييف النقود المحلية والأجنبية وكذلك تزوير الشيكات المصرفية، وسحب المبالغ من البنوك المحلية بشيكات أو حوالات مزورة، أو من خلال تزوير الاعتمادات المستندية المعززة بموافقة البنوك^(٣).

٢- ومن الشواهد التي يُستأنس بها - وتُشبه حديث الصُّبرة السابق - في تطبيق الرقابة الخارجية لمنع الاتجار في السلع الممنوعة، وإتلافها أو سحبها من الأسواق: حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ آتِيَهُ بِمُدِيَّةٍ وَهِيَ الشَّفْرَةُ، فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَأَرْسَلَ بِهَا فَأَرْهَفَتْ، ثُمَّ أَعْطَانِيهَا وَقَالَ: اغْدُ عَلَيَّ بِهَا، فَفَعَلْتُ، فَخَرَجَ بِأَصْحَابِهِ إِلَى أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ وَفِيهَا زَقَاقٌ خَمْرٌ قَدْ جُلِبَتْ مِنَ الشَّامِ، فَأَخَذَ الْمُدِيَّةَ مِنِّي فَشَقَّ مَا كَانَ مِنْ تِلْكَ الزَّقَاقِ بِحَضْرَتِهِ، ثُمَّ أَعْطَانِيهَا وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ أَنْ يَمْضُوا مَعِي،

١- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا / ١ / ٩٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- ينظر كتاب: فليس منّا، لمتعب بن سريان العصيمي ص ٣.

٣- ينظر: غسيل الأموال وبيان حكمه في الفقه الإسلامي والنظم المعاصرة لعبد الله محمد عبد الله، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الثالث للاقتصاد الإسلامي، بجامعة أم القرى.

وَأَنْ يَعَاوَنُونِي وَأَمْرَنِي أَنْ آتِيَ الْأَسْوَاقَ كُلَّهَا فَلَا أَجِدُ فِيهَا زَقًّا خَمْرًا إِلَّا شَقَّقْتَهُ،
فَفَعَلْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ فِي أَسْوَاقِهَا زَقًّا إِلَّا شَقَّقْتَهُ»^(١).

٣- حديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم استعمل ابن الأُتَيْبَةَ^(٢) عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَاسِبُهُ، قَالَ: هَذَا الَّذِي لَكُمْ، وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَهْدَيْتَ لِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَهَلَا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَبَيْتِ أُمَّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا»^(٣). في هذا الحديث تطبيق للرقابة الخارجية عن طريق محاسبة الموظفين واستجوابهم فيما يكلفون به من الأعمال، وخصوصا فيما يتعلق بالأموال المالية، وبه بؤب الإمام البخاري على الحديث بقوله (باب محاسبة الإمام عماله). كما أن هذه المحاسبة تُصحح أمانة العُمال^(٤) وتكشف عن احتيالاتهم في الحصول على أموال بطرق خفية - أثناء عملهم - وبأسماء تُطلق على غير مسمياتها. ولهذا بؤب البخاري أيضا على هذا الحديث بـ(باب احتيال العامل لِيُهْدَى له).

١- مسند أحمد (٦١٦٥) وضعف إسناده محققه لضعف أبي بكر بن أبي مريم - أحد رواة - بسبب اختلاطه؛ لكن يتقوى الحديث برواية أخرى واردة في المسند أيضا (٥٣٩٠)، وعليه فالحديث بمجموع الطريقتين حسن كما حكم به محقق المسند. وهذا المثال مستفاد من بحث غسل الأموال في النظم الوضعية، رؤية إسلامية لمحمد بن أحمد الصالح ص ٤٣.

٢- هكذا في بعض الروايات «الأُتَيْبَةَ» بالهمزة، وفي روايات أخرى «اللُتَيْبَةَ» باللام. ينظر فتح الباري ١٣ / ١٦٥، وعمدة القاري ١٣ / ١٥٥.

٣- متفق عليه واللفظ للبخاري. صحيح البخاري كتاب الأحكام، باب محاسبة الإمام عماله ٦ / ٢٦٣٢ (٦٧٧٢)، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال ٣ / ١٤٦٣، من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

٤- ينظر: عمدة القاري ٩ / ١٠٥.

المبدأ السابع: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا إِلَى اللَّهِ وَإِنْ قَلَّ»^(١)

التحسين المستمر: سرُّ بقاء الجودة والارتقاء بها

الدوام والاستمرار: في حد ذاته (جودة) له قيمته العالية في نظر الشرع، لأن المداومة تؤدي إلى التنمية والزيادة، فالدائم - بتتابع وقوعه - ينمو ويكثر، ويثمر ويؤثر، كقطرات الماء التي تقع على الحجر على توالٍ، فتؤثر فيه؛ ولو صبَّ ذلك القدر من الماء دفعةً واحدة، لم يؤثر^(٢)، وكما قال الشاعر: وإنما السيلُ اجتماعُ النُّقْطِ^(٣). أما غير الدائم، فإنه - وإن كان كثيرًا - سيتوقف عند حد معين، بل إنه بعد ذلك يبدأ في التناقص - بسبب توقفه - إلى أن ينقطع. ولهذا كانت المداومة من مقومات الجودة في العمل، لأنها من أهم الأسباب المؤدية إلى الارتقاء بالعمل، من خلال الخبرات التراكمية التي يكتسبها الإنسان إثر استمراره في أداء عمله، إلى أن يصل به إلى حد الإتقان^(٤).

يقول الغزالي: «وآحاد الأعمال يقلُّ آثارها، بل لا يُحَسُّ بآثارها، وإنما يترتب الأثر على المجموع، فإذا لم يُعقب العمل الواحد أثرًا محسوسًا، ولم يُردفْ بثانٍ وثالث على القرب، انمحي الأثر الأول؛ وكان كالفقيه يريد أن يكون فقيه النفس، فإنه لا يصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير؛ فلو بالغ ليلةً في التكرار، وترك شهرًا أو أسبوعًا، ثم عاد وبالغ ليلةً، لم يؤثر هذا فيه؛ ولو وزَّع ذلك القدر على الليالي المتواصلة لأثر فيه»^(٥). وهذه الجودة المعنوية في (المداومة) هي التي أبان عنها

١- متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ لمسلم. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل ٥ / ٢٣٧٣ (٦٠٩٩ و ٦١٠٠)، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم ١ / ٥٤١.

٢- إحياء علوم الدين ٤ / ٣٢.

٣- ينظر: شرح مسلم للنووي ٦ / ٧١، والبيت المذكور لابن النحاس الحلبي المتوفى ٦٩٨ أورده عنه السيوطي في بغية الوعاة ١ / ١٤.

٤- ينظر: الأبعاد التربوية لمفهوم الاستقامة في القرآن الكريم والسنة النبوية لسهير كولك.

٥- إحياء علوم الدين ١ / ٣٥١.

هذا الحديث، أنها صفة محبوبةٌ عند الله،، ولهذا كان عمله صلى الله عليه وسلم ديمةً^(١)، أي يدوم عليه ولا يقطعه^(٢).

إن مما يدل على قيمة المداومة وأثرها في تحقيق الجودة، أن المداومة على بذل الجهد وإتقان العمل، تحتاج إلى طول مجاهدةٍ للنفس، ولهذا جاء الاقتران بين المجاهدة والإحسان في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [لعنكبوت: ٦٩]؛ فالمداومة على الجودة المطلوبة في الأعمال والتكاليف، ورعايتها دوماً، تحتاج إلى مجاهدة وصبر، ولهذا استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من تراخي الهمة والكسل في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ»^(٣)، ففيه إشارة لطيفة إلى أن من العوامل المساعدة على إتقان العمل وتحقيق الجودة فيه، المداومة على الجدِّ، واستنهاض الهمة العالية بصورة مستمرة، وعدم تأخير الأعمال^(٤).

وإذا كانت (المداومة) من حيث الأصل، صفةً تُضفي جودةً على أي عمل، فيدخل في عمومها (المداومة على تحسين العمل) والمحافظة على ما وصل إليه من جودة وإتقان، وليس هذا فحسب، بل مواصلة العمل باستمرار لإضفاء مزيد من التحسين والتطوير على العمل، والارتقاء به نحو الأفضل فالأفضل. وهذا ما يعبر عنه خبراءُ الجودة المعاصرون بمبدأ (التحسين المستمر) وهو ما يُعرف بوجه أخص لدى اليابانيين بمصطلح (الكايزن)، Kaizen الذي هو عبارة عن (ثقافة

١- متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل ٥/ ٢٣٧٢ (٦١٠١) وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة العمل الدائم ٥٤٠/١.

٢- شرح النووي ٦/ ٧٢.

٣- متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه. صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب التعوذ من فتنة المحيا والممات ٥/ ٢٣٤١ (٦٠٠٦)، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره ٤/ ٢٠٧٩.

٤- جودة التعليم في التصور الإسلامي، مفاهيم وتطبيقات لمحمود خليل أبو دف، ختام الوصيفي ص ٤٢.

الإتقان المستمرة)، وهو من مفاهيم إدارة الجودة، وله أهمية كبيرة عند المهتمين؛ نظراً لجاذبيته وسهولة تطبيقه في كل نواحي الحياة. و(كايزن) هذه، منهجية يابانية تهدف إلى تطوير الأداء وبيئة العمل، لكن هذه المنهجية لا تقتصر على القطاع الصناعي فقط، بل تُعد إحدى استراتيجيات الجودة الشخصية للفرد أيضاً، والتي تتضمن قدرًا عاليًا من تقدير الذات، والاستقامة، والإخلاص في القول والعمل، والضبط الذاتي، والقيام بتحسينات مستمرة في جميع جوانب حياته لزيادة القدرات الذاتية والمهارات الفردية، وإضافة تسهيلات تنظيمية لحياته الشخصية، والمنزلية، والمهنية، والمجتمعية^(١). وبالجمله فإن منهجية (الكايزن) هذه التي أحدثت نقلة غير عادية في مجال التطوير التقني والإداري، هي إرث إسلامي أصيل أوجزه هذا الحديث بصياغته البسيطة الواسعة المعنى «أحب الأعمال إلى الله: أدومها وإن قل»^(٢).

تطبيقات من السنة النبوية لإضفاء التحسين المستمر:

١- حديث جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ثم في عهد عثمان رضي الله عنه^(٣). هذا العمل الجليل الذي قام به الخليفان رضي الله عنهما، يعد نموذجا رائدا لأصحاب (الكايزن) في التطوير المستمر للعمل، وإدخال إبداعات جديدة عليه في كل مرة. وأصل الفكرة (وهي العناية بكتابة القرآن

١- (صناعة التغيير وأ نموذج استراتيجية الكايزن بقلم حناني جواد / <http://www.alukah.net/Web/hanafijawad/0/44207/#ixzz2NGiAEJIU>

وكايزن التحسينات التدريجية المستمرة <http://www.myqalqilia.com/Kaizen.htm>، وثقافة الإتقان بقلم سعد عطية الغامدي، صحيفة عكاظ السعودية العدد ٢٩٣٥ بتاريخ ٧/٧/١٤٣٠، وتطبيقات الكايزن في الطفولة المبكرة بقلم لمياء صالح الجربوع. <http://trboyhmde.com/showthread.php?t=6981>

٢- الكايزن إرث إسلامي أصيل <http://aljsad.com/forum37/thread151365>.

٣- كلا الحديثين في صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن ٤/١٩٠٧ (٤٧٠١-٤٧٠٢) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، ومن حديث عثمان رضي الله عنه، وأخرج البخاري أيضا حديث جمع عثمان رضي الله عنه في كتاب فضائل القرآن، باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب ٤/١٩٠٦ (٤٦٩٩).

الكريم) انطلقت من النبي صلى الله عليه وسلم، ومن شواهد ذلك:

- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان نهى عن كتابة أي شيء سوى القرآن فقال: «لَا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ»^(١).

- كان صلى الله عليه وسلم يأمر بالكتابة فور نزول الآيات فعن البراء رضي الله عنه: لما نزلت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥] قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ادْعُ لِي زَيْدًا وَلِيَجِيءَ بِاللُّوحِ وَالِدَوَاةِ وَالْكَتِفِ أَوْ الْكَتِفِ وَالِدَوَاةٍ» ثم قال: اكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾^(٢).

- مراجعة النبي صلى الله عليه وسلم للمكتوب والتأكد منه. فقد روي أن زيدا كان يكتب ما يُملي عليه النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن، قال: فإذا فرغتُ قال: «اقرأ» فأقرؤه، فإن كان فيه سقطُ أقامه، ثم أخرجُ به إلى الناس^(٣).

فهذه صور من العناية بكتابة القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وبها يظهر أن القرآن الكريم كان كُتِب بعناية تامة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يكن مُرتبًا ولا محصورًا في مجلد واحد، لعدم تجانس الأشياء المكتوبة فيها.

ثم جاء الجمع الصديقي، وكان من أبرز تجديده: جمع القرآن في مصحف واحد مسلسل الآيات والسور. أما الجمع العثماني، فكان عبارة عن نسخ مصاحف متعددة عن الصحف الصديقية، لكن امتاز العمل فيه بإدخال

١- صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الثبوت في الحديث وحكم كتابة العلم / ٤ / ٢٢٩٨ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٢- متفق عليه، واللفظ للبخاري. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كاتب النبي صلى الله عليه وسلم / ٤ / ١٩٠٩ (٤٧٠٤) وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين / ٣ / ١٥٠٨.

٣- المعجم الأوسط للطبراني ٢ / ٢٥٧ (١٩١٣) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد: كتاب العلم، باب عرض الكتاب بعد إملائه ١ / ١٥٢ وقال: «ورجاله موثقون إلا أن فيه: «وجدت في كتاب خالي»، فهو وجادة». انتهى.

تحسينات إضافية على الجمع الصديقي، ومنها: ترتيب الآيات والسور على الصورة الموجودة الآن. وكتابة كلمات القرآن بصفة يمكن معها قراءة القراءات المختلفة للكلمة الواحدة بدون تكرار كتابتها - قدر الإمكان - . وتمت الكتابة بلجنة منتخبة بإشراف عثمان رضي الله عنه. ووزعت هذه المصاحف بصفة رسمية، لتكون القراءة بما يوافق رسمها وكتابتها. وتم الخلاص من المصاحف التي لم تكن لها صفة رسمية وجماعية^(١).

٢- حديث أبي هريرة في سؤاله عن أسعد الناس بالشفاعة، فقال له صلى الله عليه وسلم: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلُ مِنْكَ لَمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»^(٢). هذا الحديث يدل على الاهتمام بما يسمى بـ(النمو المهني)، وهو عنصر من عناصر التحسين المستمر في العمل، ذلك أن «العمل المهني بطبيعته يتطلب نمواً مستمراً في ظل التطور العلمي والتكنولوجي...، وهذا يقتضي من العامل متابعة كل جديد في نطاق عمله وصولاً إلى الإتقان والإبداع»^(٣). ويستفاد هذا من حديث أبي هريرة المذكور، حيث إنه من خلال هذا السؤال -الذي لم يُبادر إليه أحدٌ قبله- أبان عما كان لديه من حاسة النمو العلمي في مجال الحديث الشريف، وهو ما قدّره صلى الله عليه وسلم له وأثنى عليه به، أنه كان يتوقع من خلال ما كان يرى من شغفه ونهمه في تحصيل الأحاديث والإكباب عليها

١- استفيد في كتابة جمع القرآن الكريم بمراحله الثلاث، من: بحث جمع القرآن الكريم حفظاً وكتابة، لعلي ابن سليمان العبيد ص ٤٩٣ و٥٢٩ و٤٨٨-٤٩٠ و٥٠٨ و٥٢٨ و٥١٩ وبحث جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين لعبد القيوم السندي ص ٣٩٧ و٣٩٩. لم يقف الأمر في خدمة القرآن الكريم عند هذا الحد، بل استمرت التحسينات وتابعت عليه منذ عهد عثمان رضي الله عنه إلى يومنا، وستستمر مستقبلاً أيضاً بإذن الله.

٢- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث ١ / ٤٩ (٩٩).

٣- جودة التعليم في التصور الإسلامي لمحمود أبو دف، ختام الوصيفي ص ٣٧.

والازدياد منها باستمرار، أنه سيكون أول من يحظى بسماع هذا الحديث منه صلى الله عليه وسلم. وهذا الحرص على العلم هو الذي يكون سببا في تفوق المرء في تخصصه وبلوغه درجة الريادة والامتياز فيه، «فإن الحرص يبلغ بحرصه إلى البحث عن الغوامض ودقيق المعاني؛ لأن الظواهر يستوي الناس في السؤال عنها لا اعتراضها أفكارهم؛ وما لطف من المعاني لا يسأل عنه إلا الراسخ، فيكون ذلك سببا للفائدة»^(١)، ولهذا كان هذا الحرص عند أبي هريرة في التخصص الحديثي، هو الذي جعله يتفوق في كثرة الأحاديث دون بقية الصحابة الآخرين رضي الله عنهم، وقد بين هو رضي الله عنه عن سر ذلك وسببه حين قال: «إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ!» ثم بين سبب ذلك بقوله: «إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أُمُورِهِمْ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزِمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَبَعِ بَطْنِهِ، وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لَا يَحْفَظُونَ»^(٢).

٣- حديث: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقَمْتُ»^(٣). الاستقامة تطبيق ذهبي لمفهوم التحسين المستمر^(٤)، فهي ثبات على المنهج المستقيم بالمحافظة على إيفاء الحقوق ورعاية حدوده^(٥)، ولا شك أن هذا الثبات والاستمرار صعبٌ وشاقٌ ولهذا قال

١- عمدة القاري ٢ / ١٢٨.

٢- متفق عليه من حديث أبي هريرة، واللفظ للبخاري. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب حفظ العلم ١ / ٥٥ (١١٨)، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة رضي الله عنه ٤ / ١٩٤٠ وفي رواية عند البخاري ٢ / ٨٢٧ (٢٢٢٣)، قال: يقولون: إن أبا هريرة يُكثر الحديث...!، ويقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدثون مثل أحاديثه!.

٣- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام ١ / ٦٥ ولفظ «فاستقم» هكذا في صحيح مسلم ط عبد الباقي، لكن الحديث مشهور بلفظ «ثم استقم» وهو الذي أورده النووي في شرحه لمسلم ٢ / ٨ وكذا الحميدي في الجمع بين الصحيحين ٣ / ٥٣٦.

٤- ينظر التغيير من الداخل لأمين عبده ص ٤٢.

٥- ينظر: فيض القدير ١ / ٤٩٧، والمفردات في غريب القرآن ص ٤١٨.

صلى الله عليه وسلم: «استقيموا ولن تحصوا»^(١)، ومن هنا يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة^(٢). والاستقامة من أهم أسباب التفوق والتميز لكونها تدفع الفرد إلى التجويد والإتقان تجرداً وإخلاصاً لله، وتكسبه اتجاهًا إيجابيًا نحو الطموح وتطوير الذات^(٣)، ولهذا جاء في رواية: «استقيموا تفلحوا»^(٤).

-
- ١- مسند أحمد (٢٢٣٧٨) و(٢٢٤١٤) و(٢٢٤٣٦) من حديث ثوبان رضي الله عنه. وهو صحيح بمجموع طرقه كما يستفاد من كلام محققه.
 - ٢- مدارج السالكين ٢ / ١٠٥.
 - ٣- الأبعاد التربوية لمفهوم الاستقامة في القرآن الكريم والسنة النبوية ص ٥٦.
 - ٤- هو نفس حديث ثوبان السابق، رواه الإمام أحمد (٢٢٤١٤) بهذا اللفظ بإسناد آخر. وقال محققه: حديث صحيح.

الخاتمة

- ١- سَبَقَتْ السنة النبوية مفاهيمَ الجودة المعاصرة، بإشراقات متميزة في الجودة، تشمل الجانبين: التأصيلي والتطبيقي، توظيفاً للملكات الإبداعية واكتساباً لمهارات التطوير الذاتي والمؤسسي لدى المسلم وصولاً به إلى أعلى درجات التميز البشري.
- ٢- النصوص التأصيلية للجودة في السنة النبوية من الجامعة بمكان عالٍ مع كونها وجيزة الألفاظ، ولهذا فإنها تحتوي أكثر من مبدأ واحد من مبادئ الجودة المعاصرة.
- ٣- الجودة: هي الإتيان بالشيء بآتم صورة بحيث يتحقق الغرض المقصود منه بأعلى درجة ممكنة بصفة دائمة.
- ٤- لا يلزم في تحقيق الجودة: أن يكون الشيء المراد جودته، جميلاً أيضاً، ولهذا فتنفيذ الشيء غير الجميل على ما يقتضيه عمله ويُوفي بغرضه، هو تحقيق للجودة، كما في تطبيق مبدأ العقاب في محله.
- ٥- إن حديث «شَبَّكَ بين أصابعه» الذي مثَّل به النبي صلى الله عليه وسلم لمبدأ التعاون.
- ٦- «الإحسان أن تخشى الله كأنك تراه»، نص تأصيلي بديع يؤسس للرقابة الذاتية المؤثرة في تحقيق الغرض من الرقابة الخارجية التي يلهج بها خبراء الجودة المعاصرة، وبدونها لا تصل الجودة إلى مستواها المطلوب مهما بلغت (المراقبة الخارجية) ذروتها.
- ٧- إن منهجية (الكازين) اليابانية: هي إرث إسلامي أصيل، أوجزته السنة النبوية في نص تأصيلي بسيط عميق وهو: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل».

٨- النصوص النبوية التأصيلية التي استُهل بها كل مبدأ من مبادئ الجودة، يمكن أن تُعدّ نواةً لنشر ثقافة الجودة (وهو هدف يدعو إليه رواد الجودة)، عن طريق حفظ هذه النصوص وجعلها شعارات لمبادئ الجودة.

٩- إن مبادئ الجودة كما أنها سبيل للوصول إلى التميز، يُقترح أن تُنشأ جائزة عالمية لـ (التميز بالجودة في السنة النبوية) وتبناها ندوتنا الكريمة (ولو بالتعاون مع مؤسسات أكاديمية أخرى)، ويوضع لها من المعايير والمكانة ما يجعلها تُنافس جوائز الجودة العالمية المعاصرة.

المصادر والمراجع

الكتب:

- الأبعاد التربوية لمفهوم الاستقامة في القرآن الكريم والسنة النبوية (رسالة ماجستير)، لسهير عبد الله كولك، إشراف الأستاذ الدكتور محمود خليل أبو دف، قسم أصول التربية بالجامعة الإسلامية بغزة ١٤٣١ / ٢٠١٠.
- الأحاديث المختارة للضيء المقدسي، تحقيق عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٠.
- إحياء علوم الدين للغزالي، دار المعرفة، بيروت.
- الأخلاق الفاضلة، قواعد ومنطلقات لاكتسابها لعبد الله بن ضيف الله الرحيلي، دار السفير، بدون تاريخ.
- إدارة الجودة الشاملة لنورة العفيف، ملف باور بوينت.
- الاستذكار لابن عبد البر، تحقيق سالم عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١.
- استراتيجية إدارة الجودة الشاملة لتنمية مهارات القوى العاملة، لأحمد السيد كردي، نشر ٢٠١١م.
- استراتيجية نظام الجودة في التعليم لمحسن بن نايف العتيبي، ينبع، الطبعة الأولى ١٤٢٨.
- الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف لابن المنذر، تحقيق أبو حماد صغير أحمد، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٥.

- بحث حول قول الرسول صلى الله عليه وسلم إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، لجمال محمد الزكي، نشر المجمع العلمي لبحوث القرآن والسنة، مؤسسة د / أحمد شوقي إبراهيم العلمية، دون تاريخ.
- البحر المحيط لأبي حيان، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان بدون تاريخ.
- تاج العروس للزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية (بدون تاريخ).
- التحرير والتنوير لابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠.
- تخريج أحاديث الإحياء للعراقي، تحقيق أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥.
- تفسير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة.
- تقريب التهذيب لابن حجر، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، الطبعة الأولى ١٤٠٦.
- التقرير والتحبير لابن أمير حاج، دار الفكر، بيروت ١٤١٧.
- التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٠٨.
- الثقافة الإسلامية (المستوى الرابع للمقرر الجامعي)، إعداد سعيد الغامدي،

- علي بادحدح، دار حافظ، جدة، الطبعة الأولى ١٤٣١.
- جامع العلوم والحكم لابن رجب، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٢.
 - جمع القرآن في مراحلہ التاريخية من العصر النبوي إلى العصر الحديث لمحمد شرعي أبو زيد، بحث تكميلي للحصول على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، كلية الشريعة بجامعة الكويت ١٤١٩.
 - جمع القرآن الكريم حفظا وكتابة، علي بن سليمان العبيد، ضمن بحوث ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، المنعقدة في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة ٣-٦ رجب ١٤٢١.
 - جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين لعبد القيوم السندي، ضمن بحوث ندوة عناية المملكة بالقرآن الكريم وعلومه.
 - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
 - جودة التعليم في التصور الإسلامي، مفاهيم وتطبيقات، لمحمود خليل أبو دف، ختام يوسف الوصيفي، بحث مقدم لمؤتمر الجودة في التعليم العام الفلسطيني كمدخل للتميز، المنعقد بتاريخ ٣٠-٣١ / ١٠ / ٢٠٠٧.
 - الجودة الشاملة، إعداد نيف محمد الشمري، المشرف التربوي بإدارة التربية والتعليم بمحافظة عفيف، السعودية، ملف باور بوينت.
 - الجودة الشاملة في التعليم العام: المفهوم والمبادئ والمتطلبات (قراءة إسلامية) بدرية بنت صالح الميمان، بحث مقدم للقاء الرابع عشر للجمعية

- السعودية للعلوم التربوية والنفسية (جستن) المقام في فرع الجمعية في القصيم ٢٨-٢٩ ربيع الآخر بعنوان «الجودة في التعليم العام».
- حاشية السندي على سنن النسائي لمحمد بن عبد الهادي أبو الحسن السندي (مطبوعة مع سنن النسائي).
- دلائل النبوة للبيهقي، تحقيق عبد المعطى قلجى، دار الكتب العلمية - ودار الريان للتراث، الطبعة الأولى ١٤٠٨.
- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان الصديقي، تصوير دار الفكر لطبعة مصطفى الحلبي ١٣٩٢.
- دورة في أخلاقيات العمل لسلمان العودة، كُتِبَ نشرته شركة الاتصالات السعودية.
- رؤية تأسيسية لمفهوم الجودة في الإسلام للحاج عبد المولى الصديق، مجلة عالم الجودة، العدد الأول أغسطس ٢٠١٠، السنة الأولى.
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر، بيروت.
- سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.
- سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن النسائي (المجتبى)، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية ١٤٠٦ - ١٩٨٦.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥-١٤٢٢.

- سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٣.
- الشافية في علم التصريف، لابن الحاجب، تحقيق حسن أحمد العثمان، المكتبة المكية، مكة، الطبعة الأولى ١٤١٥.
- شرح جوامع الأخبار لابن سعدي (واسمه التام: بهجة قلوب الأبرار ورقة عيون الأخبار في شرح جوامع الأخبار)، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٠٤
- شرح رياض الصالحين لابن عثيمين.
- شرح صحيح البخاري لابن بطال، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٣.
- شرح صحيح مسلم للنووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢.
- شعب الإيمان للبيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠.
- صحيح ابن حبان (الإحسان بترتيب صحيح ابن بلبان)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤.
- صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧.
- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف، مكتبة الدعوة، شباب الأزهر،

- تصوير عن الطبعة الثامنة لدار القلم.
- عمدة القاري للعينى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.
 - عون المعبود شرح سنن أبى داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٥.
 - غسل الأموال فى النظم الوضعية، رؤية إسلامية، لمحمد بن أحمد صالح الصالح، بحث مقدم للمؤتمر العالمى الثالث للاقتصاد الإسلامى، بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، محرم ١٤٢٤هـ - مارس ٢٠٠٣م.
 - غسيل الأموال وبيان حكمه فى الفقه الإسلامى والنظم المعاصرة لعبد الله محمد عبد الله، بحث مقدم للمؤتمر العالمى الثالث للاقتصاد الإسلامى، بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، محرم ١٤٢٤هـ - مارس ٢٠٠٣م.
 - فتح البارى لابن حجر، تحقيق محب الدين الخطيب وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الرياض الحديثة، البطحاء، الرياض.
 - الفتح المبين بشرح الأربعين لابن حجر الهيتمى، عني به: أحمد جاسم وزملاؤه، دار المنهاج، جدة، الطبعة الثانية ١٤٣٠.
 - فليس منّا، لمتعب بن سريان العصيمي، دار القاسم، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢م
 - فيض القدير بشرح الجامع الصغير للمناوى، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى ١٣٥٦.
 - قاموس فرنسي عربي إنجليزي (المكتبة الشاملة).
 - كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي، تحقيق علي حسين

- البواب، دار الوطن، الرياض ١٤١٨.
- كنز العمال، لعلي المتقي، تحقيق محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩.
 - مبادئ إدارة الجودة الشاملة في ضوء المنهج الإسلامي دراسة مقارنة لإبراهيم طه العجلوني، مجلة جامعة دمشق، شباط ٢٠٠٦.
 - مبادئ الجودة لخلد السحيم، ملف باور بوينت.
 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة- بيروت ١٤٠٧.
 - مراقبة الجودة لفاطمة علي متولي، كلية الفنون التطبيقية، جامعة حلوان، مصر (دون تاريخ)
 - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري، تحقيق جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢.
 - المستدرک على الصحيحين للحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١.
 - مسند أحمد، بتحقيق شعيب الأرنؤوط وزملائه، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١.
 - مسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن ومكتبة العلوم والحكم، بيروت-المدينة، الطبعة الأولى ١٤٠٩.
 - مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض، المكتبة العتيقة ودار التراث، بدون تاريخ.

- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبوصيري، تحقيق محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣.
- مصنف عبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣.
- المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق طارق عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة ١٤١٥.
- معجم الفرائد القرآنية لباسم البسومي، نشر مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية، بدون تاريخ.
- المعجم الكبير للطبراني، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤ - ١٩٨٣.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٠.
- المعجم الوسيط تأليف: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات وآخرين، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، دون تاريخ.
- مفاهيم أساسية عن الضبط الشامل للجودة وإدارة الجودة الشاملة لمحمد عيشوني، نشر الكلية التقنية بحائل ٢٠٠٥.
- المفهم لأبي العباس القرطبي، تحقيق محيي الدين مستو وآخرين، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٧.
- الموطأ لمالك بن أنس، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر.

- نحو إتقان الكتابة باللغة العربية لمكي الحسني (المكتبة الشاملة)
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥.

المواقع الإلكترونية:

- أربعة مبادئ للجودة
<http://www.ansarsunna.com/vb/showthread.php?p=257863>
- برنامج الإدارة العامة للتربية والتعليم بالأحساء (يوتيوب).
- تطبيقات الكايزن في الطفولة المبكرة بقلم لمياء صالح الجربوع
<http://trboyhmde.com/showthread.php?t=6981>
- جودة التعليم من منظور إسلامي لمحمد عبد الفتاح شاهين وإسماعيل شندي، ورقة علمية لمؤتمر النوعية في التعليم الجامعي الفلسطيني، بجامعة القدس المفتوحة بمدينة رام الله في الفترة ٣-٥ / ٧ / ٢٠٠٤
<http://uqu.edu.sa/page/ar/82354>
- الرقابة الذاتية لسلمان العودة
<http://muntada.islamtoday.net/t22015.html>
- رواد الجودة لسوسن شاكر مجيد، مجلة الحوار، العدد ٣٦٩٩ في ٢٠١٢ / ٤ / ١٥
<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp>
- شرح مبادئ إدارة الجودة الشاملة، بقلم عدنان حميد
<http://www.arabicstat.com/board>

- صناعة التغيير وأغوذج استراتيجية الكايزن بقلم: حناني جواد
<http://www.alukah.net/Web/hanafijawad/0/44207/#ixzz2NGiAEJlU>
- قواعد نبوية لعمر المقبل «وليات إلى الناس: الذي يحب أن يؤتى إليه»
<http://www.islamdoor.com/a/viewtopic.php?f=4&t=262>
- الكايزن إرث إسلامي أصيل
[/http://aljsad.com/forum37/thread151365](http://aljsad.com/forum37/thread151365)
- وينظر:
<http://forum.uaewomen.net/showthread.php?t=853957&page=2>
- كايزن، التحسينات التدريجية المستمرة
<http://www.myqalqilia.com/Kaizen.htm>
- مبادئ إدارة الجودة الثمانية، للمهندس محمد هشام الخطيب
http://www.aleqt.com/2009/02/05/article_192862.html
- مبادئ الجودة بقلم علي بن عبد الله الغماش
<https://www.google.com.sa/url>
- مبادئ نظام إدارة الجودة آيزو ISO 2000-9000
<http://www.brooonzyah.net/vb/t3575.html>
- مفهوم إدارة الجودة الشاملة:
<http://www.afifedu.gov.sa/vb/showthread.php?p=83111>
- مفهوم الرقابة:
<http://www.moudir.com/vb/showthread.php?t=20123>

- نظام الرقابة على المال العام في الاقتصاد الإسلامي لنور الدين بو كرديد
الجزائري:

<http://www.islamselect.net/mat/86138>

مقالات صحفية ودروس صوتية:

- ثقافة الإتيان بقلم سعد عطية الغامدي، صحيفة عكاظ السعودية، العدد
٢٩٣٥ بتاريخ ٧/٧/١٤٣٠.

- شرح الأربعين للشيخ عطية، الدرس رقم ٣٩ و٦٠.

«معيار الجودة أساس تولى الوظيفة

فى ضوء السنة النبوية»

د. محمد عودة أحمد الحوري

جامعة طيبة - السعودية

من أبرز فقرات البحث

«معيار الجودة غير مرتبط بعمر محدد أو جنس معين: مما يحفظ للمنهج الإسلامي وسبقه إلى التميز والجودة أنه بحث فيمن يتولى عملاً معيناً عن توافر معيار الجودة لمن يسند الأمر إليه، بغض النظر عن عمره أو جنسه أو غير ذلك. فها هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعقد اللواء لأسامة بن زيد، مع حداثة سنه فهو الشاب الذي لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره - على جيش فيه أبو بكر وعمر . ويسند شرف الأذان لبلال - الحبشي - ويسند لابن أم مكتوم - الأعمى - شرف الأذان وإمامة الصلاة، لما تحقق في كل منهم معيار الجودة المناسب للوظيفة التي أسندت إليه - رضي الله عنهم جميعاً».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، خير الأولين والآخرين، أجدد الناس معدنا، وأصدقهم قولاً وفعلاً، وعلى آله وصحبه وبعد:

خلق الله البشر في أحسن تقويم، ووهبهم مهارات وكفاءات تفاوتوا فيها، وماز بعضهم على بعض، ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم في الدارين، وجعل من أسس صلاح المجتمعات إسناد الأمر إلى أهله، وجعل ضده أمارة على الفساد وقرب قيام الساعة.

ونجد العالم اليوم يتوافق على اعتماد ما سماه منظمة الأيزو (ISO)^(١) لقياس الجودة في شتى المجالات العلمية والعملية، وبات كل من يحصل على اعتماد هذه المنظمة يتفاخر على غيره ممن يماثله حتى شكل هذا الأمر ظاهرة. وهذا الأمر يدفع المسلم الغيور إلى البحث في هذه الظاهرة والتأصيل لها من منظور إسلامي؛ من هنا جاء هذا البحث المعنون بـ: «معييار الجودة أساس تولي الوظيفة في ضوء السنة النبوية»؛ ليؤصل لهذا الجانب ويبرز تفوق الإسلام شكلاً ومضموناً على هذه المنظمة الدولية.

١- المنظمة الدولية للمعايير أيزو: منظمة تعمل على وضع المعايير، وتضم هذه المنظمة ممثلين من عدة منظمات قومية للمعايير. تم إيجاد هذه المنظمة في ٢٣ / ٢ / ١٩٤٧ وهي تصرح عن معايير تجارية وصناعية عالمية. يكمن مقر هذه المنظمة في جنيف، سويسرا. بالرغم من أن الأيزو وتعرف عن نفسها كمنظمة غير حكومية، ولكن قدرتها على وضع المعايير التي تتحول عادة إلى قوانين إما عن طريق المعاهدات أو المعايير القومية تجعلها أكثر قوة من معظم المنظمات غير الحكومية. تؤلف منظمة الأيزو وعملياً حلفاً ذو صلات قوية مع الحكومات. ينظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الرابط: <http://ar.wikipedia.org>، تاريخ الزيارة: الأربعاء ٢٣-١-٢٠١٣ م الساعة الحادية عشر صباحاً.

مشكلة البحث: يمكن تلخيص مشكلة البحث بالأسئلة الآتية: هل اعتنت السنة النبوية بتحقيق الجودة في الوظيفة؟ وهل وضعت لها معياراً؟ وهل وضعت أسساً لهذا المعيار؟ وهل راعت طبيعة كل وظيفة، وما هي مجالات الوظيفة التي اعتمدت معيار الجودة؟

أهمية الموضوع: تظهر أهميته موضوع البحث من خلال ما يأتي: بيان أهمية الجودة كمعيار أساسي لتولي المنصب. وتوضيح الأثر المترتب على تطبيق هذا المعيار في الحياة العامة. وإظهار أن فساد المجتمعات المسلمة، وتراجعها، واضطراب مصالحها، يكمن في تحييد تطبيق هذا المبدأ.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى التأسيس لمبدأ القيادة للأجود عملاً، والأتقن من خلال جمع الأحاديث المحتج بها الواردة في الحث على تطبيق إسناد الأمر للأجود (لأهله)، وبيان بعض جوانب الحياة التي أسندت فيها السنة النبوية الوظيفة والرئاسة على أساس الجودة والإتقان. كما يهدف إلى حث المسلمين قيادات وشعوب على تفعيل هذا المبدأ للنهوض بالأمة.

الدراسات السابقة: من خلال التتبع والسؤال لم أقف على بحث علمي، أو كتاب يتصل بموضوع بحثي.

المبحث الأول: الجودة، مفهومها، والعناية بها، والتحذير من إهمالها.

المطلب الأول: مفهوم الجودة.

أ- الجودة لغة: قال ابن فارس: «(جَوْدٌ) الْجَيْمُ وَالْوَاوُ وَالذَّالُّ أَصْلُ وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّسْمُحُ بِالشَّيْءِ، وَكَثْرَةُ الْعَطَاءِ.. وَالْمُصَدَّرُ: الْجَوْدَةُ»^(١).

١- مقياس اللغة، ابن فارس، ١ / ٤٩٣.

«وَجَادَ الشَّيْءُ جُودَةً وَجَوْدَةً أَيْ صَارَ جَيِّدًا، وَأَجَدْتَ الشَّيْءَ فَجَادَ، وَالتَّجْوِيدُ مِثْلُهُ. وَقَدْ قَالُوا أَجَوَدْتُ كَمَا قَالُوا: أَطَالَ وَأَطْوَلَ وَأَطَابَ وَأَطِيبَ وَالْآنَ وَأَلَيْنَ عَلَى النُّقْصَانِ وَالتَّمَامِ. وَيُقَالُ: هَذَا شَيْءٌ جَيِّدٌ بَيْنَ الْجُودَةِ وَالْجَوْدَةِ. وَقَدْ جَادَ جَوْدَةً وَأَجَادَ: أَتَى بِالْجَيِّدِ مِنَ الْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ»^(١).

ب- مقترنات المصطلح: بتتبع استخدام هذا المصطلح للوقوف على عناصر المعنى الذي يدل عليه، وجدته يقترن بألفاظ أخرى تدعم المعنى، أهمها: الكمال، والإتقان، والحسن، والدقة، والكفاءة، والصحة، والقوّة، والمتانة. فوجدت القوم يقولون: الكمال والجودة، الإتقان والجودة، الحسن والجودة، الدقة والجودة، الكفاءة والجودة، الصحة والجودة، القوّة والجودة، المتانة والجودة.

ج- الجودة اصطلاحاً: قد عرف أصحاب معجم اللغة العربية المعاصرة هذا المصطلح فقالوا الجودة هي: «سلامة التكوين، وإتقان الصنعة»^(٢). وهو تعريف منضبط مع المعنى اللغوي لهذا المصطلح والمفردات المرادفة له المقترنة به.

د- معيار الجودة في إدارة الأيزو: يقول د. السيد أحمد الكوري: «المعيار: هو عبارة عن وثيقة تصدر نتيجة إجماع يحدد المتطلبات التي يجب أن يفي بها منتج ما، أو عملية، أو خدمة، وتصادق عليها جهة معترف بها... في الوقت الذي يحدد فيه معيار المنتج المتطلبات التي يجب توفرها ليكون المنتج صالحاً للاستخدام. تحدد معايير خدمة ما المتطلبات الواجب توفرها للتأكد من ملاءمتها للغرض. وبما أن مفهوم إدارة الجودة مفهوم حديث نسبياً؛ لذا ما زالت الكثير من الشركات لا تدرك بوضوح مدلول تعابير مثل (مقياس

١- لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ١٣٥، وينظر: تاج العروس، الزبيدي، ٧/ ٥٢٧.

٢- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر ص ٤١٨.

المنتج) و(معيار نظام الجودة) يحدد مقياس المنتج المواصفات أو المعايير الواجب توفرها في المنتج ليكون متلائماً مع المتطلبات المحددة للمعيار / الزبون. ويخول المبدأ الأساسي في شهادة المنتج المصنع، من خلال الترخيص، استخدام علامة محددة على المنتج للتأكيد بذلك على أن المنتج يتوافق مع متطلبات محددة. وتصادق على توافق المنتج مع المواصفات المحددة جهة مانحة للشهادة معترف بها ومن خلال مراقبة دورية لمنتجات الشركة الممنوحة لهذه الشهادة)^(١).

هـ- معيار الجودة بين المنظور الإسلامي ومنظمة الأيزو: لا بد من التنبيه هنا أن معيار الجودة في المنظور الإسلامي من خلال النصوص الشرعية التي اعتنت به: سواء التي حثت عليه، أو تلك حذرت من إهماله - كما سيأتي لاحقاً -، يؤكد لدى المنصف تميز النظرة الإسلامية التي تقوم أساساً على الإلتقان، والإحكام، وإخراج العمل في أحسن صورة. في حين نجد الأيزو تعني بأرقام وشروط متى توافرت اعتمدت الجودة، وليس من شروطها أن يكون العمل قد أنجز في أحسن صورته. ولو أخذنا مثلاً الأيزو في التعليم الجامعي - ويقاس عليه غيره في الصحة والتجارة وغيرهما - فهي تنظر إلى أمور عديدة ليست هي جوهر العملية التعليمية؛ فهي تركز على عدد القاعات التدريسية، وتجهيزاتها، وعدد الطلاب في التخصص، وعدد المدرسين من الأساتذة الجامعيين بمختلف رتبهم العلمية ونسبتهم إلى عدد الطلاب.. الخ^(٢).

- ١- ينظر: الشبكة العنكبوتية، بوابة كنانة أون لاين أحمد الكردي / <http://kenanaonline.com> / تاريخ الزيارة الاثنين ١٦-٧-٢٠١٢ م الساعة السابعة صباحاً.
- ٢- ينظر: بحث: "الجودة الشاملة ونظم الاعتماد الأكاديمي في الجامعات في ضوء المعايير الدولية" ص ١١-١٢. د. عماد الدين شعبان على حسن، منشور في الشبكة العنكبوتية على الرابط التالي: / <http://faculty.ksu.edu.sa/alisaad> تاريخ الزيارة الاثنين ١٦-٧-٢٠١٢ م الساعة الواحدة ظهراً.

لذلك نجد في بلادنا العربية مثلا تخصصات في جامعات تتبع دولا غنية استطاعت توفير - ولا أقول تحقيق - معايير الجودة، ومن ثم قد حصلت على الأيزو؛ وإن كان معلوما للدولة نفسها ضعف المخرجات وعدم كفاءة الخريج.

المطلب الثاني: العناية بمعيار الجودة في الشريعة الإسلامية.

الشريعة الإسلامية هي الرائدة في هذا المجال، والحائزة على قدم السبق فيه، وتظهر العناية بمعيار الجودة جليا في المنظور الإسلامي حين نجد التنبيه عليها في الكتاب والسنة:

أما في الكتاب الكريم: فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ النساء: (٥٨).

فالأمر الرباني الكريم برد الأمانات إلى أهلها يدخل فيه دخولا أوليا توسيد الأمور إلى أهلها القادرين على القيام بأعبائها دون غيرهم. يقول رشيد رضا في تفسير هذه الآية الكريمة: «أمر الله تعالى برد الأمانات إلى أهلها، وبالْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ، مُحَاطَبًا بِذَلِكَ جُمْهُورَ الْأُمَّةِ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ فِي رَدِّ الْأَمَانَاتِ تَوْسِيدُ الْأُمَّةِ أَمْرَ الْأَحْكَامِ إِلَىٰ أَهْلِهَا الْقَادِرِينَ عَلَى الْقِيَامِ بِأَعْبَائِهَا...»^(١).

وأما في السنة المطهرة: فروي عن عائشة - رضي الله عنها - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يَتَّقَنَهُ)^(٢).

وقد ذكره البيهقي في الخامس والثلاثين من شعب الإيمان، وهو باب في

١- تفسير المنار، رشيد رضا، ٥ / ١٤٦.

٢- شعب الإيمان، البيهقي، ٧ / ٢٣٢، ح ٤٩٢٩-٤٩٣٢. وللحديث طرق يقوي بعضها بعضا لذا ذكره الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ١ / ٣٨٣.

الْأَمَانَاتِ، وَمَا يَجِبُ مِنْ أَدَائِهَا إِلَى أَهْلِهَا^(١)، وهو مؤيد لما ذكرته آنفا في معنى الآية الكريمة.

ودلالته ظاهرة، ومعناه كما قال المناوي: «أي يحكمه- كما جاء مصرحا به في رواية العسكري- . فعلى الصانع الذي استعمله الله في الصور، والآلات، والعدد مثلا، أن يعمل بما علمه الله عمل إتقان وإحسان؛ بقصد نفع خلق الله الذي استعمله في ذلك، ولا يعمل على نية أنه إن لم يعمل ضاع، ولا على مقدار الأجرة؛ بل على حسب إتقان ما تقتضيه الصنعة»^(٢).

المطلب الثالث: التحذير من إهمال معيار الجودة.

حذر الشارع الحكيم من إهمال الجودة والإتقان، واللجوء بدلا عنهما إلى الغش والتدليس، نجد هذا ظاهرا في قوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا»^(٣). أي: «لم ينصح من استنصحه، وزين له غير المصلحة. فمن ترك النصح للأمة، ولم يشفق عليهم، ولم يعنهم بنفسه وما بيده. فكأنه ليس منهم إلا تسمية وصورة»^(٤). وهو لفظ عام مطلق بليغ في الزجر، فمن ولّى غير المتقن، وقبل بالرديء بدلا من الجيّد فهو غاش لأتمته. بل نجد الشارع الحكيم عدّ التفريط بمعيار الجودة، وإهماله، تضيعا للأمانة، وعلامة على قرب قيام الساعة، كما في قوله صلى الله عليه وسلم للأعرابي السائل: متى الساعة؟ قال «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»، قال الأعرابي: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»^(٥).

١- (شعب الإيمان، البيهقي، ١٩٨ / ٧).

٢- فيض القدير، المناوي، ٣٦٣ / ٢.

٣- الصحيح، مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» ١ / ٩٩ ح ١٦٤.

٤- فيض القدير، المناوي، ٣٨٧ / ٥.

٥- الصحيح، البخاري، كتاب العلم، بَابُ مَنْ سُئِلَ عِلْمًا وَهُوَ مُشْتَغَلٌ فِي حَدِيثِهِ، فَأْتَمَّ الْحَدِيثَ ثُمَّ أَجَابَ السَّائِلَ، ١ / ٢١، ح ٥٩.

قال ابن المنير: «ينبغي أن يجعل هذا الحديث أصلاً في أخذ الدروس، والقراءة، والحكومات، والفتاوى عند الازدحام على السبق»^(١).

المطلب الرابع: معيار الجودة غير مرتبط بعمر محدد أو جنس معين.

مما يحفظ للمنهج الإسلامي وسبقه إلى التميز والجودة أنه بحث فيمن يتولى عملاً معيناً عن توافر معيار الجودة فيمن يسند الأمر إليه بغض النظر عن عمره أو جنسه أو غير ذلك. فها هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعقد اللواء لأمامة ابن زيد - رضي الله عنهما -، مع حداثة سنه فهو الشاب الذي لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره - على جيش فيه أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما^(٢). ويسند شرف الأذان لبلال - الحبشي - - رضي الله عنه -^(٣).

ويسند لابن أم مكتوم - الأعمى - - رضي الله عنه - شرف الأذان^(٤) وإمامة الصلاة^(٥)، لما تحقق في كل منهم معيار الجودة المناسب للوظيفة التي أسندت إليه.

المطلب الخامس: معيار الجودة مقدم على القرابة والصدقة.

إن الشرع الحنيف حينما أراد أن يقيم المجتمع الإسلامي وضع له الأسس والقواعد، وكان من بين هذه القواعد أن العمل لا بد أن يسند إلى أهله؛ لتحقيق المنفعة المرجوة منه، وهذا يقتضي لزماً أن تهمل أي مؤثرات جانبية قد تميل النفس إلى أعمالها عند إسناد العمل لمن يقوم به من قرابة أو صداقة. فنجد الشرع رجح المصلحة العامة على المصالح الفئوية الضيقة، ويظهر ذلك صريحاً في حديث

- ١- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، البكري ٨ / ٦٦٠.
- ٢- ينظر: الصحيح، مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل زيد بن حارثة وأمامة بن زيد رضي الله عنهما، ١٣١ / ٧ ح ٦٤١٧. والمصنف، عبد الرزاق، ٥ / ٨٢٢ ح ٩٧٧٧.
- ٣- ينظر: الصحيح، البخاري، كتاب الأذان، باب بدء الأذان، ١ / ٢١٩ ح ٥٧٩.
- ٤- ينظر: الصحيح، البخاري، كتاب الأذان، باب أذان الأعمى إذا كان له من يخبره، ١ / ٢٢٣ ح ٥٩٢، الصحيح، مسلم، كتاب الصلاة، باب جواز أذان الأعمى إذا كان معه بصير، ١ / ٢٨٧ ح ٣٧١.
- ٥- ينظر: السنن، أبو داود، كتاب الصلاة، باب إمامة الأعمى، ١ / ١٦٢ ح ٥٩٥. وهو حديث حسن كما قال ابن حجر. ينظر: التلخيص الحبير، ابن حجر، ٢ / ٩١.

الحسن، ومحمد بن سيرين، أن النبي صلى الله عليه وسلم حين بعث عمرو بن العاص أميراً على الجيش قال: «إني لأبعث الرجل وأدع من هو أحب إلي منه، ولكنه لعله أن يكون أيقظ عيناً، وأشد سَفراً، أو قال: مكيدة»^(١) ففي هذا الحديث تصريح بأن المطلوب هو تولية القادر على إنجاز العمل على أحسن وجه وأتقنه؛ يضمن ذلك صفات متوافرة فيمن أسند إليه العمل.

بل نجد الأمر يأخذ مساراً أظهر حينما نجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لأبي ذر - رضي الله عنه - عندما طلب منه ولاية: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم»^(٢).

وبين له النبي عليه السلام سبب ذلك فقال: «يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»^(٣) مع ما يعلم صلى الله عليه وسلم من مكانة أبي ذر وديانته حين قال: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء أصدق من أبي ذر»^(٤).

ونلاحظ فيما يأتي أن خبرة النبي - صلى الله عليه وسلم - بأصحابه كانت أساساً لتولي الوظيفة أو لل منع؛ كل حسب ما يصلحه.

المطلب السادس: تنقية معيار الجودة مما قد يؤثر فيه.

حرص الشارع الحكيم على تنقية العمل من أي شائبة قد تؤثر فيه سلباً؛ فوجه العامل - وإن كان محققاً لمعيار الجودة - لما يصلح عمله، وربطه ربطاً وثيقاً بعامل ينعدم تماماً في النظم البشرية - بل لعلها لا تؤمن به أساساً - ألا

- ١- الجامع، معمر بن راشد ١١ / ٣٢٢ ح ٢٠٦٥٨. الحديث رجاله ثقات وإن كان مرسلًا.
- ٢- الصحيح، مسلم، كتاب الإمارة، باب باب كراهة الإمارة بغير ضرورة. ٦ / ٧ ح ٤٨٢٤.
- ٣- الصحيح، مسلم، كتاب الإمارة، باب باب كراهة الإمارة بغير ضرورة. ٦ / ٦ ح ٤٨٢٣.
- ٤- الجامع، الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب أبي ذر رضي الله عنه ٥ / ٦٦٩ ح ٣٨٠١. وقال: وفي الباب عن أبي الدرداء وأبي ذر. قال: وهذا حديث حسن.

وهو الرعاية والتوفيق الربانيين. ونحن معشر المسلمين نوقن أنه لا بد من الرعاية الربانية؛ ليتوفق الإنسان في عمله مهما أوتي من أسباب دنيوية. وفي هذا الإطار نجد النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول لعبد الرحمن بن سمرة -رضي الله عنه-: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِّلتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعْنتَ عَلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ فَكَفِّرْ يَمِينَكَ وَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»^(١). يقول المهلب بن أبي صفرة مستنبطاً من هذا الحديث: «فيه دليل على أنه من تعاطى أمراً، وسولت له نفسه أنه قائم بذلك الأمر، أنه يخذل فيه في أغلب الأحوال؛ لأنه من سأل الإمارة لم يسألها إلا وهو يرى نفسه أهلاً لها، فقد قال -صلى الله عليه وسلم-: (وكل إليها) بمعنى: لم يعن على ما أعطاه، والتعاطى أبداً مقرون بالخذلان، وإن من دعي إلى عمل، أو إمامة في الدين، فقصر نفسه عن تلك المنزلة وهاب أمر الله؛ رزقه الله المعونة، وهذا إنما هو مبني على أنه من تواضع لله رفعه»^(٢).

ثم نجد الشارع الحكيم بعد ذلك يحذر من تحقق فيه معيار الجودة -فضلاً عن غيره- من غش الأمة وخيانة الأمانة، فعن عدى بن عميرة الكندي، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: «مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمْنَا مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ، كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قال: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْبَلْ عَنِّي عَمَلِكَ. قَالَ: «وَمَا لَكَ». قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: «وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ: مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذْ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ أَنْتَهَى»^(٣). ففي هذا الحديث «تحريض العمال على الأمانة، وتحذيرهم من الخيانة ولو في تافه»^(٤)، ولا

١- الصحيح، البخاري، كتاب الأحكام، باب مَنْ لَمْ يَسْأَلِ الْإِمَارَةَ أَعَانَهُ اللَّهُ، ٩ / ٧٩ ح ٧١٤٦.

٢- شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ٨ / ٢١٧.

٣- الصحيح، مسلم، كتاب الإمارة، باب تَحْرِيمِ هَدَايَا الْعُمَّالِ، ٣ / ١٤٦٥ ح ١٨٣٣.

٤- فيض القدير، المناوي، ٦ / ٧٤.

شك أن مثل هذا التحريض دافع للإلتقان، ومحقق للجودة في أعلى مستوياتها.

ويؤكد النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا المعنى في حديث: «مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرَعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحْطَهَا بِنَصِيحَةٍ إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»^(١). وفي رواية: «مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَمُوتَ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(٢).

فالنصح يلزم صاحبه القيام بعمله على أتم وجه وفي أحسن صورة، وربطه بالآخرة، والوعيد عليه، دليل على كمال العناية بإصلاح معاش العباد، فالله تعالى إنما ولّاه واسترعه على عباده؛ ليديم النصيحة لهم، لا ليغشهم فيموت عليه، فلما قلب القضية استحق أن لا يجد رائحة الجنة^(٣).

المطلب السابع: تحقق معيار الجودة في الأشخاص يجب أن يكون نتاج خبرة وممارسة.

إن معرفة القادر على إنجاز العمل على أتم وجه وأجوده؛ لا بد أن تكون قائمة على أساس من الخبرة بأحوال الأشخاص وقدراتهم، وهذا ما نجده جليا في السنة النبوية فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد خبر أحوال أصحابه، ونصّ على إمكانيات بعضهم ومميزاتهم، وقد جمعت بعضا من ذلك، ففي حديث أنس ابن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُمَانُ، وَأَفْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَبُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أَبِي بَنِي كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»^(٤).

وفي حديث حذيفة - رضي الله عنه - قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -

- ١- الصحيح، البخاري، كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح، ٩ / ٨٩ ح ٧١٥٠.
- ٢- الصحيح، البخاري، كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح، ٩ / ٨٩ ح ٧١٥١.
- ٣- ينظر: إرشاد الساري، القسطلاني، ١٠ / ٢٢٤.
- ٤- الجامع، الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، ٥ / ٦٦٥، ح ٣٧٩١. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

لَأَهْلِ نَجْرَانَ: «لَأَبْعَثَنَّ، يَعْنِي عَلَيْكُمْ، يَعْنِي أَمِينًا- حَقَّ أَمِينٍ فَأَشْرَفَ أَصْحَابُهُ فَبَعَثَ
أَبَا عُبَيْدَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»^(١)، وعند مسلم: «لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ حَقَّ
أَمِينٍ»^(٢).

قال القرطبي: «وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أخبر عن كل واحد
من أعيان أصحابه - رضى الله عنهم - بما غلب عليه من أوصافه، وإن كانوا كلهم
فضلاء، علماء، حكماء، مختارين لمختار»^(٣).

وقال العيني: «والأمانة مشتركة بين أبي عبيدة وغيره من الصحابة، لكن
المقصود بيان زيادتها في أبي عبيدة، والنبي خص كل واحد من كبار الصحابة
بفضيلة واحدة وصفه بها فأشعر بقدر زائد فيها على غيره»^(٤).

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - وذكر عبد الله
ابن عمرو عبد الله بن مسعود فقال: لَا أزالُ أَحِبُّهُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صلى الله عليه
وسلم - يَقُولُ: «خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ، وَمُعَاذٍ،
وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ»^(٥).

قال القرطبي مُعللاً: «وتخصيص هؤلاء الأربعة بالذكر دون غيرهم ممن
حفظ القرآن من الصحابة - رضى الله عنهم - وهم عدد كثير كما يأتي؛ لأن هؤلاء
الأربعة هم الذين تفرغوا لإقراء القرآن وتعليمه دون غيرهم ممن اشتغل بغير ذلك
من العلوم، أو العبادات، أو الجهاد، وغير ذلك، ويحتمل أن يكون ذلك من النبي

١- الصحيح، البخاري، كتاب المناقب، باب مَنَابِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ٣ / ١٣٦٩ ح
٣٥٣٥.

٢- الصحيح، مسلم، كتاب الفضائل، باب فَضَائِلِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: ٧ / ١٢٩ ح:
٦٤٠٧

٣- المفهم، القرطبي، ٦ / ٢٩٣.

٤- عمدة القاري، العيني، ٢٤ / ٣٨٠.

٥- الصحيح، البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ٤ /
١٩١١ ح، ٤٧١٣.

- صلى الله عليه وسلم - ؛ لأنه علم أنهم هم الذين ينتصبون لتعليم الناس القرآن بعده، وليؤخذ عنهم؛ فأحال عليهم لما علم من مآل أمرهم، كما قد أظهر الموجود من حالهم؛ إذ هم أئمة القراء، وإليهم تنتهي في الغالب أسانيد الفضلاء، والله أعلم^(١). وقال ابن حجر مستنبطاً من هذا الحديث: «ويستفاد منه.. أن البداءة بالرجل في الذكر على غيره في أمر اشترك فيه مع غيره يدل على تقدمه فيه»^(٢).

المطلب الثامن: إذا تحقق معيار الجودة فلا يلتفت إلى كلام المشككين والمعترضين.

إن من القواعد الراسخة التي أرساها الشرع الحنيف أن مصلحة المسلمين متى تحققت وجب الصيرورة إليها، وغض الطرف عن أراجيف المرجفين، فمتى تيقن ولي الأمر من تحقق معيار الجودة في شخص ما وكل الأمر إليه. يظهر هذا جلياً في حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعثاً، وأمر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله، إن كان خليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده»^(٣).

المبحث الثاني: اعتماد معيار الجودة لتولي الوظيفة المتعلقة بالعبادات.

المطلب الأول: اعتماد معيار الجودة لتولي وظيفة المؤذن.

تعد وظيفة المؤذن من أشرف الوظائف في المجتمع الإسلامي؛ لما للأذان من رمزية عميقة، ولما يترتب عليه من أجر شريف؛ فالمؤذنون هم أطول الناس أعناقاً

١ - المفهم، القرطبي، ٦ / ٣٧٥.

٢ - فتح الباري، ابن حجر، ٩ / ٤٨.

٣ - الصحيح، مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة وأسماء بن زيد رضي الله عنهما ٧ / ١٣٠ ح ٦٤١٧.

وإعناقاً يوم القيامة كما صح الخبر عن المصطفى صلى الله عليه وسلم^(١).

وبدأت حكاية هذه الوظيفة حين اجتمع الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأصحابه، وتشاور معهم في كيفية النداء للصلاة -وهي عمود هذا الدين كما هو معلوم-، وقد لخصت مجريات هذا الاجتماع وما صدر عنه في حديث أبي عمير بن أنس، عن عُمومةَ له من الأنصار قال: اهْتَمَّ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- للصَّلَاةِ كَيْفَ يَجْمَعُ النَّاسَ لَهَا؟ فَقِيلَ لَهُ: انْصَبْ رَايَةً عِنْدَ حُضُورِ الصَّلَاةِ؛ فَإِذَا رَأَوْهَا أَذِنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَلَمْ يُعْجَبْهُ ذَلِكَ. قَالَ: فَذَكَرَ لَهُ الْقَنْعُ -يَعْنِي الشُّبُورَ- وَقَالَ زِيَادٌ: شُبُورَ الْيَهُودِ، فَلَمْ يُعْجَبْهُ ذَلِكَ. وَقَالَ: «هُوَ مِنْ أَمْرِ الْيَهُودِ». قَالَ: فَذَكَرَ لَهُ النَّاقُوسُ. فَقَالَ: «هُوَ مِنْ أَمْرِ النَّصَارَى». فَانْصَرَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ وَهُوَ مُهْتَمٌّ لَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَأَرَى الْأَذَانَ فِي مَنْامِهِ -قَالَ: - فَعَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَبِينٌ نَائِمٌ وَيَقْظَانٌ إِذْ أَتَانِي آتٌ فَأَرَانِي الْأَذَانَ. قَالَ: وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَدْ رَأَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَكَتَمَهُ عَشْرِينَ يَوْمًا -قَالَ: - ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ لَهُ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تُخْبِرَنِي». فَقَالَ: سَبَقَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ فَاسْتَحْيَيْتُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «يَا بِلَالُ، قُمْ فَانْظُرْ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ، فَافْعَلْهُ». قَالَ: فَأَذَّنَ بِلَالٌ. قَالَ أَبُو بَشِيرٍ: فَأَخْبَرَنِي أَبُو عَمِيرٍ: أَنَّ الْأَنْصَارَ تَزَعَّمُوا أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ زَيْدٍ لَوْلَا أَنَّهُ كَانَ يَوْمَئِذٍ مَرِيضًا؛ لَجَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- مُؤَذِّنًا^(٢).

١- الصحيح، مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ٢ / ٥ ح ٨٧٨. وقد ورد الحديث بروايتين: أعناقاً بفتح الهمزة: من العنق وهي الرقبة، وإعناقاً بكسرها من سير العنق وهي هيئة مشي. ينظر: النووي، شرح مسلم ٤ / ٩١-٩٢.
٢- السنن، أبو داود، كتاب الصلاة، باب بدء الأذان ١ / ١٨٦ ح ٤٩٨. وهو حديث حسن كما قال ابن حجر. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، ٢ / ٨١.

فلاحظ هنا كيف أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم وظيفة المؤذن لبلال مع أن الذي رأى المنام هما عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعا. وبالبحث عن سبب ذلك نجد معيار الجودة لهذه الوظيفة حاضرا في بلال صريحا في قوله عليه الصلاة والسلام «فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ، فَأَلْقَ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ، فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ فَإِنَّهُ أُنْدَى صَوْتًا مِنْكَ، فَقَمْتُ مَعَ بِلَالٍ، فَجَعَلْتُ أَلْقِيَهُ عَلَيْهِ، وَيُؤَذِّنُ بِهِ»^(٣) وفي رواية: «فإنه أندى، وأمدُّ صوتاً منك، فألقى عليه ما قيل لك، ولينادٍ بذلك»^(٤).

ومعلوم أن وظيفة المؤذن قوامها ومعيار جودتها: جمال الصوت، وطول النفس؛ لأن المقصود من الأذان دعوة الناس للاجتماع؛ ولاشك أن الصوت الندي يحدو بالناس للقدوم، وطول النفس يطيل أمد الصوت فيحتمل سماع عدد أكبر له، فأسند الأذان لبلال. قال ابن رجب في فوائد الأذان: «إنه إعلام للغائبين عن المسجد؛ فلهذا شرع فيه رفع الصوت، وسمي نداءً؛ فإن النداء هو الصوت الرفيع. ولهذا المعنى قال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لعبد الله ابن زيد: «قم فألقه على بلال؛ فإنه أندى صوتاً منك»^(٥). وقال ابن حجر: «أندى صوتاً منك، أي: أقعد في المد، والإطالة، والإسماع؛ ليعم الصوت، ويطول أمد التأذين؛ فيكثر الجمع، ويفوت على الشيطان مقصوده من إلهاء الأدمي عن إقامة الصلاة في جماعة، أو إخراجها عن وقتها، أو وقت فضيلتها فيفر حينئذ»^(٦).

فعمر - رضي الله عنه - وإن كان مقدما عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو من حيث المكانة ما هو معلوم، إلا أن إسناد الوظيفة راعى جانب

٣- السنن، أبو داود، كتاب الصلاة، باب بدء الأذان ١ / ١٨٧ ح ٤٩٩. قال الخطابي: " روي هذا الحديث والقصة بأسانيد مختلفة وهذا الإسناد أصحها". ينظر: معالم السنن، الخطابي، ١ / ١٥٢. وحسنه ابن حجر. ينظر: فتح الباري، ابن حجر، ٢ / ٨١.

٤- الجامع، الترمذي، أبواب الصلاة، باب ما جاء في بدء الأذان ١ / ٣٥٦ ح ١٨٩. وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

٥- فتح الباري، ابن رجب، ٥ / ١٧٩.

٦- فتح الباري، ابن حجر، ٢ / ٨٧.

حاجة الوظيفة دون العلاقات الشخصية.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: «فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ أَرْفَعُ صَوْتًا كَانَ أَوْلَى بِالْأَذَانِ؛ لِأَنَّ الْأَذَانَ إِعْلَامٌ. وَكُلُّ مَنْ كَانَ الْإِعْلَامُ بِصَوْتِهِ أَوْفَعُ؛ كَانَ بِهِ أَحَقُّ وَأَجْدَرُ»^(١).

ويؤكد هذا المعنى حديث أبي محذورة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ نَحْوًا مِنْ عِشْرِينَ رَجُلًا فَأَذَنُوا فَأَعَجَبَهُ صَوْتُ أَبِي مَحْذُورَةَ، فَعَلَّمَهُ الْأَذَانَ^(٢).

قلت: مع ملمح لا ينبغي إغفاله ههنا، وهو هدم ركن من أركان الجاهلية المتمثل بالعصبية؛ فبالل عبد حبشي، قدمه الإسلام وفق مبدأ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات: (١٣).

المطلب الثاني: اعتماد معيار الجودة لتولي وظيفة إمامة الصلاة.

إمامة الناس في الصلاة من أشرف الوظائف، وأعظمها شأنًا، كيف لا وهي مرتبطة بأعظم شعائر الإسلام (الصلاة)؛ التي بصلاحتها يصلح الدين، ومن لوازم صلاح الدين استقامة العبد، ومتى استقام العبد تفاعل مع أمته وأسهم في نهوض مجتمعه وتطوره.

ولشرف هذه المهنة وأهميتها باشر صلى الله عليه وسلم إمامة الناس بنفسه، ولما كان صلى الله عليه وسلم المبعوث للناس كافة، ورسالته خاتمة الرسالات؛ كان من الأهمية بمكان وضع المعيار الذي يُقدم صاحبه لإمامة الناس من بعده. ففي حديث أبي مسعود -رضي الله عنه-، يَقُولُ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً، فَإِنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً، فَلْيَوْمَهُمْ أَقْدَمُهُمْ هَجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهَجْرَةِ سَوَاءً، فَلْيَوْمَهُمْ أَكْبَرُهُمْ سِنًا، وَلَا تَوْمَنَ الرَّجُلَ فِي أَهْلِهِ، وَلَا فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا تَجْلِسَ عَلَى تَكْرِمَتِهِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا

١- معالم السنن، الخطابي، ١/ ١٥٣.

٢- الصحيح، ابن خزيمة ١/ ١٩٥.

أَنْ يَأْذَنَ لَكَ، أَوْ يَأْذِنَهُ»^(١).

فندلحظ جليا أن معيار تقدم الرجل للإمامة هو أن يكون أقرأ القوم لكتاب الله، فإذا تساوى معه غيره نظر لفضله- والمعبر عنها هنا بالهجرة-، فإن ماثلته غيره رجح الأكبر سنًا....

وعند تطبيق هذا المعيار وجدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مرض موته يقول: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ». قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمَعْ النَّاسُ مِنَ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي لَهُ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمَعْ النَّاسُ مِنَ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ. فَفَعَلَتْ حَفْصَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَهْ إِنْ كُنَّ لَأَنْتِ صَوَّاحِبُ يَوْسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ». فَقَالَتْ حَفْصَةُ: لِعَائِشَةَ مَا كُنْتُ لِأُصِيبَ مِنْكَ خَيْرًا»^(٢).

وفي حديث عبد الله بن زَمْعَةَ بْنِ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمَطْلَبِ بْنِ أَسَدٍ قَالَ: «لَمَّا اسْتَعَزَّ^(٣) بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا عِنْدَهُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ: دَعَا بِلَالٌ لِلصَّلَاةِ، فَقَالَ: مُرُوا مَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، قَالَ: فَخَرَجْتُ، فَإِذَا عُمَرُ فِي النَّاسِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ غَائِبًا، فَقَالَ: قُمْ يَا عُمَرُ فَصَلِّ بِالنَّاسِ. قَالَ: فَقَامَ، فَلَمَّا كَبَّرَ عُمَرُ سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَهُ، وَكَانَ عُمَرُ رَجُلًا مُجَهَّرًا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَأَيْنَ أَبُو بَكْرٍ؟ يَا بَنِي اللَّهِ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ، يَا بَنِي اللَّهِ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ قَالَ: فَبَعَثَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَجَاءَ بَعْدَ أَنْ صَلَّى عُمَرُ تِلْكَ الصَّلَاةَ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ»^(٤). قال ابن رجب: «والمراد من هذا الحديث في هذا الباب - باب أهل

١- الصحيح، مسلم، كتاب الصلاة، باب مَنْ أَحَقَّ بِالْإِمَامَةِ ٢ / ١٣٣ ح ١٥٦٦.

٢- الصحيح، البخاري، كتاب العلم، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، ١ / ٢٣٩ ح ٦٤٧.

٣- أي: اشتد به المرض وأشرف على الموت. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٣ / ٢٢٨.

٤- السنن، أبو داود، كتاب السنة، باب في استخلاف أبي بكر رضي الله عنه ٤ / ٣٤٨ ح ٤٦٦٢. وهذا

الحديث صححه الحاكم على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي. ينظر: المستدرک، الحاكم، ٣ / ٦٤٠ ح

٦٧٠٣.

العِلْمَ وَالْفَضْلَ أَحَقُّ بِالْإِمَامَةِ -: أمر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أبا بكر بالصلاة بالناس في مرضه، وأنه روجع في ذلك فزجر من راجعه، وكرر الأمر بذلك»^(١).

ويفسر ابن كثير سبب هذا الإصرار من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ويبين أنه غير مناف للأمر بأن تكون الإمامة للأقرأ فيقول: «أنا لا أشك أن الصديق رضي الله عنه - قرأ القرآن، وقد نص عليه الأشعري مستدلاً بأنه صح أنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ وَأَكْثَرُهُمْ قُرْآنًا»، وتواتر عنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنه قدمه للإمامة، ولم يكن - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يأمر بأمر ثم يخالفه بلا سبب؛ فلولا أن أبا بكر كان متصفاً بما يقدمه في الإمامة على سائر الصحابة - وهو القراءة - لما قدمه؛ فلا يسوغ نفي حفظ القرآن عنه بغير دليل، وقد صح في البخاري أنه بنى مسجداً بفناء داره فكان يقرأ القرآن أي ما نزل»^(٢).

قلت: وينضاف إلى هذا الأمر في هذه المرحلة خصوصاً ارتباط إمامة الصلاة بالإمامة العظمى، والدلالة عليها، وهو ما أدركه الصحابة بعد. قال علي عن أبي بكر - رضي الله عنهما -: «لَمَّا قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرْنَا فِي أَمْرِنَا، فَوَجَدْنَا النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ قَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ فِي الصَّلَاةِ، فَرَضِينَا لِدُنْيَانَا مَنْ رَضِيَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِدِينِنَا، فَقَدَّمْنَا أَبَا بَكْرٍ»^(٣).

ومن تطبيقات ذلك حديث ابن عمر، قال: «لَمَّا قَدَّمَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ الْعُصْبَةَ - مَوْضِعٌ بِقُبَاءَ - قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَوْمُهُمْ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ قُرْآنًا»^(٤).

١ - فتح الباري، ابن رجب، ٦ / ١١٦.

٢ - إرشاد الساري، القسطلاني، ٧ / ٤٥٨.

٣ - الطبقات الكبرى، ابن سعد، ٣ / ١٨٣. قال الهيثمي: إسناده جيد. ينظر: الصواعق المحرقة، الهيثمي، ٢٠١ / ١.

٤ - الصحيح، البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب إمامة العبد والمولى، ١ / ٢٤٦ ح ٦٦٠.

وهو منسجم تماما مع قوله صلى الله عليه وسلم: «اسْتَقْرَأُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةِ: مِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - فَبَدَأَ بِهِ - وَسَالِمِ مَوْلَى أَبِي حذيفة، ومعاذ، وأبي»^(٥).

ومن تطبيقاته كذلك حديث عمرو بن سلمة، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «... فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤْذِنِ أَحَدُكُمْ، وَلْيُؤَمِّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا». فَنظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي، لَمَّا كُنْتُ أَتَلِّقِي مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ...»^(٦). فنلاحظ جليا كيف كانت أحقية الإمامة لمولى ولصغير لانطباق شرطهما عليهما.

ووجدنا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يطبقون هذه المبادئ، فعن السائب بن يزيد أنه قال: «أَمَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَبِي بَنَ كَعْبٍ، وَتَمِيمًا الدَّارِيَّ؛ أَنْ يَقُومَا لِلنَّاسِ بِأَحَدِي عَشْرَةَ رَكْعَةً، قَالَ: فَكَانَ الْقَارِئُ يَقْرَأُ بِالْمِثْنِ، حَتَّى كُنَّا نَعْتَمِدُ عَلَى الْعَصِيِّ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ، وَمَا كُنَّا نَنْصَرِفُ إِلَّا فِي فُرُوعِ الْفَجْرِ»^(٧).

المطلب الثالث: اعتماد معيار الجودة لتولي وظيفة والي الزكاة.

تعد هذه الوظيفة أكثر الوظائف شيوعا في العهد النبوي؛ ذلكم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد بعث أمراءه وعماله على الصدقات، إلى كل ما أوطأ الإسلام من البلدان^(٨)

وقد عقد بعض أصحاب السير^(٩) فصلا في ذكر عمال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم - على الزكاة. وعند إنعام النظر في معيار تولي وظيفة قبض أموال الزكاة، لاحظت في اختيار هؤلاء العمال أنهم اختيروا - غالبا - من أقوامهم،

- ٥- الصحيح، البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه ٣ / ١٣٧٢ ح ٣٥٤٨.
- ٦- قطعة من حديث أخرجه في الصحيح، البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد الفتح ٤ / ١٥٦٤ ح ٤٠٥١.
- ٧- مالك، الموطأ، باب ما جاء في قيام رمضان ٢ / ١٥٩ ح ٣٨٠.
- ٨- السيرة النبوية، ابن هشام، ٥ / ٣٠٢.
- ٩- ينظر مثلا: جوامع السيرة، ابن حزم، ص ٢٥، وإمتاع الأسماع، المقرئ، ٩ / ٣٧٦.

ومرد ذلك - والله أعلم- أن الزكاة «تُؤخذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فتردُّ عَلَى فقَرَائِهِمْ»^(١) والمرء أعرف بأحوال قومه وأهله من غيره . وعلى أهمية هذا المعيار إذ لا بد من توافر الأمانة فالمسألة مالية، وهذا مانبهت إليه السنة ترغيبا كما في حديث رافع ابن خديج، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «الْعَامِلُ عَلَى الصَّدَقَةِ بِالْحَقِّ كَالْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ»^(٢).

وترهيبا كما في حديث عدي بن عميرة الكندي، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَمْنَا مَخِيَطًا فَمَا فَوْقَهُ، كَانَ غُلُوبًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، قال: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْبَلْ عَنِّي عَمَلِكَ، قَالَ: «وَمَا لَكَ؟» قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ، مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَلْيَجِيءْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى»^(٣).

ونقف هنا مع اثنين ممن تولى هذه الوظيفة، الأول: معاذ بن جبل وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - أرسله وأبا موسى الأشعري - رضي الله عنهما - إلى اليمن، كما في حديث ابن عباس؛ ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ فتردُّ عَلَى فقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ

١ - الصحيح، مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورَسُولِهِ وَشَرَائِعِ الدِّينِ وَالِدُّعَاءِ إِلَيْهِ ١ / ٣٥ ح ١٣٠.

٢ - الجامع، الترمذي، ٣ / ٢٩ ح ٦٥٤. وقال: "حَدِيثٌ حَسَنٌ".

٣ - الصحيح، مسلم، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا الْعَمَالِ ٣ / ١٤٦٥ ح ١٨٣٣.

حَجَابٌ»^(١).

ففي هذا الحديث أن «الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها؛ إما بنفسه، وإما بنائبه؛ فمن امتنع منها أخذت منه قهراً»^(٢) وقد صرح معاذ بأن من مهمته جمع الصدقات فقال: «بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق أهل اليمن»^(٣). ولم يباشر بنفسه جمعها لكنه تولى قبضها^(٤) كما روي عن مالك بن مرة من بني سُهَيْم بن عبد الله بن رها، بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى اليمن، وكتب معه إلى عدة منهم سَمَاهُم، وأمرهم أن يجمعوا الصدقة، والجزية؛ فيدفعوها إلى معاذ بن جبل، ومالك بن مرة، وأمرهم بهما خيراً». ومعيار تولي معاذ - رضي الله عنه - هذه المهمة الجليلة جاء بعد خبرة وبصيرة بقدراته؛ فهو كما وصفه صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بالحلل والحرام، وهو من الأمناء، وأرسل معه من أبناء أهل اليمن من يبصر أحوال قومه فتتحقق نظرية (تُؤخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، فَتُرَدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ).

وأما الصحابي الثاني ممن تولى وظيفة قبض الزكاة فهو ابنُ اللَّتْبِيَّةِ: فعن أبي حميد السَّاعِدِيِّ - رضي الله عنه -، قال: «استعمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً من الأُسْدِ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ، يُدْعَى ابْنَ اللَّتْبِيَّةِ فَلَمَّا جَاءَ حَاسِبَهُ»^(٥).

واخترت هذا النموذج للتأكيد على تميز المنهج الإسلامي قولاً وفعلاً،

- ١- الصحيح، البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع ٤ / ١٥٧٧ ح ٤٠٩٠.
- ٢- فتح الباري، ابن حجر، ٣ / ٣٦٠.
- ٣- المسند، أحمد بن حنبل، ٥ / ٢٤٠ ح ٢٢٤٣٥. قطع من حديث فيه ضعف لكن يعتضد بمجموع طرقه لذا صححه الشيخ الألباني كما في مختصر إرواء الغليل ص: ١٥٤ ح ٧٩٥.
- ٤- الطبقات الكبرى، ابن سعد، - متمم الصحابة - الطبقة الرابعة ص: ٧٧٢، بإسناده حسن.
- ٥- الصحيح، البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى ﴿والعاملين عليها﴾ ومحاسبة المصدقين مع الإمام ٢ / ٥٤٥ ح ١٤٢٩.

فلاشك أن الأمانة موجودة لثقة رسول الله به، وتوليته إياه؛ لكن تولية من تحقق فيه معيار الجودة لا يعني عدم المحاسبة، نبصر هنا كيف أن اختيار الكفو لم يمنع محاسبته لما قد يقع للإنسان تلبيساً أو جهلاً. قال المهلب بن أبي صفرة: «حَدِيثُ الْبَابِ أَصْلٌ فِي مُحَاسَبَةِ الْمُؤْتَمَنِ، وَأَنَّ الْمَحَاسِبَةَ تَصْحِيحُ أَمَانَتِهِ»^(١).

ومن التطبيقات المباشرة: ما رواه إبراهيم بن عطاء مولى عمران بن حصين: عن أبيه، قال: «إن زياداً - أو بعض الأمراء - بعث عمران بن حصين على الصدقة، فأخذها من الأغنياء، وردّها على الفقراء، فلما رجع قال لعمران: أين المال؟ قال: وللمال أرسلتني؟ أخذناها من حيث كنا نأخذها على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ووضعتها حيث كنا نضعها على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -»^(٢).

هذا هو الذي ينهض بالأمم، ويصلح المجتمعات. وهو ما يبين ضرورة أن يكون معيار الجودة حاضراً - أي: أن يسند الأمر لأهله -.

المطلب الرابع: اعتماد معيار الجودة لتولي وظيفة إمارة الحج.

معلوم أن أداء فريضة الحج لم يتحقق في عهد النبوة إلا مرتين، الثانية منهما بإمرته صلى الله عليه وسلم وهي ما عرفت بحجة الوداع. وقبلها بعام بعد فتح مكة أرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر - رضي الله عنه - أميراً على الناس بالحج، قال ابن هشام: «تأمير أبي بكر على الحج: قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية شهر رمضان وشوالاً وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع، ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك

١ - فتح الباري، ابن حجر ٣ / ٣٦٦.

٢ - السنن، أبو ادود، كتاب الزكاة، باب في الزكاة هل تحمل من بلد إلى بلد، ٢ / ٣٣ ح ١٦٢٧. وإسناده صحيح. ينظر: الألباني، صحيح أبي داود، ٥ / ٣٢٨.

عَلَى مَنَازِلِهِمْ مِنْ حَجِّهِمْ. فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(١).

وإذا وقفنا على طبيعة المهمة التي أرسل لأجلها أبو بكر تجلّى لنا معيار الجودة في توليته. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «ثُمَّ أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُنْصَرَفَهُ مِنْ تَبُوكَ بَقِيَّةَ رَمَضَانَ، وَشَوَّالًا، وَذَا الْقَعْدَةَ، ثُمَّ بَعَثَ أَبَا بَكْرَ أَمِيرًا عَلَى الْحَجِّ فِي سَنَةِ تِسْعٍ، لِيُقِيمَ لِلْمُسْلِمِينَ حَجَّهُمْ، وَالنَّاسَ مِنْ أَهْلِ الشَّرْكِ عَلَى مَنَازِلِهِمْ مِنْ حَجِّهِمْ، فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَنَزَلَتْ بَرَاءَةٌ فِي نَقْضِ مَا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَهْدِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْعَضْبَاءِ، حَتَّى أَدْرَكَ أَبَا بَكْرٍ، بِالطَّرِيقِ فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ، قَالَ: أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ؟ فَقَالَ: لَا، بَلْ مَأْمُورٌ. ثُمَّ مَضَى، فَأَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ حَجَّهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ النَّحْرِ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ الْجُمُرَةِ؛ فَأَذَنَ فِي النَّاسِ بِالَّذِي أَمَرَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ، وَلَا يَخْرُجُ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَهُوَ لَهُ إِلَى مُدَّتِهِ، وَأَجَلَ النَّاسِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مِنْ يَوْمِ أَذَنَ فِيهِمْ؛ لِيَرْجِعَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَأْمَنِهِمْ مِنْ بِلَادِهِمْ، ثُمَّ لَا عَهْدَ، وَلَا ذِمَّةَ، إِلَّا أَحَدًا كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَهْدٌ؛ فَهُوَ لَهُ مُدَّتُهُ. وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي الْمَغَازِي مَوْجُودٌ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُؤَصُولَةِ»^(٢).

ويلحظ هنا أن هذه مرحلة انتقالية، فيها عادات فاسدة، والدعوة إلى تغييرها بحاجة إلى علم، وحكمة، ولين، ولا يخفى على أحد حظّ أبي بكر في هذا الأمر

١ - السيرة النبوية، ابن هشام، ٢ / ٥٤٣ هذا لفظ ابن هشام وأصل الحديث في الصحيحين من مسند أبي هريرة رضي الله عنه. ينظر: الصحيح، البخاري، كتاب الحج، باب حجّ أبي بالناس في سنة تسع، ٤ / ١٥٨٦ ح ٤١٠٥.

٢ - دلائل النبوة، البيهقي، ٥ / ٢٩٥. قلت: اخترت هذه الرواية لأنها أشمل، وهي مفرقة في الصحاح وغيرها من كتب السنة.

على سائر الصحابة - رضي الله عنهم جميعا - .

المبحث الثالث: معيار الجودة أساس تولى الوظيفة في المعاملات .

المطلب الأول: معيار الجودة أساس تولى الإمامة العظمى .

الإمامة العظمى (رئاسة الدولة) هي الوظيفة الأخطر، والأعظم شأنًا بين سائر الوظائف؛ إذ يعد الموظف فيها نائبًا يقيم أحكام الله في الأرض، ويمكن القول إنها بمثابة القلب من الجسد؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسدت الجسد كله. وإذا كان الأمر كذلك فوجود معيار الجودة فيمن يتولاها فرض لازم، ويختلف الأمر فيها عن سائر الوظائف بأن سائر الوظائف يكتفى معها بتوفر معيار الجودة فيمن يتولاها وإن وجد من هو أجود منه، فالمهم أداء العمل على أحسن صورة. لكن في الإمامة العظمى يشترط أن يكون معيار الجودة قد تحقق فيمن أسندت الولاية له بأعلى صورها عن سائر أقرانه. وهذا يفسر لنا ترتيب الخلفاء الراشدين في الخلافة، الذي جاء منسجما مع مكانتهم في العهد النبوي فعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: «كُنَّا نَخِيرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَخَيْرٌ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - (٣) .

وقد كانوا رضي الله عنهم يقرّون لبعضهم بهذا الفضل، ويعلم كل منزلته بين أصحابه. وسأكتفي بدليل واحد وهو ما روي عن «مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي - عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ. قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ. - وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عَثْمَانُ - قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (٤) .

٣- الصحيح، البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم ٣/١٣٣٧ ح ٣٤٥٥ .

٤- الصحيح، البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذًا خليلا ٣/١٣٤٢ ح ٣٤٦٨ .

فإذا أنعمنا النظر وجدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعين أبا بكر أحق الناس بها بعده، تلميحا وتصريحا مصروفا تنفيذه لحكمة أرادها الله - جل وعز - : أما تلميحا ففي حوادث عدة منها: عندما أصر على أن يخلفه في إمامة الصلاة كما سبق، ومنها ما في حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ، قَالَ أَتَتِ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - امْرَأَةٌ فَكَلَّمَتْهُ فِي شَيْءٍ فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ وَلَمْ أَجِدْكَ؟ كَأَنَّهُا تُرِيدُ الْمَوْتَ. قَالَ: «إِنْ لَمْ تَجِدِيْنِي؛ فَاتِي أَبَا بَكْرٍ»^(١).

وأما تصريحا مصروفا تنفيذه؛ لحكمة أرادها الله - جل وعز - ففيما رواه الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ وَارَأْسَاهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : «ذَلِكَ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ؛ فَاسْتَغْفِرْ لَكَ، وَأَدْعُو لَكَ». فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَائْكَلِيَاهُ! وَاللَّهِ إِنِّي لَأُظَنُّكَ تُحِبُّ مَوْتِي، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ، لَظَلَلْتَ آخِرَ يَوْمِكَ مُعَرَّسًا بِبَعْضِ أَرْوَاجِكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - : «بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهُ لَقَدْ هَمَمْتُ، أَوْ أَرَدْتُ أَنْ أُرْسِلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ وَأَعْهَدَ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُونَ، أَوْ يَتَمَنَّى الْمُتَمَنُّونَ. ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَبَى اللَّهِ، وَيَدْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ، أَوْ يَدْفَعُ اللَّهُ، وَيَأْبَى الْمُؤْمِنُونَ»^(٢).

قال ابن حجر: «فأعهد، أي: أعين القائم بالأمر بعدي، هذا هو الذي فهمه البخاري فترجم به. وإن كان العهد أعم من ذلك، لكن وقع في رواية عروة عن عائشة بلفظ «ادعى لي أبك وأخاك حتى أكتب كتابا»، وقال في آخره «ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر». وفي رواية لمسلم «ادعى لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتابا؛ فإني أخاف أن يتمنى متمن؛ ويقول قائل: أنا أولى. ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر». وفي رواية للبخاري «معاذ الله أن يختلف الناس على أبي بكر». فهذا يرشد إلى أن المراد الخلافة، وأفرط المهلب؛ فقال: فيه دليل قاطع في خلافة أبي بكر»^(٣).

١- الصحيح، البخاري، كتاب الأحكام، باب الإستخلاف ٦ / ٢٦٣٩ ح ٦٧٩٤.

٢- الصحيح، البخاري، كتاب الأحكام، باب الإستخلاف ٦ / ٢٦٣٨ ح ٦٧٩١.

٣- فتح الباري، ابن حجر ١٣ / ٢٠٦.

قلت: إن مواقف أبي بكر - رضي الله عنه - عامة، ومواقفه بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - خاصة: من استقبله الخبر، واستيعابه له، وما ذكر الناس به، وما قاله للأنصار في السقيفة عندما أرادوا الخلافة، ثم موقفه من بعث أسامة - رضي الله عنه -، وقتاله مانعي الزكاة، والمرتين؛ مما هو معلوم في سيرته العطرة - رضي الله عنه - لتؤكد تجسيد معيار الجودة لتولي الخلافة فيه من: حكمة، وعلم، ورباطة جأش، وحصافة رأي، وبعد نظر، وحزم ولين متكاملين. فكان خليقا بالخلافة.

المطلب الثاني: اعتماد معيار الجودة لتولي جمع القرآن ونسخه.

دستور هذه الأمة هو القرآن الكريم، ومعلوم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - اتخذ ثلة من أصحابه لكتابته هم كتاب الوحي، وتوفى الله نبيه والقرآن مكتوب كله، وتولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة، ودخلت الدولة مرحلة جديدة، وخاضت معارك مصيرية فتكت بخيرة الصحابة خاصة القراء، فكان من حصافة الرأي بمكان أن يجمع القرآن دستور هذه الأمة. يقول النسفي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ سورة الحديد: آية (٢٥): «الكتاب: قانون الشريعة، ودستور الأحكام الدينية؛ يبين سبل المرشد والعهود، ويتضمن جوامع الأحكام والحدود، ويأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن البغي والطغيان»^(١).

ونجد الاختيار يقع على زيد بن ثابت. فما هي ركائز معيار الجودة لهذه الوظيفة التي توافرت فيه؟. قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحَرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ فِي الْمَوَاطِنِ؛ فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ

- ١ - مدارك التنزيل، النسفي، ٤ / ٣٣٦.

الْقُرْآنَ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْآنَ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يَرَا جُعْنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِدَلِكِ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرَ. قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ، شَابٌّ، عَاقِلٌ، وَلَا نَتَهَمُكَ، كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَتَتَّبِعُ الْقُرْآنَ فَاجْمَعُهُ. فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ؛ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ»^(١).

فنظرة في الحديث تبين لنا هذه الركائز: (شَابٌّ) (عَاقِلٌ) (وَلَا نَتَهَمُكَ) (كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). وهي ذاتها التي أهلته لنسخ القرآن (الدستور) لتوحيد الأمة على قراءة واحدة لما خشى اختلافها^(٢).

المطلب الثالث: اعتماد معيار الجودة كأساس لتولي وظيفة قيادة الجيش.

تعد قيادة الجيوش من أعظم الوظائف مكانة، وأخطرهما مقاما؛ فعلى الجيوش تقع مسؤولية حماية الدول والدفاع عنها؛ لذا وجب على من يختار قائد الجيش أن يسند هذه الوظيفة لمن هو أهل لها.

وبالنظر في السيرة النبوية نجد نماذج لذلك، منها: ما رواه عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: بعث رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْثًا، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَطَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِمَارَتِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إِنْ تَطَعْنَا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطَعُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِ، وَإِيْمُ اللَّهِ، إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسَ

١ - الصحيح، البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ٤ / ١٩٠٦ ح ٤٧٠١.

٢ - الصحيح، البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ٤ / ١٩٠٦ ح ٤٧٠٢.

إِلَيَّ بَعْدَهُ»^(١).

فصغر سن أسامة^(٢)، وكونه مولى، واعتراض من اعترض لم يمنع من توليته هذه الوظيفة لما أيقن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهليته لذلك.

قال القرطبي: «هذا خطاب منه -صلى الله عليه وسلم- لمن وقع له ذلك الطعن، لكنه على كريم خلقه لم يعينهم سترًا لهم؛ إذ مَعْتَبَتْه كانت كذلك، كما تقدّم، وكان الطعن في إمارة زيد من حيث أنه كان مولى، فشهد النبي -صلى الله عليه وسلم- لأسامة وأبيه رضي الله عنهما؛ بأنهما صالحان للإمارة، لما يعلم من أهليتهما لها، وأن كونهما موليين لا يغض من مناصبهما، ولا يقدر في أهليتهما للإمارة»^(٣). وقد أنفذ أبو بكر رضي الله عنه ذلك البعث وفتح الله عليه^(٤).

كما نلاحظ تولية عبد الله بن جبير -رضي الله عنه- لقيادة الرماة يوم أحد روى البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: «لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- جيشاً من الرماة، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال: لا تبرحوا، فإن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تعينونا، فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتدّون في الجبل، رفعن عن سوقهنّ، قد بدت خلاخيلهنّ، فأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير: عهد إلي النبي -صلى الله عليه وسلم-: أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف الله وجوههم، فأصيب سبعون قتيلاً...»^(٥).

فها هو عبد الله بن جبير يلتزم أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما

- ١- الصحيح، مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي الله عنهما ١٣٠ / ٧ ح ٦٤١٧.
- ٢- إرشاد الساري، القسطلاني، ٩ / ٣٦٧.
- ٣- المفهم، القرطبي، ٦ / ٣٠٨.
- ٤- ينظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، ١ / ٦٥٧.
- ٥- الصحيح، البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ٤ / ١٤٨٦ ح ٣٨١٧.

عهد إليه، ولم تغره الغنائم كما صنعت بأصحابه رضوان الله عليهم.

المطلب الرابع: اعتماد الجودة كأساس لتولي مهمة قتالية خاصة.

يحتاج رئيس الدولة أحياناً إلى إنفاذ مهام خاصة تريح المسلمين من رؤوس تثير شراً عليهم، وسأكتفي بإيراد نموذجين لذلك، الأول: قتل أبي رافع اليهودي. فعن البراء قال: بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أبي رافع اليهودي رجلاً من الأنصار فأمروهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم، فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم؛ فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلني أن أدخل. فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل؛ فإني أريد أن أغلق الباب. فدخلت، فكمنت. فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على وتد. قال: فقممت إلى الأقاليد فأخذتها؛ ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالي له فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه. فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل، قلت: إن القوم نذروا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله. فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت فقلت: يا أبا رافع. قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئاً وصاح، فخرجت من البيت؛ فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه؛ فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل؛ إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف. قال: فأضربه ضربة أشخته، ولم أقتله، ثم وضعت طبة السيف في بطنه، حتى أخذ في ظهره؛ فعرفت أنني قتلته؛ فجعلت أفتح الأبواب: باباً باباً، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي، وأنا أرى أنني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة؛ فانكسرت

سَاقِي، فَعَصَبْتُهَا بِعِمَامَةٍ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ حَتَّى جَلَسْتُ عَلَى الْبَابِ. فَقُلْتُ: لَا أَخْرُجُ
 اللَّيْلَةَ حَتَّى أَعْلَمَ أَقْتَلْتُهُ؟ فَلَمَّا صَاحَ الدِّيكُ قَامَ النَّاعِي عَلَى السُّورِ، فَقَالَ: أَنْعَى
 أَبَا رَافِعٍ تَاجِرَ أَهْلِ الْحِجَازِ، فَانْطَلَقْتُ إِلَى أَصْحَابِي، فَقُلْتُ: النَّجَاءُ فَقَدْ قَتَلَ اللَّهُ أَبَا
 رَافِعٍ. فَانْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَحَدَّثْتُهُ. فَقَالَ: ابْسُطْ رِجْلَكَ.
 فَبَسَطْتُ رِجْلِي؛ فَمَسَحَهَا، فَكَانَهَا لَمْ أَشْتِكْهَا قَطَّ»^(١). ففي سياق هذه القصة ما
 يدل على أهلية هذه الفرقة للعملية الخاصة التي قامت بها.

والثاني: قتل كعب بن الأشرف فعن عمرو قال: سَمِعْتُ جَابِرًا يَقُولُ: قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «مَنْ لَكَعَبُ بْنُ الْأَشْرَفِ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ». فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتَلَهُ قَالَ «نَعَمْ». قَالَ
 أَتَذْنُ لِي فَلَا قُلَّ قَالَ «قُلْ». فَاتَاهُ فَقَالَ لَهُ وَذَكَرَ مَا بَيْنَهُمَا وَقَالَ إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ
 أَرَادَ صَدَقَةً وَقَدْ عَنَانَا. فَلَمَّا سَمِعَهُ قَالَ: وَأَيْضًا وَاللَّهِ لَتَمْلَنَهُ. قَالَ إِنَّا قَدْ اتَّبَعْنَاهُ الْآنَ
 وَنَكَرَهُ أَنْ نَدَعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ أَمْرُهُ - قَالَ - وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ تُسَلِّفَنِي
 سَلْفًا قَالَ فَمَا تَرْهَنُنِي قَالَ: مَا تُرِيدُ؟ قَالَ: تَرْهَنُنِي نِسَاءَكُمْ. قَالَ: أَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ
 أَنْزَهْنُكَ نِسَاءَنَا! قَالَ لَهُ: تَرْهَنُونِي أَوْلَادَكُمْ. قَالَ: يُسِبُّ ابْنُ أَحَدِنَا؛ فَيُقَالُ: رُهْنٌ
 فِي وَسْقَيْنِ مِنْ تَمْرٍ؛ وَلَكِنْ نَرْهَنُكَ اللَّامَةَ - يَعْنِي السَّلَاحَ - قَالَ: فَنَعَمْ. وَوَاعَدَهُ
 أَنْ يَأْتِيَهُ بِالْحَارِثِ، وَأَبَى عَبْسُ بْنُ جَبْرِ، وَعَبَادُ بْنُ بَشْرٍ، قَالَ: فَجَاءُوا، فَدَعَوْهُ لَيْلًا،
 فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ. قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ غَيْرُ عَمْرٍو: قَالَتْ لَهُ أَمْرَأَتُهُ: إِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ
 صَوْتُ دَمٍ. قَالَ: إِنَّمَا هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَرَضِيْعُهُ، وَأَبُو نَائِلَةَ، إِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ
 دُعِيَ إِلَى طَعْنَةٍ لَيْلًا لَأَجَابَ. قَالَ مُحَمَّدٌ: إِنِّي إِذَا جَاءَ فَسَوْفَ أَمُدُّ يَدِي إِلَى رَأْسِهِ،
 فَإِذَا اسْتَمَكَّتْ مِنْهُ فِدُونُكُمْ. قَالَ: فَلَمَّا نَزَلَ نَزَلَ - وَهُوَ مُتَوَشِّحٌ - فَقَالُوا: نَجِدُ مِنْكَ
 رِيحَ الطَّيْبِ. قَالَ: نَعَمْ؛ تَحْتِي فُلَانَةٌ هِيَ أَعْطَرُ نِسَاءَ الْعَرَبِ. قَالَ: فَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَشُمَّ
 مِنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَشَّمَّ. فَتَنَاوَلَ فَشَّمَّ، ثُمَّ قَالَ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَعُودَ. قَالَ: فَاسْتَمَكَنَ مِنْ

١ - الصحيح، البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق، ٤ / ١٤٨٢ ح ٣٨١٣.

رَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: دُونَكُمْ. قَالَ فَقَتَلُوهُ»^(١).

المطلب الخامس: اعتماد معيار الجودة كأساس لتولي وظيفة المعلم.

العلم: أساس بناء المجتمعات، والمعلم: هو الباني الذي يتولى مهمة البناء، لذا وجدنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يختار لهذه الوظيفة خيرة أصحابه، وأعلمهم.

ففي مرحلة تأسيس الدولة بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مُصْعَبَ ابْنِ عُمَيْرِ بْنِ هَاشِمٍ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِيُقْرَأَهُمُ الْقُرْآنَ. وأرسل معه ابن أم مكتوم^(٢).

ثم بعد استقرار الدولة وتوسعها وطلب الداخلين في الإسلام من يعلمهم وجدنا النبي -صلى الله عليه وسلم- ينتقي جلة أصحابه. وروى أنس -رضي الله عنه-: «أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ، فَقَالُوا: ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا يَعْلَمُنَا السُّنَّةَ وَالْإِسْلَامَ، قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِ أَبِي عبيدةَ بْنِ الْجراحِ، فَقَالَ: هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ»^(٣)، وعنه رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالُوا: أَنْ ابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا؛ يَعْلَمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ -يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَاءُ- فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ؛ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ»^(٤).

١- الصحيح، مسلم، كتاب الجهاد والسير، بَابُ قَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ طَاغُوتِ الْيَهُودِ، ٣ / ١٤٢٥ ح ١٨٠١.

٢- ينظر: الصحيح، البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب باب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة، ٣/١٤٢٨ ح ٣٧١٠. والمصنف، عبد الرزاق الصنعاني، كتاب الجمعة، باب أول من جمع، ٣ / ١٦٠ ح ٥١٤٦.

٣- الصحيح، مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه ٤ / ١٨٨١ ح ٢٤١٩.

٤- الصحيح، مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت اللجنة للشهيد ٣ / ١٥٠٨ ح ٦٧٧.

المطلب السادس: اعتماد الجودة كأساس لتولي وظيفة أمانة السر.

تعد أمانة السر من الوظائف التي يحتاج إليها المسؤولون، وقد حظي بهذا الشرف عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه -؛ حتى عرف بصاحب السر. ففي حديث علقمة أنه قدم الشأم؛ فأتى المسجد؛ فصلى ركعتين، فقال: اللهم ارزقني جليسا. فقعد إلى أبي الدرداء. فقال: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة. قال: أليس فيكم صاحب السر الذي كان لا يعلمه غيره؟ يعني حذيفة - قال: قلت بلى...»^(١).

المطلب السابع: اعتماد معيار الجودة كأساس لتولي وظيفة المخابرات.

يكاد يكون جهاز المخابرات العامة اليوم هو الميزان الذي تقاس به القوة، وتتنافس الدول فيما بينها لتجنيد أكبر عدد لهذا الجهاز لجمع ما تحتاج إليه من معلومات عن خصومها وأعدائها لتعرف مواطن القوة والضعف لديهم، مع حرصها الشديد على انتقاء عناصر هذا الجهاز؛ لأن أي اختراق لهذا الجهاز يهدد أمن الدولة. وقد استفاد النبي - صلى الله عليه وسلم - من هذه الوظيفة في مرحلة مبكرة جدا، وانتقى لها عنصرا مستحقا لها. ففي حديث الهجرة تقول عائشة رضي الله عنها: «ثم لحق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر بغار في جبل ثور؛ فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر - وهو غلام، شاب، ثقف، لقن - فيدلج من عندهما بسحر؛ فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يكتادان به، إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام»^(٢).

وقد نصت رضي الله عنها على العناصر التي حققت معيار الجودة عند عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنه وهي: (غلام) (شاب) (ثقف) (لقن).

١ - الصحيح، البخاري كتاب المناقب، باب مناقب عمار وحذيفة رضي الله عنهما ٣ / ١٣٦٧ ح ٣٥٣٣.
٢ - الصحيح، البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ٣ / ١٤١٧ ح ٣٦٩٢.

وأعانه في هذه المهمة الشريفة عامر بن فهيرة - رضي الله عنه - قالت عائشة: «وَيَرَعَىٰ عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فَهَيْرَةَ مَوْلَىٰ أَبِي بَكْرٍ مَنَحَةً مِنْ غَنَمٍ؛ فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ؛ فَيَبِيتَانِ فِي رَسْلِ - وَهُوَ لَبَنٌ مَنَحْتَهُمَا وَرَضِيْفَهُمَا - حَتَّىٰ يَنْعَقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فَهَيْرَةَ بَغْلَسَ. يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ»^(١). وفي رواية: «فَكَانَ عَامِرُ بْنُ فَهَيْرَةَ غُلَامًا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الطَّفِيلِ بْنِ سَخْبَرَةَ، أَخُو عَائِشَةَ لِأُمَّهَا، وَكَانَتْ لِأَبِي بَكْرٍ مَنَحَةً؛ فَكَانَ يَرُوحُ بِهَا، وَيَعْدُو عَلَيْهِمْ، وَيُصْبِحُ؛ فَيَدْلِجُ إِلَيْهِمَا، ثُمَّ يَسْرَحُ فَلَا يَفْطَنُ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الرِّعَاءِ، فَلَمَّا خَرَجَ، خَرَجَ مَعَهُمَا يُعْقَبَانِهِ، حَتَّىٰ قَدَمَا الْمَدِينَةَ»^(٢).

وقام بهذا الدور الاستخباراتي في مهمة خاصة صاحب السر حذيفة رضي الله عنه فيما رواه يزيد بن شريك - رحمه الله - قال: «كُنَّا عِنْدَ حُذَيْفَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قَاتَلْتُ مَعَهُ وَأَبْلَيْتُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنْتَ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَأَخَذْتُنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكْتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكْتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَسَكْتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَقَالَ: قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَاتُّنِّبْنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي إِلَّا أَنْ أَقَوْمَ، قَالَ: اذْهَبْ، فَاتُّنِّبْنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذَعْرَهُمْ عَلَيَّ، فَلَمَّا وَاكَيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّىٰ أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سَفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَا تَذَعْرَهُمْ عَلَيَّ، وَلَوْ رَمَيْتَهُ لِأَصَبْتَهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي

١ - الصحيح، البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ١٤١٧ / ٣ ح ٣٦٩٢.

٢ - الصحيح، البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورغل وذكوان وبنر معونة ٤ / ١٥٠٢ ح ٣٨٦٦.

في مثل الحمام، فلما أتته، فأخبرته خبر القوم، وفرغت، قررت فألبسني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من فضل عبادة كانت عليه يُصلي فيها. فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: قم يا نومان»^(١).

المطلب الثامن: اعتماد معيار الجودة كأساس لتولي وظيفة الإرشاد (الدليل السياحي)

يحتاج الناس إلى من يرشدهم ويدلهم على أفضل الطرق؛ ليأمنوا على أنفسهم تارة، ويختصروا الوقت تارة أخرى، وليحققوا مآرب أخرى، وقد وجد اليوم وظائف ووزارات لتلبية هذه الحاجة، وقد اعتمد النبي - صلى الله عليه وسلم - معيار الجودة في ذلك عند اختياره لمن يقوم بهذه الوظيفة في مرحلة حرجة وهي الهجرة الشريفة. تقول عائشة - رضي الله عنها -: «وَأَسْتَأْجِرُ رَسُولَ اللَّهِ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدَّيْلِ - وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خَرِيَّتًا - وَالْخَرِيْتُ الْمَاهِرُ بِالْهَدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ - وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قَرَيْشٍ -، فَأَمَّنَاهُ؛ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ، وَأَنْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالِدِ لِيُفَاقَهُمْ بِطَرِيقِ السَّوَاحِلِ»^(٢).

ويعلق الشيخ عطية محمد سالم على ذلك فيقول: «وهنا شرف الكلمة، وأمانة الأجير: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، فهذا مشرك على دين قومه، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن ينتقل خفية من قومه، ومع ذلك يأتمنه؛ لما عرف عنه من الأمانة، فأعطاه أبو بكر راحلتين، وواعده الغار بعد ثلاثة أيام، فجاء على الموعد، فدلهم على الطريق، ويختلف الناس بعد

١ - الصحيح، مسلم، كتاب الجهاد والسير، بابُ غَزْوَةِ الْأَخْزَابِ ٣ / ١٤١٤ ح ١٧٨٨.
٢ - الصحيح، البخاري، كتاب فضائل الصحابة، بابُ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ٣ / ١٤١٧ ح ٣٦٩٢.

ذلك: هل أسلم أو لم يسلم؟ و ابن حجر يرجح أنه أسلم بعد هذا.

يهمنا أنه عند العقد كان مشركاً، ولهذا يقول والدنا الشيخ الأمين -رحمة الله تعالى علينا وعليه- في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، يقول: التدبر في آيات كتاب الله والعمل بها تقتضيها أن نأخذ بالصناعات والفنون والعلوم ولو من غير المسلمين ما دام في ذلك خدمة لديننا، ولا تتعارض مع الدين في شيء، وذكر الطبيب غير المسلم، والفنيين أو أرباب الصناعات أو غير ذلك مما المسلمون بحاجة إليهم»^(١).

١- شرح بلوغ المرام للشيخ عطية محمد سالم ٢٢٠ / ١١، بترقيم المكتبة الشاملة آليا وهو عبارة عن أشرطة مفرغة.

الخاتمة

- ١- اختلاف جوهر مفهوم الجودة بين المنظور الإسلامي والمؤسسات المعاصرة التي اعتنت بهذا الموضوع، فبينما يحرص الإسلام على إتقان العمل بأحسن صورته، نجد ذلك غير لازم في المفاهيم المعاصرة إنما هي مجموعة معايير متى تحققت اعتمدت الجودة.
- ٢- سبق النظام الإسلامي غيره من الأنظمة في اعتماده معيار الجودة، ووضعه الأسس الواجب تحقيقها في كثير من الوظائف تصرّيحاً أو تلميحاً.
- ٣- اهتم الإسلام بمعيار الجودة، وحث عليه، وحذر من إهماله، ونقاه مما قد يؤثر فيه، وقدمه على القرابة والنسب وأعلاه على سائر العلاقات.
- ٤- ألغى الإسلام الفوارق الطبقيّة تماماً أمام معيار الجودة؛ فركز على تحقق معيار الجودة وطبيعة الوظيفة، لذا وجدناه يسند العمل لغير المسلم، وللعبد، وللأنثى، وللصغير، متى حقق معيار الجودة.
- ٥- انتقاء الشخص الذي تحقق فيه معيار الجودة جاء بناء على معرفة تامة وخبرة، ولم يؤثر فيه الإشاعة والإرجاف والتشكيك.
- ٦- لم يقصر الإسلام تحقيق إتقان العمل بتوفير معيار الجودة في العامل؛ بل أضاف إليه عاملاً آخرًا- تهمله النظم الوضعية؛ بل تنكره- ألا وهو التذكير بالله ترغيباً وترهيباً؛ لضمان خروج العمل بأحسن صورته.
- ٧- اعتمد الإسلام معيار الجودة كأساس لتولي جميع الوظائف على اختلاف قدرها، من الإمامة العظمى وحتى أصغر مهمة.
- ٨- تنوعت الوظائف المتعلقة بالعبادات في العهد النبوي كالمؤذن، والإمام،

ووالي الزكاة، وأمير الحج... وأسندت جميعها بناء على تحقق معيار الجودة في الموظف.

٩- اعتمد الإسلام المعيار المناسب لتحقيق الجودة في كل وظيفة في مجال العبادات: فمعيار وظيفة المؤذن كامن في الصوت: نداوة وطول نفس، ومعيار وظيفة إمامة الصلاة كامن في إتقان قراءة القرآن، ومعيار وظيفة والي الزكاة كامن في الأمانة ومعرفة الناس، ومعيار وظيفة إمارة الحج كامن في الفقه والحكمة في التعامل.

١٠- تنوعت الوظائف المتعلقة بالمعاملات في العهد النبوي كالإمامة العظمى، وكتابة الدستور، وقيادة الجيش،... الخ وأسندت جميعها بناء على تحقق معيار الجودة في الموظف.

١١- اعتمد الإسلام المعيار المناسب لتحقيق الجودة في كل وظيفة في مجال المعاملات: فمعيار وظيفة الإمامة العظمى كامن في القدرة على إقامة شرع الله في الأرض، ومعيار وظيفة جمع الدستور كامن في الخبرة فيه مع القدرة الجسدية والأمانة، ومعيار وظيفة قيادة الجيش كامن في القدرة على تحقيق النصر ونجاء الجيش، ومعيار وظيفة المخابرات العامة والمهمات الخاصة كامن في القدرة على كتمان السر، وتحقيق الهدف المحدد، ومعيار وظيفة الدليل السياحي كامن في الخبرة بالطرق والأماكن مع الأمانة، ومعيار وظيفة المعلم كامن في القدرة على التعليم وإيصال المعلومة.

المصادر والمراجع

- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني المصري، أبو العباس، شهاب الدين (ت: ٩٢٣هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط: ٧، ١٣٢٣ هـ.
- إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تقى الدين أحمد بن علي المقرئ (م ٨٤٥)، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من تحقيقين، دار الهداية.
- تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد بن علي رضا (ت: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.
- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وأسرار التأويل)، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت ٧١٠هـ)، تحقيق الشيخ: مروان محمد الشعار، دار الفانس بيروت.
- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ. ١٩٨٩ م.
- الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦ هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: ١، ١٤٢٢ هـ.
- جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم، الأندلسي، الظاهري (ت: ٤٥٦ هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار المعارف - مصر، ط: ١، ١٩٠٠ م.
- دلائل النبوة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوِجْردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨ هـ)، تحقيق: الدكتور / عبد المعطى قلعجي، دار الكتب العلمية ودار الريان للتراث، ط: ١، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.
- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (ت: ١٠٥٧ هـ)، اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط: ٤، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد ابن عمرو الأزدي السُّجِسْتَانِي (ت: ٢٧٥ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
- السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد (ت: ٢١٣ هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجليل - بيروت، ط: ١، ١٤١١ هـ.
- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوِجْردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨ هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه:

الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريره أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط: ١، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

- صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري (ت ٣١١هـ)، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

- صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي - بيروت.

- صحيح أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠هـ)، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط ١، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

- الصواعق المحرقة على أهل الرافض والضلال والزندقة، أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن علي، ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٣)، تحقيق: عبدالرحمن ابن عبدالله التركي وكامل محمد الخراط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.

- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد أبو عبد الله البصري (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط: ١، ١٩٦٨ م.

- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل

العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢ هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي وقام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ هـ.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب بن الحسن، السّلامي، البغدادي، ثمّ الدمشقي، الحنبلي (ت: ٧٩٥ هـ)، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرون، مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية. ط: ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

- فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١ هـ)، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ط: ١، ١٣٥٦ هـ.

- كشف المشكل من حديث الصحيحين، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٧١ هـ)، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن - الرياض، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت: ٧١١ هـ)، دار صادر - بيروت، ط ٣، ١٤١٤ هـ.

- المسند، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١ هـ)، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب - بيروت، الطبعة: ١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١ هـ)،

- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: ٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي - الهند (المكتب الإسلامي - بيروت)، ط: الثانية، ١٤٠٣هـ.
- معالم السنن (وهو شرح سنن أبي داود)، أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي البستي (٢٨٨ هـ)، المطبعة العلمية - حلب، ط ١، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط: ١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م.
- المفهم لما أشكل من كتاب تلخيص مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محي الدين ديب مستو وآخرون، دار ابن كثير - دار الكلم الطيب، الطبعة: الأولى ١٩٩٦ - ١٤١٧.
- موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي (ت ١٧٩ هـ)، تحقيق: د. تقي الدين الندوي، دار القلم - دمشق، الطبعة: الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩١ م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦ هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م.

الشبكة العنكبوتية:

- بوابة كنانة أون لاین أحمد الكردي / <http://kenanaonline.com> / ahmedkord . تاريخ الزيارة الاثني ١٦-٧-٢٠١٢ م الساعة السابعة صباحا.

- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، <http://ar.wikipedia.org>، تاريخ الزيارة الأربعاء ٢٣-١-٢٠١٣ م الساعة الحادية عشر صباحا.

الأبحاث:

- بحث: «الجودة الشاملة ونظم الإعتماد الأكاديمي في الجامعات في ضوء المعايير الدولية» د. عماد الدين شعبان على حسن، ص ١١-١٢. منشور في الشبكة العنكبوتية على الرابط التالي: <http://faculty.ksu.edu.sa> / alisaad تاريخ الزيارة الاثني ١٦-٧-٢٠١٢ م الساعة الواحدة ظهرا.

التحفيز المادي وأثره في صناعة التميز
وتنمية المهارات في ضوء السنة النبوية

د. محمد زهير عبد الله المحمّد
جامعة طيبة - السعودية

من أبرز فقرات البحث

«التحفيز المادي له اعتبار في الشرع لا ينكر، فقد أظهرت السنة النبوية مرونة وتنوعاً في التعامل مع فئات المجتمع المختلفة، فاستخدمت المكافأة المادية لمن لا يكفيه المدح والثناء. وقد رسخ النبي صلى الله عليه وسلم مفهوماً متطوراً للقيادة؛ ذلك المفهوم الذي ينوع من التحفيز تنوع احتياجات من يقودهم، فيعرف ما يؤثر فيهم ويزيد من مهاراتهم المختلفة، فكانت الترقيات، والمنح المالية، والرعاية الأسرية الشاملة، وغيرها من أساليب التحفيز المادي ذات الأثر البالغ في التقدم والتطور لدى فئات مختلفة ممن تربوا في المدرسة النبوية».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله جلّ جلاله، والصلاة والسلام على محمد وصحبه وآله، ومن دعا بدعوته، واستنّ بسنته، وبعد،،،

فإنّ الله سبحانه وتعالى شرف هذه الأمة بالتميّز على غيرها من الأمم، وجعل نبيّها خاتم الأنبياء والرسل، وأراد سبحانه وتعالى من عباده أن يكونوا متميزين في عقائدهم وثقافتهم وسلوكهم، وجعل ذلك ديناً وعبادة يثيب عليها.

والتميّز له دوافع وحوافز، لا بدّ من معرفتها، والوقوف عندها، ولذا رغبت في البحث في هذا الأمر، ووقع الاختيار على عنوان «التحفيز المادي وأثره في صناعة التميز وتنمية المهارات في ضوء السنة النبوية».

وتظهر أهمية موضوع البحث من خلال ما يأتي:

- بيان أهمية التحفيز المادي ومرتبته، ودوره المهم في دفع الإنسان نحو التميز.
- نحن نعيش في عصر أصبح البقاء فيه للمتميزين، ولذا أرجو من هذه الدراسة أن تشكل دافعا قويا نحو التميز لكونها مستفادة من هدي نبينا -صلى الله عليه وسلم-.
- نأمل أن يسهم هذا البحث -إن شاء الله تعالى- في إضافة علمية جديدة في جانب مهم من جوانب الحياة.

ونهدف من هذا البحث أن نحقق الآتي:

- التأصيل الشرعي للتحفيز المادي من السنة، وجمع - ما أمكن - من الأحاديث الصحيحة الواردة فيه.
- استنباط الأحكام والفوائد المتعلقة بالتحفيز المادي ومباحثه، ودفع ما أثير من شبهات حوله.

ومن خلال التتبع والسؤال لم أقف على بحث علمي، أو كتاب يتصل بموضوع بحثي، إلا على رسالة بعنوان: «التميز في ضوء السنة النبوية دراسة موضوعية»، وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، للباحثة مها سليمان أبو نمر، من الجامعة الإسلامية - غزة.

ولا يتصل ببحثي من رسالتها إلا مطلب واحد، هو المطلب الثاني من المبحث الثاني في الفصل الثاني، بعنوان: المكافأة المادية، وجاء في ثلاث صفحات؛ ذَكَرْتُ فيها ثلاثة أمثلة فقط على المكافأة المادية، وهي: المكافأة بزيادة الغنيمة، والمكافأة بقميص، والمكافأة بعباءة، جاءت لها بأحاديث ثلاث لم تنل نصيبها من التحليل أو الشرح لها، ولم يخل المثال المتعلق بالقميص من التكلف الواضح. مما يبقى موضوع التحفيز المادي بحاجة ماسة إلى البحث والتوسع فيه وبيان أطرافه وجوانبه.

المبحث الأول: مفهوم التحفيز المادي، وأهميته.

المطلب الأول: مفهوم التحفيز المادي في اللغة والاصطلاح.

أولاً: التحفيز لغة:

أصل ابن فارس معنى (الحَفَز) في اللغة بقوله: «الحاء والفاء والزاي، كلمة

واحدة تدلّ على الحثّ وما قرب منه»^(١).

وتكاد تتفق المعاجم وكتب اللغة على أنّ الحفز هو الحثّ والإعجال، فيقال: «حفزه إلى الأمر: أعجله وحثّه عليه»^(٢). والحفزُ أيضاً: حثُّك الشيء من خلفه، سوِّقاً وغير سوِّق، ويقال: حَفَزَهُ يَحْفِزُهُ حَفْزاً^(٣).

ومن كلام أهل اللغة تستنتج أنّ التحفيز يأتي بمعنيين: الأول: كل ما يعجل ويحثّ على فعل ما. والثاني: حث الشيء ودفعه من خلفه.

وأما الشقّ الآخر من العنوان؛ المادي، فهو خلاف المعنوي^(٤)، وبالتالي فالتحفيز المادي في اللغة: هو كل مقابل مادي يدفع ويحث على فعل ما، أو تحقيق هدف ما. أو كل مقابل مادي يدفع نحو التقدم؛ لأنّ دفع الشيء وحثّه من خلفه - كما ورد في معنى الحفز - يشير إلى حثّه على التقدم إلى الأمام.

ثانياً: التحفيز اصطلاحاً:

تعددت تعريفات التحفيز من قبل العلماء والباحثين، على حسب اجتهادهم ورؤاهم:

فيرى الدكتور الفقي أنّ التحفيز: «هو مولد النشاط والفاعلية في العمل، وهو من الطرق النشطة للحصول على أفضل ما لدى الغير، سواء كان ذلك يتعلق بالأمور المادية أو المعنوية»^(٥).

بينما يرى غيره أنّ التحفيز هو الشعور الداخلي لدى الفرد الذي يولد

- ١- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج ٢، ص ٨٥.
- ٢- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، ج ١٥، ص ١١١. ولسان العرب، ج ٥، ص ٣٣٧، والمعجم الوسيط، ج ١، ص ١٨٤.
- ٣- لسان العرب، ابن منظور، حفز، ج ٥، ص ٣٣٧.
- ٤- المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٦٣٣.
- ٥- قوة التحفيز، ابراهيم الفقي، ص ٥.

فيه الرغبة لاتخاذ نشاط أو سلوك معين يهدف منه الوصول إلى تحقيق أهداف معينة»^(١).

وذهب عالم النفس في الإدارة إيجرت إلى أن التحفيز هو: «العملية التي تشجع وتوجه السلوك»^(٢).

وهناك من يتوسع قليلا في معنى التحفيز، فيرى ستيرز ومورتر أن التحفيز دفع الفرد لاتخاذ سلوك معين أو إيقافه أو تغييره^(٣). وهذا التعريف مبني على أن التحفيز إما ايجابي يدفع نحو سلوك معين، أو سلبي يدفع نحو تغيير سلوك أو إيقافه.

ويرى الهيتي أن التحفيز هو إدراك واستقبال للمؤثر الخارجي وتوجيهه نحو عملية الدفع الايجابي أو السلبي اعتمادا على طبيعة الإدراك والفهم لطبيعة المؤثر الخارجي من ناحية الفرد^(٤).

واما الحوافز فلها ارتباط وثيق بمفهوم التحفيز فهي الوسائل المادية والمعنوية المتاحة لاشباع الحاجات والرغبات المادية والمعنوية للأفراد^(٥).

وهذه التعريفات وإن اختلفت في صياغتها فإنها تكاد تلتقي في أن التحفيز هو كل ما يولد الرغبة في فعل معين أو سلوك معين ماديا كان أم معنويا، وهذا المعنى لا يختلف كثيرا عن المعنى اللغوي.

وساقتصر في هذا البحث على التحفيز المادي دون غيره، وهو: كل ما يولد الرغبة في فعل معين من وسائل مادية.

- ١- إدارة الموارد البشرية، عبد القادر علاقي، ص ٤٧٦.
- ٢- التحفيز، ماكس إيه إيجرت، ص ١.
- ٣- إدارة الموارد البشرية، علاقي، ص ٤٧٦.
- ٤- (إدارة الموارد البشرية، خالد عبد الرحيم الهيتي، ص ٢٥٥.
- ٥- السلوك التنظيمي، محمد قاسم القريوتي، ص ٣٠١.

ثالثاً: هل التحفيز يكون قبل القيام بالفعل أو بعده؟

الذي يفهم من كلام أهل اللغة والاصطلاح أنّ التحفيز يكون قبل الفعل، بقصد التشجيع على فعله، لكن ظهر لي من خلال الأمثلة التي وقفت عليها من السنة أنّ التحفيز حصل قبل الفعل، وحصل بعده، وبمعنى آخر وجدت أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يحثُّ الصحابة على بعض الأمور ويحفزهم عليها مادياً؛ ليحمسهم على القيام بها، وأيضاً وجدت من خلال أمثلة أخرى أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- كافأ الصحابة على قيامهم ببعض الأفعال التي أمرهم بها عندما أحسنوا القيام بها واتقنوها، أو تميزوا عن غيرهم بفعلها كما سيتضح من خلال صور التحفيز ومجالاته، وتلك المكافآت المادية مهما كان نوعها ومقدارها كانت نوعاً من التحفيز، ودفعاً للثبات على التميز؛ إذ الإنسان عندما يكافأ على تميزه تزداد ثقته بنفسه ويثبت على تميزه، وقد يسعى لتطوير نفسه، بخلاف من يؤدي عملاً متميزاً ولا يكافأ، فيمكن أن يصاب بالإحباط، والناس في ذلك متفاوتون بحسب إيمانهم، وصبرهم، وثقافتهم.

ويقول في هذا المعنى (جون فيشر): إنه «ليس ثمة حافز دون الاعتراف بالتميز، وليس ثمة تميز دون تقديم حافز، في الحالة الأولى تضييع المنظمة على نفسها فرصة عظيمة بعدم الدعاية للمكافأة أثناء منحها للعاملين، وفي الحالة الثانية ليس من المنطقي الاعتراف بالأداء الجيد دون مكافأته»^(١).

رابعاً: ألفاظ ذات صلة بلفظ التحفيز: الهدية والهبة، والجائزة والعطية.

حتى يتضح معنى التحفيز لا بدّ من بيان علاقته ببعض الألفاظ التي قد تبدو مشابهة له في المعنى، ومنها الهبة والهدية.

ذكر أهل اللغة أنّ الهدية ما يتقرب به المهدي إلى المهدي إليه، وليس كذلك

١- كيف تصنع نظاماً للحوافز والمكافآت، ص ١٧٩.

الهبة، ولهذا لا يجوز أن يقال: إنَّ الله يهدي إلى العبد كما يقال: إنَّه يهب له، وقال تعالى: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥). وتقول: أهدى المرؤوس إلى الرئيس، ووهب الرئيس للمرؤوس^(١).

والهبة: العطية الخالية من الأغراض والأعراض^(٢).

وأما الجائزة والعطية: فالجائزة ما يعطاه المادح وغيره على سبيل الإكرام ولا يكون إلا ممن هو أعلى من المعطي.

والعطية عامة في جميع ذلك^(٣)، بمعنى كل ما سبق من ألفاظ يطلق عليه عطية، ويتمايز بعضها عن بعض بمعان مختلفة.

وأما عن العلاقة بين الألفاظ المذكورة والتحفيز المادي، هو أنَّ التحفيز يتضمن حوافز مادية، سواء أكانت مبالغ مالية، أم نقدية، لكن يكون القصد منه حثَّ من تعطى له على فعل أو قول، بخلاف الهدية التي لا يقصد منها ذلك، وإنما يقصد منها التقرب من المهدي إليه أو إعظامه، وكذلك الهبة تفترق على أنَّها مجرد عطاء أو تبرع لا يقصد منه التقرب كما في الهدية، ولا يقصد منه أيضاً حثَّ من أعطيت له على فعل أو قول كما في الحوافز، بينما الجوائز نوع من الحوافز، وتشارك جميعها في كونها عطية.

المطلب الثاني: أهمية التحفيز المادي في السنة النبوية.

ورد في القرآن الكريم، ما يبين طبيعة الإنسان من ميله إلى حب المال، فقال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (الفجر: ٢٠).

والناظر في القرآن الكريم يجد أنَّ الله - سبحانه وتعالى - أمر المسلم بالتوازن

١- الفروق اللغوية، العسكري، ص ١٦٧، ص ١٦٨.

٢- تاج العروس، الزبيدي، ج ٤، ص ٣٦٥.

٣- الفروق اللغوية، العسكري، ص ١٧٢.

في حياته، فرغبه أشدَّ الترغيب وحثه اشدَّ الحثُّ على طلب الآخرة وما يوصل إليها، وفي الوقت ذاته رغبه ألاَّ ينسى نصيبه من الدنيا مما يعينه على آخرته، ومن ثمَّ رغبه في الجمع بين جانبين: الجانب الروحي والجانب المادي، وبهما يصل إلى رضى ربه. قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾. (القصص: ٧٧).

ومن هنا فإنَّ الاهتمام بالجانب المادي له أصل وأهمية، ولا يمكن إغفاله أو إنكاره، ومن ثمَّ فإنَّ التحفيز ينبغي أن يكون مساره باتجاه ما دعا القرآن إليه، وهو التركيز على الجانب الأخروي والروحي، وعدم إغفال الجانب الدنيوي والمادي. وأما عن التحفيز المادي الذي يقابل التحفيز المعنوي، فتظهر أهميته في السنة النبوية، من خلال ما يأتي:

أولاً: ظهور حالات لا ينفع معها إلا التحفيز المادي: ومن هنا تظهر أهميته للحاجة إليه، ذلك أنَّ الحوافز وأساليب إثارة الحماس تنبع من داخل عقول وقلوب الآخرين، وحيث إنه لن يكون باستطاعتنا أبداً الدخول إلى عقول وقلوب الآخرين فإننا سنظلُّ دائماً ندور حولهم في مدار خارجي^(١).

وكانت أهمية التحفيز المادي في العمل ماثراً جدل عبر الزمن، فكانت بعض النظريات تقول بأهميته وبعضها تنفي أو تقلل من أهميته؛ فالمدرسة التقليدية - التي ظهرت في القرن التاسع عشر من خلال المهندس الأمريكي «فريدريك تايلور» ومن تبعه من تلاميذه - ترى أنَّ الحوافز المادية هي الأساس لحفز الأفراد، وأنها لا تمنح إلا للمتميز، وعلى أساس الإنتاج، أما مدرسة العلاقات الإنسانية من خلال (التون مايو) وزملائه - في مصانع هاوتورن - شيكاغو - فقد نظرت إلى الإنسان

١ - قوة التحفيز، إبراهيم الفقي، ص ٦.

على أنه مخلوق له مشاعر وأحاسيس يعمل في ظل جماعات، فتنوعت الحوافز عندهم إلى مادية ومعنوية. وترى كثير من نظريات الإدارة الحديثة أن ما يعطى للأفراد من حوافز مادية ومعنوية يكون على حسب مستويات الأداء، لا المساواة بين الأفراد، وينظر إلى التميز على خلاف ما رأَت النظريات السابقة^(١).

وقد ظهر هذا النوع من التحفيز في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وأكثر ما ظهر في المؤلفة قلوبهم، حيث أعطاهم النبي - صلى الله عليه وسلم ما أعطاهم من غنائم حنين، ونحتاج هنا إلى أن نفهم طبيعة هذا الأمر بشكل صحيح، فقد تثار حوله شبهة، تتلخص في الطعن في صدق أولئك الذين أخذوا مالا على دخولهم الإسلام، وقد قال فيهم عليه الصلاة والسلام: «إِنِّي أُعْطِي قُرَيْشًا أَتَأَلَّفُهُمْ؛ لِأَنَّهَمْ حَدِيثٌ عَهْدٌ بِجَاهِلِيَّةٍ»^(٢). وقد ورد على لسان بعضهم أنه قال: (أَيُّ قَوْمٍ، أَسْلَمُوا فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لِيُعْطَى عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ. فَقَالَ أَنَسٌ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيُسَلِّمَ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسَلِّمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا)^(٣).

ويجاب عن ذلك بما يأتي:

أ- كان مقصد النبي - صلى الله عليه وسلم من إعطاء أولئك الداخلين في الإسلام أول ما دخلوا هو تحفيزهم على الثبات على الإسلام، خاصة أنهم يحبون المال ويرغبون فيه. وقد ذكر القرطبي أن: «مقصود أنس من الحديث: أن الرجل كان يدخل في دين الإسلام رغبة في كثرة العطاء، فلا يزال يُعْطَى حتى ينشرح صدره للإسلام، ويستقر فيه، ويتنور بأنواره، حتى يكون

١- الحوافز وأثرها على العمال، مبارك بن علي الخراز، ص ١٥٠. وأحمد صقر عاشور، السلوك الانساني في المنظمات، ص ١٥١.

٢- صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي الْمَوْلَةَ قُلُوبَهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْخُمْسِ وَنَحْوِهِ، ح ٣١٤٦، ج ٤، ص ١١٤.

٣- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا ٢٣١٢، ج ٤، ص ١٨٠٦.

الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها، كما صرح بذلك صفوان حيث قال: والله لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ. وهكذا اتفق لمعظم المؤلفات «(١)».

ب- ثبت أن أولئك الذين أخذوا العطاء للثبات على الإسلام طلبوا الدنيا في بادئ أمرهم؛ لعدم معرفتهم بحقيقة الدين، فلما عرفوه وتمكن الإيمان في قلوبهم استغنوا عن حقوقهم من بيت المال.

فقد نقل ابن بطل عن المهلب أنه قال: «قال المهلب: وكان حكيم ممن استؤلف بالمال؛ لأنه كان يحب المال». وقال ابن الجوزي: «قد كان حكيم بن حزام يعد من المؤلفات قلوبهم ثم استقر الإيمان في قلبه فصار أثبت من الجبال فكان لا يأخذ حقه من بيت المال لا من أبي بكر ولا من عمر» (٢).

وعن ابن شهاب قال: «غزا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غزوة الفتح فتح مكة ثم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمن معه من المسلمين فاقْتَلُوا بِحَيْنٍ، فَصَرَ اللَّهُ دِينَهُ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - يَوْمَئِذٍ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ مِائَةَ مِنَ النِّعَمِ، ثُمَّ مِائَةَ، ثُمَّ مِائَةَ. قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ أَنَّ صَفْوَانَ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ» (٣).

١- المفهم، القرطبي، ج ١٩، ص ٣٨.

٢- شرح صحيح البخاري، ابن بطل، ج ٥، ص ٣١٩. كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، ج ١، ص ٣.

٣- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لَا، ج ٦١٦٢، ص ٧، ج ٧٥.

وهذا الأمر قد نستخدمه في حياتنا مع أولادنا عندما نعهده بجائزة إن كان تحصيله جيداً، أو نقدم له هدية لتكون له حافزاً في نشاطه أو دراسته.

ج- كان أغلب المؤلفات لقلوبهم من السادة المطاعين في أقوامهم^(١)، وكان الهدف من إعطائهم كسب أتباعهم وأقوامهم، وهذا يصبُّ في مصلحة المسلمين، إضافة إلى أنَّ أولئك المؤلفات لقلوبهم ورد ما يفيد تمكن الإيمان في قلوبهم بعد معرفتهم بحقيقة الإسلام.

ونقل عن الإمام الشافعي - رحمه الله - قوله: «المؤلفات لقلوبهم من دخل في الإسلام، ولا يعطى مشرك يتألف على الإسلام»^(٢). وقد مال ابن حجر إلى «أنهم من أسلم ونيته ضعيفة أو كان يتوقع بإعطائه إسلام نظرائه»^(٣).

وعلى كلِّ استفاد من ذلك أنَّ التعامل مع الناس يكون على حسب أطباعهم وما جبلوا عليه، وحال أولئك الناس من حبهم للمال ونظرتهم المادية هو الذي أوجب إعطائهم المال لكي يسلموا، فهم من ضعف الإيمان والتردد ما جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يعطيهم ليحفزهم على الثبات على الإيمان، ويحفز غيرهم ممن لم يدخل بعد، استجلاباً لقلوبهم وأيضاً استجلاباً لقلوب أتباعهم الذين كانوا يرضون إذا رضي أتباعهم، وأما من امتلأ قلبه بالإيمان فوكله إلى إيمانه، كما ذكر ابن القيم^(٤).

ثانياً: ظهر أنَّ أهمية الحوافز المادية تزداد كلما ضعف الإيمان، لأنَّ النظرة المادية غالباً ما تسيطر على ضعيف الإيمان، وتقل أهميتها كلما قوي الإيمان في النفوس كما دلَّ عليه حديث المؤلفات لقلوبهم.

١- المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ابن قدامة، ج ٧، ص ٣١٩.

٢- شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ج ٣، ص ٥٤٧.

٣- فتح الباري، ابن حجر، ج ٦، ص ٢٥٢.

٤- فتح الباري، ابن حجر، ج ٨، ص ٤٩.

ثالثاً: تزداد أهمية التحفيز المادي أيضاً في المواقف الخطيرة والعظيمة حتى لو كان إيمان الشخص المحفز قوياً، وهذا سيظهر في بعض الأمثلة المذكورة في صور التحفيز المادي. وكما يذكر الدكتور الفقي أن المال يعدُّ من أكثر الأمثلة الملموسة على العوامل المحفزة المقبولة من الناحية الاجتماعية، وأيضاً يعد من أسهل عوامل التحفيز من حيث القدرة على تقديره والتعبير عنه^(١).

رابعاً: تنبع أهمية التحفيز المادي من أثره، ومن أهمها تحقيق رضا الإنسان من خلال إعطائه حوافز مادية، ما يكون له دور في التميز في العمل، وتحقيق الأهداف المبتغاة منه، وستظهر لنا في المبحث الأخير تلك الآثار الخطيرة والعظيمة المترتبة على التحفيز المادي ما يجعل الاهتمام به ومراعاته أمراً ملحاً وضرورياً.

المبحث الثاني: صور التحفيز المادي، وأسبابه، وصفات المشمولين به في السنة النبوية.

المطلب الأول: صور التحفيز المادي.

لا بدّ أن أشير هنا إلى أنّ أشكال التحفيز المادي وصوره في التطبيقات المعاصرة كثيرة، ولا شك أنّ الصور تغيرت وتطورت عبر الزمان، وأصبحت هناك نظريات، تختلف من مؤسسة إلى مؤسسة ومن شركة إلى شركة، وسأقتصر في بحثي على ما وجدته من صور في السنة النبوية، حتى نستطيع أن نوظف هذا الأسلوب في التعامل مع الناس أحسن توظيف، وأيضاً لنقتدي بنبينا -صلى الله عليه وسلم- الذي لا ينطق عن الهوى، ويعلم مداخل النفوس وطبيعتها وما يؤثر فيها في موقف دون آخر، فأحياناً يكون التحفيز المعنوي هو الأفضل، وأحياناً التحفيز المادي هو الأفضل، وأحياناً يجتمع الاثنان، وهذا يعتمد على الشخص، وأيضاً يعتمد على طبيعة الموقف ومجاله، ومن هنا كان لا بدّ من إلقاء الضوء على هذا الأمر على النحو الآتي:

١ - قوة التحفيز، إبراهيم الفقي، ص٦، ص٧ «بتصرف».

أولاً: زيادة أسهم الغنيمة: وقد ورد في ذلك ما حدث به سلمة بن الأكوع رضي الله عنه - أن بعض المشركين أغاروا على إبل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقتلوا راعيها، فما أن علم سلمة بن الأكوع حتى لحق بهم وحده، فما زال يرميهم ويقتل منهم حتى استنقذ جميع إبل رسول الله منهم، وكان مما قاله: «فَمَا زَلْتُ كَذَلِكَ أَتْبَعُهُمْ حَتَّى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ بَعِيرٍ مِنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا خَلَفْتُهُ وَرَاءَ ظَهْرِي، وَخَلَوُا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، ثُمَّ أَتَبَعْتُهُمْ أَرْمِيهِمْ حَتَّى أَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ بُرْدَةً، وَثَلَاثِينَ رُمْحًا، يَسْتَخْفُونَ وَلَا يَطْرَحُونَ شَيْئًا إِلَّا جَعَلْتُ عَلَيْهِ آرَامًا مِنَ الْحِجَارَةِ يَعْرِفُهَا رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابُهُ». ثم لما علم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما فعله سلمة بن الأكوع قال: «كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ، وَخَيْرَ رَجَالِنَا»^(١) سلمة، قال: ثم أعطاني رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سهمين: سهم الفارس وسهم الرّاجل، فجمعتهما لي جميعاً، ثم أردفني رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وراءه على العُضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ»^(٢).

ونلاحظ في الحديث أن النبي - عليه الصلاة والسلام - جمع لسلمة بن الأكوع رضي الله عنه - نوعين من التحفيز: التحفيز المعنوي: بالثناء عليه، وإردافه خلفه على ناقته، والتحفيز المادي: والذي تمثل في إعطاء النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إيه سهمين: سهم الفارس، وسهم الرّاجل، أما سهم الرّاجل فحقه؛ لأنّه كان راجلاً، وأما سهم الفارس؛ فكما قال القاضي عياض: «فلغناؤه ما لا يغنيه فوارس عدة»^(٣).

١ - الرَّاجِلُ ضد الفارس، والجمع رَجُلٌ كصاحب وصحب، وَرَجَالَةٌ، وَرُجَالٌ، بتشديد الجيم فيهما. مختار الصحاح، الرازي، باب الرء، رجل، ص ٢٦٧.

٢ - صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها، ح ١٨٠٧، ج ٣، ص ١٤٣٣.

٣ - إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، عياض، ج ٦، ص ١٠٤.

ولا ريب أن الإنسان يفرح عندما يكافأ على تميزه، كما لا ريب أن مثل هذا التقدير يصنع إنساناً آخر مثله في التميز، أملاً في الحصول على ما حصل عليه من المكافأة والتقدير والاحترام.

ثانياً: إعطاء ملابس: وما ورد في السنة من ذلك إعطاء النبي - صلى الله عليه وسلم - حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - عباءته بعدما أنجز المهمة التي كلفه بها ليلة الأحزاب.

ولا بد من فهم طبيعة الموقف الذي كان فيه حذيفة بن اليمان؛ فالليلة من أشد الليالي عليهم من خوف وبرد وريح، طلب النبي - صلى الله عليه وسلم - من الصحابة الإتيان بخبر المشركين، وألح عليهم إلحاحاً شديداً، ورغبهم بما رغبهم ما يجعل الإنسان يسرع في الإجابة ولا يتوانى عنها؛ بأن من يفعل ذلك سيكون معه يوم القيامة، لكن لم يستجب أحد! وهم يعلمون أن الأمر على التخيير، وليس على الإيجاب، فلما وجدهم النبي - عليه الصلاة والسلام - على هذه الحال عين حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه -، وعندئذ وجب عليه أن ينفذ أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -^(١). فقال له صلى الله عليه وسلم: «أَذْهَبُ فَاتْنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذَعْرَهُمْ عَلَيَّ». قال حذيفة: «فَلَمَّا آتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَّغْتُ، قُرْرْتُ، فَالْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ فَضْلِ عِبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا»^(٢).

فأنجز حذيفة أمره - صلى الله عليه وسلم - بنجاح، وقدّر له النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك أحسن تقدير، وأسبل عليه من الثوب الذي كان عليه، وهو عباءة^(٣)، كان يصلي فيها.

١ - إكمال المعلم، عياض، ج ٦، ص ٨٢.

٢ - صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، ح ١٧٨٨، ج ٣، ص ١٤١٤.

٣ - العبادة: كساء فيه خطوط. إكمال المعلم، ج ٦، ص ٨٢.

وإلباس النبي - صلى الله عليه وسلم - حذيفة عباة مكافأة مادية منه لحذيفة، إضافة للثواب الموعود به.

ولا شك أن استطلاع أخبار العدو والتجسس عليهم من المهام الصعبة التي تحتاج إلى رجل يتصف بصفات كثيرة لإنجازها بنجاح، ويحق لنا أن نتساءل عن سبب هذا الاختيار، إذ لا بد للنبي - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد أن يرسل أحداً ليستطلع أخبار العدو وخاصة في تلك الليلة الشديدة، أن يرسل من هو أهل لذلك، وأن يكون فيه من الحرص، والفتنة، وسرعة البديهة، والانضباط، والشجاعة، ما فيه، حتى ينجز تلك المهمة المكلف بها، ويرجع بالأخبار التي من أجلها أرسل. وفعلاً وجدنا حذيفة في تنفيذ أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتصف بتلك الصفات، ويلتزم بالخطة التي أرشده النبي الكريم إليها، ويحرص على تنفيذها بحذافيرها، وينضبط أشد الانضباط بقوله - عليه الصلاة والسلام - : «وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ»، مع ذكاء، وسرعة بديهة، وخفة حركة، يرافق ذلك كله شجاعة غامرة، تتفوق على شدة الموقف الذي كان يعيش فيه.

ومما ورد أيضاً في إعطاء النبي - صلى الله عليه وسلم - ملابس، ما روي في قصة إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى، وقوله قصيدته المشهورة في مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - التي مطلعها:

بَانَتْ سَعَادُ فِقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولٌ مَّتِيْمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ

وكان كعب قال قبل ذلك شعراً غضب منه النبي - صلى الله عليه وسلم - وأهدر دمه بسببه.

وقد روى أصل القصة وتفاصيل إسلامه وقصيدته الحافظ البيهقي في دلائل النبوة بإسناده، وذكر ابن كثير أنه ورد في بعض الروايات أن رسول الله - صلى

الله عليه وسلم - أعطاه بردته حين أنشده القصيدة، وأن ابن الأثير ذكر ذلك في (أسد الغابة) وقال عنها: وهي البردة التي عند الخلفاء، ثم قال ابن كثير: «وهذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أر ذلك في شيء من الكتب المشهورة بإسنادٍ ارتضيه، فالله أعلم»^(١).

وسبب إعطاء النبي - عليه الصلاة والسلام - بردته له مكافأةً وثوابً على شعره في مدح النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال ابن عبد البر: «وقبل النبي عليه السلام إسلامه، وسمع شعره وأثابه»^(٢). وإنما ذكرت هذا المثال لشهرته جداً واستفاضته، وذكر أغلب كتب السير خبر البردة، مع القصيدة وخبر إسلامه.

ومما استفاد منه مكافأةً من يقول شعراً متميزاً، فلا ريب أنه يستحق مكافأةً متميزة، وكعب بن زهير من فحول الشعراء، كأبيه، وما قاله من شعر يعد من أروع ما قيل في مدحه - صلى الله عليه وسلم -، «وما من شاعر في الغالب جاء بعده، ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا وقد نظم في وزنها ورويها، والله در القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، حيث يقول:

لقد قال كعبٌ في النبيِّ قصيدةٌ وقلنا عسى في مدحه ننتشاركُ
فإن شملتنا بالجوائزِ رحمةً كرحمة كعبٍ فهو كعبٌ مباركُ»^(٣).

ثالثاً: جزء من الإنتاج:

ثبت في سيرته - صلى الله عليه وسلم - أنه أبقى يهود خيبر في أرضهم - بناءً على طلبهم - للعناية بها وزراعتها ولهم أجرهم: وهو شطر ما يخرج منها.

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

١ - السيرة النبوية، ابن كثير، ج ٣، ص ٧٠٧.

٢ - الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر، ص ٢٥٢.

٣ - الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي، ص ٢٤.

أَعْطَى خَيْبَرَ إِیْهُودَ؛ عَلَی أَنْ یَعْمَلُوهَا وَیَزْرَعُوهَا، وَلَهُمْ شَطْرُ مَا خَرَجَ مِنْهَا»^(١).
 وفی لفظ آخر عن ابن عمر: «وَأَرَادَ إِخْرَاجَ إِیْهُودَ مِنْهَا فَسَأَلَتْ إِیْهُودُ رَسُولَ اللَّهِ
 -صَلَّى اللَّهُ عَلَیْهِ وَسَلَّمَ- لِيُقَرَّهُمْ بِهَا أَنْ یَكْفُوا عَمَلَهَا وَلَهُمْ نَصْفُ الثَّمْرِ فَقَالَ لَهُمْ
 رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَیْهِ وَسَلَّمَ- نَقَرُّكُمْ بِهَا عَلَی ذَلِكَ مَا شِئْنَا»^(٢).

ولا شك أنه لو أبقاهم لزراعتها دون موافقته على إعطائهم شطر الإنتاج لما قاموا بزراعتها كما يجب، ولما رعوها حق رعايتها، فحضرهم بذلك للقيام بعملهم خير قيام.

وهناك رواية عند ابن سعد تختلف في مضمونها عما ورد في صحيح البخاري فيما يتعلق بسبب إبقاء يهود خيبر، فبينما الذي ورد في الصحيح أنهم طلبوا البقاء من النبي -عليه الصلاة والسلام- على أن يكون لهم شطر الإنتاج، تفيد رواية ابن سعد أن سبب إبقاء النبي لهم كفاءتهم، وعدم توافر الأيدي العاملة من المسلمين. فعن بشير بن يسار: «... فَلَمَّا صَارَتِ الْأُمُودُ فِي يَدِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الْعُمَّالِ مَا يَكْفُونَ عَمَلَ الْأَرْضِ، فَدَفَعَهَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى إِیْهُودَ يَعْمَلُونَهَا عَلَی نَصْفِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَلَمْ يَزَالُوا عَلَی ذَلِكَ حَتَّى كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَكَثُرَ فِي يَدَيِ الْمُسْلِمِينَ الْعُمَّالُ، وَقَفُوا عَلَی عَمَلِ الْأَرْضِ، فَأَجْلَى عُمَرُ إِیْهُودَ إِلَى الشَّامِ، وَقَسَمَ الْأُمُودَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْيَوْمِ»^(٣).

وبشير بن يسار تابعي، وعلى هذا فالحديث مرسل، وأياً يكن الأمر فإن ما ورد في رواية ابن سعد ليس بغريب، فما كان النبي ليبقيهم دون مصلحة؛ وهم فعلوا ما فعلوا من خيانة للمسلمين، وما فعلها مع يهود غيرهم، ولذا فإن إمكان الجمع

١ - صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب المزارعة مع اليهود، ح ٢٣٣١، ج ٣، ص ١٣٨.

٢ - صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب المزارعة مع اليهود، ج ٣، ص ١٤٠.

٣ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ترجمة ٧٤٢، ج ٤، ص ١٨٧.

بين الروایتين هو أن طلبهم وافق حال المسلمين من قلة الأيدي العاملة المتفرغة للزراعة فإن المسلمين آنذاك كانوا منشغلين بالجهاد والدعوة، وأيضاً لم يكن لديهم خبرة في الزراعة، ما يؤكد أن إعطاء النبي - صلى الله عليه وسلم - إياهم نصف ما ينتج منها كان لكفاءتهم وعلمهم بالزراعة، ويدل على ذلك ما ورد في دلائل النبوة للبيهقي قوله: «فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم واعمركم لها، فصالحهم رسول الله على النصف»^(١).

وقد ذكّر عن أهل خيبر أنهم كانوا أهل خبرة وتميز في أعمال الحدادة التي تصلح للزراعة وغيرها ويذكر أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - حينما فتح خيبر أحضر منها ثلاثين حدادا، وجعلهم في المدينة يصنعون للناس^(٢).

رابعاً: الأنعام الغنم والإبل:

كان من سنته - عليه الصلاة والسلام - مع من يدخل الإسلام ويطلب المال، أنه لا يردده؛ تحفيزاً له على الثبات على الدين. ومن الحوافز التي قدمها النبي - صلى الله عليه وسلم - لمن دخل في الإسلام وطلب الدنيا: إعطاء بعضهم الإبل، كما في المؤلفة قلوبهم بعد حنين، وأيضاً أعطى كثيراً من الغنم، ترغيباً لمن أعطاه في الثبات على الإسلام، وأيضاً ترغيباً لقومه إذا علموا بذلك، خاصة من يحب المال حباً جماً.

فعن أنس - رضي الله عنه -: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَاتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، أَسْلَمُوا، فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لِيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ. فَقَالَ أَنَسُ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَسْلِمَ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا،

١ - دلائل النبوة، البيهقي، جماع أبواب غزوة خيبر، ج ٤، ص ٢٢٦.
٢ - الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، عبد العزيز ابراهيم العمري، ص ٣١٣.

فَمَا يُسَلِّمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(١).

فلننظر كيف أثرت تلك النظرة البعيدة، من النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك الإنسان عندما أعطاه مالا على إسلامه، ومن ثم كيف أثر ذلك على قومه فأسلموا لأجل المال ابتداءً، ثم صلح حالهم انتهاءً، وحسن إسلامهم، وصاروا من حماة الدين، ولننظر أيضاً كيف صنع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنظرته تلك من ذلك الإنسان داعية إلى الإسلام، ينقل صورة إيجابية عن المسلمين من مساعدة غيرهم، وتحسين أحوال من ينضم إليهم، ما يجابه تلك الدعوات المضللة التي كانت تشوه صورة الإسلام بمسلميه.

ويحسن هنا الهمس في آذان الآباء والمربين أن عليهم استثمار هذه السنّة في تربية أبنائهم، فإنّ حال كثير من الأبناء لا ينفع معه إلا مبلغ من المال حتى لو كان قليلاً، أو هدية يحبها، فيصلح حاله، ويصبح بعدها يفعل وينتهي دون طلب مقابل من مال أو هدية بعد صلاح حاله.

ولا بد هنا من إدراك أن هذا الأمر يحتاج إلى دراسة النفوس، ووضع حدود وقيود، وتقييم للتأثير؛ لأنّ بعض النفوس قد ينفع معها غير المال لتصلح أو تتميز، وبعضها يصبح مدمناً على المال لا يقبل أن يفعل فعلاً إلا بمال، ومن هنا لم نسمع أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطى كل من دخل الإسلام مالا، وإنما كان ذلك بحساب وتقدير مع معرفة بالنفوس التي أعطاهما، وتقدير للتأثير المترتبة عليها، والتعامل مع ضعاف الإيمان أو غير المؤمنين من الأمور التي تحتاج إلى مهارة فائقة تمكن الداعي إلى الله من إنجاز مهمته بنجاح.

ويمكن أن نستشف المعنى الأخير من كلام أنس -رضي الله عنه في الحديث

١- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، ج ٤، ص ١٨٠٦.

السابق: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيْسَ لِمَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسَلِّمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا».

ويبدو أن إعطاء الأموال كان منهجاً منه -صلى الله عليه وسلم- في التعامل مع ضعاف الإيمان، فعن عمرو بن تغلب: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَتَى بِمَالٍ، أَوْ سَبِيٍّ، فَفَقَسَمَهُ فَأَعْطَى رَجَالًا وَتَرَكَ رَجَالًا، فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمَدَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدْعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدْعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لَمَّا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكُلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْخَيْرِ، فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ، فَوَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- حُمْرَ النَّعَمِ»^(١).

وأيضاً قوله لسعد عندما سأله عن سبب إعطائه فلانا دون فلان، فقال له: (يَا سَعْدُ، إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يُكَبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ)^(٢).
خامساً: سَلَبُ الْقَتِيلِ^(٣):

ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أباح للمجاهدين أخذ ما يجذونه مع من يقتلونه في الغزوات مما يتعلق بأدوات الحرب وغيرها، ومن أشهر ما ورد عنه قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيْتَةٌ، فَلَهُ سَلْبُهُ»^(٤).

وهذا القول من النبي -صلى الله عليه وسلم- كان بعد الانتهاء من القتال

- ١- صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد، ح ٩٢٣، ج ٢، ص ١٣.
- ٢- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، ح ٢٧، ج ١، ص ١٣.
- ٣- السَلْبُ: «بفتح المهملة واللام، بعدها موحدة: هو ما يوجد مع المحارب من ملبوس وغيره، عند الجمهور، وعن أحمد لا تدخل الدابة، وعن الشافعي يخْتَصِبُادَةُ الحرب». فتح الباري، ابن حجر، ج ٦، ص ٢٤٧.
- ٤- صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب، ح ٣١٤٢، ج ٤، ص ١١٢.

في غزوة حنين، كما ظهر في سياق الحديث نفسه، وقد اشتهر عند بعض العلماء أن هذا القول من النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن إلا في حنين^(١)، على أن الرجح عند الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - أنه حفظ عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في مواطن عدة، منها: غزوة بدر، وأحد، والخندق، ومؤتة، وغيرها، يشهد لذلك أحاديث صحيحة ذكرها ابن حجر وبين قوة أسانيدها^(٢)، بما يثبت فعلاً أن إذن النبي - عليه الصلاة والسلام - للمجاهدين بأخذ ما يجدونه مع من يقتلونه في الغزوات إنما كان في غير حنين.

وإباحة سلب القتل للمقاتل أمر تحفيزي، لا شك أنه يزيد من حماسة المقاتل، بل هو ما ظهر من واقع بعض الصحابة المقاتلين أنهم رغبوا بالحصول على سلب القتل، كما روى الحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن سعد بن أبي وقاص أن عبد الله بن جحش قال يوم أحد: «تعال بنا ندعو، فدعا سعد فقال: اللهم ارزقني رجلاً شديداً بأسه، فأقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني عليه الظفر حتى أقتله، وأخذ سلبه... الحديث^(٣)».

وكما روى أيضاً ابن إسحاق في المغازي في قصة قتل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - عمرو بن عبد ود يوم الخندق أيضاً فقال له عمر: «هلا استلبت درعه؟ فإنه ليس للعرب خير منها»^(٤).

هذا يشير إلى وجود رغبة واهتمام من بعض الصحابة بسلب القتل لغايات

١- نقل ذلك عن الإمام مالك كما ذكر ابن حجر، فتح الباري، ابن حجر، ج ٦، ص ٢٤٧.

٢- فتح الباري، ابن حجر، ج ٦، ص ٢٤٧.

٣- لفظ الحديث عند الحاكم والبيهقي ورد هكذا: «أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ، قَالَ يَوْمَ أُحُدٍ: أَلَا تَأْتِي نَدْعُو اللَّهَ، فَيَخْلُو فِي نَاحِيَةٍ، فَدَعَا سَعْدٌ فَقَالَ: يَا رَبِّ إِذَا لَقِينَا الْقَوْمَ غَدًا، فَلَقِّنِي رَجُلًا شَدِيدًا بِأَسْهُ شَدِيدًا حَرْدُهُ، فَأَقَاتِلَهُ فَيْكُ وَيُقَاتِلُنِي، ثُمَّ أَرْزُقْنِي عَلَيْهِ الظَّفَرَ حَتَّى أَقْتُلَهُ، وَأَخِذْ سَلْبَهُ... الخ الحديث». المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص، كتاب الجهاد، ح ٢٤٠٩، ج ٢، ص ٨٦. والسنن الكبرى، البيهقي، كتاب قسم الفيء، باب السلب للقاتل، ح ١٢٥٤٩، ج ٦، ص ٣٠٧.

٤- فتح الباري، ابن حجر، ج ٦، ص ٢٤٧.

متنوعة قد تكون للفقر، وقد تكون للحصول على أدوات الحرب التي يفقدونها، وغيرها من أسباب، وبالتالي فإنَّ هذا مما يطمح بعضهم للحصول عليه ويتحفزون لنيه. ولا شك عندي في أنَّ معرفة النبي الكريم ببعض النفوس، وأيضاً معرفته بحال الصحابة من الحاجة هي التي دفعته إلى مثل هذا القول، ولولا علمه بأنَّ ذلك يحفزهم ويزيد من حماسهم وإقدامهم في الجهاد ما قاله لهم، بل يمكن القول أيضاً: إنَّ ساحة القتال ليست كأى ساحة أخرى، إنها ساحة تسفك فيها الدماء، ويُضحى فيها بأعلى ما يملك الإنسان، فالأمر فيها شديد، والإقدام فيها بل التقدم إليها تصادفه عوائق نفسية وشيطانية، ويحتاج الإنسان للثبات فيها ما يحفزه، ويحتاج الثابت فيها ما يزيد من مهاراته ما يؤدي إلى تفوقه وانتصاره.

ومن هنا ينبغي على القائد دائماً أن ينظر في احتياجات من يقودهم، وأن يعرف كذلك ما يؤثر فيهم ويزيد من مهاراتهم في القتال بما يؤدي إلى تفوقهم على عدوهم، مثل: وعدهم بترقيتهم في الرتب العسكرية، أو منحهم مكافأة مالية، أو رعاية أسرهم وتعليمهم، إلى غير ذلك مما يطمح إليه الإنسان عادة.

ومن الأمور التي تعكّر على منح المقاتل مكافأة أو إباحة ما يجده مع القتل له هو أنَّ بعضهم يرى أنَّ هذا يتنافى مع الإخلاص^(١)، وفي ظني الراجح أنه لو كان يتنافى مع الإخلاص لما أباحه النبي الكريم، وكذلك يمكن القول مثله في الغنائم، وأستطيع في هذا المقام أن أقول في تفسير ذلك إنه نوع من الأجر الدنيوي الذي يستحقه من يقاتل لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا، كما هو الأمر نفسه في إباحة الغنائم، فعن النبيّ - صلى الله عليه وسلم - قال: «انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانٌ بِي، وَتَصَدِيقٌ بِرُسُلِي، أَنْ أَرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ، أَوْ غَنِيمَةٍ، أَوْ

١- رأى ذلك الامام مالك، وكره من الامام أن يُبلغ به أصحابه قبل القتال؛ لأنه يضعف نياتهم، ومالك يرى أن إباحة سلب القتل إنما كان من النبي الكريم بعد انتهاء غزوة حنين دون باقي الغزوات، وخالفه الجمهور في ذلك. فتح الباري، ابن حجر، ج ٦، ص ٢٤٧-٢٤٨.

أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، وَلَوْلَا أَنْ أُشْتُ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، وَلَوْ دِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ»^(١).

قال ابن حجر: «واستشكل بعضهم نقص ثواب المجاهد بأخذه الغنيمة، وهو مخالف لما يدل عليه أكثر الأحاديث، وقد اشتهر تمدح النبي - صلى الله عليه وسلم - بحل الغنيمة وجعلها من فضائل أمته، فلو كانت تنقص الأجر ما وقع التمدح بها». ثم أجاب عنه بقوله: «أما الاعتراض بحل الغنائم فغير وارد؛ إذ لا يلزم من الحل ثبوت وفاء الأجر لكل غاز، والمباح في الأصل لا يستلزم الثواب بنفسه، لكن ثبت أن أخذ الغنيمة واستيلاءها من الكفار يحصل الثواب، ومع ذلك فمع صحة ثبوت الفضل في أخذ الغنيمة وصحة التمدح بأخذها لا يلزم من ذلك أن كل غاز يحصل له من أجر غزاته نظير من لم يغنم شيئاً البتة»^(٢).

سادساً: تملك الأرض لمن أحيها:

شجّع الإسلام على العمل، ودعا إليه دائماً بأساليب مختلفة، إما من خلال بيان الأجر الأخروي الذي ينتظر العامل المخلص، وإما من خلال بيان ما ينتظر العامل من الأجر الدنيوي، وأحياناً كان يحفز الناس إلى استغلال كل ما هو معطل من المواد والأراضي وغير ذلك مما يمكن الاستفادة منه. ومما ورد في ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: «مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهِيَ أَحَقُّ»^(٣). وفي رواية: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ»^(٤).

١- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان، ج ١، ص ١٥، ح ٣٦.

٢- فتح الباري، ابن حجر، ج ٦، ص ٨، ٩.

٣- صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَوَاتًا، ج ٣، ص ١٤٠، ح ٢٣٣٥. «والمراد من «أعمر أرضاً بالإحياء فهو أحق»، أي: أحق به من غيره». العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج ١٨، ص ٤٧٤.

٤- السنن، الترمذي، كتاب الأحكام، باب مَا ذَكَرَ فِي إِحْيَاءِ أَرْضِ الْمَوَاتِ، ح ١٣٧٩، ج ٣، ص ٥٥. وقال الترمذي عنه: «حسن صحيح».

والأرض الميتة هي الأرض التي لم تعمر، وشبَّهها بالميتة؛ لأنها معطلة وغير مستغلة بما ينفع الناس. وإحياء الأرض يكون بطرق كثيرة منها: السقي، أو الزرع، أو الغرس، أو البناء، كما نقله ابن حجر عن الجمهور^(١)، ونقل ابن بطال عن مالك والشافعي أن إحياء الأرض الموات يكون: بإجراء العيون، وحفر الآبار، والبنيان، والحراث، وغرس الأشجار^(٢).

ومن كلامهم يظهر أن إحياء الأرض بكل ما هو نافع للناس يعد إحياء لها، وإن كان بعض الفقهاء - الحنفية - خالفوهم في بعض التفاصيل، كاشتراط إذن الحاكم الذي لا يراه الجمهور^(٣).

ونلاحظ مما سبق أن إحياء الموات مما يستحق أن يُكافأ عليه الإنسان مادياً، ونستنتج أيضاً أن الإيجابية مهما صغر حجمها، ومهما سهل تنفيذها، هي أمر يستحق المكافأة والتحفيز، مادياً أو معنوياً. كما نستنتج من ذلك ما يدل على أهمية ذلك الفعل وعظمه في الإسلام، وأن البناء لا الهدم هو وظيفة المسلم في هذه الأرض.

وأخيراً لا بد أن أشير إلى أن بعض الباحثين عدَّ أجر العمل من التحفيز المادي الذي يشعر العامل أو الموظف بالرضا ويجعله يتقن عمله ويؤديه على أحسن وجه، وهذه مسألة اختلف فيها الباحثون، حيث عدّه بعضهم تحصيل حاصل للعامل أو الموظف^(٤)، وفي ظني أن العامل أو الموظف إذا أخذ أجره المتناسب بعدالة مع عمله فإنه سيشعر بالرضا، وسيكون له حافزاً، بخلاف من لا يأخذ

١- فتح الباري، ابن حجر، ج ٥، ص ١٨.

٢- شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ج ٦، ص ٤٧٦.

٣- فتح الباري، ابن حجر، ج ٥، ص ١٨.

٤- (اتجاهات الأفراد العاملين في المؤسسات الحكومية الأردنية نحو حوافز العمل، موسى اللوزي، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية، مجلد ٢٢، العدد ٦، ص ٣٧٦. وأيضاً: الحوافز، عادل جودة، ص ٢١. وإدارة الموارد البشرية، مصطفى نجيب شاويش، ص ٢٠٩.

أجره كما ينبغي، أو يأخذه مع ملاحظة وتأخير، كما يفعل بعض أصحاب العمل مع عمالهم، فإنَّ هؤلاء لا شك أنَّ انتماءهم واثقائهم لعملهم أقل، وهو ما نبه إليه النبي المصطفى - صلى الله عليه وسلم - حين قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»^(١). وقوله أيضاً: «أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ، قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ»^(٢).

المطلب الثاني: أسباب التحفيز المادي، وصفات المشمولين به.

١- جزاء الإحسان، ورد الجميل: ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ما يفيد بأن الإحسان إذا كان مادياً فالأولى أن يكون جزاؤه مادياً، إلا إذا لم يجد فيكون معنوياً، ومن ذلك قوله: «مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلَيجز به، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلَيْشْن، فَإِنَّ مَنْ أَثْنَى فَقَدْ شَكَرَ، وَمَنْ كَتَمَ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَهُ كَانَ كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورٍ»^(٣).

ومعنى هذا أنه من أعطي مالا أو عطاء فوجد مالا يكافئ به ذلك المعطي فليعطه، والأمر للوجوب، وإن لم يكن عنده ما يكافئه به فليشْن عليه وليمدحه^(٤).

وقد ورد عن نبينا الحبيب أنه كان يفعل ذلك، ومنه ما ورد عن عائشة، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا»^(٥).

- ١- صحيح البخاري، كتاب الاجارة، باب إثم من منع أجر الأجير، ح ٢٢٧٠، ج ٣، ص ١١٨.
- ٢- سنن ابن ماجه، باب أجر الأجراء، ح ٢٤٤٣، ج ٣، ص ٥١٠. وهو ضعيف الإسناد. سبل السلام، محمد ابن إسماعيل الصنعاني، ج ٣، ص ٨٢.
- ٣- السنن، الترمذي، باب ما جاء في المتشعب بما لم يعطه، ح ٢٠٣٤، ج ٣، ص ٤٤٧. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».
- ٤- تحفة الأحوذى، المبار كفوري، ج ٥، ص ٢٩٨. وسبل السلام، الصنعاني، ج ٤، ص ١٧٠.
- ٥- صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب المكافأة في الهبة، ح ٢٥٨٥، ج ٣، ص ٢٠٦. وهناك خلاف فقهي بين العلماء في مسألة الثواب على الهدية، وعلة الثواب عليها. انظر: فتح الباري، ابن حجر، ج ٥، ص ٢١٠.

فإن استطاع المسلم أن يرد على الهدية بهدية مهما كانت فهو الأولى، وإن لم يجد فإنَّ الثناء والمدح والدعاء لفاعل الخير كاف، مما دلَّ على أنَّ الإنسان بطبيعته يميل إلى المحسوس، حتى وإن كان مؤمناً، لكن ينبغي أن تكون نظرتة المادية واقعية ومتوازنة.

٢- الشجاعة الفائقة: يقدر الإسلام أن يكون المسلم شجاعاً، وخاصة في بعض المواطن: كالجهاد وقتال الأعداء، واسترداد الحقوق، وهذا الأمر لا جدال فيه. لكن مما يدعو للوقوف عنده، هو أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يكافئ على الشجاعة تحفيزاً لصاحبها وتقديراً، كما في قصة سلمة بن الأكوع -رضي الله عنه-. وقد أشار ابن حجر إلى أثر التحفيز فيه فقال في فوائد الحديث: «استحباب الثناء على الشجاع، ومن فيه فضيلة لاسيما عند الصنع الجميل؛ ليستزيد من ذلك»^(١).

٣- إدخال الناس في الإسلام أو إصلاحهم: لاحظنا في المثال المتعلق بالمؤلفة قلوبهم كيف أنَّ النبي -عليه الصلاة والسلام- علل للأَنْصار إعطاء قريش المال؛ وهو أنه أراد أن يتألفهم على الدين بسبب حداثة عهدهم بالجاهلية؛ ليثبتوا على الإسلام، وأيضاً أعطى مالاً لأناس لم يسلموا بعد - كما نقل ابن حجر؛ ليدخلوا في الإسلام.

ويرى بعضهم أنَّ التآلف إنما كان في أول الإسلام، إلا أن تحصل ضرورة فيجوز، حيث نقل ابن بطال عن المهلب^(٢) أنه قال: «والتآلف إنما كان في أول الإسلام؛ إذ كان بالناس حاجة إلى تألفهم لدفع مضرتهم ولمعونتهم، فأما إذا علَّى الله الإسلام ورفع على غيره فلا يجب التآلف، إلا أن ينزل بالناس ضرورة

١- فتح الباري، ابن حجر، ج٧، ص٤٦٣.

٢- هو المهلب بن أبي صفرة الأسدي الأندلسي أبو القاسم، له شرح على صحيح البخاري. توفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، انظر: ابن بشكوال، الصلة، ص٢٠٣.

يحتاج فيه إلى التآلف»^(١).

وهذا الذي ذكره المهلب أمر خلافي وضحه العيني في شرحه فقال: «وكان يعطي لهم؛ لتتآلف قلوبهم، أو ليدفع ضررهم عن المسلمين. وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي؟ فيه خلاف، فروي عن عمر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده، وقال آخرون: بل يعطون؛ لأنه قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصير إليهم»^(٢).

ونلاحظ أمراً آخر في كلام العيني وهو أن التآلف إنما كان لأمرين: الأول: لتتآلف قلوبهم على الإسلام، والثاني: لدفع ضررهم، وهذا يعني أن التحفيز المادي قد يكون لفعل أو لترك.

ومن هنا ينبغي على المؤسسات والشركات أن تراعي هذه النظرة المادية لتحفيز العمال والموظفين؛ من أجل الإقبال على العمل بهمة ونشاط، ومن أجل تحفيزهم على البقاء في تلك الشركة أو المؤسسة، وكلما زادت الحوافز زاد تمسك الموظف بوظيفته.

٤- اتصاف الشخص بصفات قيادية: يعد اتصاف الإنسان بصفات قيادية، أو استثنائية من الأسباب التي دفعت النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى استعمال التحفيز المادي، وجدنا هذا في خبر هوازن التي جاءت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- تعلن إسلامها، وتطلب العفو ورد أموالها وسببها، لكن زعيم هوازن مالك بن عوف لم يكن معهم، فقال لهم النبي الكريم -وكان وزع الأموال والسبي على المقاتلين بعد أن انتظر هوازن ولم تأت إلا متأخرة: «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا: يا رسول الله،

١- شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ج ٨، ص ٥٩٢.

٢- عمدة القاري، العيني، ج ٢٧، ص ٣٠٤.

خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبنائنا؛ فهو أحب إلينا»^(١).

لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما علم أن زعيمهم لم يأت معهم، وهو يعلم شأنه ومكانته، عامله معاملة مختلفة، فذكر لهم أن يخبروا مالكا إن أتى مسلما سيكون له: رد ماله وأهله إليه، وإعطاؤه مئة من الإبل.

فلما سمع مالك بذلك خرج من ثقيف متخفياً، ولحق برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأسلم وحسن إسلامه، وأنفذ له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما وعده به^(٢).

ونلاحظ هنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- زاده عن قومه: رد أهله، ومئة من الإبل تحفيزاً له على الإسلام.

والسألة هنا لا شك أنها لا تقتصر على إتيانه مسلماً؛ فقد جاء قومه مسلمين، لكن لم يرد عليهم إلا أموالهم التي غنمها المسلمون منهم، دون نسائهم وأولادهم، ودون إعطائهم مالا إضافياً. ولكن الأمر يتجاوز ذلك مع أهميته إلى أمر آخر هو زعامة هذا الشخص وقدرته على القيادة، وكذلك كان النبي الكريم يخطط لتوليته على قومه، فهو أدرى بأمرهم وأقدر عليهم، وأيضاً قتال قبيلة ثقيف والتضييق عليها، قال ابن هشام: «فاستعمله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على من أسلم من قومه، وتلك القبائل ثمالة وسلمة وفهم، فكان يقاتل بهم ثقيفا»^(٣).

٥- النجاح في المهمات الصعبة، أو القيام بأعمال متميزة: فالقيام بالمهمة الموكلة إلى الشخص وإنجازها على أتم وجه، مع خطورتها، وعدم وجود من يقوم بها غيره، مما يستحق المرء أن يكافأ عليه، وهو ما حصل لحذيفة -رضي

١- نقله ابن هشام عن ابن اسحاق بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وهو سند حسن. السيرة النبوية، ابن هشام، ج ٥، ص ١٦٣.

٢- السيرة النبوية، ابن هشام، ج ٥، ص ١٦٦.

٣- السيرة النبوية، ابن هشام، ج ٥، ص ١٦٧.

الله عنه - ليلة الخندق في استطلاع خبر المشركين .

والقيام بعمل متميز أيضاً مما يستحق المرء أن يأخذ عليه مكافأة، وهو ما حصل لأبي سلمة حين قام بما قام به في لحاقه بالمشركين وحده واسترداه إبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره مما وضحناه في صور التحفيز .

٦- كفاءة الشخص وعدم وجود غيره: يُعطى من الأموال لتحفيزه على العمل والقيام به على أحسن وجه، كما في قصة يهود خيبر عندما أبقاهم النبي -عليه الصلاة والسلام - في مزارعهم، لعدم وجود من يحل محلهم من المسلمين، ولخبرتهم في الزراعة .

٧- مواجهة المواقف الصعبة، واللحظات الحرجة: فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ تَصَادَفَهُ صَعُوبَاتٌ وَمَعُوقَاتٌ، وَقَدْ يَمُرُّ بِلَحْظَاتٍ حَرْجَةٍ، أَوْ مَوَاقِفٍ صَعْبَةٍ، فَيَحْتَاجُ إِلَى مَا يَثْبِتُهُ عَلَى مَوْقِفِهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَحْفِيزِهِ مَعْنَوِيًّا كَمَا يَكُونُ مِنْ خِلَالِ تَحْفِيزِهِ مَادِيًّا، وَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ خِلَالِ عَرْضِ صُورِ التَّحْفِيزِ الْمَادِيِّ، كَيْفَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَحْفِزُ الْمُجَاهِدِينَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْغَزَوَاتِ، بِإِبَاحَةِ مَا يَجِدُهُ الْمُجَاهِدُ مَعَ مَنْ يَقْتُلُهُ، مَهْمَا كَانَ عَدَدُهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ» .

٨- المادة لها احترام في الشرع لا ينكر: فقد ظهر من بعض الأحاديث أَنَّ الْمَكَافَأَةَ الْمَادِيَةَ لَهَا قِيَمَتُهَا فِي النُّفُوسِ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَا تَنْفَعُ مَعَهُ إِلَّا الْمَادَةُ، وَلَا يَكْفِيهِ الْمَدْحُ وَالثَّنَاءُ .

تبين من خلال ما سبق أَنَّ التحفيز المادي شمل أصنافاً عديدة من الناس، نجده شمل المجاهدين، كما شمل فاعلي الخير، ومن جهة أخرى شمل ضعاف الإيمان، وغير المسلمين، ولم يقتصر على فرد معين أو جماعة معينة. كما شمل أيضاً من

قام بعمل متميز واتصف بصفات متميزة: كالشجاعة الفائقة، والفتنة، وإتقان العمل، وغيرها، وشمل أيضاً من لم يقيم بعمل؛ تحفيزاً له للقيام بعمل فيه خير: كالدخول في الإسلام، وهذا أمر مهم؛ إذ يمكن أن يُظن أن التحفيز يكون لمن قام بعمل متميز فقط.

ومن هنا ينبغي البحث عن المتميزين لمكافأتهم على تميزهم، كما ينبغي البحث أيضاً عما يمكن أن يكونوا متميزين لتحفيزهم نحو التميز.

المبحث الثالث: ضوابط التحفيز المادي في ضوء السنة النبوية:

أولاً: مشروعية العمل الذي يحفز عليه: فلا بد للمحفز أن يلحظ مدى مشروعية العمل الذي يحفز عليه، كما في بقية المعاملات الأخرى، ومن ثمَّ يحرم التحفيز المادي والمعنوي على أفعال محرمة، ويدل عليه: «مَنْ أَعْطَى اللَّهَ تَعَالَى، وَمَنَعَ اللَّهَ، وَأَحَبَّ اللَّهَ، وَأَبْغَضَ اللَّهَ، وَأَنْكَحَ اللَّهَ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ»^(١).

ثانياً: العدل وعدم الظلم: حرّم الله - سبحانه وتعالى - الظلم على نفسه، وحرّمه على الخلق فقال: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا»^(٢). كما دعا - عليه الصلاة والسلام - إلى العدل بين الأولاد في العطفة عموماً، فعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ - رضي الله عنه -: «أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلَامًا. فَقَالَ: أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتُ مِثْلَهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَارْجِعْهُ»^(٣).

والحوافز التي تعطى للمتميزين هي نوع من العطايا، فكذلك ينبغي توخي العدل فيها، فكما أمر الأب أن يعدل في عطيته أو هديته لأولاده، كذلك هو

١- المسند، أحمد بن حنبل، ج ٣، ص ٤٤٠. وإسناده حسن كما قال الشيخ شعيب الأرنؤوط.

٢- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، ج ٦٣٧، ح ٨، ص ١٦.

٣- صحيح البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهبة للولد. ح ٢٥٨٦، ج ٣، ص ٢٠٦.

مأمور بالعدل حينما يحفز أولاده، ومنهبي أن يقتصر في التحفيز على بعضهم، ومنهبي أيضاً أن يكافئ بعضهم دون بعض إذا تميزوا في دراستهم، أو أي عمل من أعمالهم.

ومن الأدلة على وجوب توخي العدل أيضاً عندما تحدّث النبي -صلى الله عليه وسلم- عن إحياء الأرض، ذكر أن من تصرّف في ملك غيره دون إذنه فليس له حق فيما استخرجه منها^(١)، فقال -عليه الصلاة والسلام-: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ، وَلَيْسَ لِعَرَقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ»^(٢).

ثالثاً: مراعاة الأولويات: فالتحفيز يبدأ من الأهل والأقارب، لقوله -عليه الصلاة والسلام-: «ذَا أَعْطَى اللَّهُ أَحَدَكُمْ خَيْرًا فَلْيَبْدَأْ بِنَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ»^(٣). وهذا في النفقة وغيرها، «ومعنى هذا الأمر: الابتداء بالأهم فالأهم، والأولى فالأولى»^(٤).

وأعظم النفقة ما كان على الأهل كما ورد في قوله -صلى الله عليه وسلم-: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ أَعْظَمَهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ»^(٥).

فبعض الناس قد يتجه إلى تقديم منفعة لغيره تاركاً أهله وأقاربه في حالة من العوز والفقر، وكذلك بعض الدول قد تتجه إلى تقديم يد العون والمساعدة لدول بعيدة تاركة جيرانها دون ذلك. وقد تكون النفقة بحد ذاتها مشروعة سواء إلى

- ١- فتح الباري، ابن حجر، ج ٥، ص ١٩.
- ٢- سنن الترمذي، كتاب الأحكام، باب ما ذكر في إحياء أرض الموات، ح ١٣٧٨، ج ٣، ص ٥٥. قال ابن حجر: «قوله: لعرق ظالم، في رواية الأكثر، بثنوين عرق، وظالم نعت له، وهو راجع إلى صاحب العرق، أي: ليس لذي عرق ظالم، أو إلى العرق، أي ليس لعرق ذي ظلم. ويروي بالإضافة، ويكون الظالم صاحب العرق، فيكون المراد بالعرق الأرض. فتح الباري، ج ٥، ص ١٩.
- ٣- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش، ح ٤٨١٥، ج ٦، ص ٤.
- ٤- المنهم لما أشكل من تلخي صكتاب مسلم، القرطبي، ج ١٢، ص ٧٠.
- ٥- صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك، ح ٢٣٥٨، ج ٣، ص ٧٨.

قريب أم بعيد، لكنها لا ينبغي أن تنتقل إلى البعيد دون أن تمر بالقرب .

ومن هنا فإن التحفيز المادي ينطبق عليه هذا المعنى ، وهو ما ينبغي أن نراعيه في حياتنا وتعاملنا مع غيرنا، فمثلا ليس مناسبا أن يقوم بعض الناس بتقديم المكافآت التشجيعية والجوائز للأطفال لحفظهم بعض سور القرآن وينسى أولاده الذين يحفظون تلك السور أو أكثر منها فلا يكافئهم بحجة واهية في نفسه هي أنهم أولاده ويتفهمون ذلك .

ب- ينبغي أن يراعى في التحفيز الظرف المناسب، فالمنافع المترتبة على التحفيز تختلف من ظرف إلى ظرف، ومن مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، وهذا المبدأ العام أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مَنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهَا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ (الحديد: آية ١٠). فالذي ينبغي أن يراعى في الإنفاق عموما ومنه التحفيز المادي النظر إلى المجال الأنفع للمسلمين، بحيث يكون التحفيز جالبا للأمة مصلحة ومنفعة أكثر، وهو أيضا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (التوبة: آية ١٩). حيث فاضلت الآية الكريمة بين أمور وبينت أنها لا تستوي عند الله تعالى، وذلك من حيث أهميتها وأثرها.

ج- مراعاة الفئة العمرية والتركيز على بعض الفئات: فلا ينبغي تخطي الطفل إلى غيره في التحفيز، فنحفز الكبار دون الصغار، ولنتأمل كيف أن الإسلام أمرنا أن نعلم أولادنا الصلاة وهم أبناء سبع ، دون أن نتنظر تعليمهم عند البلوغ .

وهذه المرحلة العمرية تحتاج إلى مراعاة معينة وتحفيز يناسبها، ليكون أجدى في إقناعه، كأن نعطيه قطعة حلوى أو حبة من الشوكولاته، أو لعبة، أو نعطيه ما

يحبه من الحوافز المادية، والمؤثرة فيه إيجابيا.

رابعاً: عدم الرجوع عن المكافآت والحوافز: يحرم على المسلم أن يرجع في عطيته بعد قبضها، ومن ذلك الحوافز التي يقدمها بعضهم للقيام بفعل معين أو بعد القيام بفعل معين، ويدل على ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: «لَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُعْطِيَ عَطِيَّةً ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا إِلَّا الْوَالِدَ فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ، وَمَثَلُ الَّذِي يُعْطِي الْعَطِيَّةَ ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا، كَمَثَلِ الْكَلْبِ أَكَلَ حَتَّى إِذَا شَبِعَ قَاءَهُ ثُمَّ عَادَ فِي قَيْئِهِ»^(١).

فظاهر الحديث يدل على تحريم الرجوع في العطية مهما كانت بعد قبضها إلا من الوالد لولده، وهو رأي الجمهور، وهناك من صرفه عن ظاهره وحمله على أنه مجاز عن الكراهة الشديدة^(٢). «وحجة الجمهور في استثناء الأب أن الولد وماله لأبيه، فليس في الحقيقة رجوعاً، وعلى تقدير كونه رجوعاً فربما اقتضته مصلحة التأديب، ونحو ذلك»^(٣).

وللحوافز من العطايا أهداف مختلفة، فإذا أعطيت لشخص وقبضها فلا يحل الرجوع فيها، وأرى أنه ليس محبذاً من الأب أن يرجع في عطيته مهما كانت من هدية أو غيرها إلا أن يكون لذلك علاقة بالتربية والتأديب، أو مصلحة يراها الأب.

خامساً: عدم المن بالعطاء والمكافأة: نهى الله عز وجل عن إتباع النفقة في سبيل الله بالمن والأذى أيّاً كان نوعه، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ (البقرة: آية ٢٦٢). و«المنان: فعّال من المن، وقد فسره في الحديث، فقال: هو الذي لا يُعْطِي شَيْئاً إِلَّا مَنَّهُ»^(٤)، أي: إلا امتن به على

١- سنن الترمذي، أبواب الولاء والهيبة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، باب ما جاء في كراهية الرجوع في الهيبة، ح ٢١٣٢، ج ٤، ص ١٠. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

٢- تحفة الأحوذى، المبار كفوري، ج ٥، ص ٤١٨.

٣- فتح الباري، ابن حجر، ج ٥، ص ٢١٥.

٤- هذا اللفظ رواه مسلم من حديث أبي ذر - رضي الله عنه -، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية، ح ٣٠٧، ج ١، ص ٧١. وأخرجه بلفظ آخر سيأتي قريباً.

المُعْطَى له، ولا شكَّ في أنَّ الامتنانَ بالعتاء، مبطلٌ لأجر الصدقة والعتاء، مُؤذٍ للمُعْطَى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنَّا وَلَا أَذَى﴾^(١).

وبينَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - الوعيد الذي ينتظر المَنَّان، فقال: «ثلاثةٌ لا يكلمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». قال: فقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم - ثلاثَ مرَّارٍ. قال أبو ذرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «المُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمَنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلْفِ الكاذبِ»^(٢).

والمقصود أنَّ الله - سبحانه وتعالى - لا يكلمهم تكليم أهل الخيرات ويأظهار الرضى، بل بكلام أهل السخط والغضب، ولا ينظر إليهم، أي: يعرض عنهم ولا يرحمهم، ولا يزيكهم أي: يطهرهم من دنس ذنوبهم^(٣). وقد ذكر القرطبي كلاماً مفاده أنَّ المَنَّانَ متفرع عن خصال ذميمة، وهي: البُخْلُ، والعُجْبُ، والكِبْرُ، ونسيانِ مَنَّةِ اللهِ تعالى فيما أنعمَ به عليه^(٤).

ومن هنا ثبت أنَّ المَنَّانَ حرام، وكبيرة توعَّد عليها الله - جلَّ في علاه -، وبالتالي يحرم على من خفَّز مسلماً بشيءٍ، ثم منَّ عليه بعد ذلك.

المبحث الرابع: آثار التحفيز المادي في ضوء السنة النبوية:

أولاً: لا يخفى تفاوت الناس والفروق بينهم في شعورهم وقدراتهم، ولذلك وجدنا النبي - عليه الصلاة والسلام - راعى هذا الجانب، ومن جهة أخرى كان - صلى الله عليه وسلم - ينصح ويوصي بعض الناس بما ينقصه، فيوصي بعضهم ببرِّ الوالدين، وبعضهم بالصَّلاة على وقتها، وبعضهم بعدم الغضب وهكذا،

- ١- المفهم، القرطبي، ج ٢، ص ٦٦.
- ٢- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمَنَّان بالعتية، ح ٣٠٦، ج ١، ص ٧١.
- ٣- هناك أقوال أخرى، انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ج ٢، ص ١١٦.
- ٤- المفهم، القرطبي، ج ٢، ص ٦٧.

وهذا يدل على مدى الواقعية والإيجابية التي كان يتمتع بها النبي - عليه الصلاة والسلام - في دعوته، ومن ثمَّ امتدَّ ذلك إلى أساليب تعامله مع الناس، ومنها التحفيز، حيث راعى الفروق بين الناس في هذا الجانب، من حيث إنَّ بعض الناس يؤثر فيه التحفيز المعنوي، وبعضهم يؤثر فيه المادي، وهو أمر بيّن ولا يمكن إغفاله، والنتيجة أن أثر هذا سيظهر على الناس ويؤثر فيهم، ولاحظنا كيف أثر هذا في دخول بعضهم الإسلام، وأيضاً كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتفي بالثناء - أحياناً - على من كان إيمانه قوياً، بينما أعطى من كان إيمانه ضعيفاً.

ولا بد لنا من استثمار هذه السنة في الدعوة إلى الله تعالى، فإنَّ الاهتمام بأحوال الناس، ومساعدتهم مادياً مما يؤثر في الناس ويكسب ودهم واحترامهم، وقد وجدنا هذا المعنى في قصة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - عندما أراد الهجرة إلى الحبشة، فلقبه ابنُ الدَّغْنَةِ - سيد القارة، وسأله عن وجهته، فقال أبو بكر فيما روى البخاري: «أَخْرَجَنِي قَوْمِي فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الْأَرْضِ فَأَعْبُدَ رَبِّي. قَالَ ابْنُ الدَّغْنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ، وَلَا يُخْرَجُ؛ فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ فَارْجِعْ فَأَعْبُدْ رَبَّكَ بِيَلَادِكَ، فَارْتَحِلْ ابْنُ الدَّغْنَةِ، فَارْجِعْ مَعَ أَبِي بَكْرٍ»^(١).

ثانياً: لاحظنا أنَّ التحفيز المادي كان يوجّه في مواقف واتجاهات خطيرة، كالجهاد، والدخول في الإسلام، وإصلاح ضعف الإيمان، والقيام بمهمات صعبة، وأيضاً إنجاز أعمال كبيرة، ومن ثمَّ نصل إلى أنَّ التحفيز المادي يمكن أن يستغل في مثل ذلك أو بما يشبهه أو يقاربه من أعمال.

ثالثاً: مكافأة المتميز وتحفيزه وتمييزه في العطاء يُشعر الفرد بأنّه جزء مهم من المجتمع، وأنَّ ما قام به من أعمال متميزة ينبغي أن تقدّر، وقد تبين كيف أنَّ النبي

١ - صحيح البخاري، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعقده، ح ٢٢٩٧، ج ٣، ص ١٢٦.

- صلى الله عليه وسلم - أعطى سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه - سهمين لتمييزه مع أنه كان راجلاً.

رابعاً: ظهرت فائدة هذا النوع من التحفيز في تعزيز الأخلاق وفعل الخيرات وأعمال الإصلاح، كما وضّحناه، إذ أعطى - عليه الصلاة والسلام - من فعل فعلاً متميّزاً بعد الانتهاء منه في أمثلة ذكرتها، ولا يُظنُّ أن أثر ذلك يقتصر على جزائه على فعله فقط، ولكن الذي يظهر منه أيضاً تثبيته على خلقه وتميزه، وأيضاً تعزيز وتقوية تلك الصفة فيه.

وقد ينتقل ذلك الأثر إلى غيره فيقتدي به، أو يتأثر به، كما ورد في حديث من أعطاه - صلى الله عليه وسلم - غنماً بين جبلين، وفيه ما يبين أثر الحوافز المادية بشكل أوضح مما سبق، فعن أنس: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ فَاتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، أَسَلِمُوا فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءً مَا يَخَافُ الْفَقْرَ. فَقَالَ أَنَسٌ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسَلِّمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسَلِّمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(١).

وظهر من الحديث أيضاً أن التحفيز المادي لمن أحسن بدخول الإسلام يعد حافزاً لمن لم يدخل بعد، وهو أمر مهم لمن تنبه له، ويقاس عليه ما يتعلق ببقية الأمور من الأعمال الدنيوية والأخروية.

خامساً: تبين في بعض الأحاديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - راعى الواقع في التحفيز المادي عندما أعطى يهود خيبر شرط الإنتاج لقلّة الأيدي العاملة من المسلمين ولكفاءة أهل خيبر في المجال الزراعي، وهذا صبّ في مصلحة المسلمين، وساهم في التقدم في المجال الزراعي والاقتصادي لهم، ولكن لم

١ - صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، ج ٤، ص ١٨٠٦.

يكن ذلك على حساب دينهم، حيث عندما تجاوز إلهود حدودهم أخرجهم عمر
ابن الخطاب كما ورد.

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على خير الخلق، وخاتمة الأنبياء والرسول، وبعد،،،

فهذه أهم ما توصلت إليه من نتائج لهذا البحث أجملها فيما يأتي:

ينت الدراسة مفهوم التحفيز المادي بأنه كل ما يولد الرغبة في فعل معين من وسائل مادية.

هناك اهتمام واضح بالجانب المادي في الكتاب والسنة، لكنه محدود وضيّق مقارنة بالتحفيز المعنوي؛ بسبب تأثير التحفيز المعنوي في الصحابة بشكل أكثر من التحفيز المادي. وتبين من خلال الدراسة أنّ التحفيز المادي يكون بسبب ظروف وحالات تستدعيه هي: حيث يضعف الايمان، أو مع قوي الايمان لكن في المواقف الخطيرة مثل: لقاء العدو، أو حين يتم إنجاز العمل بكفاءة وتميز، أو حين يساهم العمل في الرقي والتقدم.

ظهر التحفيز المادي في السنة النبوية في صور وأشكال متعددة تمثلت في: إعطاء الأموال والأجور، وزيادة أسهم الغنيمة، وإعطاء ملابس، وتخصيص نسبة من الإنتاج، وإعطاء الإبل والغنم، وإباحة سلب القتل لقاتله، وتمليك الأرض لمن أحيها.

أظهرت الدراسة أنّ سبب إبقاء يهود خيبر في مزارعهم هو كفاءتهم وقلة الأيدي العاملة من المسلمين.

إصلاح الأرض الميتة وإعمارها من الأمور المتميزة في الإسلام التي يكافأ عليه المسلم، مما يظهر مدى أهمية الزراعة وحاجة المجتمع إليها.

اتصاف المسلم بصفات قيادية من الأمور المتميزة التي ينبغي مراعاة التحفيز المادي فيها، والمكافأة عليها.

أظهرت الدراسة أهمية التهادي بين الناس، وأنه ينبغي تحفيز الناس عليه مادياً، اقتداءً بالنبي عليه الصلاة والسلام.

توصلت الدراسة إلى عدم وجود تعارض بين التحفيز المادي وبين الإخلاص في العمل.

تبين من خلال الدراسة سَبَقَ السَّنَةِ النبوية نظريات التحفيز الحديثة من حيث بيان أهمية التحفيز المادي وأثره.

تبين من خلال الدراسة نفع التحفيز المادي من حيث تأثيره في الناس، وخاصة في مجال الدعوة والإعلام، وأنَّ من كان يُعطى كان ينقل صورة حسنة عن أحوال المسلمين مما أسهم في دخول بعضهم في الإسلام.

والحمد لله ربّ العالمين

المصادر والمراجع

- اتجاهات الأفراد العاملين في المؤسسات الحكومية الاردنية نحو حوافز العمل، موسى اللوزي، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية، مجلد ٢٢، العدد ٦، ١٩٩٥ م، الجامعة الاردنية، عمان-الاردن.
- إدارة الموارد البشرية، خالد عبد الرحيم الهيتي، دار وائل للنشر، عمان-الاردن، ٢٠٠٥.
- إدارة الموارد البشرية، عبد القادر علاقي، دار خوارزم للنشر، جدة، ٢٠٠٧ م.
- إدارة الموارد البشرية، مصطفى نجيب شاويش، دار الشروق، عمان، ٢٠٠٥ م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد الحسيني، الملقب بمرتضى، الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- التحفيز، ماكس إيه ايجرت، ترجمة مكتبة جرير، ١٩٩٨ م.
- تهذيب الكمال، يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، المحقق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٨٠ م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (توفي ٣١٠)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ.
- الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، دار الشعب - القاهرة، ط ١، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: أحمد

- البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.
- الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، عبد العزيز ابراهيم العمري، ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م.
- الحوافز، عادل جودة، المنظمة العربية للعلوم الادارية، ١٩٨٧ م.
- الدرر في اختصار المغازي والسير، ابو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، تحقيق: شوقي ضيف، وزارة الاوقاف المصرية-المجلس الاعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م.
- سبل السلام، محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط ٤، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠ م.
- السلوك التنظيمي، محمد قاسم القريوتي، مطبعة البلاد، عمان - الاردن، ٢٠٠٤ م.
- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨ م.
- السنن الكبرى، البيهقي، أحمد بن الحسين، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة، مكتبة دار الباز، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ م.
- السيرة النبوية، ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ١٣٩٦هـ - ١٩٧١ م.
- السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد،

دار الجليل، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ.

- شرح صحيح البخارى لابن بطلال، أبو الحسن علي بن خلف بن بطلال القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - الرياض، ط ٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الصلة، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، الدار المصرية للترجمة والتأليف.
- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٣٩٨هـ.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين محمود العيني (توفي ٨٥٥هـ)، ضبطه وصححه عبد الله محمود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- الفروق اللغوية، العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة.
- قوة التحفيز، إبراهيم الفقي، ثمرات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ٢٠١١م.
- كيف تصنع نظاما للحوافز والمكافآت، جون فيشر، دار الفاروق للنشر والطباعة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر -

بيروت، ط ١.

- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ١٤١٥ - ١٩٩٥ م.
- المستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١١ - ١٩٩٠ م.
- المسند، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨١ م.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.
- المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار الفكر - بيروت، ط ١، ١٤٠٥ هـ.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، يحيى بن شرف، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٢، ١٣٩٢ م.